سلسلة شرح الرسائل

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

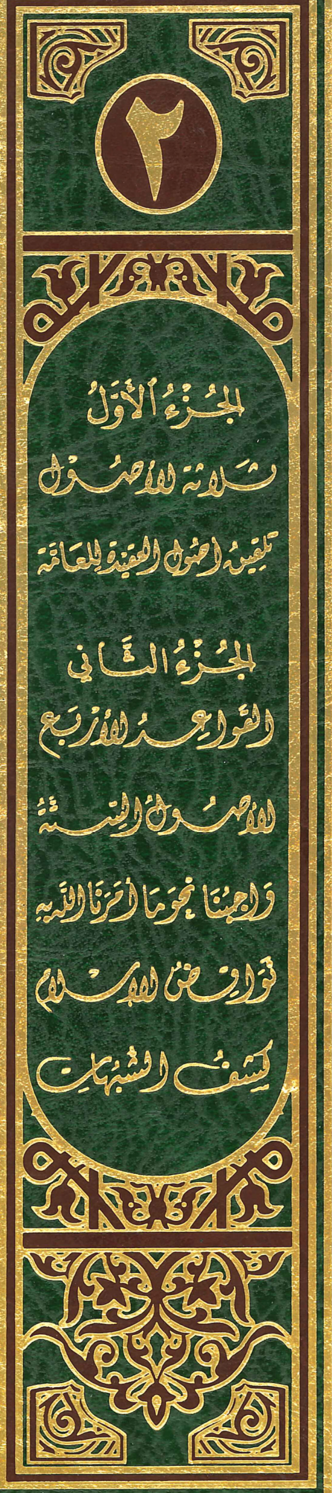
شرح

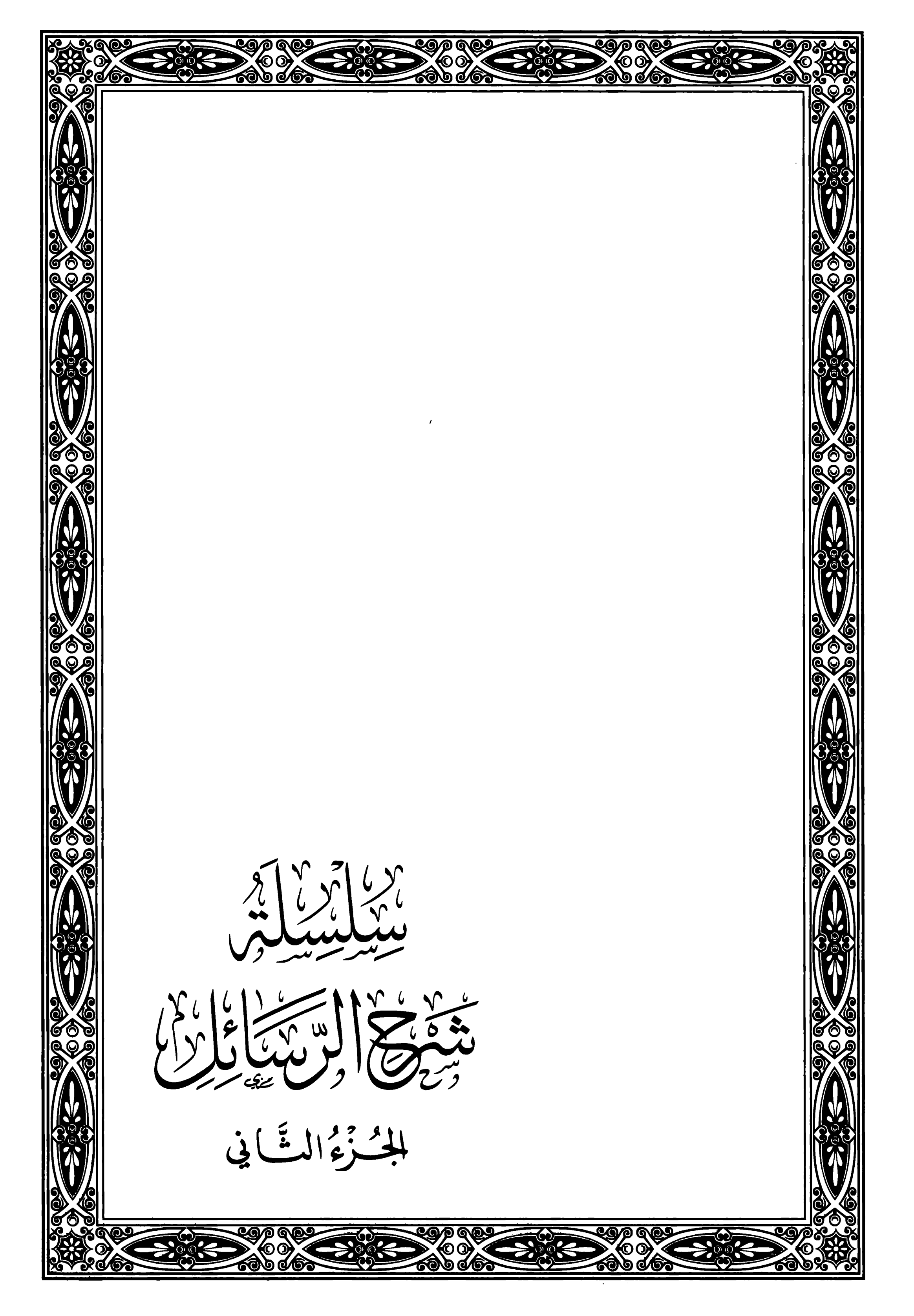
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

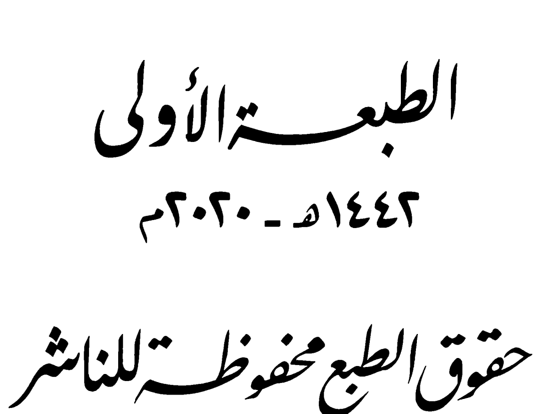
دار الفرقان للنشر والتوزيع





سلسلة شرح الرسائل

الجزء الثاني





دار الفرقان للنشر والتوزيع ٢٠٢٠/١٤٤٢

ردمك: ٠-٦١-٦١٦-٩٩٣١-٩٧٨

الإيداع القانوني: السداسي الثاني ، ٢٠٢٠

Dar Al-furquan Edition . 2020

ISBN : 978 - 9931 - 616 - 61 - 0

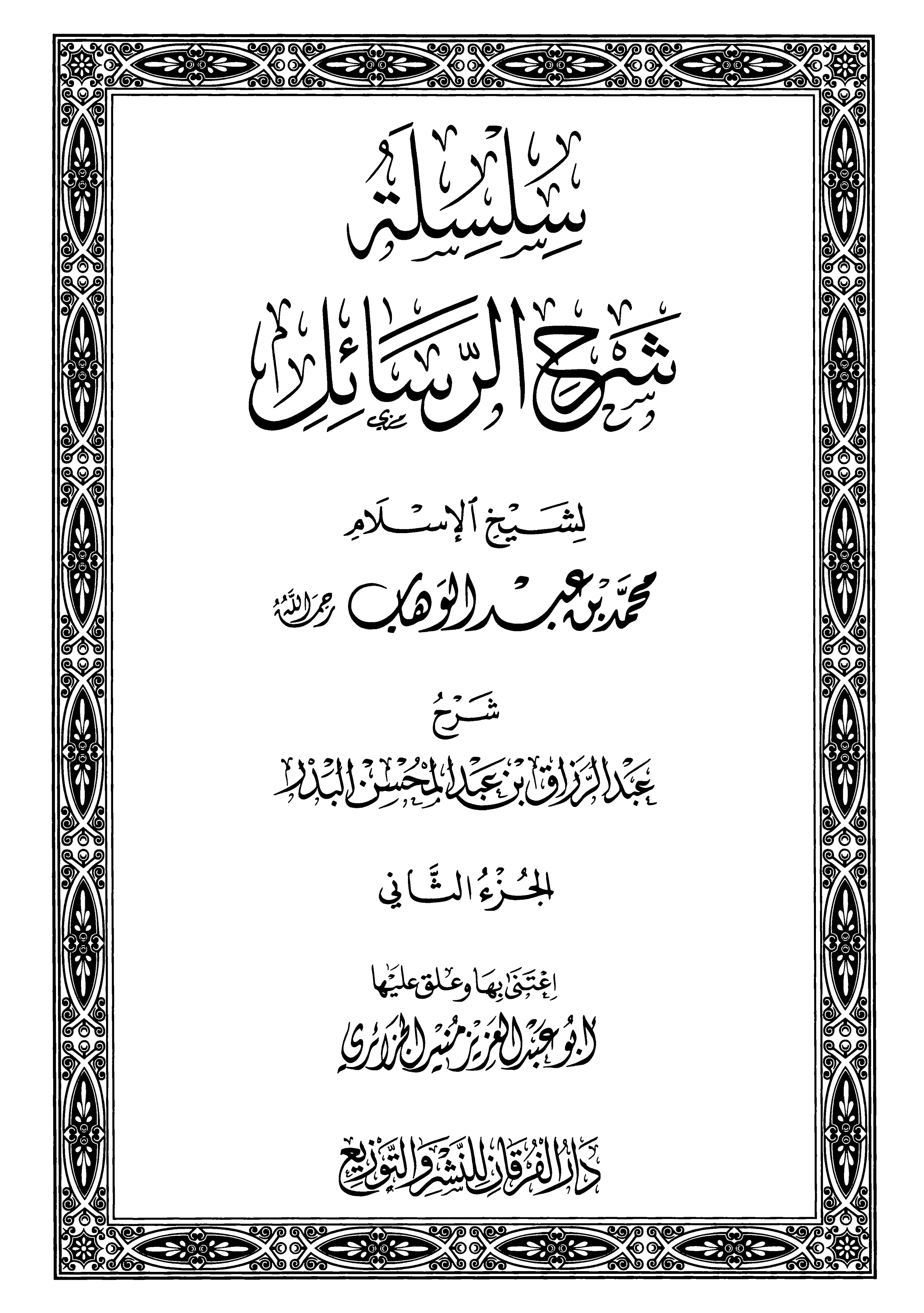
Dépôt Légal : 2eme semestre . 2020



20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)


|00213 (0) 556 96 58 10|

dar.alfurquan@gmail.com



سلسلة شرح الرسائل

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

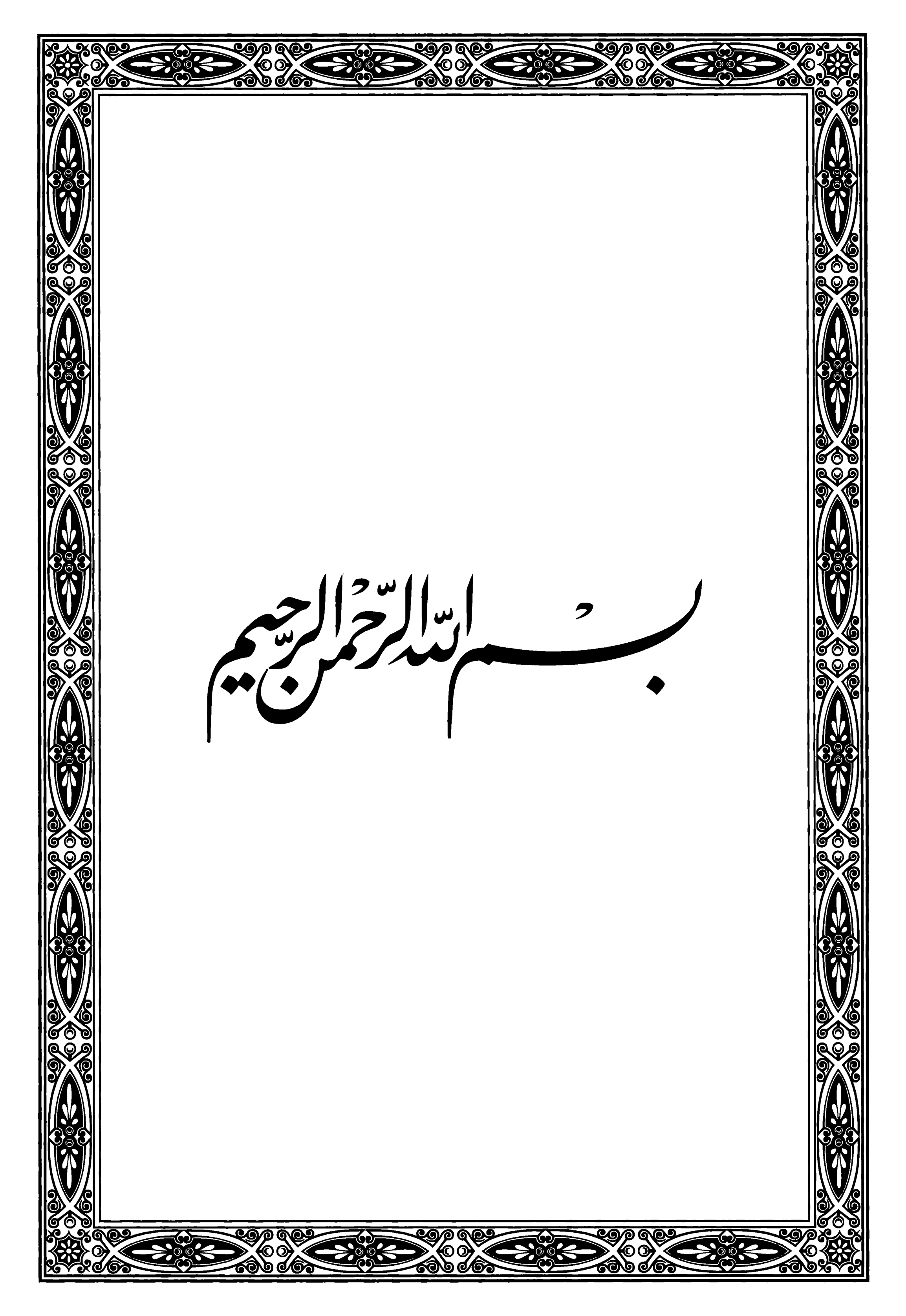
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

الجزء الثاني

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه شروح مفيدة لمتون العقيدة من تأليف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، قام بالتعليق عليها، وتوضيح معانيها، واستخراج فوائدها:

شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله تعالى.

ومن فضل الله علينا ومنته أن انتشرت هذه الشروحات بين طلبة العلم في أصقاع المعمورة بعدما طبعت متفرقة، وكنت قد أطلعت شيخنا حفظه الله عليها، ولله الحمد.

وقد رغب بعض الأفاضل في جمعها في مؤلَّف واحد للوصول إليها بكل يسر،

فما كان مني إلا الاستجابة لذلك، وها هي بين يدي القراء في طبعة فاخرة، جزى الله خيرا من كان سببا في إخراجها.

وأسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يتقبله، وأن ينفع به.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، أزكى صلواته، وأفضل سلامه، وأتمَّ تحياته.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

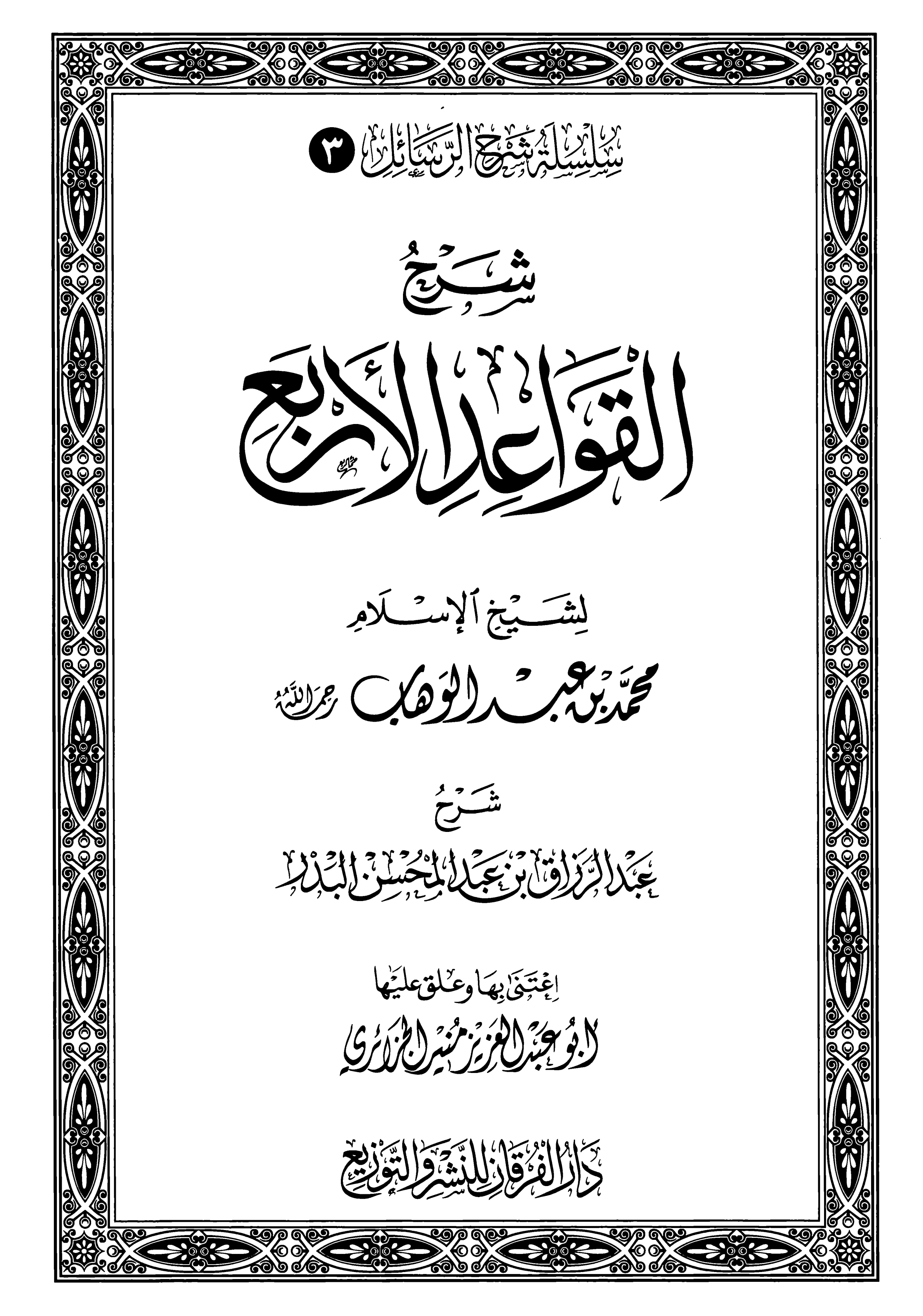
مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب:00213555903095





سلسلة شرح الرسائل ٣

شرح
القواعد الأربع

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

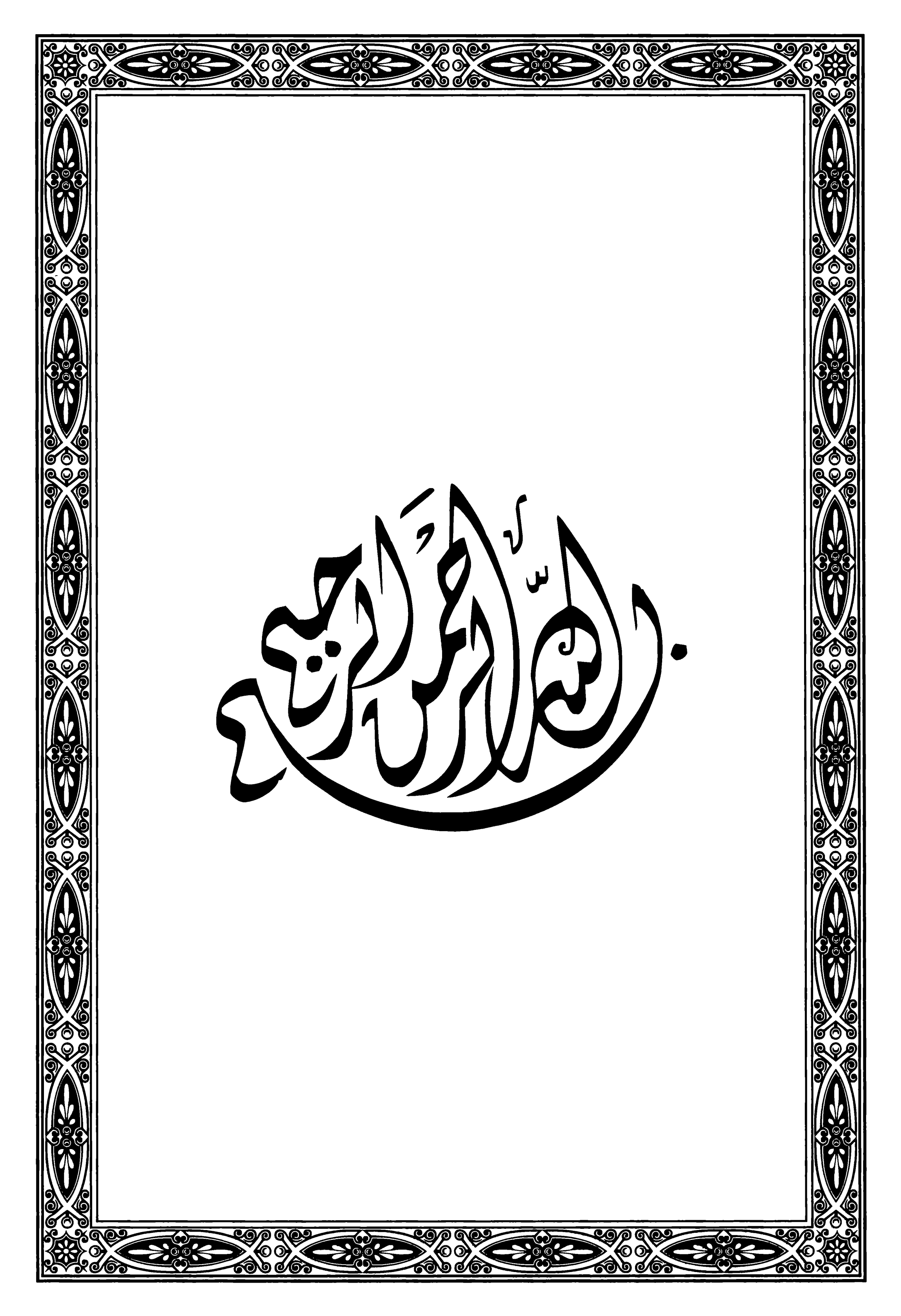
شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين



وتطاير الصُّحف، وفيه تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ونهاهم عن الشِّرك، ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة **(القَوَاعِد الأَرْبَع)**، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٢].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة

---

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095

✽ ✽ ✽ ✽ ✽



مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أمَّا بعد:

فقد كان الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- ناصحا للناس أعظم نصيحة في بيان التَّوحيد الَّذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، والتَّحذير من الشرك بالله ﷻ الَّذي هو أعظم الآثام وأكبر المُحرَّمات.

وتنوَّعت مصنفاته -رحمه الله تعالى- في بيان التَّوحيد وتقريره والتحذير من الشرك وإبطاله، وبيان فساده وبطلان شُبه أهله، فألَّف في ذلك مؤلفات كثيرة

نُصحًا للأمة وبيانًا للناس وإعذارًا وإنذارًا، فكان -رَحِمَهُ اللهُ- ناصحًا معلِّمًا مربيًّا موجهًا متمسكًا بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنة رسوله -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-[1].

وكان -رَحِمَهُ اللهُ- في بياناته وتقريراته للتَّوحيد والسنَّة ينطلق في ذلك كلّه من كتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنَّة رسوله ﷺ، سائرا في ذلك على سَنَن الصَّحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، فهو ماضٍ على طريقهم، وعلى الأثر في الاقتفاء والاتَّباع لكتاب الله جَلَّ وَعَلَا وسنَّة رسوله ﷺ.

ولهذا كانت كتبه كلّها قائمة على الدَّليل؛ قال الله، قال رسوله ﷺ.

ولا يأتي بشيء من قِبل نفسه أو يُنشئ أمرا تكلفا من عنده، حاشاه وحاشا أئمة المسلمين وعلماء السنَّة أن يكونوا كذلك، بل كان -رَحِمَهُ اللهُ- في تقريراته وتأصيلاته وتقعيداته منطلقا في ذلك كله من الوحيين.

---

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رَحِمَهُ اللهُ- مبنيَّةٌ على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وبيان العقيدة السليمة المستمدَّة من هذين الينبوعَين الصافيين، ولهذا كانت الأولويات في التأليف عنده في بيان العقيدة، والعناية بمعاني كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعرفة أحاديث الرسول ﷺ، وبيان الأحكام الفقهية المستندة إلى النصوص الشرعية، وكان أولى اهتمامه وجلُّ عنايته في إيضاح توحيد العبادة الذي أُرسلَت الرسل وأُنزلت الكتبُ من أجله، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾[الأنبياء]، فألَّف في التوحيد كتبًا عديدة، أهمها (كتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد)، وكتاب (الأصول الثلاثة وأدلتها)، وكتاب (كشف الشبهات)» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٣).

وقد تنوَّعت مصنفاته -رحمه الله تعالى- في بيان التَّوحيد وتقريره والتَّأصيل له وجمع الشواهد والدَّلائل عليه من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وكان من عنايته -رحمه الله تعالى- بهذا الباب العظيم هذه الرسالة الصَّغيرة الحجم الكبيرة الفائدة، الَّتي لا يستغني عنها كلّ مسلم، فهي بحق رسالة عظيمة وكُتيِّب قيِّم في بابٍ هو أعظم الأبواب، وقد جمع -رحمه الله- في هذه الرسالة أربع قواعد وذكر أدلتها من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ، فكان مَن ضَبط هذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشتبه عليه الشُّبه، ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضَّلال وأباطيل أهل الباطل.

فهي أربع قواعد عظيمة لا غنى لأي مسلم عنها في باب معرفة التَّوحيد والشرك، والتَّمييز بين الحق الَّذي هو التَّوحيد، والباطل الَّذي هو الشرك.

ولقد أصبح معرفة التَّمييز بين التَّوحيد والشِّرك ضرورة ملحَّة ولاسيما في مثل هذه الأزمنة المتأخِّرة الَّتي لُبِّس على كثير من النَّاس في مفهوم التَّوحيد، وأُدخلت عليهم صورا من الشرك وأبوابا منه على أنَّها ليست مضادة للتَّوحيد ولا منافية له.

فمن أعظم الضرورات وأشد الحاجات الَّتي ينبغي على كلِّ مسلم ومسلمة أن يُعني بها: أن يعرف هذه القواعد العظيمة الكبار الَّتي قرَّرها أئمة الإسلام -رحمة الله عليهم- ليميِّز بها المسلم بين الشِّرك والتَّوحيد، والسنَّة والبدعة،

وحتَّى يكون المسلم على بصيرة في دينه وعلى بيِّنة من أمره وعلى نور من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه -صَلَّوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

وأسأل الله أن يتقبَّل هذا العمل وأن ينفع به، وأن يجعله خالصا لوجهه، إنه سبحانه خير مسؤول، وهو أهل الرَّجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ.

فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ».

[الشرح]

بدأ -رحمه الله تعالى- هذه الرسالة كعادته في كتبه عمومًا ورسائله بالدعاء لمن يطلع على كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو -﵀- بدعوات عظيمة؛ دعوات جامعة تجمع للمسلم خيري الدنيا والآخرة[1].

وهذا كذلك من نصحه -رحمه الله تعالى- ومن شفقته على الناس عمومًا ليتبصَّروا في دينهم، وليعرفوا الحق الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، وليكونوا على حذر من الضلال والباطل.

بدأ هذه الرسالة بقوله: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» وهذه كلمة يُبدأ بها في

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين ﵀:«وصنيع المؤلف رحمه الله تعالى يدل على عنايته وشفقته بالمخاطب وقصد الخير له» «شرح ثلاثة الأصول» (ص١٩).

الدروس والمقالات والكتب والرسائل، وهي مفتاح يُبدأ به طلبًا لعون الله ﷻ وتوفيقه وتسديده.

فقولك: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» هذه كلمة استعانة؛ تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك أو غير ذلك مما بسملتَ لأجله، تبدؤه بالبسملة طالبًا بذلك عون الله ﷻ، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: الباء في (بِسْمِ اللهِ) باء الاستعانة؛ أي: أبدأ مستعينًا بالله، طالبًا عونه ﷻ، متمنيًا وطالبًا البركة بذكر اسمه ﷻ.

وقولك: (بسم الله) الجار والمجرور هنا متعلق بمحذوف مقدَّر، يقدَّر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجا فيقدر: أخرج باسم الله، وإن كان دخولا: أدخل بسم الله، وإن كان كتابة: أكتب بسم الله، وإن كان قراءة: أقرأ بسم الله.

وفي البسملة: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» اجتمعت ثلاثة أسماء حسنى لله ﷻ:

أولها اسمه ﷻ (الله): ومعناه كما قال ابن عباس ﷺ: «الله: ذو الألوهية، والعبودية على خلقه أجمعين»[1].

فاسمه ﷻ (الله) يدل على أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة، التي استحق بها -ﷻ- أن يُؤله وأن يُعبد وأن يُخضع له ويُذل -ﷻ-.

ودال أيضا على العبودية التي هي وصف العبد، وأن الواجب على العبد أن

(١) «تفسير الطبري» (١/ ١٢٣).

يكون عبدا للإله، ذليلا له، خاضعا لجنابه، منكسرًا بين يديه، قائمًا بطاعته وأمره -ﷻ-، محققًا العبودية التي خُلق لأجلها وأُوجد لتحقيقها.

و(الرَّحْمَن الرَّحِيم): اسمان دالاَّن على ثبوت الرحمة صفةً لله ﷻ؛ واسمه -ﷻ- (الرَّحْمَنِ) يدل على صفة الرحمة القائمة به سبحانه.

واسمه (الرَّحِيم): دال على تعلقها بالمرحومين، كما قال -ﷻ-: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب:٤٣].

فهذه ثلاثة أسماء عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها -رحمه الله تعالى- مؤلِّفه تأسيًّا بكتاب الله ﷻ، وتأسيًّا بنبينا ﷺ في مُكاتباته ومُراسلاته -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُه عَلَيْه-، وتأسيًّا بأئمة المسلمين وعلماء الإسلام في أول الزمان وآخره.

قال رحمه الله: «**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»؛

(**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ**) أي: أطلب منه ﷻ.

(الكريم): اسم من أسماء الله -ﷻ- وهو دال على صفة الكرم؛ وهذه الصفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامل الصفات وجوامع النعوت.

فهو سبحانه كثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم في آيات عديدة، ولهذا؛ فإن هذا الاسم من الأسماء التي تدل على أوصاف عظيمة لا على معنى مفرد، فمن الأسماء الدالة على أوصاف عظيمة ونعوت جليلة كثيرة، ثابتة للرب الكريم -ﷻ-[1].

---

(١) انظر «فقه أسماء الله الحسنى» (ص٢٢١)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

قال: «**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**».

(**رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**): ذكر هنا ربوبية الله ﷻ، والربوبية: هي المُلك والخلق والتصرف والتدبير في هذه الكائنات.

وخصّ بالذكر هنا العرش -ربوبية الله ﷻ للعرش- لأنه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله ﷻ وصف عرشه في القرآن الكريم بالعظمة والكرم والمجد، وجاءت أيضا أوصاف كثيرة له في سنة النبي الكريم ﷺ، فذكر المصنف -رحمه الله تعالى- هنا ربوبية الله ﷻ للعرش، وخصَّه بالذكر لأنه أكبر المخلوقات وأعظمها.

ويأتي في بعض الأذكار والدعوات الثابتة عن النبي ﷺ ذكر ربوبية الله للعرش، ويخصُّه ﷻ بالذكر، كما في الذكر الذي يقال عند الكرب: «لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»(١).

وكما أيضا في الدعاء الذي يقال عند النوم: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ، وَرَبَّ الأَرْضِ، وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرِاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ...»(٢) إلى آخر الدعاء، فيأتي مثل ذلك في دعوات النبي الكريم ﷺ.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله -ﷻ- العظيمة، وهو أكبر المخلوقات

---

(١) رواه البخاري (٦٣٤٦)، ومسلم (٢٧٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

وأعظمها، ولهذا لما أراد ﷺ في تسبيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان ذكر العرش، فقال ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»(١).

ذكر ﷺ زِنة العرش؛ لأن العرش أثقل المخلوقات وأكبرها وأعظمها، وهو مخلوق لله ﷻ، خلقه سُبْحَانَهُ، وأوجده من العدم، وشاء ﷻ أن يستوي عليه، أي يعلو ويرتفع عليه علوًّا وارتفاعًا يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه، كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

وكم هو جميل للمؤمن في دعائه لله -ﷻ- ومناجاته له، أن يذكر عظمة ربه -ﷻ- وكماله وكبرياءه، وعندما تناجي الله ﷻ وتدعوه متذكرًا ربوبيته ولاسيما ربوبيته -ﷻ- للعرش العظيم، وتذكر عظمة هذا المخلوق وكِبَره وضآلة المخلوقات الأخرى بالنسبة إليه، مما يُعينك على ذكر عظمة الله -ﷻ- وكبريائه.

وأن هذا الكون الذي تحت العرش ودونه كله مسخر ومدبَّر لله ﷻ، يصرِّفه كيف يشاء ويقضي فيه بما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، وهو ﷻ فوق عرشه المجيد، عليٌّ عليه، يقضي بما يشاء ويحكم بما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، يُحي ويُميت، ويُعز ويُذل، ويُغني ويُفني، ويُضحك ويُبكي، ويُصح ويُمرِض.. إلى غير ذلك من

---

(١) رواه مسلم (٢٧٢٦).

الأمور التي هي تصريفه وتدبيره لمملكته ﷻ، لا شريك له في التدبير ولا شريك له في التسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحُكم حُكمه -ﷻ-.

فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيته، ويجعل ذلك وسيلة له إلى الله ﷻ بين يدي دعائه في مناجاته لله، ومناداته له -ﷻ-.

ولهذا قال -رحمه الله-: «**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**».

يَحتمل قوله: (**الْعَظِيم**) أن المراد بالعظيم صفة لله ﷻ، ويَحتمل أن يكون صفة للعرش، وكلٌ منهما حق؛ فالله ﷻ من أسمائه الحسنى (**الْعَظِيم**)، وقد خُتمت أعظم آية في القرآن الكريم وهي «آية الكرسي» بهذا الاسم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فالعظيم اسم من أسماء الله، والعظيم أيضا صفة من صفات العرش، فيحتمل هذا ويحتمل ذاك.

«**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمَ**»: يكون العظيم صفة لله ﷻ.

و «**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**»: يكون العظيم بهذا صفة للعرش.

قال: «**أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**» هذا هو المطلوب وما قبله وسيلة بين يديه: المطلوب قال: «**أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»، أي أن يكون وليًّا لك، في دنياك وأخراك، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ يتولاك في الدنيا: أي بحفظه وتوفيقه وتسديده وعونه لك على طاعته وإخراجه لك من الظلمات إلى النور، وتبصيرك في دينك و في الحق الذي خُلقت لأجله وأُوجِدت لتحقيقه، وأن يُثبِّتك على هذا الحق، وأن يعيذك من الضلال وسبل الغواية، كل ذلك يتناوله قوله: «**أَنْ يَتَوَلَّاكَ فِي الدُّنْيَا**»؛ فتولي

الله ﷻ لعبده في الدنيا بحفظه في هذه الدنيا من مضلات الفتن وتثبيته لعبده على الاستقامة والحق والهدى وعلى صراط الله المستقيم إلى أن يتوفاه ﷻ وهو عنه راض.

قال: «**وَالآخِرَةِ**»؛ وتولي الله ﷻ لعبده في الآخرة: يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النار ومن دخولها، وتوفيقه له بدخول الجنة والفوز بنعيمها، وأن يكرمه ﷻ بأعظم نعمة وأجلِّ مِنة وهي أن يرى الله ﷻ؛ وهي أكبر النعم وأعظم المنن.

فكل ذلك داخل في قوله -رحمه الله تعالى-: «**وَالآخِرَةِ**»، أي أن يتولاك ﷻ في الآخرة؛ بأن يكون وليًّا لك، بالحفظ والتوفيق والتسديد والعون.. إلى غير ذلك.

قال: «**وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ**»؛ وهذه دعوة من أعظم الدعوات وأجلِّها وأفخمها وأكبرها، قد قال الله تعالى في ذكر نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، ولا يكون الإنسان مباركا أينما كان إلا إذا كان في مجالسه كلها صالحا مصلحا، صالحا في نفسه ليس منه شر ولا أذى ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحا بحيث أنه في كل مجلسٍ من مجالسه يُسمع منه الخير، وتُسمع منه الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، والتنبيه النافع، ونحو ذلك.

ولهذا قال الإمام ابن القيم ﵀: «فإن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل، ونصحه لكل من اجتمع به»[١].

وبهذا يكون مباركا أينما كان، أي في أيّ مكان حلَّ وفي أيّ موضع نزل، فهو أينما كان يُنتفع به، مَثَله كمَثل الغيث أينما حلَّ نفع.

قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وهذا يتناول أن يكون العبد مباركا أيضا في نفسه، في ماله، ورزقه، وعمله، وبيته، وحاله، وشؤونه.

قال: «**وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ**»؛ دعا بهذه الأمور الثلاثة العظيمة التي جمعت الخير كله والسعادة برمتها[٢].

ولهذا قال -﵀- في خاتمة هذه الدعوة مُبيِّنا مكانتها وعظم شأنها، قال: «**فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ**»؛ أي أن السعادة اجتمعت فيها، وتحققت، ونالها بأعلى صورها وأبهى حللها.

والسعادة من أعظم المطالب التي يسعى الناس لتحقيقها، وتعقد المؤتمرات والندوات والمجالس وتكتب المؤلفات لطلب السعادة، وليس أحد من الناس إلا وهو يريد لنفسه السعادة، حتى الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنون أنها تجلب لهم السعادة وأنها تتحقق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضار عليهم في دنياهم وأخراهم.

فالسعادة لا تُنال إلا بتحقيق هذه الأوصاف الثلاثة التي ذكرها -رحمه الله

---

(١) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٥).

(٢) انظر «الوابل الصيب» (ص١١).

تعالى- في هذه الدعوة المباركة العظيمة: الشكر والصبر والاستغفار، فهذه الأمور إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السعادة وتحققت له.

قال: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبرَ، وَإِذَا أَذنبَ اسْتَغْفَرَ»، ولو تأملت تجد أن أحوال العبد في هذه الحياة الدنيا لا تخرج عن هذه الأمور الثلاثة؛ إما أن يكون مبتلى بمصيبة، أو أن يكون ممتنٌّ عليه بنعمة ومنة، أو أن يكون واقعا في ذنب.

والواجب على العبد أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على أن يكون عند البلاء من الصابرين، وعند النعم من الشاكرين للمنعم ﷻ، وعند وقوعه في الذنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك جمع لنفسه الخير كله.

فقد قال ﷺ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

فالمؤمن عند المصيبة صابر وعند النعمة شاكر، في المصائب يفوز بثواب الصابرين، وفي النعم يفوز بثواب الشاكرين، فهو فائز في كلا الحالين، في مصائبه فائز وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصابرين وفي نعمه فائز بثواب الشاكرين.

والأمر الثالث قال: «وَإِذَا أَذنبَ اسْتَغْفَرَ»؛ أي إذا وقع في الذنب بادر إلى الاستغفار، ويعلم أن الله ﷻ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات، ولا يتعاظمه

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

-ﷻ- ذنب أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه، فإنه يبادر بالأوْبة والرجوع إلى الله ﷻ.

وقد ذكر النبي ﷺ قصة العبد الذي أذنب ذنبا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِي ﷺ فِيمَا يَحْكِى عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي.

فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[(١)]،

قوله ﷺ: «اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك»؛ أي ما دمتَ على هذه الحال؛ ملازمًا للاستغفار، مجاهدا نفسك على أن لا تقع في المعصية وأن لا تقع في الخطيئة، وإن بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلى الاستغفار، ما دمت على هذه الحال فأنت مغفور لك.

وقد قال ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[(٢)]؛ ابن آدم ليس معصوما، ابن آدم خطاء، لكن له ربٌّ يغفر -ﷻ- ويتجاوز ويصفح ﷻ.

ولهذا؛ إذا وقع العبد في ذنب جرَّته إليه نفسه الضعيفة ودعاه إليه الشيطان، أو

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٣٩).

جرَّه إليه قرناء السوء وخلطاء الفساد أو أغوته نفسه للوقوع فيه، عليه أن يعلم فورا أن له ربًّا يغفر الذنب ويتجاوز عنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر]، فلا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر ويتجاوز ويصفح -ﷻ-، وأما ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزلل، ودواعي الخطأ كثيرة جدا، وقد قيل: «لا تعجب ممن هلك كيف هلك؛ ولكن اعجب ممن نجا كيف نجا»[١].

الأمور التي تجرُّ الإنسان إلى الخطأ كثيرة جدا، لكن لا يزال العبد بخير مادام يعلم أن له ربًّا يغفر، لهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه على البعد عن الذنوب وعدم الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلة أو وقع في خطيئة بادر إلى التوبة والاستغفار.

ومن عظيم حب الله ﷻ للاستغفار والمستغفرين ما ثبت عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»[٢].

ولهذا؛ ربما كانت بعض الذنوب على الإنسان خير له، لأنها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير، ربما بدون هذا الذنب يقل استغفاره، لكنه يقع في ذنب وزلة ثم يقع في قلبه حياء عظيم من الله ﷻ ومراقبة لله وألم وندم على

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٩).

ما وقع فيه من ذنب وخطيئة فيكثر على لسانه الاستغفار كثرة ربما لا تكثر على لسانه لولا أنه ما وقع في هذا الذنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير مادام أنه إذا أذنب استغفر(١).

ولهذا؛ قال ﷺ: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ».

الذنب في ابن آدم لا بد منه، أي لا بد أن يقع فيه، وذنوب الإنسان قد تكون كثيرة، ولهذا ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار.

وقد كان سيد ولد آدم أكثر الناس استغفارا وليس في عباد الله أكثر استغفارا من

---

(١) قال الإمام ابن القيم ﷺ: «فإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار، والذل والافتقار، والاستعانة به وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه، بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول عدو الله: (يا ليتني تركته ولم أوقعه).

وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف ؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه؛ حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها، ويرى نفسه ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه؛فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرا ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه»«الوابل الصيب» (ص١١).

رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولكنه مع ذلك كان أكثر الناس استغفارا، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحدا أكثر من رسول الله ﷺ يقول: أستغفر الله وأتوب إليه»(١)، وقد رأى أبو هريرة عُبَّاد الصحابة وخيار الأمة وأكثر الناس استغفارًا وما رأى في ذلك الجيل أكثر من النبي عليه السلام ملازمة للاستغفار.

فكان عليه السلام ملازمًا للاستغفار في حياته كلها، حتى إنه ختم حياته كلها بالاستغفار؛ كما جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَهْوَ مُسْتَنِدٌ إِلَيَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى»(٢).

الشاهد أن العبد تتحقق له السعادة إذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاث العظيمة، ألا وهي: الصبر والشكر والاستغفار.

ولعل في هذه الدعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنف -رحمه الله- أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهذه الأمور الثلاثة التي هي عنوان السعادة: الصبر والشكر والاستغفار، بحيث تكون مجاهدا لنفسك على تحقيقها؛ وإذا كان صبرك ضعيفا فاجتهد في تنميته واسأل الله جل جلاله المعونة على ذلك، وإذا كان شكرك قليلا فاجتهد أيضا على تكثيره وتقويته واسأل الله عز وجل المعونة على ذلك،

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٢٨)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٩٢٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢١٩١).

قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩]، لا تكون شاكرًا لله ﷻ إلا إذا أعانك الله ويسَّر لك، وأن تعتني بالاستغفار وأن تكثر منه، وأن يكون استغفارك في مجالسك وفي تنقلاتك وفي حركاتك استغفرًا كثيرًا.

فهذه كما أنها دعوة فهي لفتة من المصنف -رحمه الله- إلى العناية بهذه الأمور الثلاثة التي هي أبواب السعادة.

وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولى: أن تدعو لنفسك بهذا الدعاء أن ييسر الله لك -عز وجل- هذه الأمور الثلاثة، التي هي عنوان السعادة.

والأمر الثاني: أن تُتْبع الدعاء بفعل السبب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك على أن تكون من الذين إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم عليهم شكروا، وإذا أذنبوا استغفروا.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ؛ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُم لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلَاةً إلا مَعَ الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦].

وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ».

[الشرح]

قال -رحمه الله تعالى-: «اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ».

(اِعلم): هذه الكلمة يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرر مجيئها في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في التنبيه على الأمور العظام، ومن ذلكم

قوله ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد:١٩]، فيؤتى بها لشد الانتباه ولفته واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هذه الأمور العظيمة الكبيرة.

قال: «**اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**»، وهنا دعا الإمام رحمه الله بهذه الدعوة العظيمة بعد أن دعا إلى الانتباه لما سيقال ولما سيُبيِّنه -رحمه الله تعالى-.

(**أَرْشَدَكَ**): أي جعلك من أهل الرشاد، الذي هو ضد الغواية، وقد قال الله ﷻ في وصف نبيه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[النجم:٢]، والضلال ضده الهداية، والغواية ضد الرشاد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي أنه سالم من الضلال والغواية، وذلك بأنه اجتمع له ﷺ كمال العلم النافع، والعمل الصالح.

وقد قال نبينا ﷺ في ذكر الخلفاء الراشدين: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ**»(١)، جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعنيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله.

الهداية: صلاح العلم.

والرشاد: صلاح العمل.

قال: «**أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**» أي: جعلك الله من أهل الرشاد الذين هم عالمون بالطاعة، عاملون بها، محافظون عليها.

«**أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**»، هذا الأمر

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٥٧).

الذي دعا -رحمه الله- الانتباه إلى ضبطه والعلم به ومعرفته؛ أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصا له الدين، فهذه هي ملة أبينا إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ.

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣]، فمِلَّة إبراهيم التي أُمرنا باتباعها هي: الحنيفية، وتأمل الآية، قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، فالدين الذي أُمرنا باتباعه ولزومه هو الحنيفية ملة إبراهيم، ولهذا كان متأكِّدا على كل مسلم أن يعرف الحنيفية ما هي، لأننا أُمرنا باتباعها ولزومها والتمسك بها والمحافظة عليها وأن نكون من أهلها.

قال: «اِعْلَمْ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»، هذه هي الحنيفية: أن تعبد الله مخلصًا له الدين، ولهذا لا يكون الإنسان حنيفًا إلا إذا كان مخلصًا، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة:٥]، لا يكون من الحنفاء -والحنفاء جمع حنيف- إلا إذا كان مخلصًا دينه لله تبارك وتعالى، بدون ذلك لا يكون حنيفًا.

والحَنَف: أصله في اللغة: الميل[1]، والمراد هنا: الميل والعدول عن الباطل إلى الحق، والهدى والتوحيد والاستقامة؛ مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن

(١) «لسان العرب» (٩/ ٥٦)، «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١١٠).

الضلال إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، وعن الغواية إلى الرشاد، هذا هو الحنيف(١).

قال: «**الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**»، وقوله أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، هذا هو التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأُوجدنا لتحقيقه.

ولهذا قال المصنف -رحمه الله-: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**[الذاريات:٥٦]**»، فالتوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأُوجدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله تبارك وتعالى مخلصين له الدين.

وهذا يتطلب منك أن تعرف:

أولا: العبادة ما هي، وما حقيقتها، وما أفرادها؟

ويتطلب منك ثانيا: أن تجعلها كلها لله، ولا تجعل لأحد منها شيئا.

يتطلب منك أن تعرف العبادة التي خُلقت لأجلها وأُوجدت لتحقيقها، ويتطلب منك أن تجعل العبادة كلها لله سبحانه وتعالى، لا تجعل لأحد أيًا كان ومهما كان حظًّا ولا نصيبًا، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لغيرهما، فالعبادة حق لله تبارك وتعالى وحده.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَ (الْحَنِيفِيَّةُ) هِيَ الِاسْتِقَامَةُ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُبَّهُ تَعَالَى وَالذُّلَّ لَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا لَا فِي الْحُبِّ وَلَا فِي الذُّلِّ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْحُبِّ بِغَايَةِ الذُّلِّ؛ وَذَلِكَ لَا يَسْتَحِقُّهُ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، وَكَذَلِكَ الْخَشْيَةُ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ» «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٦٦).

قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا»، ومعنى (مخلصًا): أي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنى خالصة: أي صافية نقية[1]، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء ولا سمعة، ولا نحو ذلك، بل هي صافية لله ﷻ.

وإذا أردت أن تعرف معنى الإخلاص في لغة العرب فاقرأ قول الله تعالى في ﴿سورة النحل﴾، والتي تسمى كذلك ﴿سورة النِّعم﴾، اقرأ قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦]، (خالصًا): أي صافيًا نقيًا، هذا معنى الخالص.

وقد وصف ربنا ﷻ اللبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنه خالص في صفائه ونقائه، وذكر ﷻ أنه أخرجه من بين فرث ودم، لكنه خرج خالصا لا ترى فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنه خرج من بينهما، ويخرج أيضا سائغا للشاربين، مع أنهم علموا مخرجه؛ لكنه سائغ لهم، أي يشربونه بتلذذ وهناءة وتطعُّم له وحُبٍّ له، فهذه الآية تبين لك معنى الخالص في لغة العرب.

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]، وقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[الزمر:٣]، أي: الصافي النقي.

ولهذا؛ العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلا إذا كانت لله خالصة، ومعنى خالصة أي صافية نقية، لم يُرَد بها إلا الله ﷻ.

ولهذا؛ إذا خالط العبادة نية أخرى فإنها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت

---

(١) قال ابن فارس ؒ: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيء وتهذيبُه. يقولون: خلَّصتُه من كذا وخَلَصَ هو»«المقاييس في اللغة» (٢/ ٢٠٨).

عن الإخلاص لم تُقبل، ولهذا قال ربنا ﷻ في الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ ﷻ أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)، أي أنه ﷻ لا يقبل العمل إلا إذا كان صافيا نقيا خالصًا لم يُرَد به إلا الله ﷻ.

قال: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]**»؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾ -الخَلقُ فعله ﷻ- قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ أي لم يوجد الثقلين من العدم إلا لغاية بيّنها ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

فمعنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليوحدون في العبادة، ليخصوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليفردوني في العبادة(٢).

وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ العبادة فعل العبد، والله ﷻ جعل في العبد مشيئة، وهداه النجدين؛ طريق الحق وطريق الضلال، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[النحل:٣٦]، فقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليقوموا بعبادتي، هذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلهم فعل ذلك الذي خُلِقوا له؟

الجواب: لا؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[النحل:٣٦].

قال: «**فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إلا**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٥٥).

مَعَ **التَّوْحِيدِ**»؛ وهذا أصل لا بد أن يعرفه كل مسلم، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: وَحِّدُوا رَبَّكُمْ»[1]، لأن العبادة لا تكون عبادة إلا بالتوحيد.

والعبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غيره -تبارك وتعالى- معه في العبادة فلا تكون عبادة التي خلق الله الخلق لأجلها، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، هذه العبادة التي خلق الله عز وجل الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من الناس؛ يسألون الله ويسألون الأحجار، يعبدون الله ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها، هل هذا الذي خُلقوا لأجله؟ هل هذا المعني بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ حاشا وكلاً، هذا ليس عبادة وإنما هو شرك بالله والعياذ بالله.

ونظَّر -رحمه الله- لذلك بمثال يوضح ذلك قال: «**فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ**»؛ لو أن إنسانا صلى؛ ركع وسجد وأتى بأعمال الصلاة من أولها إلى آخرها وهو على غير طهارة، هل يقال له صليت أو يقال له لم تصل؟

يقال له: ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ، أي لم تصلِّ الصلاة التي أُمرت بها وطُلبت منك، فالذي يصلي بغير طهارة كأنه ما صلى، فصلاته وجودها وعدمها سواء، لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع الطهارة[2]، والعبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا كانت العبادة قائمة على التوحيد كانت عبادة صحيحة مقبولة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٤٥١).

(٢) لأن الطهارة من «شروط الصلاة:

وإذا كانت العبادة ولو كانت كثيرة أمضى فيها الإنسان حياته ودهره إذا لم تكن قائمة على التوحيد، فإنها كلها تذهب سدى وتضيع هباء كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف].

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه؛ العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاة إلا بالطهارة، فمن عبد الله بغير التوحيد فهو مشرك بالله، لا يقبل الله ﷻ عبادته، ومن عبد الله ﷻ بالصلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود صلاته وعدمها سواء.

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يضبطه وأن يعتني به؛ وهذا يعني أن تعرف العبادة ما هي.

والأمر الثاني: أن تجعلها كلها لله؛ لأن الإنسان لو جعل لغير الله ﷻ شيئا من

الشروط جمع شرط، والشرط هو الذي يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود، والمعنى أنه يلزم من كون الإنسان غير متطهر ألا تصح له صلاة، لأن شرط الصلاة الطهارة، لقوله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» رواه البخاري (٦٩٥٤) ومسلم (٥٣٧) عن أبي هريرة.

وقد يتوضأ الإنسان ثم يحدث دون أن يصلي صلاة بذلك الوضوء، فلا يلزم من وجود الطهارة وجود الصلاة» «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب» (ص٤)، للشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله.

العبادة ولو شيئا قليلا أبطل دينه كله، لأن العبادة لا تكون عبادة إلا مع التوحيد، فإذا جُعل مع الله ﷻ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها أبطل العبادة كلها.

والشرك في العبادة مثل السّم في الطعام، إذا وُضع السّم في بعض الطعام أفسد الطعام كله وأتلفه أجمعه، ومَن الذي يقبل طعامًا وُضع في بعضه سمّ؟

العبادة لا تكون إلا مع التوحيد؛ بأن يكون العبد موحدًا لله ﷻ، مخلصا في عبادته كلها، وهذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجك لله، ذبحك لله، نذرك لله، دعاؤك تتوجه به إلى الله، توكلك على الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كل العبادات لا تصرف شيئا منها إلا لله ﷻ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

قال: «**فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ**»؛ الشرك إذا دخل في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة، الإنسان إذا كان على طهارة، توضأ وأصبح طاهرا ثم أحدث فلا تبقى طهارته.

وكذلك الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل على الطاهر فإنه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهر من جديد.

وهذا الشبه بين الطهارة من الحدث والطهارة من الشرك جاء الإشارة إليه في قوله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾؛ قيل في معناها: طهر نفسك من الشرك ومما ينقض الدين ويفسد الإيمان، وقيل في معناه: طهر ثيابك من النجاسة الحسية.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: يتناول الطهارة المعنوية والطهارة الحسية: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر]؛ أي الأصنام، وعبادة غير الله ﷻ.

قال: «**فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ؛ كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ**» المثال الذي ذكره المصنف مثال يُجلِّي هذا الأمر تجلية واضحة، فالذي يعرف مكانة الطهارة في الصلاة لا يُقدِم على إقامتها وعليه الحدث، وهذا يعرفه عامة المصلين، و أن صلاتهم لا تُقبل إلا بالطهارة، فمن عرف ذلك وفي أثناء توجهه للمسجد ثم أحدث في الطريق فإنه لا يستمر في سيره للمسجد وإنما يبحث عن مكان ليتطهر ثم يدخل ليصلي طاهرا، وهذا أمر معروف.

الأمر تماما في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادة مقبولة إلا إذا خلصت ونُقيَّت وسَلِمت من الشرك، فإذا دخل عليها في العبادة أفسدها وأتلفها.

قال: «**فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ؛ عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ**»؛ أي معرفة الشرك فإنه مهم جدا لأنه إذا دخل في العبادة جعلها حابطةً باطلةً غير مقبولة، إذا يجب علينا أن تعرفه الشرك من أجل أن تنقّي عبادتك وتصفيها لله -ﷻ-، وتجعلها خالصة له ليس فيها شيء من الشرك، فإذا يجب على كل مسلم أن يعرف الشرك من أجل أن يحذره.

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرِّ ... لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

لكن إذا لم يعرف الإنسان الشرك وحقيقته ربما دخل الشرك في جوانب من عبادته فأفسدها وهو في قرارة نفسه لا يزال يظن أنه من أهل التوحيد ومن أهل لا إله إلا الله؛ بينما قد أدخل على نفسه أعمالاً من الشرك تفسد عمله وعبادته وتحبط دينه من حيث لا يشعر.

وتأمل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامْ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم].

أي أبعدني وبني من عبادة الأصنام، واجعلني وإياهم في جانب بعيد عن عبادتها والإلمام بها، وفي هذا الخوف من عبادة الأصنام والحذر الشديد من ذلك، وليتأمل العاقل ذلك فإن هذا مما يخيف العبد من الشرك ويوجب للقلب الحي الخوف منه، فإذا كان إبراهيم إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده وابتلي بكلمات فأتمهن وكسر الأصنام بيده يخاف أن يقع في الشرك، ويسأل ربه أن يجنبه بنيه عبادة الأصنام، فما الظن بغيره؟! وكيف يأمن الوقوع فيه من هو دونه بمراتب.

روى الإمام الطبري في تفسيره عن إبراهيم التيمي أنه كان يقص ويقول في قصصه: «ومن يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم]»(١).

قال: «**فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ**»، قوله: «**وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ**» يدل عليه قول الله في

---

(١) «جامع البيان في تأويل القرآن» (١٧/ ١٧)، وانظر فقه الأدعية والأذكار (٤/ ٣٧١).

القرآن: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر]،فقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ أي وحده جل وعلا.

فالشرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار صاحبه من المخلدين في النار، والعياذ بالله، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

«**عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ**» أي معرفة الشرك لتوقِّيه ومعرفة التوحيد لتحقيقه.

قال: «**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ**» وانظر هذا الوصف العجيب للشرك، الشرك: شبكة، والشبكة لها خيوط كثيرة ممتدة الأطراف هنا وهناك وإذا لامس الإنسان شيئا من خيوط هذه الشبكة ابتُلي بها وأمسكته وصار من أهلها.

فالشرك شبكة له خيوط، وله فروع كثيرة، وأنواع عديدة، وأبواب متعددة، فإذا عرفت أن الشرك أخطر شيء وأنه إذا دخل العبادة أفسدها أو أبطلها، وجب عليك أن تكون على معرفة به حتى تكون منه على حذرٍ وتوقٍّ وبُعدٍ عنه.

وأيضا هنا يفيدك هذا التعبير من المصنف بقوله: «**هَذِهِ الشَّبَكَةِ**» أن الشرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد الناس ويخرجون عن الإخلاص والصفاء في العبادة لله ﷻ إلى الوقوع في شبكة الشرك، والعياذ بالله.

قوله -رحمه الله-: «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ»، يتطلب منك -كما قدمت وأعيد ذلك لأهميته-:

- أن تعرف الشرك.

- وأن تكون منه على حذر.

- وأن تسأل الله عز وجل أن يعيذك منه.

قد جاء في دعاء عظيم، علَّمه النبي ﷺ أصحابه، عندما قال لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ».

فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ»[1]، فيدعو الإنسان ربه جل وعلا أن يخلِّصه من الشرك، ويعرف الشرك، ويكون منه على حذر.

قال: «وَهِيَ الشِّرْكُ بِاللهِ، الَّذِي قَالَ الله تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾» وهذه الآية وردت في موضعين من «سورة النساء»[٤٨] و [١١٦]، وقد توعَّد -تبارك وتعالى- المشرك الذي يموت على الشرك ويلقى الله سبحانه وتعالى مشركا بأنه لا يغفر له، بل يعذبه في النار ويخلده فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبدًا إذا مات على الشرك بالله -جل وعلا-، ولهذا قال الله تعالى:

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر:٣٦]، فالكافر المشرك يُدخل يوم القيامة النار ويُخلَّد فيها أبد الآباد، ولا يُخفف عنه من عذابها، بل إنه يزيد، ولهذا قال ﷻ في ﴿سورة النبأ﴾: ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٣٠]، ولهذا قال بعض المفسرين إن أشد آية على أهل النار هي هذه الآية؛ لأنهم عندما يدخلون النار لا يزال عندهم بعض الآمال، مثل يعودون إلى الدنيا مرة ثانية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧]، أو أن يُقضى عليهم فيموتوا ويَسلموا من هذا العذاب ومن هذه الشدائد، ومن الآمال أن يُخفَّف عنهم العذاب ولو قليلا، ثم يأتيهم هذا الأمر الذي يقطع عليهم كل الآمال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي لن تنالوا في النار إلا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يُخفف ولا يُقضى على أهلها، بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلَّدين في نار جهنم -أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم-.

فإذا يجب على العبد أن يكون على غاية الحذر من هذا الشرك الذي هو أخطر وأعظم ما نهى الله ﷻ عباده عنه.

ولهذا أول أمر يصادفك في القرآن هو الأمر بالعبادة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١]، وأول نهي يصادفك في القرآن النهي عن الشرك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢]: هذا أول شيء نهى الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال -رحمه الله-: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ»؛ وانتبه

لقوله -رحمه الله-: «ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ» لتعلم من خلال ذلك أن الرَّجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلف من نفسه؛ وإنما يجمع للناس ما جاء في القرآن، وما جاء في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال: «وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ» ثم ذكرها قاعدة قاعدة، ذاكرًا مع كل قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله عز وجل.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الأولى:

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

[الشرح]

بدأ المؤلف -رحمه الله تعالى- هذه القواعد بقوله: «**وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ**» يُبيِّن لنا المنهج الذي سار عليه -رحمه الله- في بيان العلم وتقرير الحق والهدى، فهو في كل ما يبيِّنه ويقرِّره يذكر شواهد ذلك من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، لا يأتي بشيء من قِبَل نفسه، ولا يَبني حُكمًا على الهوى أو على التجربة أو على الذوق أو نحو ذلك من المسالك التي يسلكها كثير من الناس في الاستدلال لِما يقومون به من عبادات وأعمال.

وهذه الطريقة هي الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم في عقيدته ودينه، إذ كيف تُعرف العقيدة الصحيحة والإيمان القويم بغير الاعتماد على كلام الله وكلام رسوله ﷺ؟!

وكما قال أهل العلم: «كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ؟»[١].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كثيرا ما يقول: «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ»[٢].

فهذه جادة مباركة وطريق قويمة كان عليها الإمام المجدد -رحمه الله تعالى-، وكان عليها أئمة أهل العلم من قبله وكذا من بعده، يقيمون أمور الدين على قال الله قال رسوله ﷺ.

ولهذا قال لك هنا: «**وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ**»، ثم شرع في ذكرها قاعدة تلوى الأخرى؛ بدأ بالقاعدة الأولى، فقال رحمه الله:

«**أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ**».

وهذا أصلٌ عظيم وقاعدة مهمة جدا في هذا الباب؛ أن نعلم أن الكفار المشركين الذين ورد ذمُّهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقاتلهم النبي ﷺ واستباح أموالهم وقاتلهم -ﷺ- كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المُنعم هو الله تبارك وتعالى، ما كانوا يقولون إن الذي يخلق، أو الذي يرزق، أو الذي يعطي ويمنع هو الأصنام؛ بل يقولون: الخالق هو الله، الرازق الله، المنعم الله، المدبر الله، كانوا يقولون ذلك ويقرِّون به، والله تبارك وتعالى بيَّن لنا ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة

(١) ذكره الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في «شرح العقيدة الطحاوية» (ص:١٨).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

جدا، وأن المشركين الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله تبارك وتعالى ولم يدخلهم هذا الإقرار في الإسلام، كما بين ذلك المصنف -رحمه الله-، قال: «**لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ**»؛ لأن الدخول في الإسلام لا يكون بمجرد الإقرار بربوبية الله فقط(١)؛ بل لا بد مع من الإتيان بلازم هذا الإقرار، ألا وهو أن يُفرَد تبارك وتعالى بالعبادة وأن يُخصَّ وحده عز وجل بالطاعة، وأن لا يُجعل معه شريك وأن يخلص الدين له جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

وكما قال جل وعلا: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

وكما قال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وكما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وكما قال جل وعلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:١٥١].

وكما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣].

وكما قال جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدا.

---

(١) انظر كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه «القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد» (ص ٥٧)

فلا يكون المرء موحدا لله ﷻ إلا إذا أخلص العبادة لله، إذ لا يكون موحدا إلا إذا جاء بالتوحيد العملي الذي هو: إخلاص العبادة لله ﷻ وإفراده سبحانه بالعبادة دون سواه؛ بأن لا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي ويسجد ويركع إلا لله، ولا يذبح ولا ينذر إلا لله، ولا يتوكل ويرجو ويخاف إلا من الله، ولا يصرف شيئا من العبادة إلا له ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام]؛ أي بهذا التوحيد وهذا الإخلاص لله ﷻ.

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

ولمَّا كانت هذه الرسالة رسالة مختصرة لا تحتمل الاستيعاب وبسط الدلائل والشواهد اكتفى بذكر دليل واحد من دلائل القرآن الكريم على أن الكفار المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المنعِم المتصرِّف المدبر هو الله ﷻ.

فساق -رحمه الله- ما جاء في ﴿سورة يونس﴾ قول الله ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ قل أيها النبي موجهًا الخطاب للمشركين الذين بُعثتَ فيهم قائلا لهم: من يرزقكم؟ سلهم هذا السؤال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ

﴿ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس:٣١]، سل المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين اتخذوا الآلهة والأنداد وعبدوا مع الله ﷻ غيره، سلهم هذا السؤال: قل لهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ من الذي يمنُّ عليكم بالرزق من السماء؟ أي: بالأمطار التي تنزل من السماء مُحمَّلة بالخير والبركة والغيث للناس والعباد والماشية، ومن الأرض بإخراج النباتات والزرع وأصناف النعم التي يمُّن -ﷻ- بها على عباده، ماذا يقولون؟ هل يقولون إن الذي يرزقنا من السماء والأرض هو الأصنام؟ لا يقولون ذلك، بل يعتقدون أن الأصنام ليست خالقة ولا رازقة ولا مدبِّرة ولا متصرفة.

سلهم أيضا: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: من الذي بيده ملك السمع وملك البصر وملك كل شيء؟ سيقولون: الله هو المالك للسمع والبصر والمالك لكل شيء.

سلهم أيضا ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: من هو الذي بيده الحياة والموت والتصريف والتدبير ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟ لا يقولون الأصنام، بل يقولون: الذي يفعل ذلك هو الله ﷻ، الخالق لكل شيء، المتصرف في هذا الكون وحده -ﷻ-.

سلهم أيضا ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمور هذا الكون من إحياء وإماتة، وعطاء ومنع، وخفض ورفع، وعز وذل، وغير ذلك من أنواع التدبيرات، من الذي يقوم بذلك؟ لا يقولون الأصنام هي التي تدبر الأمر، بل يقولون: الله.

ولهذا قال ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ هذا الجواب الذي يجيبون به.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي فسيقول المشركون الكفار إذا سألتهم هذه الأسئلة، فيجيبونك: الله ﷻ.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ إذا قالوا الذي يخلق هذه الأشياء ويدبر هذه الأمور هو: الله، فقل لهم: ألا تتقون الله؟ لماذا تتخذون معه الأنداد وتتخذون معه الشركاء؟ وأنتم تقرُّون أنه لا خالق لكم غير الله، ولا مدبر للأمر غير الله، ولا مالك إلا الله، ألا تتقون الله، فتُفرِدونه بالتوحيد وتخصُّونه بالطاعة وتخلصون له الدين، وقد أقررتم أنه خالقكم ورازقكم والمدبر للأمور كلها؟ ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي بترك الشرك والبعد عن الكفر وبالإخلاص لله ﷻ بالعبادة والتوحيد.

فهذه الآية ولها نظائر كثيرة جدا في كتاب الله تركها المصنف مراعاة للاختصار في هذه الرسالة، كلها تشهد وتدل على أن المشركين كانوا يُقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله ﷻ.

ويأتي هنا سؤال قرَّر من خلاله المصنف -رحمه الله ﷻ- هذه القاعدة: هل إقرار المشركين بأن الخالق الرازق المنعم المالك هو الله، هل هذا الإقرار أدخلهم في التوحيد والإسلام؟ هل كانوا بهذا الإقرار موحدين مسلمين؟ أم هم مع هذا الإقرار مشركون بالله كفار؟ وانظر الجواب على هذا السؤال في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

ما معنى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؟ أي خالقًا رازقًا مالكًا مدبرًا متصرفًا ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي إلا وهم مشركون معه غيره في العبادة، يقرُّون بأنه الخالق ولكن يدعون غيره، ويتوكلون على غيره، ويذبحون لغيره، ويصرفون

أنواعا من العبادة لغيره، هذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

وأيضا قوله ﷻ في ﴿سورة البقرة﴾: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ ما معنى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ والخطاب للمشركين الذين اتخذوا الأنداد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، تعلمون ماذا؟ تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، لا رازق لكم غير الله، لا مدبر للأمر غير الله، أنتم تعلمون ذلك، والشواهد على أنهم يعلمون ذلك ها هي أمامنا من كتاب الله: من يملك السمع والأبصار؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من يدبر الأمر؟ من يخرج الحي من الميت؟ كل ذلك يجيبون قائلين: الله.

إذا هم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويدبر ويُحي ويميت ويتصرف يعلمون أن الفاعل لذلك والمُوجد لذلك والخالق لذلك هو الله ﷻ، ليس له شريك في ذلك.

لكن هنا ينبغي أن نفهم من هذه القاعدة العظيمة التي ذكرها -رحمه الله تعالى- أن إقرار المرء بأن الخالق، الرازق، المنعم، المتصرف، هو الله ﷻ، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدا لله ﷻ، بل لا يكون موحدا لله إلا إذا أتى بلازِمه؛ ألا وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له، كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وكما قال ﷻ: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء:٩٢]؛ أي اعبدوا الرب الذي تفرَّد بالخلق والرزق والملك والإحياء والتدبير والتصرف، أَفرِدوه وحده -ﷻ- بالعبادة.

ولهذا كانت هذه الحقيقة التي قررها القرآن واهتدى إليها بعض المشركين كانت سببا لهدايتهم وتركهم لعبادة الأوثان وتخلُّصهم من عبادة الأصنام التي لا تملك شيئا، لا ضرًّا ولا عطاءً ولا نفعًا.

مثل قصة عمرو بن الجموح وكان سيدا في قومه: «وكان ابنه معاذ بن عمرو ممن شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح من سادات بني سلمة وأشرافهم، وكان قد اتخذ صنما من خشب في داره يقال له مناة كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلها يعظمه ويظهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة، ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيبه وطهره ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه.

فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه، ففعلوا مثل ذلك، فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطيبه ويطهره، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يوما، فغسله وطهره وطيبه.

ثـم جـاء بسيفه فعلقـه عليـه، ثـم قـال لـه: إني والله ما أعلم مـن يصنع بـك ما أرى، فإن كان فيك خيـر فامتنع، هذا السيف معك.

فلما أمسى ونـام عمـرو عـدوا عليـه، فأخـذوا السيف مـن عنقـه، ثـم أخـذوا كلبـا ميتـا فقرنـوه بـه بحبـل، ثـم ألقوه في بئـر من آبار بني سـلمة، فيها عذر مـن عذر الناس وغـدا عمـرو بـن الجمـوح فلـم يجـده في مكانـه الـذي كان بـه، فخـرج يتبعـه حتى إذا وجـده في تلـك البئـر منكسـا مقرونـا بكلـب ميت، فلمـا رآه أبصـر شـأنه وكلمـه مـن أسـلم مـن [رجـال] قومـه فأسـلم برحمـة الله، وحسـن إسـلامه»[١].

يقـول الله تعالـى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تتقـون الله؟ كيـف تعبـدون أحجـارا أو أشـجارا لا تملـك لنفسـها ضـرًّا ولا منعًـا ولا عطاءً ولا خفضًـا ولا رفعًـا، كيـف تعبـدون هـذه الأشـياء؟

ثـم هنـا يأتيك سـؤال مهـم لأنـه سـيأتي فيـه قاعـدة عنـد المصنـف -رحمه الله-، قاعـدة مهمـة، هـل الشـرك الـذي حرَّمـه الله سبحانه وتعالى هـو عبـادة الأحجـار والأشـجار فقـط؟ أم عبـادة كل شـيء سـوى الله؟ مثـلا مـن عبـد مَلَـكًا من الملائكـة، هل يكـون مشـركا أو لا، مـن عبـد نبيًّـا مـن الأنبيـاء كعيسـى عَلَيْهِ السَّلَامْ أو غيـره مـن الأنبيـاء، هـل يكـون بذلـك مشـركا؟ أم لا.

هـذه مسـألة مهمـة، وسـيأتي تقريرهـا وذكـر الدلائـل عليهـا من كتـاب الله في قاعـدة مهمـة جدا عنـد المصنف -رحمـه الله تعالـى-.

إذا هـذه القاعـدة (القاعـدة الأولـى)، قـرَّر فيهـا -رحمـه تعالـى- أن إقـرار العبـد

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٢٠٢).

بأنَّ الخالق الرَّازق المُنعم المتصرف المدبر هو الله، هذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدًا، بل لا بد مع ذلك أن يُقرِّ وأن يأتي بلازم ذلك وهو توحيد الله ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له ﷻ.

* * * * *

[المتن]

ثمَّ قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الثانية:

أنَّهُم يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إلاَّ لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ. فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ:

١. شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ.

٢. وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٥٤].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ،

وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

[الشرح]

وهذه هي القاعدة الثانية، وهي قاعدة عظيمة ومهمة جدا، وهي متممة ومكملة للقاعدة الأولى، وذلك أننا عرفنا في القاعدة الأولى أن المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرُّون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله ﷻ، وأن هذا لم يدخلهم في الإسلام.

إذا يأتي سؤال يطرح نفسه، إذا كانوا يُقرُّون بأن الذي يخلق ويرزق ويُنعم ويتصرف ويُدبر الأمر هو الله ﷻ، فلماذا يعبدون هذه الأصنام التي يُقرُّون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع؟!

وهم يُقرُّون كذلك أنها لا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تدبر الأمر؛ كما هو واضح في الدليل الذي ساقه المصنف -رحمه الله- في القاعدة الأولى.

يأتي الجواب في هذه القاعدة.

قال -رحمه الله-: «**أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلاَّ لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ**»؛ المشركون يقولون: نحن لم نتجه إلى هذه الأصنام ولم نتوجه إلى هذه الأصنام لأنها تخلق أو لأنها ترزق أو لأنها تُحي، هذه أمور ليست إلا لله ﷻ، نحن لم نعبدها إلا للقربة والشفاعة.

القربة: أي لتكون وسيلة لنا عند الله، لتكون واسطة لنا عند الله ﷻ، نتوسَّط

بها إلى الله، نطلب منها أن تقربنا إلى الله، فنعبدها من أجل أن تكون واسطة لنا عند الله ﷻ، تقربنا وتُدنينا منه ﷻ.

ولهذا قال: «أَنَّهُمْ -أي المشركون- يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ».

وقد عرفنا أن المصنف التزم في بداية هذه القواعد أن يذكر دليلها من القرآن، لا يأتي بشيء من عنده؛ وإنما يذكر لك الأمر مضمومًا إليه دليله من القرآن، فهنا ذكر القاعدة الثانية وهي: أن المشركين كانوا يقولون أننا إنما دعونا هذه الأصنام ورجوناها وتوجَّهنا إليها من أجل القربة والشفاعة.

قال: «فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا ..﴾»، الآن يأتيك السبب: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، لا لكونها خالقة، ولا لكونها رازقة، ولا لكونها مدبِّرة، هذه أمور لا تملكها، هم يعتقدون أنها لا تملك شيئا من ذلك.

﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أي: من أجل أن تُقرِّبنا إلى الله ﷻ؛ يقولون: نحن أهل ذنوب، وأهل خطايا وأهل إسراف على أنفسنا، وهذه فاضلة وكريمة ولها منزلة ومكانة عند الله، فنحن نعبدها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلى الله ﷻ.

قال: «دَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]»، سمَّى الله ﷻ هذه الأمور التي يمارسها

هؤلاء ويقومون بها كفرًا بالله -ﷻ- (اتخاذ الأنداد والوسائط بينهم وبين الله -سبحانه وتعالى- من أجل أن تقربهم إلى الله ﷻ).

إذا هذا **الأمر الأول** الذي أشار إليه المصنف وهو: القربة، أي أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام من أجل القربة، أي من أجل أن تقربهم من الله ﷻ.

الأمر الثاني هو: الشفاعة، و الدليل على أنهم عبدوها لتكون شافعة لهم عند الله ﷻ: «**قَوْلُ اللهِ ﷻ**: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]»؛ أي نحن عبدنا هذه التي لا تضر ولا تنفع من أجل أن تكون شافعة لنا عند الله تبارك وتعالى.

إذا هذه قاعدة مهمة ينبغي أن يفهمها المسلم حتى لا يُلبَّس عليه الأمر وحتى لا يقع في الشرك من حيث أراد الحق والهدى، وحتى لا يأتي بعض المبطلين ويُلبِّسون عليه هذه الحقيقة ويُوقعونه في الشرك بالله من حيث أراد لنفسه الخير والرشاد، ويقولون له: هذه الأصنام أو هذه المعبودات أو هذه القباب والأضرحة إنما تُدعى ويُتوجَّه إليها من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله ﷻ، تقربنا إليه زلفى.

يقال له: هذا الأمر هو الذي لأجله عبد الكفار المشركون الأصنام وتوجهوا إليها بالدعاء والرجاء، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

ثم انطلق المصنف من هذا الموضع ليُبيِّن -رحمة الله عليه- أن الشفاعة نوعان، حتى لا يلتبس باب الشفاعة وأمرها عند المسلم.

قال: «**وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ**».

منفية أي نفاها الله تعالى، مثبتة أي أثبتها الله عزوجل.

لأن المسلم عندما يقرأ القرآن الكريم يجد أن الآيات التي جاء فيها ذكر الشفاعة تجد أن في القرآن: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

وإذا كان الأمر كذلك الواجب علينا أن ننفي من الشفاعة ما نفى الله، وأن نثبت منها ما أثبته الله، أما من يثبت شفاعة نفاها الله ﷻ فهذا عين الضلال والباطل.

قال -رحمه الله-: «**وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ؛ فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ**».

الشفاعة المنفية -أي التي نفاها الله ﷻ في القرآن- واجب على كل مسلم أن يعرفها، من أجل أن يحذرها وأن يجتنبها وأن لا يقع فيها، لأن الله نفاها وأبطلها.

وهي كما قال المؤلف رحمه الله: «**مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلاَّ اللهُ**»؛ لو قال قائل لمخلوقٍ كائنًا من كان: أسألك أن تُدخلني الجنة أو أن تجيرني من النار، أو أن تثبِّتني على الإيمان، أو أن تعصمني من الخطأ، أو أن تهديني سواء السبيل، أو أن تجنبني مضلات الفتن، أو أن تصلح لي ذريتي، أو أن تمن علي بالزوجة الصالحة، أو تمن علي بالذرية الصالحة، أو أن تكتب لي رزقا وملكا...إلخ، من قدم هذه الطلبات لمخلوق من المخلوقات كائنا من كان، مهما علت درجته وبلغت منزلته -(ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله)- هذه شفاعة نفاها الله في القرآن، ومضى المصنف رحمه الله على طريقته يذكر الأمر بدليله، قال: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة:٢٥٤]»،

هنا: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ نفي، هذه شفاعة نفاها الله ﷻ وأبطلها، وهي ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

لو وقف رجل أمام ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب، وقال باكيا راجيا: يا سيدي فلان، أو يا فلان أرجو أن تمن علي بالولد والذرية، أنا عقيم، مثل ما كان بعض الجاهليين؛ تطوف المرأة حول شجرة وتقول: (يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول)، يعني قبل أن تتم السَّنة، (يا فحل الفحول) فمن نادى شجرة، أو ضريحا، أو قبة، أو وليا، أو نبيا، أو ملكا أو غير ذلك، يطلب منه الذرية الصالحة، الأنبياء عندما كانوا يطلبون الذرية لأنفسهم، ممن يطلبونها؟ اقرؤوا ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، في قصة إبراهيم عليه السلام، وقصة زكريا عليه السلام، وقصص كثيرة، فالأنبياء ما يكونوا يطلبون إلا من الله تعالى.

بعض الناس يخاطب بعض المقبورين يقول: يا كاشف الغم، يا مجيب المكروب، يا مغيث الملهوف، يا جابر الكسير أنا طريح عند بابك، أنا لائذ بجانبك إن لم تأخذ بيدي من الذي يأخذ بيدي، يناجي مخلوقا!

الله تعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

هذه أمور لله ﷻ، لا يُلجَأ فيها إلاَّ إليه -سبحانه وتعالى-.

إذا كان الناس في الفُلك وتلاطمت بهم الأمواج وأدركهم الغرق، من الذي ينقذهم؟ من الذي يوقف الرياح ويهدئ الأمواج ويسكِّن السفينة؟ الله رب العالمين.

والله ذكر عن أهل الشرك قال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]؛ يعرفون وهم في تلاطم الأمواج وفي الشدائد أن الذي ينجي من الشدائد هو الله ليست الأصنام، فلهذا كانوا يخلصون لله ﷻ في الشدة ويشركون في الرخاء.

مع أن بعض المشركين في الأزمان المتأخرة الذين تعلقوا بغير الله من الأنداد والأولياء والقباب حتى في الشدائد وفي الكربات يفزعون إلى تلك المعبودات.

ومما يذكر في هذا أن جماعة كانوا في سفينة وكان معهم رجل مسن(على التوحيد والفطرة) فبدأت الأمواج تتلاطم، وبدأ كلٌ يهتف بمعبوده: يا سيدي فلان، يا مولاي فلان، أدركني يا فلان... يناجون المخلوقين، التفت هذا الرجل وإذا كل من على السفينة ليس فيهم من ينادي ويدعو الله تعالى، فمد يديه وقال: يا رب أغرق.. أغرق؛ فما على السفينة من يعبدك.

فالمشركون الذين بُعث فيهم النبي ﷺ في مثل هذه الحالة، ما كانوا يلتجئون في الشدة إلاَّ إلى الله ﷻ، لهذا قال الله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾.

إذا الشفاعة المنفية: ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

ومثال آخر: ما يقوم به بعض الزوار لما يأتون المدينة النبوية ومعهم خطابات من بعض الناس في بلده موجهة إلى النبي ﷺ، أنا اطلعت شخصيا على شيء منها، أحدهم قرأت كلامه بلفظه، يقول: يا رسول الله، يا سيدي، يا مولاي... يا كذا -ألقاب يذكرها- أنا عبد كسير وفقيرٌ ذليل ومحتاج كذا وأنا لائذ بك

وملتجئ إليك، فلا ترد طلبي ولا ترد حاجتي، ثم ذكر حاجته؛ أنه يريد: زوجة صالحة و يريد (فيلا) جميلة ويريد مالاً، وذكر أشياء، هذه كتَبها يطلبها من النبي ﷺ، وفي النهاية قال: وعنواني في المكان الفلاني.

أين هذا الكاتب لهذه الورقة من قوله ﷻ لنبيِّه؟! ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]؟.

وهنا لطيفة عجيبة في هذه الآية في ﴿سورة البقرة﴾، يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ويُتبع ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم كذا، لأنه ﷺ واسطة في إبلاغ الدين ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

هنا في هذه الآية قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ لم يقل: (قل)، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ لأن التوجه إلى الله توجه بلا واسطة.

أينما تكون في الدنيا واحتجت إلى حاجة سل الله بدون واسطة، لا تبحث عن وسطاء، مباشرة اتجه إلى الله، اسأله مباشرة، ارفع يديك أينما كنت في الدنيا، حتى لو كنت في صخرة مُطْبقة عليك في مكان مظلم توجه إليه ﷻ، يراك رب العالمين ويطلع عليك ويكشف كربتك ويزيل همك، ويرزقك من حيث لا تحتسب، لأن الأمور كلها بيده والملك ملكه والخَلْق خَلْقه -ﷻ-.

والمثال الذي ذكرته في الخطاب الذي أشرت إليه، يندرج تحت الشفاعة المنفية.

ما نخلط الأمور ونقول دلت الأدلة على أنه ﷺ شفيعٌ للناس، ولذلك تأمل هذا الحديث العظيم:

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - حِينَ أَنْزَلَ اللهُ عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

قال: «**وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ:** -أي التي أثبتها الله في القرآن- **هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ**» -انظر جمال العلم وجمال البيان والنصيحة- «**الشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ**»؛ الشفاعة المثبتة هي التي تُطلب من الله، والشافع يطلبها منه سبحانه وتعالى، لأن الله قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] أي: الشفاعة لله.

من أراد أن يشفع لابد أن يأذن الله له، بدون إذن الله لا يكون ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، فإذا هي ملكٌ لله، وبيده تبارك وتعالى.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

وأيّ أحد كائنًا من كان يريد أن يشفع عند الله لابد أن يأذن الله له بالشفاعة، هذا أمر.

وأمر آخر من أراد لنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء له عند الله يطلبها ممن بيده الشفاعة لأنها بيده سبحانه، فمن أراد لنفسه أن يكونوا شفعاء له عليه أن يقول في طلبه ودعائه: يا رب، يا الله -يسأل الله- شفِّع فيَّ أنبياءك، أو يقول: اللهم اجعل نبيك محمدا ﷺ شفيعا لي يوم القيامة، وهكذا نقول في دعائنا -نسأل الله ﷻ-، نقول: اللهم اجعل نبيك محمدا ﷺ شفيعا لنا يوم القيامة، اللهم اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك ﷺ يوم القيامة، نسأل الله ﷻ، نطلب من الله، لأن الشفاعة مُلكٌ لله ﷻ.

وهي لا تكون إلا بإذنه للشافع ورضاه -ﷻ- عن المشفوع له: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فلو أن شخصا كافرا مشركا يعبد الأوثان ومات على عبادتها، وشُفِع له عند الله ﷻ، لا تنقذه هذه الشفاعة ولا يخرَج بها من النار، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

وفي «صحيح البخاري» قصة عظيمة جدًّا تهز القلوب هزًّا، وهي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع والده يوم القيامة ذكرها نبينا عليه الصلاة والسلام: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ قَالَ: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ

أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ»(١).

واقرأ في آخر «سورة التحريم» قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: ١٠]، فنبي الله نوح عليه السلام لم يغن عن ابنه شيئا لأنه كان كافرا، ولم يغن عن زوجته شيئا لأنها كانت كافرة، وكذا نبي الله إبراهيم عليه السلام لم يغن عن أبيه شيئا لأنه كان كافرا.

فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضا الله ﷻ عن المشفوع له.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»(٢).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٩٩).

اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»(١)، فقوله ﷺ: «لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا» فهي ليست لكل أحد؛ بل خاصة بأهل التوحيد.

ولهذا ففي موضوع الشفاعة ثلاثة فصول مهمة ينبغي أن تحفظها:

- الفصل الأول: أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله.

- الفصل الثاني: أن الشفاعة لا تكون إلا عن من رَضِيَ (قوله وعمله).

- الفصل الثالث: أن الله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد.

هذه ثلاثة فصول في الشفاعة احفظها ينفعك الله -ﷻ- بها.

هذه الشفاعة بهذه الضوابط هي الشفاعة التي أثبتها الله ﷻ في القرآن.

قال المصنف: «**وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ: مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ**».

وجُمِع بين هذين الشرطين:

الرضا والإذن في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦].

الإذن للشافع، والرضا عن المشفوع له، والله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد، قال -رحمه الله-: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]**».

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

القاعدة الثالثة:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ؛ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]، وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ...»[١] الحَدِيثَ.

[الشرح]

هذه قاعدة أخرى مهمة للغاية ويحتاجها كل مسلمٍ لمعرفتها وما يتعلق بها؛ لأن معرفة هذه القواعد -بإذن الله ﷻ- وضبطها يكون -بإذن الله ﷻ- صمام أمانٍ للمسلم من الوقوع في شبكة الشرك وحبائل أهله ومصائد الشيطان.

وقد جاء في التعوذات المأثورة عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وشِرْكِهِ»[٢]، وفي رواية «وشَرَكه» أي حبائله وشباكه التي يضعها للناس ليُوقِعهم في الشرك بالله ﷻ.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٩٢)، وأبو داود (٥٠٦٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٠١).

قال الإمام النووي ﷺ: «قوله ﷺ: (وشِرْكه)، روي على وجهين: أظهرهما وأشهرهما: بكسر الشين مع إسكان الراء من الإشراك: أي: ما يدعو إليه ويوسوس به من الإشراك بالله تعالى.
=

والشرك -كما كنا عرفنا- شبكة، له جوانب كثيرة ومجالات متعددة، ومن لم يكن في هذا الباب على أصولٍ ثابتة وقواعد راسخة ربما زلت به القدم في أخطر أمر وأعظم باب والعياذ بالله.

ولهذا ينبغي على كل المسلم أن يكون على عناية تامة ورعاية قوية لهذه القواعد التي قررها الإمام -رحمه الله تعالى- وذكر دلائلها وشواهدها من كتاب الله ﷻ، وسنة رسول الله ﷺ.

وهذه القواعد مرتبطة معانيها فيما بينها، يوضح بعضها بعضا، وذلك كالآتي:

سبق معنا القاعدة الأولى التي قررها المصنف -رحمه الله تعالى- أن الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ، كانوا يقرُّون بأن الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر للأمور هو: الله ﷻ وحده، كانوا يقرُّون بذلك، وذكر الشيخ -رحمه الله تعالى- الدليل على ذلك من كتاب الله ﷿، ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام.

فعُلم بذلك أن مجرد الإقرار بأن الله الخالق، الرزاق، المنعم، المتصرف، المدبر لشؤون الخلائق ليس كافيا وحده لدخول المرء بالإسلام، ما لم يعبد الله مخلصا له الدين، وإذا كان يقرُّ بأن الله الخالق الرزاق المنعم المتصرف ولا يُخلص الدين له -ﷻ- فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم.

ثم بعد ذلك ذكر -رحمه الله تعالى- القاعدة الثانية؛ وهي أن المشركين

والثاني: (شَرَكه) بفتح الشين والراء: أي: حبائله ومصايده، واحدها: (شَرَكة) بفتح الشين والراء، وآخره هاء»«الأذكار» (٧٨).

الكفار عندما يُسألون: لماذا تعبدون هذه الأوثان وتدعونها من دون الله وأنتم تقرُّون أنها ليست خالقة ولا رازقة ولا منعمة ولا متصرفة، ولا تملك عطاء ولا منعا، ولا خفضا ولا رفعا، ولا موتا ولا حياة، ولا نشورا؟ لماذا تعبدونها وأنتم تقرُّون أنها لا تملك شيئا من ذلك؟ بل تقرُّون أنها نفسها مملوكة لله، خاضعة لله ﷻ، مربوبة له ﷻ.

ولهذا؛ كانوا يحجون ويقولون في تلبيتهم في الحج: [لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك] هكذا يعتقدون: (تملكه): أي هو مملوك لك، هذا الشريك الذي جعلناه لك أنت يا الله تملكه، هو مملوك لك خاضع لك، (وما ملك): هو لا يملك، أي لا يملك لنفسه عطاء أو منعا أو خفضا أو رفعا، فضلا عن أن يملك ذلك لغيره، هم يقرُّون بذلك، فإذا سئلوا قيل لهم: لماذا تعبدونها وتدعونها وتتوجهون إليها وأنتم تعتقدون في قرارة نفوسكم أنها لا تملك، وأنها لا تخلق، وأنها لا ترزق؟ -والدليل على أنهم يقرُّون بذلك مرَّ معنا في القاعدة السابقة- فإذا لماذا تعبدونها؟ ماذا يقولون؟

يقولون: نحن نعبدها ونتوجه إليها لطلب القربة و الشفاعة:

لطلب القربة: أي من أجل أن تقربنا إلى الله، نحن بُعداء عن الله بالذنوب والمعاصي والخطايا والتفريط، فنحن نتوجه إليها لا لشيء إلا من أجل أن تقربنا إلى الله ﷻ.

و من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، من أجل أن تكون شفيعا لنا عند الله ﷻ.

هذه الممارسة التي يفعلها المشركون -والذي هذه خلاصتها- ماذا تسمى في شرع الإسلام وفي دين الله ﷻ؟ هل هم معذورون في هذا التوجيه الذي ذكروه؛ قالوا: نحن لا ندعوها لأننا نعتقد فيها أنها خالقة رزاقة، بل ندعوها لأجل أن تقربنا إلى الله زلفى، هل هذا مُخوِّل ومُسوِّغ لإعفائهم من تبعة ذلك العمل وتلك الممارسة؟ حاشا وكلا؛ بل هم بذلك كفار مشركون، ولهذا قاتلهم النبي ﷺ، واستباح أموالهم ودماءهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال:٣٩].

فإذا هذه القاعدة الأولى والقاعدة الثانية، ثم تأتي قاعدة ثالثة مهمة جدا، وهي تَنْبَني على القاعدتين السابقتين، ألا وهي:

هل الشرك الذي ذمه الله وحذَّر منه وعاب أهله وتوعدهم وتهددهم، هل هو خاص بمن عبد صنما؟ أو توجه إلى حجر؟ هل هو خاص بذلك، أو أنه شامل لكل ما عُبد من دون الله أيًّا كان ومهما كانت صفته؟

لأن بعض من ابتُلوا بالباطل والتوجه إلى غير الله ﷻ بالدعاء والرجاء والطلب والسؤال وإنزال الحاجات والطلبات والرغبات، إذا تُليت عليه مثل هذه الآيات لوعظه وتنبيهه وتذكيره وتحذيره مما هو عليه من ضلالٍ وباطل، يقول: هذه الآيات التي تُتلى في القرآن تختص بمن توجه إلى حجر أوشجر، أما نحن لم نتوجه لا إلى حجر ولا إلى شجر -مثل هؤلاء المشركين- نحن توجهنا إلى أولياء صالحين، أو إلى أنبياء مقربين، أو إلى ملائكة، فكيف تُتلى علينا هذه الآيات ونوعظ بها وهي لا تتناول العمل الذي نقوم به؟ لأن الآيات تتعلق بمن

عبد الأصنام: اللات، العزى، مناة، هبل... الخ، أما الذي يتوجه إلى ولي من الأولياء، أو صالح من الصالحين، أو نبي من الأنبياء أو نحو ذلك، هذه الأدلة والنصوص لا تتناوله ولا علاقة لها به -هكذا يقولون ويزعمون-.

فتأتي هذه القاعدة التي ذكرها المصنف -رحمه الله- ليُرسي هذا الأمر ويجلِّيه ويزيل الغبش الذي قد يصاب به بعض الناس، ويُبتلى به بعضهم فيدخلون في وحل الشرك وشبكة الباطل من حيث يظنون أنهم لم يقعوا في هذه الهوة السحيقة: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، لا يشعر أنه وقع في هذه الهوة السحيقة- والعياذ بالله-، فتأتي هذه القاعدة لتجلِّي هذا الأمر.

ولهذا ينبغي أن نُرعي هذه القاعدة بالنا واهتمامنا وأن نحسن فهمها وضبطها لأنها مهمة جدا في هذا الباب.

يقول -رحمه الله- في القاعدة الثالثة: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ**»: أي لم تكن عبادتهم مختصة بمعبودات معينة، مثل: الأحجار أو الأصنام، بل كانوا متفرقين في عبادتهم، يعبدون أشياء كثيرة جدا.

فصَّل الشيخ- رحمه الله- ثم ذكر على كل ما ذكره من تفصيل الدليل عليه من القرآن، قال: «**مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**»:

فالنبي ﷺ بُعث في أقوام يشركون، وشركهم ليس منحصرا في شرك معين من أنواع الشرك كعبادة الأصنام؛ بل إن شرك من بُعث فيهم عليه السلام شرك متنوع، و

الأبواب التي سلكها هؤلاء المشركون أبواب متفرقة، منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء، منهم من يعبد الأولياء والصالحين، منهم من يعبد الأشجار والأضرحة ونحو ذلك، وكل هؤلاء ظهر عليهم النبي ﷺ مُعلنًا دعوة التوحيد -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْه- والدعوة إلى الإخلاص لله تبارك وتعالى ونبذ الشرك أيًّا كانت صفته وكان نوعه[1].

فهذه القاعدة تأتي جوابًا وإزالةً لتلك الشبهة التي قد يروِّجها أهل الباطل.

وتقرير القاعدة أن من ظهر عليهم ﷺ وبُعث فيهم كانوا متفرقين في العبادة.

وتقول هنا: هات الدليل على ذلك، فيأتي المنصف -رحمه الله- بالدليل على كل ذلك من كتاب الله عز وجل؛

أولا قال- رحمه الله-: «**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]».

الآية فيها استشهاد لقول المصنف -رحمه الله-: «**وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ**» أي أجمعين بأنواع الشرك المختلفة التي كانوا عليها، فهؤلاء كلهم قاتلهم، لم يفرِّق ﷺ بين من عبَد حجرا أو عبد نبيًّا (كعيسى عليه السلام)، أو ملَكا من الملائكة (كجبريل أو غيره من الملائكة عليهم السلام)، لم يفرق بين لا هؤلاء ولا هؤلاء، كلهم يشملهم قول الله تبارك وتعالى:

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«حقيقة التوحيد: أن نعبد الله وحده، فلا يُدعى إلا هو، ولا يُخشى ولا يُتّقى إلّا هو، ولا يُتوكل إلّا عليه، ولا يكون الدين إلّا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيّين أربابًا، فكيف بالأئمة والشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم»«منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٩٠).

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، قاتلهم النبي ﷺ أجمعين، دعاهم إلى هذا الإسلام، وبعث الدعاة وأرسل البعوث وأرسل الرسل ودعا هؤلاء؛ دعا الذين يعبدون الملائكة، ودعا الذين يعبدون النجوم، ودعا الذين يعبدون الأنبياء، ودعا الذين يعبدون الأصنام، كل أولئك دعاهم النبي ﷺ إلى نبذ هذا الشرك، وإلى إخلاص العبادة لله ﷻ.

ثم بدأ يسوق الأدلة دليلا دليلا على ما ذكر سابقا من تفرق المشركين وتنوع شركهم.

قال: «وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ» أي: والدليل على أن من الناس من كان يعبد الشمس والقمر ممن ظهر عليهم النبي ﷺ وبُعث فيهم، قوله الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: لأن هناك من كان يعبد الشمس والقمر.

بل إن من رعاية نبينا ﷺ للتوحيد وحفاظه لجانبه وسدِّه -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْه- لذرائع الشرك نهى أمة الإسلام -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- أن يُصلُّوا لله ﷻ مخلصين عند وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، لأن هذا الوقت كان عُبَّاد الشمس يتحرون عبادتها فيه، عند أول طلوع الشمس وعند وقت الغروب عُبَّاد الشمس كانوا يتحرون هذين الوقتين، فيعبدون الشمس في هذين الوقتين، ولهذا جاء النهي الغليظ والمؤكد عن نبينا ﷺ من أن نصلي لله ﷻ مخلصين في هذين الوقتين.

فقال ﷺ: «صَلِّ صَلاَةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ؛ ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ؛ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ فَإِنَّ الصَّلاَةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ؛ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلاَةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ»[1]، وهذا فيه أن الشيطان له فتنة في هذا الوقت لصرف القلوب عن التوحيد إلى الشرك، والتعلق بهذه المخلوقات الكبيرة، البديعة، العجيبة، العظيمة، التي خلقها الله تبارك وتعالى.

وذلك لأنه عندما يضعف الإيمان في بعض القلوب قد تتعلق بمثل هذه المخلوقات الكِبار وتلجأ إليها، فتدهشها الشمس بغروبها وطلوعها، فتتوجه إليها بحاجاتها ورغباتها، فقطع النبي ﷺ الطريق وسدَّ ذريعة الشرك، ونهى أن تُتَحرَّى العبادة في هذين الوقتين: وقت طلوع الشمس ووقت غروبها، ولو كان الإنسان لا يقصد بعبادته إلا وجه الله مخلصا له فإن النبي ﷺ قد نهاه عن العبادة في هذين الوقتين، وجاء عنه في ذلك أحاديث كثيرة، كل ذلك محافظة على التوحيد وصيانة لجانبه وسدّا للذرائع التي تفضي إلى الشرك بالله تبارك وتعالى وأيضا ربأ ﷺ بالأمة أن يكون فيه شيء من المشابهة ولو في الصورة الظاهرة لعَبَدة هذه المخلوقات (الشمس والقمر)، فنهى -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- عن العبادة في هذين الوقتين.

---

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

فهذا من الدلائل والشواهد البيِّنات أن من بُعث فيهم -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- كان منهم من شركه بالله عبادةٌ للشمس وللقمر.

وما الدليل على أن منهم من كان يعبد الملائكة؟

قال: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨٠]».

أي من دون الله ﷻ، فهذا شاهد ودليل على أن من الناس من اتخذ الملائكة أربابا، وعبدوها معه ﷻ، ودعوهم وسألوهم وعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فكان من الناس من عبد الملائكة، وهم جند مكرمون وعباد مسخرون، لا يستحقون من العبادة ولا مقدار ذرة.

ولهذا؛ في سياق إبطال الشرك في القرآن الكريم في «سورة سبأ»، ذكر الله ﷻ ضعف الملائكة، مُبيِّنا ﷻ بذلك أنها مع ضخامة أجسامها وقوتها، وعظم قدرتها التي منحها الله ﷻ إياها، فهي ضعيفة مخلوقة مربوبة لا تستحق من العبادة شيئًا، وتأمل هذا المعنى العظيم في الآيات الواردة لإبطال الشرك، في قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ -أي الملائكة- ﴿ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ].

يُفسِّر هذه الآية قول نبينا ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْي سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلَا

يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: الْحَقَّ؛ فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ الْحَقَّ»(١).

هذه الملائكة الضخمة الأجسام العظيمة القوة والقدرة إذا تكلم الله بالوحي خرَّت صعقة، «وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، سمع أهل السموات كلامه، أرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي، قاله ابن مسعود ومسروق، وغيرهما»(٢)، فهي مخلوقة ضعيفة، مُسخَّرة مربوبة لله،: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ولكن لا يستحقون من العبادة أي شيء، ولهذا قال الله ﷻ في شأن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

قال العلامة السعدي رحمه الله: «فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضا أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأي ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟»(٣).

وقد وُجد في الناس من عبدهم، وتوجه إليهم في طلباته ورغباته، وجعلهم

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٣٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٩٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٥١٤).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٢١).

واسطة بينه وبين الله ﷻ في عرض حاجاته، فبُعث النبي ﷺ لإبطال هذا الشرك -اتخاذ الملائكة أربابا وأندادا وشركاء لله ﷻ في العبادة-.

ثم ذكر- رحمه الله- دليل الأنبياء، أي الدليل على أن من المشركين الذين بُعث فيهم ﷺ من كان يعبد الأنبياء فذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]، إذا كان من المشركين الذين بُعث فيهم ﷺ من كان يعبد الأنبياء من دون الله ﷻ، مثل من كانوا يعبدون عيسى ويتوجهون إليه بالدعاء والطلب والرغبات ويعبدون أمه، وهي ليست نبيَّة وإنما هي صالحة من الصالحات[1] ومن خيار نساء العالمين، فكانوا يعبدون الأنبياء والصالحين، الأنبياء مثل عيسى عليه السلام، والصالحين مثل أمه، كانوا يعبدونها من دون الله، وجعلوهما شريكا لله ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣]؛ جعلوا المستحقين للعبادة ثلاثة: (الله عز وجل وعيسى عليه السلام، وأمه مريم)، وعبدوا هؤلاء الثلاثة كلهم، عبدوا الله، وعبدوا معه عيسى، وعبدوا معه أمه.

إذا من بُعث فيهم ﷺ منهم من كان شركه عبادةً للأنبياء وعبادةً للصالحين.

ثم قال- رحمه الله-: «وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله: «وقد نقل إمام الحرمين إجماع العلماء على أن مريم ليست نبية»«الأذكار» (ص١١٩)، وانظر«فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/ ٤٧١).

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧]».

هذه الآية دليل واضح على أن بُعث فيهم ﷺ منهم من كان يعبد الصالحين من دون الله ﷻ، وذلك أن معنى الآية وهي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ تتعلق ببيان حال طائفة من المشركين، واقرأ الآية التي قبلها، وهي قول الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء]؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي: أولئك الذين يدعوهم هؤلاء المشركون المتخذون الأنداد قومٌ هداهم الله ﷻ وعبدوا الله وأخلصوا الدين له -ﷻ-، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ «قال العوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيرًا.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾، روى البخاري، من حديث سليمان بن مِهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمر، عن عبد الله في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم.

وقال قتادة، عن معبد بن عبد الله الزِّمَّاني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن

ابن مسعود في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ قال: نزلت في نفر من العرب، كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية»(١).

إذا الآية واضحة في إنكار شرك من كان شركه بعبادة الصالحين و الأولياء.

يُقال لمن عبد وليًّا أو عبد صالحًا: إن هذا الذي تعبده وتلجأ إليه هو نفسه عبدٌ لله، يرجوا الله، ويطمع في مغفرته ورحمته، وإن كان مات فإن هذه الأمور -رجاء الرحمة والعبادة وابتغاء الوسيلة- انقطعت بموته، «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢)، لا يستطيع أن يقوم بعبادة ولا يستطيع أن يقوم بدعاء أو برجاء أو بخوف أو بأي أمر من الأمور التي هي مجال الإنسان للقيام بها في حياته الدنيا، أما إذا مات انقطع عمله، لا يستطيع أن يدعو لنفسه ولا لغيره، ولهذا قال ﷺ لأم المؤمنين عائشة ﵂ لما قالت: «وَارَأْسَاهْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، فَأَسْتَغْفِرُ لَكِ وَأَدْعُو لَكِ» (٣) يعني وأنا على قيد الحياة استغفرت لك، أما بعد الموت لا يستغفر ﷺ لأحد، هو ﷺ ولا غيره من الذين توفاهم الله -ﷻ-، ولهذا قال: «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ».

أما ما يستدل به بعض الناس من أن النبي ﷺ قال: «حياتي خير لكم تحدثون

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٨٨).

(٢) رواه مسلم(١٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٦٦٦).

ويحدث لكم، ووفاتي خير لكم تعرض علي أعمالكم؛ فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»(١).

هذا حديث غير صحيح، يستدل به بعض الناس ويتركون الحديث الذي في «صحيح البخاري»، الذي يقول فيه النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ» أي بعد الموت لا يستغفر لأحد.

ولهذا؛ الصحابة بعد موته قالوا -كما جاء عن عمر رضي الله عنه-: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»(٢)، والمراد الدعاء: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا ﷺ؛ ففي زمن النبي ﷺ ما كانوا يتوسلون بالعباس أو بغيره، كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ، يدعو لهم هو -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ويؤَمِّنون على دعائه، أما بعد موته انقطع هذا الأمر، لقوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ..».

وما دليل عبادة الأشجار والأحجار؟

قال: «**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[النجم: ١٩-٢٠]».

هذه معبودات كان يعبدها المشركون ويتوجهون إليها؛ اللاَّت والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وكانت (اللات) صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (١٩٢٥)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة»(٩٧٥).

(٢) رواه البخاري (١٠١٠).

بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا (اللاتّ) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه»[1].

فلما مات بنوا على قبره وعبدوه،وجعلوه واسطة لهم بينهم وبين الله والعياذ بالله، قالوا لأن هذا رجل معروف بيننا بهذا الكرم وهذه الضيافة، فعبدوا قبره، وقيل: عبدوا الصخرة التي كان يعجن عليها السَّويق، قالوا: هذه صخرة فاضلة مميزة، لها خاصية، سنوات طويلة يُعجن عليها السَّويق، فما أجمل أن تكون واسطة بيننا وبين الله.

والعُزَّى[2]: قيل: حجر أبيض، وقيل:شجرة كان يقصدها المشركون، وكان يزيد الشرك والتعلق بهذه الشجرة أن جنية كانت مختفية وإذا جاءوا عند هذه الشجرة خاطبتهم الجنية فيُخدعون بذلك، لأن الشجر لا يُعرف أنه يخاطب الناس، فيُخدعون بذلك ويُستدرجون، فتخاطبهم هذه الجنية وتذكر لهم أمورا، وربما سألوها عن مفقود أو ضائع فأشارت إلى مكانه أو دلتهم على موضعه أو نحو ذلك، ففُتنوا فصاروا يتوافدون عليها من الأنحاء العديدة يعبدون هذه

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٢/ ٥٢٣).

الشجرة، حتى بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطع الشجرة وقتل الجنية،عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمُرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمُرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَرَجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتُهَا، أَمْعَنُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُزَّى»[١].

«وأمَّا (مناة) فكانت بالمُشَلَّل -عند قُدَيد، بين مكة والمدينة-وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها»[٢].

ولا يزال هذا الشرك بين بعض الناس من يتعلقون بأشجار ويعتقدون أنها مباركة، ولهذا يذهبون ويعلقون عليها الخيوط، يتمسَّحون بها، يضع الواحد منهم صدره على الشجرة يطلب منها البركة، وقد يطوف حولها.

---

(١) رواه النسائي في «سننه الكبرى» (١١٤٨٣)، وأبو يعلى في مسنده (٩٠٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٦).

كان قديما، وقد أدرك المصنف- رحمه الله- شيئا من ذلك ورآه[1]، كانوا يطوفون على شجرة (نخلة)؛ تذهب المرأة التي تأخر عنها الزواج وتطوف عليها وتقول: (يا فحل الفحول أريد زوجا قبل الحول)، لا تنجب لسنوات، فتقول لها النساء هناك شجرة مباركة في المكان الفلاني، اذهبي وطوفي بها أشواطا، واطلبي منها، فهي شجرة مباركة، وربما قالوا لها فلانة جربت وفلانة فعلت.. وهكذا يستدرج الناس إلى الشرك والباطل -والعياذ بالله- فكن يذهبن إلى تلك الشجرة ويطفن عليها، ويقلن ذلك.

وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ»، وَذُو الْخَلَصَةَ طَاغِيَةُ دَوْسٍ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ[2].

(تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ) أي تضرب ألياتهن بعضا من شدة تزاحمهن على الطواف على ذي الخَلَصة، وهذا فيه إشارة إلى كثرة النساء الطائفات على ذي الخَلَصة.

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين؛ حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»[3]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة وثابتة عن نبينا ﷺ.

---

(١) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٦٢).

(٢) رواه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٧٣).

وقال ﷺ: «لتتَّبِعنَّ سَنَن من كان قبلكم»؛ تنبه هنا: مَن قبلنا فيهم من عبد الملائكة، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، وفيهم من عبد الأشجار، وفيهم من عبد الصالحين، ونبينا ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»[1].

النبي ﷺ عندما قال لنا: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ» لم يقلها لنا مجرد معلومة نسمعها ونعرفها؛ بل من أجل أن نحذر ونحتاط لأنفسنا من هذا الباطل الذي كان عليه من قبلنا فنحذره ونحرص على مجانبته والبعد عنه.

ثم ختم المؤلف رحمه الله بحديث أبي واقد الليثي، وهذا حديث عظيم جدًّا في هذا الباب، يُبيِّن لنا خطورة حال الإنسان عندما يكون حديث عهدٍ بإسلام أو تكون معلوماته الإسلامية ضعيفة أو يكون نشأ في مجتمع تكثر فيه هذه المخالفات، فهنا فيه خطورة يُبينها ويُجليها لنا هذا الحديث؛ قال أبو واقد الليثي رضي الله عنه: «**خرجنا مع النبيِّ ﷺ إلى حُنَين ونحن حُدَثاء عهد بكفر**» هذا اعتذار قدَّمه رضي الله عنه من المقالة التي قالوها، قال: «**ونحن حُدَثاء عَهد بكفر**» يعني عهدنا بالكفر كان قريبا، والذي على الكفر من وقت قريب معلوماته الشرعية عن الإسلام وعن التوحيد وعن تفاصيل الشرع تكون ضعيفة، وربما في الوقت نفسه تكون بعض الأمور التي كان عليها في الجاهلية لم يتبين له بعد، ولم يظهر له أنها مصادِمة للإسلام الذي اعتنقه ودخل فيه، ومثل هذا الأمر يحدث لمن ينشأ في مجتمعات تكثر فيها أمور الجاهلية ويكثر فيها دعاة الضلال وأئمة الباطل؛ ربما ينشأ لا

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

يعرف بعض الأمور ولا يفهمها ولا يدركها ويقع في الشرك والضلال من حيث أنه يظن أنه على التوحيد والإسلام، والله المستعان.

يقول أبو واقد رضي الله عنه: «**خرجنا مع النبي ﷺ إلى حُنينٍ**»، انظر من هم هؤلاء الرجال، -هذه الكلمة مهمة- هؤلاء رجال خرجوا مع النبي ﷺ بائعين أنفسهم في سبيل الله، معهم السيوف يقاتِلون، منهم من سيُقتل ويموت في سبيل الله، ثم يقولون هذه المقالة التي بُيِّنت في الحديث.

قال رضي الله عنه: «**ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة، يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم**»: وهم في الطريق مرُّوا بسدرة أي مرُّوا بشجرة للمشركين، قال: «**يَعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم**»، هذا نوع من الشرك؛ الشرك من أنواعه ومجالاته العكوف عند القبر أو عند الشجرة أو عند المكان الذي يُعبد ويُقصد ويُتوجه إليه.

(يعكف عنده): أي يبقى عنده مدة طويلة، ساكنًا خاضعًا متذلِّلاً راهبًا، هذه عبادة، ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، العكوف: عبادة لله تبارك وتعالى، «يعكفون عندها»: يبقى قائما ساعة، ساعتين، أقل أو أكثر، ساكنا خاشعا، ربما لا يتكلم بكلمة، فقط مجرد وقوف، وهو يعتقد في قرارة نفسه أن عكوفه هذا يجلب له بركة، لأن هذه الشجرة مباركة فبركتها تنعكس عليه وتنجذب إليه ويعود إليه نصيب منها، فيعكفون عندها.

وأيضا «**ينوطون بها أسلحتهم**» أي: يعلقون أسلحتهم لأنهم يعتقدون أن

السلاح إذا عُلِّق على هذه الشجرة المباركة- بزعمهم- بورك السلاح وأصبح قويًّا في القتال، فكانوا يعتقدون هذه العقائد الباطلة.

«**يُقال لها: ذات أنواط**»: لكثرة ما يُعلِّقون عليها من أسلحتهم -ينوطون أي: يُعلِّقون- رجاء البركة وطلبها.

قال: «**فمررنا بسدرة** -أي مرُّوا بسدرة أخرى غير تلك- **فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أنواط**»؛ يعني اجعل لنا نحن، وخصِّص لنا شجرة معينة نمارس عندها مثل هذه الممارسة؛ نعكف ونعلق السلاح من أجل طلب البركة.

«**فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السُّنَن** -وفي رواية قال: «**سبحان الله**»-، **قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**، -ثم قال-: **لتتبعن سَنَن من كان قبلكم**».

انظر هذا النصح العظيم والتحذير البالغ من نبينا ﷺ، وخُذ نفسك مأخذ الحزم والحيطة والحذر، «**قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾** [الأعراف:١٣٨]، «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم**»، أي: «**شبرا شبرا، ذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**».

بل جاء عنه ﷺ في بعض الروايات في غير هذا الحديث: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا

أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»[1].

يجب على الإنسان أن يحذر، خاصة في زماننا هذا؛ هذا الزمن انفتح الناس انفتاحا عجيبا على حال المجتمعات الكافرة وأمم الشرك، وأصبح الناس من خلال القنوات الفضائية ومن خلال شبكة العنكبوت (الانترنت)، والإنسان جالس في بيته، والمرأة جالسة في بيتها ينفتح عليها العالم كله، وترى وثنيَّة الوثنيِّين وشرك المشركين وضلال المضلين وشُبه المبطلين، ويكون هذا المسكين الذي ينظر هذا كله بضاعته الشرعية وعلمه بالتوحيد علم ضعيف محدود، ثم يرجو لنفسه سلامة!

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا ... إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَمْشِي عَلَى اليَبَسِ

أَلْقَاهُ فِي اليمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ... إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

فالشاهد أن هذا الأمر جد خطير، وأن الأمر -كما قرر الشيخ رحمة الله عليه-: أن الشرك الذي كان عليه المشركون في زمن النبي ﷺ ليس عبادة أصنام فقط.

فبعض الناس عندما يقرأ الآيات التي فيها التحذير من الشرك يجعل في ذهنه فقط -وهذه من الشُّبه التي أُدرِجت على الناس-: اللاَّت والعُزَّى ومناة، ويقول: الحمد لله، هذه أصنام ليست موجودة وحُطِّمت في زمن النبي ﷺ ولا يوجد شرك، بل بعض الناس وُجد من أئمة الضلال أنه قال: (أمة محمد ﷺ إلى قيام

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٤١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٤١).

الساعة لن يوجد فيها شرك)! هذا قيل وكُتب في بعض الكتب ولُبِّس فيه على بعض الجُهَّال، وأصبحوا يمارسون ممارسات من الشرك ويقول لهم هؤلاء: أمة محمد ﷺ معصومة من الشرك، وربما استدلوا ببعض الأحاديث ووضعوها في غير بابها، مثل حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»(١)، يستدلون بهذا الحديث ويتركون أحاديث محكمة صريحة في أن العبادة لغير الله ستكون في الأمة، كما سبق ذكره.

إذًا لو قيل لك: هل سيوجد في أمة النبي ﷺ من سيعبد الملائكة، أو الأنبياء أو الصالحين، أو الأشجار والأحجار، أو الشمس والقمر؟

فالجواب: نعم؛ بدليلين:

الدليل الأول: أن هذه آيات بيِّنات في القرآن الكريم، وأن هذه الممارسات كانت موجودة فيمن كان قبلنا.

الدليل الثاني: أن نبينا عليه الصلاة والسلام قال: «لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبرا شبرا ذراعا ذراعا، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

ولا يعني ذلك وجوده في الأمة بأسرها؛ بل يوجد في أفراد من الناس وآحاد منهم و بعض من يضلون سواء السبيل، فيوجد فيهم هذا الانحراف.

فإذا علمتَ هذا العلم وفهمتَ هذا الفهم ودريتَ هذه الدراية اتق الله ﷻ واحفظ توحيدك وصن إيمانك وابعد نفسك عن الشرك.

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٢).

[المتن]

قال المؤلف ﵀:

القاعدة الرابعة:

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ؛ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ؛ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ **[العنكبوت:٦٥].**

تَمَّتْ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

[الشرح]

ثم ختم ﵀ هذه القواعد بهذه القاعدة العظيمة، المهمة وهي قوله: «**أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ**»: أي وقت الصحة والعافية والأمن والراحة والطمأنينة -ونحو ذلك- يشركون، يعبدون مع الله ﷻ الأشجار والأحجار والملائكة...الخ، أما وقت الشدة عندما تشتد الأمور وتعظم الكربات لا يعبدون شيئا من تلك المعبودات، بل يتوجهون إلى الله ﷻ وحده مخلصين له الدين، فهكذا كانوا.

«**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ **[العنكبوت:٦٥]**»، فهذه حالة المشركين الأُوَّل:

إذا ركبوا في الفلك وأتت الرياح العاتية، وتلاطمت الأمواج، وأدركهم الغرق، وعظم فيهم الخطب؛ أخلصوا الدين لله، يقولون فقط: يا رب.. يا رب، لا يناجون اللات ولا هبل ولا غيرهما مما كانوا يدعونها في حال الرخاء: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: إخلاصٌ تامٌ في التوجه والسؤال والطلب، أما الوسائط فكلها تسقط وتذهب ولا يتعلقون بشيء منها، بل يُخلصون الدين لله وحده، والدليل واضح أمامك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟﴾ -أي المشركين- ﴿فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يعني إذا انتهوا من البحر ومشاكل الغرق وكانوا في البَر، وطأت أقدامهم اليابسة، رجعوا للشرك، وبدؤوا ينادون اللاّت والعزى... إلخ.

ولهذا؛ اقرأ في هذا السياق بيان الله ﷻ لهؤلاء أن الله قادر عليهم في حال كونهم في البحر وفي حال كونهم في البر، الأمر سواء في قدرته ﷻ، وهو سبحانه قادر على إهلاكهم بَرًّا وبحرًا، فيقال للمشرك: إذا كنت تؤمن بأنه لا ينجيك في البحر إلا الله، فكذلك لا ينجيك في البر إلا الله، لأن الله قادر عليك في البر و في البحر، فما تغني عنك هذه الأصنام من الله شيئا.

ولهذا اقرأ قول الله ﷻ: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء]؛

قوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي ذهب كل من تتعلقون به وتدعونه وترجونه، ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: إلا الله؛ وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: تدل أن

هذه الآية أن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره، لكنهم في البحر كل من يعبدونه من دون الله يذهب عن قلوبهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم، فلا يعبدون إلا الله ﷻ وحده مخلصين له الدين.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ [الإسراء:٦٨]، الآن وطئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة والنجاة من كربات وشدة البحر ورجعتم إلى الشرك، هل عندما رجعتم إلى الشرك بعد أن وطئت أقدامكم البر، وأحسستم بالسلامة، هل أمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر؟ إذا لماذا تعودون إلى الشرك؟

أمر آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، هل تأمنون من ذلك؟

أي وأنتم في البر فيه احتمالات؛ الأول: أن يخسف الله بكم جانب البر، الأرض التي تحتكم تنخسف، وتسقطون في هوة من الأرض لا يعلم مداها إلا الله، وتنطبق عليكم، ولا يُرى لكم أثر؛ لأن الله ﷻ قادر على كل شيء، وقد أخبر أنه عاقب من عاقب بشيء من ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، احتمال آخر: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: وأنتم في البر هل تأمنون أن الله ﷻ يبعث ريحا شديدة قوية تحمل الحصباء فيهلككم وأنتم في البر؟ فهذا احتمال آخر ضعوه في بالكم.

أيضا احتمال ثالث ذكره الله ﷻ: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء:٦٩].

هذه احتمالات ذكرها الله لهم:

- يُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر خسفًا.

- ويُحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر ريحًا عاصفة تحمل الحصباء تهلككم.

- ويحتمل أن يعيدكم الله ﷻ فيما بعد إلى البحر في حاجة من حاجاتكم وطلب من طلباتكم ويرسل عليكم وأنتم في البحر خاسفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم.

إذا من تُخلصون له في الشدة وتشركون معه في الرخاء حقه والواجب عليكم أن تكونوا مُخلصين له في الرخاء والشدة، لأنكم لستم في أَمَنة من عقوبته ونقمته، لا في البر ولا في البحر.

«كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده.

فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فَأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رؤوفًا رحيمًا.

فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه»[1]، فكانت هذه الحادثة فيها العظة له والعبرة في دخوله في الإسلام ورجوعه للدين.

إذا أولئك كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ويقول المصنف

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٩٦).

-رحمه الله- أما المشركون في زماننا فحالهم أنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة، أي أن حالهم عندما يركبون في الفلك ويعاينون شدة الغرق ومقاربة الموت يفزعون إلى المعبودات التي تعلقت قلوبهم بها، ففي مثل هذه الحال تراهم يقولون: مدَد يا فلان، أدركنا يا فلان، إن لم تلحقنا في هذا من يلحقنا؟ إن لم تنقذنا من هذا الغرق، من الذي ينقذنا؟ يخاطبون أموات! يخاطبون مقبورين! أنا عائذ بك، أنا ملتجئ إليك، أنا في جنابك... الخ، في الشدة يفعلون ذلك، وهذا شرك ما كان المشركون يفعلونه في حال الشدة.

وقد ذكر بعضهم أن جماعة كانوا في سفينة وأدركهم الغرق، فأخذ كلٌ يهتف بمعبوده: مدد يا فلان، ألحقنا يا شيخ فلان، أدركنا يا فلان.. وينادون، كلٌّ ينادي شيخه أو معبوده، فكان فيهم رجل مسن على الفطرة والتوحيد، التفت فإذا كل من على السفينة لا ينادون إلا هذه المعبودات، ليس فيهم من ينادي الله، فمدَّ يديه وقال: يارب! أغرق.. أغرق ما على السفينة من يعبدك، فإن كل من على السفينة متجهين إلى غيرك.

فهؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، والعياذ بالله؛ لأن من وراء ذلك أئمة الضلال وشيوخ الباطل؛ غرسوا في نفوس هؤلاء التعلق بهم، وقالوا لهم -كما هو واضح في كتب بعضهم-: إذا أدركتَ الكربة وعاينتَ الشدة في أي مكان فاهتف باسمي وستراني بجنبك، حتى بعد موتي لا تنس ذلك؛ فإني أخرج إليك وآخذ بيدك.

وكتب هؤلاء كتبًا يعددون كراماتهم -زعموا-، فيقولون ويتداولون أن من كراماتهم أنه كان ينقذ السفن في البحر من الغرق.

والعوام يسمعون مثل هذه القصص ويصدقونها وترسخ في قلوبهم، ثم إذا ركبوا في الفلك يغلظ شركهم على شرك المشركين الأُوَّل، فتجده إلى أن يغرق، إلى أن يموت، وهو ينادي شيخه ويهتف باسم شيخه -والعياذ بالله- على الشرك بالله -نسأل الله العافية والسلامة-.

والله إنها حالة مؤلمة جدا ومؤسفة، تفارق روحه الحياة وهو لا يزال يظن أن شيخه سيأتي، ليدركه، وينقذه؛ لا يعبد الله ولا يخلص لله حتى في شدته.

وهذه المسائل والتوسع فيها والرد على الشُّبه التي يطرحها أهل الشرك والباطل توسع فيها- رحمه الله ﷻ- في كتابٍ له معروف، اسمه: «كشف الشبهات»[1] وهو كتاب مهم جدا، لا يستغني عنه طالب العلم، ذكر فيه هذه

---

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «اسم الكتاب مُطابقٌ لموضوعه، فالشيخ - رحمه الله - أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهلُ البدع، ملبِّسين بها على الدعوة إلى الحقِّ والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لِما كان عليه سلف هذه الأمَّة من الصحابة ومَن سار على نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يَدعونهم ويَستغيثون بهم، فجمع الشيخ - رحمه الله - جُملاً كبيرة من هذه الشُّبَه، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاً على ذلك بنصوص الكتاب والسنَّة وما كان عليه سلف الأمَّة، وكتابه هذا متمِّمٌ لكتبه الأخرى في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنَّة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب على ما يُورَد على العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيِّناً بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدى الذي كان عليه سلف هذه الأمَّة» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص٢٦).

القواعد مفصلة تفصيلاً أوسع من هنا، و ذكر أيضا أصولا أخرى، و تقعيدات وتأصيلات يحتاج إليها المسلم في كشف شبهات أهل الشرك والباطل.

فنسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء على هذا النصح العظيم، والبيان الموفق والإيضاح للتوحيد والتحذير من الشرك الذي كان هو شغله الشاغل- رحمة الله عليه- في حياته، فنفع الله ﷻ بدعوته نفعًا عظيمًا، ولا يزال الناس مع مر الأيام يستفيدون من هذه الدعوة، ويستفيدون من هذا النصح، ويستفيدون من هذه الآيات والحجج والبيِّنات التي جمعها -رحمه الله ﷻ- فاستفاد من ذلك خلق كثير، واهتدى أقوام كثر وكتب الله ﷻ لهم الهداية، ولله الحمد.

ثم ختم- رحمه الله تعالى- الرسالة بقوله: «**تَمَّتْ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم**»: يوجد في بعض المجتمعات من يصدون الناس عن دعوته، حتى إن بعضهم قيل له -كما ذكر لنا بعضهم ذلك- قيل له في التحذير من الشيخ محمد بن عبد الوهاب- رحمه الله- أنه لا يصلي على النبي ﷺ!! ويصدق الواحد منهم هذا الكذب، والله المستعان، وهذه كتبه شاهدة على حبه واستدلاله بالنبي ﷺ[١].

---

(١) وقد قال رحمه الله في عقيدته: «أُشهد الله ومن حضرني من الملائكة، وأشهدكم: أني أعتقد ما اعتقدته الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة... وأومن بأن نبينا محمداً ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، ولا يصح إيمان عبد حتى يؤمن برسالته، ويشهد بنبوته..» «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١/ ٣٢).

قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «وتعجبني قصة لأحد الفضلاء، وهو



ختم- رحمه الله- هذه الرسالة المباركة بقوله: «**تَمَّتْ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمْ**».

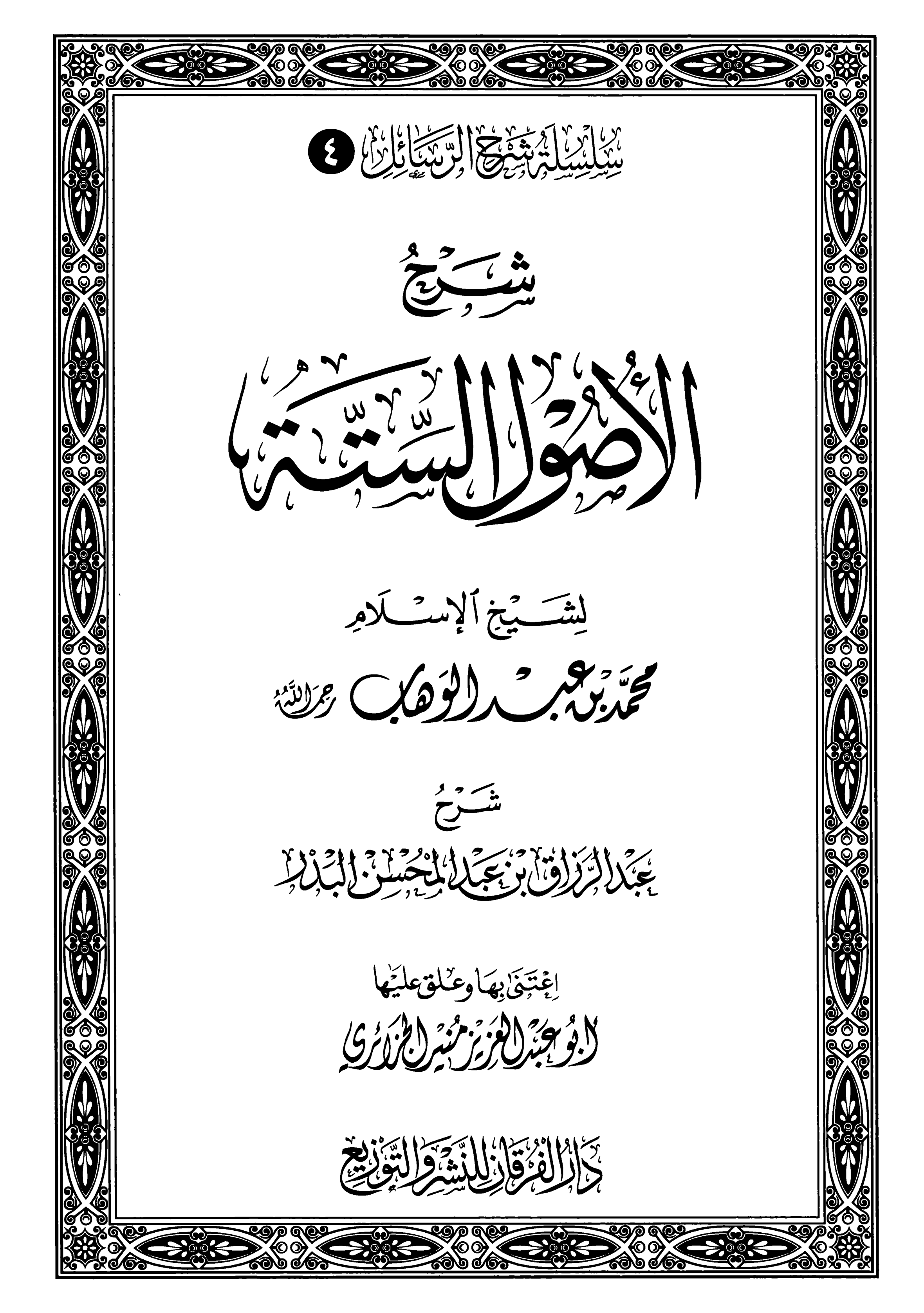
فجزاه الله خيرًا على ما قدَّم وأعلى درجاته ورفع موازينه في عليين، وجمعنا به أجمعين وبالصالحين من عباده وبأنبيائه وأوليائه في جنات النعيم، وهدانا صراطه المستقيم، وأصلح لنا جميعا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا جميعا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، ونسأله ﷻ أن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير والموت راحة لنا من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

أسأل الله أن يهدينا وأن يهدي بنا وأن يهدي لنا، وأن يجعلنا من عباده المهتدين.

وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدْ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينْ.



الشيخ ثاني المنصور رحمه الله من الجبيل في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية سمعتها ممن سمعها منه مضمونها: أنه زار إحدى الدول التي فتن بعض أهلها بالبناء على القبور والغلو في أصحابها، فلقي جماعة في مسجد فيه قبر لمزوه وأهل بلده بأنهم لا يحبون الرسول ﷺ، فقال لهم: هل في بلادكم حانات للخمور وأماكن للعهر والفجور؟ قالوا: نعم كثيرة!، فقال: إن بلادنا ليس فيها ولا محل واحد، وقال لهم أيضـًا: ما حكم الصلاة على النبي ﷺ عندكم في الصلاة؟ قالوا مستحبّة، قال: فإنها عندنا ركن، إذا لم يأت بها المصلي في صلاته، لا تصح صلاته، فمن يكون الأولى إذاً بمحبة الرسول ﷺ؟» «شرح شروط الصلاة وأركانها وواجباتها» (ص٨٣).



سلسلة شرح الرسائل ٤

شرح الأصول الستة

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

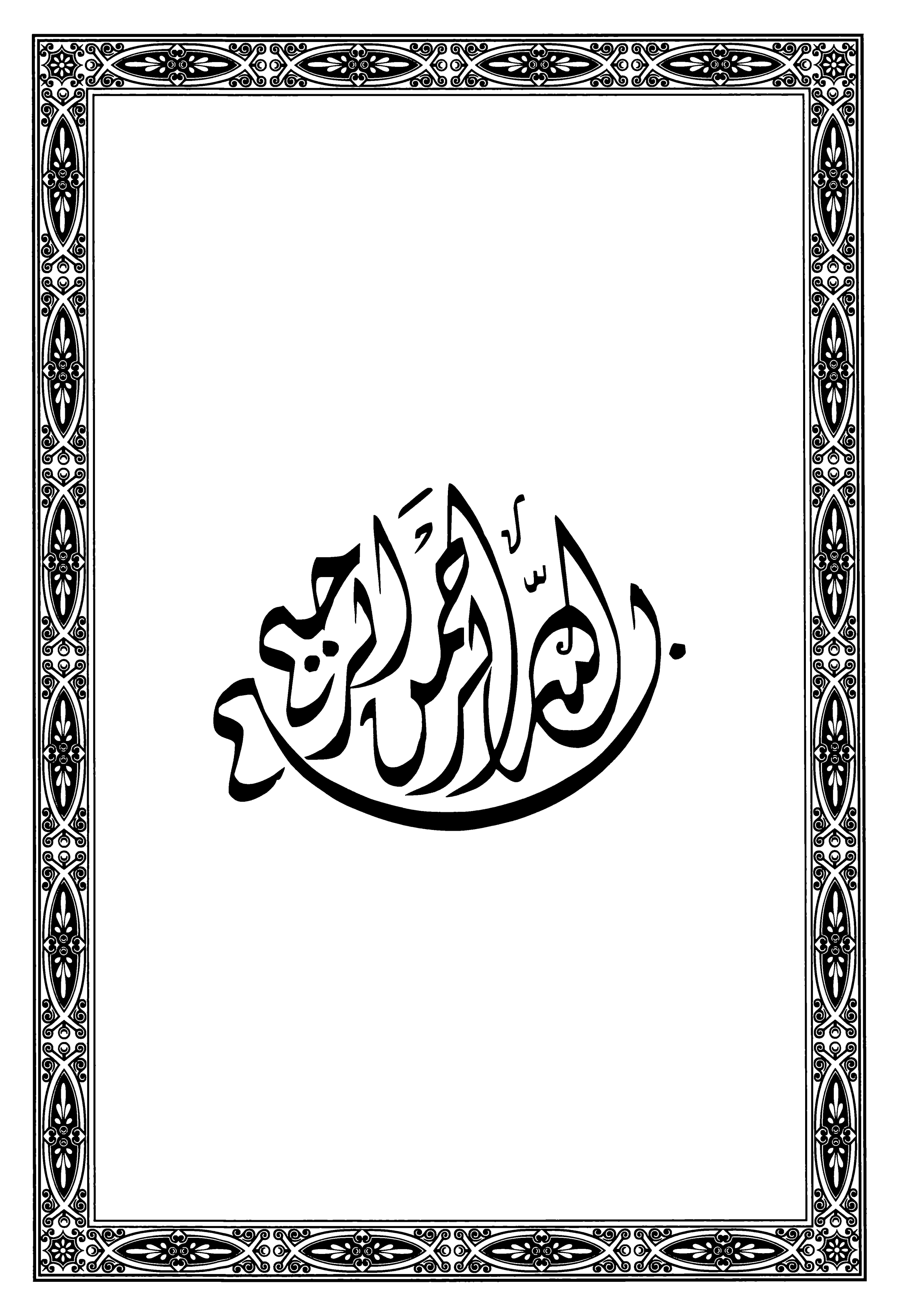
شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀ «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (**الأُصُولُ السِّتَّة**)، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٢].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِهِ إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.



سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي اللّٰه

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095





مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا ومِنْ سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّداً عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فبين أيدينا رسالة قيّمة مختصرة للإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب ﵀ ؛ جمع فيها أصولاً ستَّة عظيمة بُيّنت في كتاب الله ﷿ بيانًا وافيًا، وذُكرت لها الدلائل البيِّنات والشواهد الواضحات في كتاب الله ﷿ وسنَّة رسوله ﷺ؛ بحيث كانت واضحةً وضوحًا لا خفاء فيه، وظاهرةً ظهوراً لا التباس فيه، ومع ذلك فقد ضلَّ فيها أكثر النَّاس وانحرفوا فيها عن جادّة الصّواب وعن الطَّريق السَّويَّة، وقد نصح هذا الإمام ﵀ للأمَّة بجمعه هذه الرِّسالة المشتملة على أصول ستَّة مِنْ أصول هذا الدِّين المبيَّنة في الكتاب والسُنَّة مشيراً إلى أهمِّيتها وعظم شأنها

ومنبِّهًا في الوقت نفسه على نوع الانحراف الَّذي وقع فيه أكثر النَّاس فيما يتعلَّق بهذه الأصول السِّتَّة.

فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه رحمةً واسعةً على ما قدَّم فيه نفعًا للأمَّة.

هذا؛ والله الكريم أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله لوجهه خالصا ولسنة نبيه مطابقا، إنه ﷻ خير مسؤول، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى وقدس روحه في الجنة-، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيَّنها الله تعالى بيانا واضحا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثُمَّ بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل».

[الشرح]

الإمام ﵀ بدأ هذه الرِّسالة بذكر عظم شأن هذه الأصول السِّتَّة، وأنَّها قد بُيِّنتْ في كتاب الله ﷻ، وفي سنَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه بيانـًا وافيـًا، وقد ذكر ﵀ هذه الأصول وأشار في بداية حديثه عنها أنَّها أصولٌ ستّةٌ، وذِكره ﵀ لهذا الرَّقم في بداية حديثه عن هذه الأصول نوع مِنَ الإعانة لطالب العلم على ضبط العلم، فلو أنَّه ذكر هذه الأصول نثرًا دون إشارة إلى رقم يجمعها ربَّما ضعف ضبط طالب العلم لها، لكن إذا قرأها وعرف أنَّها ستَّة استجمع ذهنه لضبطها؛ وهذا من هدي النَّبيِّ ﷺ في سنَّته ﵊؛ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ**»[1].

وقال: «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ،**

---

(١) رواه البخاري (١٦٩)، ومسلم (٤٣).

وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»(١).

وقال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَات**»(٢).

فيأتي عنه ﷺ مثل هذا كثير، فلا يذكر الأمور نثراً وإنَّما يذكر لها رقما يحويها بحيث تُضبط المسائل المقصود بيانها و تقريرها وإيضاحها؛ ولهذا قال رحمه الله ستَّة أصول.

وقوله «**أصول**»؛ الأصل: هو ما يُبنى عليه غيره، وهو الأساس لغيره، وهذا تنبيه من المصنِّف رحمه الله إلى أنَّ هذه مِنَ الأصول الكبار والقواعد الجوامع الكليَّة، ومع ذلك إلَّا أنه قد ضلَّ فيها أكثر النَّاس.

وبدأ رحمه الله هذه الرِّسالة بالتَّعجُّب الشَّديد الَّذي طرحه رحمه الله؛ ليشاركه طالب العلم في التعجُّب والتّأمّل في هذا الأمر؛ فقال: «**من أعجب العجاب**» أي: من أشدِّ الأمور إثارة للعجب في الأذهان.

«**وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلاّب**»: هنا نبَّه على أمرين:

نبَّه على أنَّ الأصول الآتي تقريرها مع مخالفة أكثر النَّاس لها رغم وضوحها تدلُّ على أمر عجيب جدًّا في حال النَّاس وواقعهم.

وتدلّ أيضًا في الوقت نفسه على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٥٧)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٢٧١)، والحاكم في «مستدركه» (٨٠٦٦)، وحسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

«**على قدرة الملك الغلاّب**»؛ «**الملك**»: أي الَّذي بيده الملك، المتصرِّف في هذا الكون عطاءً ومنعًا، خفضًا ورفعًا، قبضًا وبسطًا، يعزّ ويذل، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضل.

فالَّذي يتأمَّل هذه الأصول الستَّة وواقع النَّاس معها تدلُّه على كمال قدرة الملك الغلَّاب؛ و«**الغلاَّب**» كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[يوسف]، غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ[1]: أي حكمه نافذ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، يتصرّف في مملكته وفي مخلوقاته كيف شاء، ويدبّرها ﷻ كما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر]،فالأمر بيده تبارك وتعالى .

ومِنَ الدَّلائل على أنَّ الأمر بيده هذه الأصول السِّتة الواضحة والبيِّنة وضوح الشَّمس، ومع ذلك يضلُّ أكثر النَّاس فيها عن سواء السَّبيل وينحرفون عن الجادَّة السَّويَّة؛ فهذا أمر مدعاة للتعجب الشَّديد، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على قدرة الله وكمال ملكه، وأنَّه تبارك وتعالى غالب على أمره، وأنَّ حكمه نافذ وأنَّ الأمور بيده ﷻ، يحكم في خلقه بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه تبارك وتعالى .

قال رحمه الله: «**وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلاّب ستة أصول بيّنها الله تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظّانون**»: هذا تأكيد من المصنِّف رحمه الله على

---

(١) يُنظر: «فقه الأسماء الحسنى» (ص٢٦١) لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

وضوح هذه الأصول السّتة، ووضوحها وبيانها في كتاب الله ﷻ وسنّة نبيّه ﷺ ؛ قال: «**بيّنها الله بيانًا واضحًا**)» أي: جعلها أموراً بيّنة ليستْ ملتبسة، أي ظاهرة لكلّ أحد، فليس فيها خفاء ولا يكترثها غموض، ولا يلابسها تعقيد، بل هي واضحة ظاهرة في كتاب الله ﷻ، وكذلك في سنّة نبيّه ﷺ.

«**بيانًا واضحًا للعوام**»: أي أن وضوح هذه ليس أمراً مختصًّا بأهل العلم أو بالرّاسخين فيه فقط؛ بل هي واضحة حتى للعوام؛ فضلاً عمن هو أرفع وأعلم وأفقه منهم، فهي واضحة للعوام تمامًا «**فوق ما يظنه الظانون**»: يعني وضوحها فوق ما قد يُظنّ، فقد يظنها الإنسان واضحة لكن وضوحها القوي الظاهر البين فوق ما يظنه الظانون، ومتى يظهر هذا المعنى الّذي قاله الشّيخ ؒ؟ عندما يتأمّل المسلم أنواع الأدلَّة الواردة في الكتاب والسُنَّة في تقرير هذه الأصول، وأنها أقيمت عليها الحجج البيّنات بأنواع من الأدلة؛ بحيث أن هذا البيان لهذه الأصول فوق ما قد يُظنّ ، لا من حيث تنوّع الأدلة فقط، بل حتى من حيث كثرة عددها.

فمثلا الأصل الأول الّذي سيأتي الكلام عنه وهو (**إخلاص الدين لله وبيان ضده الّذي هو الشّرك..**)؛ قال الإمام ابن القيِّم ؒ «**وغالب سور القرآن بل كلُّ سورة في القرآن فهي متضمِّنة لنوعي التَّوحيد؛ بل نقول قولا كليًّا إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنة للتَّوحيد شاهدة به داعية إليه**»[1].

فالشَّاهد أنَّ هذه الأصول بُيِّنت بيانًا واضحًا لا خفاء فيه، وليس هذا البيان

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٣/ ٤٥٠).

لأهل العلم فقط؛ بل يفهمها كلُّ مَنْ يفهم اللِّسان العربي الَّذي أُنزل به القرآن الكريم.

«**ثُمَّ بعد هذا كله غلط فيها كثير من أذكياء العالم**»: أي رغم وضوحها الشَّديد وبيانها البيَّن وكونها لا خفاء فيها ولا التباس؛ ومع ذلك كلّه غلط كثير من أذكياء العالم، هنا قوله: «**غلط فيها**» هذا موضع العجب، وهنا ظهور الآية الَّتِي قال: «**آيات دالة على قدرة الملك**».

فتعجب غاية العجب عندما يكون هناك طريق يوصل إلى البلد المقصود، واللَّوحات الإرشاديّة للطريق كثيرة جدّاً، فكلّما تمشي خطوتين تجد لوحة إرشاديّة، مثلا: طريق مكة وسهم يشير إليه، ثُمَّ تمضي وفي الطريق أيضـًا تجد السهم يشير، ثُمَّ في الوقت نفسه تجد كثيراً من الناس يريدون مكة ولكنَّهم يأخذون ذات اليمين وذات الشمال يضيعون ويضلون وينحرفون!! هذا أمر في غاية العجب؛ لأنَّك إذا تأمَّلت وضوح الطَّريق وكثرة اللَّوحات الإرشادية الدَّالة عليه ثُمَّ نظرت إلى أكثر النَّاس ينحرفون عنه، تتساءل وتقول: هل الطريق غير واضح؟ ثُمَّ تجيب نفسك: وهل أوضح من هذا؟! هل فيه أزيَد من هذا الوضوح؟! فهذا أمر في غاية العجب، كثرة الدَّلائل والحجج والبراهين، ثُمَّ في الوقت نفسه كثرة المنحرفين والزائغين والضّالين، وفيه أيضـًا دلالة على أنَّ الأمور بيد الله ﷻ: الهداية، الاستقامة، صلاح العبد، التَّوفيق، وسلوك العبد للطَّريق القويم.

وقد سُئل أعرابيٌّ قيل له: بما عرفتَ ربَّك؟ قال: «**بنقضِ العزائم وصرف**

الهِمم»(١) ؛ عرفتُ ربّي بهذا، أنَّ عزمي على شيء أو همّتي على أمر مِنَ الأمور فتنتقض، وأتَّجه إلى غيره وأنا عازم إلى أمر معين وإذا بي أتوجه إلى آخر، فهذا يدلُّ على أنَّ الأمور بيد الله ﷻ، وليس هذا معناه أن العبد لا مشيئة له ولا اختيار؛ بل له مشيئة تدل عليها النّصوص في كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ويدل عليها واقع الإنسان، ولو تأمّل الإنسان واقعه وحياته وأموره يجد أنَّ عنده مشيئة واضحة يختار بها طريق الخير وطريق الشّر، ولكن مشيئته تحت مشيئة الله، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾[التكوير].

قال: «**غلط فيها كثير من أذكياء العالم**» وهذا فيه دلالة على أنّ الذّكاء وحده لا يكفي العبد في استقامة أموره وصلاح أحواله، فكم ممن ذكاؤهم مفرط، وذهنهم وقّاد، وفهمهم قويّ، لكنّهم يضلُّون كما قال الله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الروم]، فذكاؤه خارق وقوي جدا، لكن أهمّ أمر خُلق لأجله ووُجد لتحقيقه ليس عنده منه علم؛ بل تُعرض عليه حجج واضحات ودلائل مقنعات فيرفضها ويأباها ولا يقبلها! لا لكونه لا يفهم، بل هو يستوعب أمورًا دقيقةً وعسيرة الفهم، ثُمَّ يُعرض عليه أبين الأمور وأوضحها فلا يفهمها ولا تقبلها نفسه!

قال: «**ومع ذلك غلط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم**» وهؤلاء الَّذين وصفهم الشيخ رحمه الله بالذَّكاء هم في الحقيقة كما يقول شيخ الإسلام ابن

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعليقًا على هذا الكلام: «فالإنسان يعزم على الشَّيء ثمَّ لا يدري إلَّا وعزيمته منتقضة، بدون سبب ظاهر» «القول المفيد» (٢/ ١٧٠).

تيمية ﷺ: «أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا، وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف]»(١)؛ فما أغنى عنهم ذكاؤهم ولا أغنت عنهم عقولهم ولا انتفعوا بها، وإذا كان عنده انتفاع بعقله فانتفاعه به محدود ينتهي بموته وليس لعقله ثمرة بعد ذلك؛ ولهذا يندم أهل النار غاية النّدم لعدم استعمالهم لعقولهم فيما خُلقت له وأُوجِدتْ لتحقيقه، ويقولون نادمين: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، لكن فساد العقل وانحرافه يفضي بالإنسان إلى هذا الزَّلل، والعياذ بالله.

قال: «إلاّ أقل القليل» أي: أنَّ أكثر النّاس ضلُّوا في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] ، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[يوسف]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فأقلُّ القليل هم الَّذين هُدوا إلى صراط الله المستقيم واستقاموا على الجادة السويَّة، وأكثر النَّاس ضلُّوا عنْ سواء السَّبيل.

والمؤلف ﷺ قصد بهذه المقدِّمة أن ينبِّه طالب العلم على أهميَّة هذه الأصول السِّتَّة وعظيم مكانتها -هذا من جهة- وأن ينبِّه طالب العلم على ضرورة إقباله

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٩).

الصَّادق على الله ﷻ ليهديه و يثبّت قلبه وأن لا يزيغه عن سواء الصراط، ومن دعوات النَّبيِّ ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»(١).

ومن دعواته ﷺ أيضـاً: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَي الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(٢).

وأراد أنْ ينبِّهه أيضًا على ضرورة العناية بهذه المسائل؛ بضبطها وإتقانها، وأراد أنْ ينبِّه أنَّ الذَّكاء وحده لا يكفي إذا لم يُرزق صاحبه السَّداد والتَّوفيق مِنَ الله ﷻ، فلا يغتر الإنسان بما عنده مِنْ ذكاء وما لديه مِنْ نباهة، فكم مِنْ ذكيٍّ لم ينتفع بذكائه ولم يستفد منه، وأراد أن ينبِّه أيضـاً على خطورة الشُّبهات وأنَّها تُضر بالنَّاس غاية الضَّرر لأنَّها تقلِب الحقائق وتخلط الأوراق وتُردي بالنَّاس وتُخلُّ بالعقول وتفسد الأذهان، فالشُّبهات غاية في الخطورة، وإذا أصغى الإنسان لها وأعطاها سمعه أضرَّت بعقيدته، و بعبادته، وبِصِلَتِه بربِّه ﷻ.

فهنا تنبيه مِنَ المصنِّف ﵀ لطالب العلم ألَّا يخاطر بدينه بسماعه للشُّبهات ومطالعته لها؛ لأنَّها خطيرة جِدّاً وصاحب البدعة ملقَّنٌ حجته ؛ أي يشبِّه على النَّاس ويلبِّس عليهم، فمَنْ أرخى لنفسه العنان في سماع الشُّبهات وأصغى إليها أفسدتْ قلبه.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصَّحيحة» (٢٠٩١).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، و مسلم (٢٧١٧)، واللَّفظ له.

ولا يقول الإنسان في هذا المقام: أنا عندي ذكاء وعندي عقل أميِّز ولا تضرّني! فقد كان أئمّة السَّلف وعلماء السُنَّة رحمهم الله على ما آتاهم الله ﷻ مِنَ العلم والفهم والذَّكاء، ما كانوا يصغون إلى مجادِل ولا لأرباب الشبهات وأهل الأهواء ولا يتيحون لهم الحديث في مجالسهم، حتى ولا نصف كلمة كما جاء عن بعضهم، كلُّ ذلك حفظا للدِّين ومحافظة عليه وصيانة له مِنَ الزَّلل .

❃ ❃ ❃ ❃ ❃

[المتن]

قال رحمه الله:

«الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الّذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثُمَّ لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم».

[الشرح]

قال رحمه الله : «**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**»: بدأ هذه الأصول بهذا الأصل العظيم لأنَّه أصل الأصول وبقيتها تبع له، لأنَّها أصول تعين على تحقيق هذا الأصل، فالمقصود أصالة هذا الأصل، وهي الغاية الَّتِي خُلق النَّاس لأجلها وأوجدوا لتحقيقها.

وهو«**إخلاص الدّين لله**»: ومعنى الإخلاص لله جل جلاله: أي أن يأتي العبد بالدِّين خالصـًا لله جل جلاله، أيْ نقِيًّا صافيًا لم يجعل مع الله تبارك وتعالى فيه شريك؛ لأنَّ معنى الخالص في لغة العرب: أي الصَّافي النَّقي، ما لا شائبة فيه تكدِّره.

ويوضح لنا هذا المعنى من حيث اللُّغة قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل].

فقوله ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: وصف اللَّبنَ بأنَّه خالص، أي: يتصف بالصَّفاء والنَّقاوة،

وأخبر ﷻ أن هذا اللّبن الخالص قد خرج من بين فرث ودم، حتَّى قال بعض أهل الخبرة: إنَّ خروجه من بين الفرث والدّم يكون عند الحلب وفي وقته.

ومن الدّلائل على ذلك من حيث الواقع أنَّ النَّاقة على سبيل المثال إذا أراد صاحبها حلبها يأتي إلى ثديها فيحلب لا يجد حليباً، فإذا قرَّب ولدها منها ونظرت إلى ولدها عند ضرعها أدرَّت الحليب ثُمَّ حلب، فيحلب من جهة وولدها يرضع من جهة أخرى، فيخرج الحليب من بين فرث ودم صفته خالص أي: لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث وهو للتو خرج من بين الفرث والدم، صافٍ مصفًّى نقي منقًّى، أخرجه الله تعالى بهذه الصفة خالصاً، ثُمَّ جعله أيضاً ﷻ سائغاً، مع علم الإنسان بمخرجه لكنه يستسيغه ويستلذه ويرى له طعمًا لذيذاً.

الشّاهد قوله: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّاً لا شائبة فيه، فاللّبن لما لم يكن فيه نقطة دم وقطعة فرث خرج صافيا وصف بهذا الوصف ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّاً[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، هو الدّين الصافي النقي الَّذي لم يقصد به إلا الله: لم يُتقرَّب به إلَّا لله، فإذا دخل نية العبد في دينه وفي قرباته سوى الله ﷻ، وقصد التقرُّب إليه خرج

(١) قال الإمام ابن كثير ﵀: «قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ أي: **يتخلَّص الدَّم بياضه وطعمه وحلاوته** من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدَّته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضَّرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغيَّر به» «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٨١).

من الإخلاص لأنَّه لم يصبح صافيًا، ولهذا كان الشِّرك: عدل غير الله ﷻ بالله، فالمشرك خرج من الإخلاص لأنه عدل غير الله بالله وسوَّى غيره ﷻ به في إعطاء غير الله من حق الله وتعالى وخصائصه سبحانه، وهذا نقيض الإخلاص.

ولهذا يمكن أن نعرِّف الإخلاص بمعناه بحيث نقول: الإخلاص هو الدِّين الصَّافي النَّقي الَّذي لم يرد به إلاَّ الله.

ويمكن أن نعرفه بنفي ضدِّه، فنقول: الإخلاص هو الَّذي لا شرك فيه.

والشرك نوعان: نوعٌ ينافي التَّوحيد من أصله، ونوعٌ ينافي كماله الواجب.

نوع ينافي التَّوحيد من أصله: وهو الشِّرك الأكبر النَّاقل مِنْ ملَّة الإسلام؛ وهو تسوية غير الله بالله ﷻ فيما هو مِنْ خصائصه تعالى.

والشِّرك يقع في أنواع التَّوحيد الثَّلاثة: الشِّرك في الربوبيَّة، والشِّرك في الألوهية، والشِّرك في الأسماء والصِّفات، فإعطاء غير الله شيئًا من خصائص الله في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، هذا شرك أكبر ناقل من ملَّة الإسلام، والمعترك بين الأنبياء وأقوامهم هو في شرك العبادة، أما ما يتعلق بالإقرار بربوبية الله فالغالب يقرّون بأنَّه الرَّب الخالق الرَّازق، ومن أنكر منهم أنكر على وجه المعاندة والاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

فغالب جحد مَنْ جحد عن استكبارٍ ومعاندة، والمعترك في هذا الباب بين الأنبياء وأقوامهم في باب العبادة وإخلاصها لله ﷻ وعدم جعل الشريك معه فيها كما سبق.

والنوع الثاني: الشِّرك الأصغر: وهو كل ما جاء في النُّصوص وصفه شركًا ولم يصل إلى رتبة الشِّرك الأكبر النَّاقل مِنَ الملَّة؛ كيسير الرِّياء، وكشرك الألفاظ، مثل حلف الإنسان بغير الله، وقوله: (ما شاء الله وشئت)، وقوله: (لولا البط لأتانا اللُّصوص)، ونحو ذلك من الألفاظ الشِّركية الَّتِي يصدر من الإنسان لفظها ولا يعتقد حقيقتها ومضمونها من تسوية لغير الله ﷻ بالله[1].

قال: «**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**»: إخلاص الدِّين لله أي: إخلاص تدين العبد لله، وتقربه إليه بالأعمال الصَّالحات والطَّاعات الزَّاكيات.

إخلاص الدّين لله: أيْ لا لغيره؛ بأن يقع العمل مِنَ العامل مبتغيًا به وجه الله ﷻ، لا يريد به إلاَّ الله والتَّقرُّب إليه ونيل رضاه ﷻ.

وفي قوله ﵀: «إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له» تنبيه إلى أنَّ الإخلاص له ركنان لا يكون إلا بهما؛ وهما: الإثبات والنَّفي.

١/ الإثبات في قوله: «**وحده**».

٢/ والنَّفي في قوله «**لا شريك له**».

فلا يكون العبد مخلصًا إلاَّ بالنَّفي والإثبات وهما ركنا التَّوحيد؛ إثبات العبادة بكلِّ معانيها لله وحده ونفيها عمّن كل من سواه كما هو واضح في كلمة التَّوحيد

---

(١) انظر كلامًا مهمًّا ومفصَّلا حول هذا المبحث من كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه «شرح الدُّروس المهمَّة لعامة الأمَّة» (ص١٠٤).

«**لا إله إلَّا الله**» فإنَّها قائمة على هذين الركنين: نفي عام في أولها، وإثبات خاص في آخرها.

«**لا إله**» نفي للعبودية عن كل من سوى الله، و«**إلاَّ الله**» إثبات للعبوديَّة بكلِّ معناها لله ﷻ وحده، فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحِّداً، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحِّداً، بل لا يكون من أهل التَّوحيد إلاَّ بالنَّفي والإثبات، من نفى بدون إثبات قال «**لا إله**» واكتفى بهذه الكلمة دون أن يثبت الألوهيّة لله بعد نفيها عمّن سواه فإن هذا إلحاد، وعقيدة الملاحدة: (لا إله والحياة مادة) نفيٌ لوجود الإله أصلاً.

ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحِّداً؛ من قال: أنا أؤمن بأنَّ الله معبود ولكن لا أنفي العبودية عمن سواه؛ هذا لا يكون موحِّداً بل هو مشرك.

والإخلاص بُيِّن في القرآن والسُنَّة النَّبويَّة ورُغِّب فيه، والشِّرك كذلك بُيِّن وحذِّر منه فيهما، وتنوعَّت الدَّلائل فيهما في بيان الشِّرك وبيان خطورته والتَّحذير منه وسوء عاقبته على أهله، وتمر بك في القرآن آيات كثيرة فيها ذكر الشِّرك والتَّحذير منه وذمِّ المشركين والتحذير منهم، ولو أنَّك رجعت إلى بعض المعاجم المفهرِسة لألفاظ القرآن عند كلمة (شرك) وتصريفاتها تجدها وردت فيه وروداً كبيرا في مواضع كثيرة جداً ؛ ذمًّا له وتحذيراً من أهله وبيانـاً لسوء عواقبهم في الدُّنيا والآخرة، هذا ما كان منها بلفظ (شرك) ، وكذلك لو نظرت إلى الألفاظ الأخرى: ﴿وَمَنْ يَدْعُو مَعَ اللهِ﴾ ـ مثلًا ـ هذا أيضـًا تحذير مِنَ الشِّرك ولو لم تذكر الكلمة نفسها؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر].

وقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

وَقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء].

فهذا كلّه ذمٌّ للشّرك، فقد ذُمَّ في القرآن بذكره بلفظه، وذُكر أيضـاً بألفاظ ومعانٍ وتقريرات أخرى، فبُيِّن بيانـاً وافيا واسعـاً شافيا كافيـاً في كتاب الله ﷻ.

قال: «**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى**»؛ القرآن أكثره في بيان هذا الأصل من وجوه شتى، هذه الكلمة تفتح لك بابـاً شريفـاً مِنَ العلم وأنت تقرأ القرآن، فأعظم الأمور المبيّنة في القرآن هو التَّوحيد والتَّحذير من ضدِّه وهو الشِّرك، وبُيّن في القرآن بيانـاً شافيـاً يفهمه الناس، فلم يكتفِ المؤلف رحمه الله بقوله: يفهمه العامة، بل قال: «**يفهمه أبلد العامة**» أي: واضح جداً، وبأنواع مِنَ الأدلَّة؛ فكيف يليق بمسلم عاقل يمرُّ عليها ولا يدري ما هي؟! ولا يفهم معناها، أو يتجاهلها، أو يعرض عن فهمها، أو يرتكب المسلك الَّذي يرتكبه مَنْ ضلُّوا عن سواء السبيل بالصّد عن تدبِّر القرآن -وهذا سيأتي الكلام عليه عند المصنّف- صدّ النّاس عن تدبّر القرآن وفهم آياته، وبعض العوام إذا ذُكر له آيات التَّوحيد والتَّحذير مِنَ الشِّرك يقول: (هذه آيات مِنَ القرآن، وفهمه ليس لكل أحد) هكذا يقول بعضهم! أي: إنَّما فهم القرآن خاص بالمجتهدين، والمجتهد صفته كذا وكذا، ونحن لا نفهم ولا يجوز لنا أن نحاول أن نفهم، فهكذا لُبّس على كثير مِنْهُمْ، وأصبح يقرأ آيات

التوحيد والآيات المحذّرة مِنَ الشِّرك ولا يحاول أَنْ يفهم مِنْهَا شيئًا، ويبقى فهمه على ضوء ما قرَّر له أشياخُه.

وقد مرّ معي في بعض الكتب قصّة جميلة في هذا الباب: وهي أنَّ أحد الذين منَّ الله عليهم بفهم التوحيد جلس مع رجل مِنَ العوام ثُمَّ وجده وقع في أمر شركي فنهاه عنْ الشِّرك وتلا عليه آية مِنَ القرآن في التَّحذير منه، كقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء]، أو ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

فقال له ذلك الرجل: لِمَاذا تذكر لنا آيات القرآن، وأنت لست مِنْ أهل الاجتهاد؟ ومثلي ومثلك لا يمكن أن يذكر الآيات ويستدل بها، فردّ كلامه بهذه الطريقة، فالرجل سكت ولم يتكلّم معه، ثُمَّ انتظر بعد قليل وكانوا في بيت ذلك الرجل، فجاءت ابنةٌ صغيرة له فسأله: مَنْ هذه؟ قال: هذه ابنتي عمرها سبع سنوات، قال: فلماذا لا تتزوجها؟! قال: اتَّقِ الله! هذه ابنتي، كيف تقول هذا الكلام؟! قال: لماذا لا تتزوّجها؟ إيش المانع؟! فغضب الرَّجل، وقال: ما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

فلاحظ الآن صاحب الهوى لما يؤتى له بالدّليل الَّذي يرد هواه وباطله يمتنع بهذه الشبهة، لكن إذا تحدّث في الأمور الأخرى الَّتِي يرتضيها تجده يستدل بالقرآن، فإذا قرئتْ عليه آيات الشِّرك ردّها بطرق عديدة، وإذا تليت عليه آيات في الأخلاق أو في الآداب أو في المعاملات أو في أمور أخرى يتقبلها، أما آيات الشِّرك فلِما قام

في قلبه مِنَ الشبهة الَّتِي صرفته عن التوحيد وجرفته عنه يمتنع مِنْ قبول الآيات، ودعاة الضلال وضعوا في هذا الباب قاعدة سيأتي ذكرها عند المصنّف والتنبيه على خطورتها في أصل قادم، قال: «**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة**».

«**ثُمَّ لما صار على أكثر الأمة ما صار**»: أي مِنَ الجهل بالدين ودروس العلم وقلة الفهم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ وتكاثر الشبهات على الناس، «**أظهر لهم الشّيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم**»: فانظر إلى مكر الشيطان بهؤلاء؛ أظهر لهم الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، وأنّ المخلص الَّذي لا يريد أن يُقصد بالعمل إلا الله ﷻ يقولون في حقّه هذا لا يعرف قيمتهم ومكانتهم، وجاههم، ولا يعرف فضلهم، وربما قالوا: هذا لا يحبهم، وربما ارتقوا أيضـًا وقالوا: هذا يشتم الصالحين ويسبّهم، وهكذا يأتي ركام مِنَ الكلام الباطل الَّذي هو مِنْ مكر الشيطان بهؤلاء .

قال رحمه الله:«**أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم**» بمعنى: أن الَّذي لا يذهب إلى القبر متوجّهـًا إلى صاحبه ملتجئـًا إليه باكيًا بين يديه متذلّلا منكسراً بزعمهم لم يعرف قيمة هذا الولي الصالح، وأصبحت معرفة مكانته و قدره عند هؤلاء ارتبطت بالشِّرك، فلا يعرف منزلته إلا من جعله شريكـًا لله -هذا بزعمهم-.

ومن لا يستنجد بهم، و لا يستغيث بهم، و لا يذبح لهم، و لا ينذر لهم، و لا

يصرف لهم من أنواع العبادة هذا يتنقصهم ولا يعرف مكانتهم، فهذا بزعم هؤلاء الَّذين مكر بهم الشيطان.

كذلك «**وأظهر لهم الشِّرك في صورة محبَّة الصالحين واتباعهم**» بمعنى: أنَّ الَّذي يقوى فيه التقرب إلى الصالحين بما لا يُتقرب به إلاّ إلى الله ﷻ، هذا محبٌ لهم وعرف قدرهم ، وأما من سواه فهو لا يعرف قدر الصالحين ولا يحبهم، وبهذا المكر ضل أكثر الناس عن سواء السبيل، مع أنه لا ارتباط بين الأمرين!

فباب الإخلاص هذا حقّ لربِّ العالمين وحده، وأما محبَّة الصَّالحين ومعرفة قدرهم لا يرتبط لا من قريب ولا من بعيد بإعطائهم شيء من خصائص الله ﷻ، ولهذا كان النَّبِيُّ عليه السلام مع بيانه للتَّوحيد سدَّ كلَّ المنافذ الَّتِي تفضي إلى الشِّرك :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»(١).

وما رُوي عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلاَ أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ**»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشخِّير رضي الله عنه قال: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، و حسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٣٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والحاكم في «مستدركه» (٧٦٥٤)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعَّفه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٣٨٦٢).

فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**»[١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ** »[٢].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ سَمِعَ عُمَرَ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[٣].

وعن عَائِشَةَ ﷺ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ ﷺ قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[٤].

وَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ﷺ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ**

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢١١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٠٩٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٤) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وَعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ ﵂ قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ»(٢)، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جدّاً.

فقد بيَّن ﷺ التَّوحيد وحذَّر من الشِّرك وحَمَى حِمَى التَّوحيد وسدَّ الذَّرائع الَّتِي تفضِي بالنَّاس إلى الشِّرك والعياذ بالله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

بيَّن ﷺ البيان الوافي، ومع وضوح هذا الأمر وجلائه وعدم خفائه إلَّا أنَّ أكثر النَّاس ضلُّوا في هذا الباب عن سواء السبيل؛ بسبب الشبهات، وبسبب مكر الشيطان بهؤلاء، وإصغائهم لدعاة الضَّلال والباطل، وكذلك بسبب النَّشأة في المجتمعات الَّتِي لا يسمعون فيها صوت مَنْ يدعو إلى التَّوحيد؛ بل إلى صوت أهل الشُّبهات فقط، والله المستعان.

ولا أنسى قصةً مرّت عليَّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادًّا يديه يدعو، ثُمَّ ازداد في

---

(١) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (٤٠٠١).

اجتهاده بالدّعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثّر فيَّ خشوعه، ثُمَّ رفع صوته قليلا في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللا: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثاً مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أوَّلا بسؤاله عَنْ صحته و عَنْ بلده و عَنْ أولاده و عَنْ سفره و عَنْ أمور عديدة، ثُمَّ لما اطمأنَّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أَهَمِّيَة الدُّعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنَّه كان يدعو، ثُمَّ التفتَ إليَّ وكأنَّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبكي يريد مِنَ الرَّسولﷺ أنْ يكشفها عنه ويجلِّيها، ثُمَّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبيِّن فيه أنَّ الدُّعاء حقٌّ لله ﷻ وحده، وأنَّ هذه المسألة بُيِّنَتْ في القرآن بياناً واضحاً لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء].

وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُنَّة وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية

في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة مِنْ أدعية النَّبِيِّ ﷺ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»(١).

وكان إذا خرج ﷺ من بيته قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(٢).

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلاً فَقَالَ: «**إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**»(٣).

وذكرت له نماذج واضحة لا لُبس فيها يفهمها العاميُّ فضلًا عَنْ غيره، أنْهيتُ وهو يسمع بكلِّ إصغاءٍ وإنصاتٍ، فأحببتُ أنْ أطمئنَّ هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحتُ عليه سؤالاً : ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليَّ آيات وأحاديث؟!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا ـ سمى لي بلده ـ ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درسـًا أيضـًا عُرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتابا من الكتب الَّتِي حوله تعرض عليه كذلك، ثُمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد الَّتِي هي واضحة حُجبت وغُيِّبت عنه، و حُذِّر أيضا من فهمها بقواعد باطلة، وسيأتي كلام المصنف لاحقـًا عَنْ هذا الأمر .

فهذا أصل الأصول وأعظمها، وبُيّن في القرآن بيانـًا وافيـًا يفهمه أبلد العامة؛ ومع ذلك ضلّ فيه أكثر الناس! والله ﷻ هو الهادي إلى سواء السبيل، والتَّوفيق بيده وحده ﷻ.



[المتن]

قال الإمام رحمه الله:

«الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه، ويزيده وضوحاً ما وردت به السُنَّة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق مجنون».

[الشرح]

قال المصنف رحمه الله: **«الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بيانـًا شافيـًا تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا»**: هذا الأصل مِنَ الأصول العظيمة المبيَّنة بيانـًا وافيـًا شافيـًا في كتاب الله عز وجل وفي سنَّة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وقد تكاثرت النُّصوص في ذلك وتضافرت في تقريره والدَّعوة إلى الاجتماع والنَّهي عَنْ الافتراق، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وقال جل جلاله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

وقال جل جلاله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قوله ﷺ: «**ونهى عن التفرق فيه**» أي: التفرق في الدين، بل اجتمعوا عليه ولا يتخذ كلٌّ لنفسه منهاجًا وطريقًا فتتفرّقون في الدّين، كلّ له رأي وكل له قول وكلّ له وجهة، وإنّما المطلوب من أهل الإيمان أن يجتمعوا على دين واحد وهو دين الله ﷻ ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن يطَّرحوا التّفرّق والشِّقاق والتّدابر والتباغض والتّعادي؛ فإنَّ ذلك لا خير فيه، والخير والرَّحمة في الاجتماع، وقد ورد عَنْ النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»(١): الاجتماع رحمة للأمّة، فيجتمعون على دين الله وعلى كتاب الله وعلى كلمة سواء وعلى تناصح وتعاون وتعاطف وتراحم، محقّقين قول النَّبيِّ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

وقوله ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(٣).

وهذه المعاني العظيمة لا يكون لها تحقّق إلا بالاجتماع ونبذ الفرقة، لأنها إذا وُجدتْ بين الناس وُجد معها كلّ شرٍّ، والاجتماع إذا وُجد بينهم وجدتْ الرحمة والخير والأمن والرّاحة والطمأنينة، وذهب عنهم الشيطان؛ ولهذا قال ﷺ عَنْ

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٤٩٩)، وحسّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٦٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللَّفظ له.

(٣) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

التفرق «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**»(١)، قال راوي الحديث: «**كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ**»، فانظر إلى حرص الدِّين على الاجتماع، ففي أي مكان يدعو إليه.

وقال ﷺ: «فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ»(٢)، بينما إذا اجتمعوا وتقاربوا في حِلق العلم، في مجالس الذّكر، وفي مجالسهم العامة، يتقاربون ويكون بينهم الألفة والمحبَّة والتَّراحم والتَّآخي؛ كل هذه معانٍ دعا إليها الإسلام وهي من أصوله الَّتِي حثَّ على تحقيقها، لتكون الأُخُوَّة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وفي الحديث يقول ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا**»(٣).

وكما أنّ الإسلام دعا إلى الاجتماع ونهى عَنْ الفرقة، فإنَّه حذَّر أشدَّ التَّحذير من كلِّ أمر يخدش فيه أو يخلّ به: كالغيبة والنَّميمة والحسد، وحرَّم التَّناجش والتَّدابر والتَّباغض، لأنَّها تفرِّق بين المسلمين، وتشتِّت شملهم، وتوجِد الفُرقة بينهم.

ولهذا من يطالع الأدلَّة في كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ المشتملة على الأمر بالاجتماع والنَّهي عَنْ الفرقة يجدها كثيرة جدًّا، بُيِّنَتْ -كما قال المصنِّف رحمه الله- بيانًا وافيًا: «**أمر الله بالاجتماع في الدّين ونهيه عن التّفرّق فيه، فبيّن الله هذا بيانًا شافيًا**

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٢٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٦٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٤٧)، والنَّسائي (٨٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٥٦).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

يفهمه العوام» فيفهمه العوام فضلا عَنْ غيرهم من طلاب العلم أو العلماء، من ذا الَّذي يخفى عليه بيان الله في كتابه، وبيان رسوله ﷺ في سنته بالأمر بالاجتماع؟!

قال: «**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**»؛ مما جاء بيانه في الكتاب والسُنَّة أيضـًا حول هذا الأمر: الإخبار عَنْ عواقب المتفرِّقين مِمَّن كانوا قبلنا، وأنَّهم لم يبوؤوا بتفرقهم إلاَّ الفشل والخسران وضياع الدِّين وتشتُّت الشَّمل، وهلكوا.

والتَّفرُّق في الدِّين يعني لم يجتمعوا على ما بلغهم ووصل إليهم، وإنَّما وأصبح كلٌّ على قبيل وكلٌّ على وجهة.

قال: «**وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه**» وهذا في آيات كثيرة مرَّ الإشارة إلى بعض منها.

قال رحمه الله: «**ويزيده وضوحـًا**» أي: يزيد هذا الأمر وضوحـًا وبيانـًا «**ما وردت به السُنَّة من العجب العجاب في ذلك**» أي: أنَّ تبيان السُنَّة لهذا الأمر وأمر النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام بالاجتماع وتحذيره مِنَ الفرقة جاء في السُنَّة مبيَّنًا بيانًا وافيًا ، جاء في السُنَّة من بيان ذلك العجب العجاب كما عبَّر بذلك المصنِّف رحمه الله؛ يعني كمًّا كبيراً وقدراً عظيمـًا من الأحاديث عَنْ رسول الله ﷺ في الأمر بالاجتماع والتَّحذير مِنَ الفرقة، وجاء الأمر به في أحاديث كثيرة بالنَّصِّ على هذا اللَّفظ «**الاجتماع**»، وجاء في أحاديث أخرى عديدة بالمعنى الَّذي يدل عليه والمقصد الَّذي يرمي إليه، وكذلك التَّحذير من الفُرقة ومِنْ كُلِّ أمرٍ يؤدِّي أو يفضي إليها.

وما أحوج النَّاس إلى الوقوف على كلامه عليه الصلاة والسلام في هذا الباب حتَّى يعالَج ما في

الصدور من شتات وميلٍ إلى الافتراق وأخذٍ بأسبابه؛ ولهذا مِنَ البحوث المقترحة في هذا الباب أن يُجمع أنواع دلالات السُنَّة على الاجتماع وذم الفُرقة في أحاديث النَّبِيِّ ﷺ.

كم يحتاج النَّاس إلى الوقوف على ذلك!! وهو باب كما قال المصنف رحمه الله ورد فيه في السُنَّة عجبٌ عجاب، فلو وقف عليها طالب العلم وجمعها وصنَّفها إلى أنواع بحيث يجتمع قدرٌ عظيم من هذه الأحاديث في موضع واحد، و الَّذي ورد عنه ﷺ في هذا الباب قدر كبير جداً كما أشار المصنف رحمه الله إلى ذلك.

ثُمَّ مع وضوح هذا الأمر في الكتاب والسُنَّة وكثرة الدَّلائل فيهما عليه يقول المصنِّف رحمه الله: «**ثم صار الأمر**» أي: عند الناس وفي واقعهم وفي حياتهم «**إلى أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين، وصار الأمر بالاجتماع في الدِّين لا يقوله إلَّا زنديق أو مجنون**»: يعني انقلب الأمر رأسًا على عقب؛ أصبح لكثرة الشَّتَات وتفرق النَّاس الدَّاعي إلى الاجتماع مذموما، والدَّاعي إلى الافتراق محمودًا، صار واقع النَّاس في هذا الباب أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين! بل يُمدح، ولعلَّنا نسمع في حياتنا وواقعنا من يرفعون رايات يمجِّدونها ويعدُّونها هي صميم العلم وهي كبد الحقيقة فيقولون: (**حرِّية الاعتقاد**)، (**حرِّية الرأي**)، (**حرِّية الكلمة**)، كلمات مِنْ هذا القبيل تُطلق ونظائرها كثير؛ أيْ: أنَّ الكلَّ له رأيه الخاص به، وكل له عقل، وكل له عقيدة، ومعنى ذلك أنَّ هذا دعوة للتَّفرُّق وحمد له وثناء عليه، ولا يمكن أن يكون اجتماع

إلَّا على كلمة سواء، أمَّا إذا كان النَّاس كل له وجهة وكل له عقيدة وكل له مذهب فكيف يجتمعون إذا؟

قال أحد أهل العلم: «لو أخذنا مثالاً: رجلٌ يطوف بالبيت وهو يقول: اللَّهم ارضَ عن أبي بكر وعمر، وآخر يطوف بالبيت ويقول: اللَّهم الْعَن أبا بكر وعمر، أين هذا من هذا؟! لا يمكن أن يكون بينهما اجتماع».

ولا يمكن أنْ يقال: هنا حرِّية الكلمة أو حرِّية الرأي، هذا مثال وإلَّا قسْ عليه بقيَّة الأمور في الدين: شخص يقول: الإيمان يزيد وينقص، وآخر يقول: لا يزيد ولا ينقص، أو آخر يُثبت القدر ويؤمن به، وآخر ينفيه ويجحده، وهكذا؛ اختلاف في العقيدة واختلاف في العبادة، فهذه الأمور ما يمكن أن توجد ويبقى معها اجتماع.

ولهذا لا يكون إلاَّ على الدِّين، والتفرُّق لا يكون فيه الدِّين؛ قال أحد العلماء كلمة عظيمة في معنى قول النَّبِيِّ ﷺ: «**ولا تباغضوا**» قال: «وفي قوله ﷺ: «**ولا تباغضوا**» فيه إشارة إلى النهي عن البدع؛ لأنها سبب للفرقة والتباغض، فالَّذي يُحدث بدعة، أو يَنشر محدثا بين المسلمين، فإنَّه يكون بذلك فرَّق صفَّهم، وليس الَّذي يرد عليه وينقض باطله ويرد على بدعته، هو الَّذي فرَّق صفَّ المسلمين»[1].

فالبدعة تفرِّق والسُنَّة تجمع، ولهذا يقال: أهل السُنَّة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة؛ فلا يمكن أنْ نغالط في حقائق الأمور ونطلب الاجتماع على البدعة؛ بل بعضهم قعَّد في هذا قاعدة عُدّتْ أصلاً في العلم لدى أقوام، وهي: (نجتمع على ما

---

(١) لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة نافعة في هذا الباب بعنوان: «منهج أهل السُنَّة في توحيد الأمَّة».

اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه)[1]، بحيث كلُّ أحد على عقيدة وكلٌّ واحد على رأي أو على مذهب ما، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه! وهذا في الحقيقة ضياع للدِّين، و دعوة لافتراق المسلمين وعدم اجتماعهم، وتقعيد لذلك.

فالمصنِّف رحمه الله يقول هنا: «**صار الأمر أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدِّين**»: أصبح الكلمات الَّتِي تطلق ويُدعى فيها إلى الاجتماع على غير كلمة سواء، وإنَّما كلٌّ على فكره وكلٌّ على رأيه وكلٌّ على عقيدته ونحلته ومذهبه؛ أصبحتْ مثل هذه الدَّعوات هي الدَّعوة الصَّحيحة في أفهام كثير من الناس.

وفي مقابل ذلك «**صار الأمر بالاجتماع في الدين**» وَضَعْ إشارة عند قوله: «**في الدين**» «**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلاَّ زنديق أو مجنون**» فهناك شعارات تُرفع للدَّعوة إلى الاجتماع، لكن أين الشِّعار الَّذي يرفع للاجتماع في الدِّين؟! أي الدِّين الصَّحيح المتلقَّى مِنْ كتاب الله وسنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون**» أي: عند

---

(١) قال العلاَّمة عبد العزيز بن باز رحمه الله في نقد هذه القاعدة: «يجب أنْ نتعاون فيما اتَّفقنا عليه من نصر الحقِّ والدَّعوة إليه والتَّحذير ممَّا نهى الله عنه ورسوله، أمَّا عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محلُّ تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد الَّتي يخفى دليلها فالواجب عدم الإنكار فيها من بعضنا على بعض، أمَّا ما خالف النَّص منْ الكتاب والسُنَّة فالواجب الإنكار على مَنْ خالف النَّص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالَّتي هي أحسن عملا» «مجموع فتاويه» (٣/ ٥٨).

هؤلاء أهل الافتراق، أصبح لا يدعو إلى الاجتماع في الدين إلَّا من هو عندهم زنديق أو مجنون، ومن يحذِّر من البدع الَّتِي تفرِّق، ومَنْ يُحذِّر مِنَ الأهواء الَّتِي تفرِّق يصفونه بصفاتٍ شنيعة وألقابٍ سَيِّئة، ويتَّهمونه في عقله وفكره، وفي قصده ونيته، ويقعون في عرضه، وهو لم يفعل إلَّا أنْ دعا إلى السُنَّة وحذَّر مِنْ نقيضها وضدِّها وهي البدعة والإحداث في دين الله.

وهنا ينبِّه المصنِّف ﵀ إلى أنَّ الدَّعوة للاجتماع ليست دعوة لاجتماع كيف ما اتَّفق وكيف ما كان، وإنَّما هي دعوة للاجتماع على دين الله وعلى كتابه وعلى سُنَّة رسوله ﵊.

وربُّ العالمين أمر العباد بالاجتماع والاعتصام فقال جل جلاله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]؛ حبله قيل: القرآن، قيل: السُنَّة، قيل: الإسلام، وهذا كلّه صحيح ،كلّها حبل الله ﷿؛ حبله ودينه الَّذي دلَّ عليه كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ(١).



(١) ولشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة بعنوان: «حبل الله الممدود».

[المتن]

قال رحمه الله:

«**الأصل الثالث: أنّ من تمام الاجتماع السّمع والطاعة لمن تأمّر علينا ولو كان عبداً حبشيا ، فبيّن النّبِيُّ ﷺ هذا الأصل بياناً شائعاً كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعا وقدرا ، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟!**».

[الشرح]

ثُمَّ ذكر رحمه الله الأصل الثَّالث: «**أن من تمام الاجتماع السّمع والطّاعة لمن تأَمَّر علينا ولو كان عبداً حبشيـًا، فبيَّن الله هذا بيانـًا شائعـًا كافيـًا**»: شائعـًا :أي ذائعـًا منتشراً، وكافيـًا: أي فيه الكفاية والغنية.

«**بوجوه من أنواع البيان شرعـًا وقدراً**» شرعـًا: أي فيما جاء مِنَ الدَّلائل على ذلك في الكتاب والسُّنَّة .

والأدلَّة في القرآن والسُّنَّة في السَّمع والطَّاعة كثيرة، قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء :٥٩].

وفي سنَّة النَّبِيِّ عليه الصلاة والسلام أحاديث كثيرة جداً في السَّمع والطَّاعة تجِدُ أحاديث عديدة منها في كتاب الإمارة من «صَحِيح مُسْلِم»؛ فقد أورد رحمه الله أحاديث كثيرة جدًّا فيها الأمر بالسَّمع والطَّاعة لمن تأَمَّر.

وأشار المصنّف رحمه الله هنا إلى حديث العِرْبَاض بنِ ساريةَ رضي الله عنه قالَ : وَعَظَنا رسولُ

الله ﷺ موعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلْنا : يَا رَسول الله، كَأنَّهَا مَوعِظَةُ مُودِّعٍ، فأوْصِنا، قال: «**أوصيكُمْ بتَقوى الله، والسَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ، وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافًا كَثيراً، فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ**»(١).

وجاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»(٢).

فإذا تأمَّر عليكم وصارت له الغلبة وتولَّى الأمر واستتبَّ له الأمر فالسَّمع والطَّاعة، والأحاديث في هذا الباب كثيرة منها :

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ**»(٣).

وجاءت أحاديث فيها الوعيد لمن نزع اليد مِنْ طاعة وأنَّه إذا مات على ذلك مات ميتة جاهلية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)،والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).



فهذا الأمر بُيِّن في الكتاب والسُنَّة كما أشار المصنِّف بيانـًا شافيـًا كافيـًا بوجوه مِنْ أنواع البيان[١].

بل إنَّ هذه الأصول الثَّلاثة[٢] الَّتِي ذكرها المصنِّف ﷺ هنا مترابطة: الإخلاص في العبادة، وأداء النَّاس عبادتهم مطمئنين بأمن وأمان وسلامة وطمأنينة، وهذا لا يتحقَّق لهم إلاَّ بالاجتماع، أمَّا إذا كانوا متفرِّقين متعادين متباغضين شغلتهم الفرقة عَن الدِّين وعن العبادة وعن الإخلاص، وصاروا متشتِّتين في آرائهم وأفكارهم ووجهاتهم عن العبادة الَّتِي خُلقوا لأجلها .

والقيام بالعبادة يحتاج إلى اجتماع، ولابد فيه من ولي أمر (إمام)، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، ولهذا إذا انفرط العِقد في هذه انفرط في جميعها: إذا نُزعت اليد من الطاعة ووجد تبعًا لذلك الفرقة، وإذا وجدت الفرقة ضاع الدِّين وضلَّ النَّاس.

وقد أشار المصنِّف ﷺ قال: «**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا**

---

(١) قال شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «فأقترح على طلبة العلم بحثين:
البحث الأول: وجوه أنواع البيان في الأمر بالاجتماع.
والآخر: وجوه أنواع البيان في السَّمع والطَّاعة لولاة الأمور.
وهـذا الأمـر مرتبـط بالَّـذِي قبلـه أو هـذا الأصـل مرتبـط بالأصـل الَّـذي قبلـه؛ الأصـل الأوّل: الاجتمـاع، والثـاني: السـمع والطاعـة، وهـذان أصـلان مترابطـان لا يتحقَّـق الأوّل منهـا إلاَّ بالثَّـاني؛ لأنَّـه لا اجتمـاع إلاَّ بإمـام، ولا إمـام إلا بسـمع وطاعـة».

(٢) تنبيه: يقصد شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله بالأصول الثَّلاثة هنا:
١/ إخلاص الدِّين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضدِّه الذي هو الشِّرك.
٢/ الأمر بالاجتماع في الدِّين والنَّهي عن التفرُّق.
٣/ من تمام الاجتماع السَّمع والطَّاعة للأمراء.

فهلكوا»: فالفُرقة هلاك وضياع للدِّين وتشتُّت للشَّمل، فكيف تتحقّق للنّاس عبادة؟ وكيف يتحقَّق لهم طلب علم؟ وكيف تتحقّق لهم ممارسة مصالحهم العامة والخاصة إذا كانوا متفرقين متعادين متباغضين؟ وكيف تقام الحدود؟ وكيف يطمئنُّ النَّاس على الأموال والأعراض؟ فكلُّ هذه الأمور لا تتحقَّق إلاَّ بجماعة، والجماعة لا تتحقَّق إلَّا بإمام، والإمامة لا تكون إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا كان مِنَ الأصول الَّتِي أَكَّد عليها ﷺ: السَّمع والطاعة؛ بل إنَّه ﷺ ضَمَّ هذا الأصل في بعض أحاديثه إلى فرائض الإسلام كما قال في حجَّة الوداع ﷺ: «**اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[(١)]؛ فذكر الطَّاعة لذي الأمر مضمومةً إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان ، وجعل هذه كلَّها من موجبات دخول الجنَّة قال: «**تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»، فأكَّد ﷺ على هذا الأمر.

وجاء عنه أيضـًا في حجَّة الوداع الجمع بين هذه الأصول الثَّلاثة الَّتِي أشار إليها المصنِّف رحمه الله في حديث واحد:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلاَصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلاَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٨٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح

فجمع ﷺ بين هذه الأمور الثَّلاثة في حديث واحد، وأخبَرَ ﷺ أنَّ قلب المسلم لا يُغِلّ على هذه الأمور، لا يُغلّ: أي لا يوجد فيه غلّ وأنفة من هذه الأمور، بل يتقبَّلها بانشراح وقبول ولا يستنكف ولا يستكبر؛ بل يتقبَّلها بكلِّ اطمئنان: الإخلاص، ولزوم الجماعة، والسَّمع والطَّاعة، خلافًا ما كان عليه أهل الجاهليَّة[١].

والمصنِّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لما صنَّف كتابه: «**مسائل الجاهليَّة الَّتِي خالفها الإسلام**» بدأها بأضداد هذه الثَّلاثة، قال: المسالة الأولى: الشِّرك، والمسألة الثَّانية: التَّفرُّق، والمسألة الثَّالثة: عدم السَّمع والطَّاعة[٢].

والاستكبار عن السَّمع والطَّاعة من الجاهلية (شركٌ، وتفرُّق، وعدم سمع وطاعة)، والإسلام جاء بالتَّوحيد، وحثَّ على الاجتماع، وجاء بالسَّمع والطاعة، وهي أمور مترابطة كما سبق.

وقوله ﷺ: «**ثَلاَثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ**» أي: من وُجد عنده هذه الأمور

التَّرغيب» (٤).

(١) انظر: رسالة شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله «خطب ومواعظ مِنْ حجَّة الوداع» (ص٦٢).

(٢) قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في رسالته «مسائل الجاهلية الَّتي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليَّة» (ص٣٦):

«المسألة الأولى: أنَّهم يتعبَّدون بإشراك الصَّالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله ....

الثَّانية: أنَّهم متفرِّقون في دينهم ...

الثَّالثة: أنَّ مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسَّمع والطَّاعة ذلٌّ ومهانة».

الثَّلاثة الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، والنّصيحة لولاة الأمر انتفى من قلبه الغلّ، فليس له في قلبه مكان.

أمَّا الإخلاص: فإنَّ قلبه متَّجه في أعماله كلِّها لطلب رضا الله، لا لمطمع دنيوي، ولا لشهرة يريدها، ولا لحظوظ تخصه يطمع بها، وإنَّما أعماله يقوم بها مبتغياً بها وجه الله ﷻ، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

فهو في معاملته للنَّاس ومجالسته ومحادثته لهم كل ذلك قائم عنده على الإخلاص والمراقبة لله ﷻ؛ فمن كان هذا شأنه فلا سبيل للغلّ إلى قلبه، بل هو معمور بالإخلاص للمعبود ﷻ.

ثُمَّ ينضم إلى ذلك حرصه على الجماعة ونبذه للفرقة ورغبته في اجتماع الدين واجتماع أهله عليه، فمثل هذا الَّذي هو ملازِمٌ للجماعة حريص عليها، لأنّ قلبه متجه إلى اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة، والغلّ ليس له سبيل على قلبه.

وإذا كان ناصحاً لولاة الأمر في قلبه بالدُّعاء وسؤال الله ﷻ صلاحهم وهدايتهم، وتقديمه للنَّصيحة لهم ما استطاع بالوسائل والطرق الشَّرعية، لا يكون في قلبه غِلٌّ؛ ولهذا هنا تجد الفرق بين العالم وبين صاحب الهوى، كما قال الإمام البربهاري رحمه الله: «**إذا رأيت الرجل يدعو للسُّلطان فاعلم أنّه صاحب سُنَّة، وإذا رأيته يدعو على السُّلطان فاعلم أنَّه صاحب بدعة**»[1].

وهنا يتبيَّن الفرق؛ صاحب السُنَّة يَهُمُّه اجتماع المسلمين، ويعرف أن اجتماعهم لا يكون إلَّا على إمام، ويعلم أنَّ صلاح الإمام صلاح للرعيَّة؛ ولهذا كان الفضيل

(١) «شرح السُنَّة» (١٠٧).

بن عياض رحمه الله يقول: **«لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلَّا للسلطان، قيل له: يا أبا علي فَسِّر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعْدُني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأُمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأنَّ جورهم وظلمهم على أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»**[١].

فهذه درجة في الفقه عالية ما يصل إليها كُلُّ أحد؛ لأنَّه استوعب الأمَّة بالدَّعوة المستجابة، ولم يخصها لنفسه فقط؛ فهو يعلم إذا دعا للسلطان وأصلحه الله عز وجل فالرَّعيَّة تبع، «وإن طاب الملك طابت جنوده»، والنَّاس تبع لملوكهم في الغالب، وإلَّا قد يفسد الرَّئيس أو الوالي ويصلح عدد من الرَّعيَّة والعكس أيضًا، لكن الأصل أن النَّاس تبع لملوكهم في الغالب.

وتجد في المقابل من النَّاس من في قلبه غِلٌّ وتجارتْ به الأهواء فيطعن في الولاة ويسبُّهم، بل صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«لا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ»**[٢]، فنهى عن ذلك؛ وإذا كان الإنسان له دعاء فليدعُ لهم بالصَّلاح والهداية والاستقامة؛ لأنَّ صلاحهم يعود على رعيتهم، وعلى مجتمعهم، بل وعلى المسلمين.

وهذا باب من الفقه ما يصل إليه من أهل الأهواء، ولا يصل إليه الإنسان إلَّا إذا أمَّر السُنَّة على نفسه.

---

(١) «شرح السُنَّة» (١٠٧)، «حلية الأولياء» (٨/ ٩١)، «سير أعلام النُّبلاء» (٨/ ٤٣٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٣)، وابن أبي عاصم في «السُنَّة» ٠٨٤٧)، وقال الألباني (إسناده جيِّد)، في «ظلال السنَّة»(١٠١٥).

فالشّاهد أنَّ النَّبِيَّ ﷺ جمع بين هذه الأصول الثلاثة في حديث واحد قاله في مسجد الخيف بمنى، وهذا الحديث: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم**» وأوله: «**نضرّ الله امرءًا سمع مقالتي**» حديث متواتر رواه عن النَّبِيِّ ﷺ أكثر من عشرين صحابيّـًا، ولعلَّ من أسباب تواتر الحديث أنَّه ألقي في مجمعٍ عام وفي خطبة عامة يسمعها الجميع، فهذا كلُّه من نصح النَّبِيِّ ﷺ لأمّته وبيانه لأمّته صلوات الله وسلامه عليه[1].

وقول المصنّف ﷺ هنا: «**إنّ هذا بُيِّن شرعـًا وقدراً**»:

«**شرعـًا**»: أي بما جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ مِنَ الأدلة على ذلك.

وبيانه «**قدراً**» أي: بما يُرى ويشاهد ويُعاين من الوقائع والأحداث المدمية المؤلمة بسبب التفرق، وأيضـًا ما يشاهد ويعاين من الأحداث المفرحة بسبب الاجتماع، وكيف أنَّـه به تتحقَّق الرَّحمة للنَّاس ، وبالفرقة يبوؤون بالعذاب ويصبحون نهبة للأعداء، وإذا تنازع أهلُ الإيمان وتفرَّقوا ذهبت هيبتهم وضعفت كلمتهم وتسلَّط عليهم عدوهم، فهذا أمر مبين قدراً، ومن ينظر في حال النَّاس، وفي واقعهم عبر التَّاريخ يرى أثر الاجتماع واضحـًا ويرى أيضـًا أثر الفرقة والاختلاف .

ثُمَّ يقول المصنف ﷺ بعد بيانه لهذا الأمر: «**ثُمَّ صار هذا الأصل لا ُيعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به**»: هذا الأصل الَّذي هو السَّمع والطَّاعة لا

---

(١) ولشيخنا العلاَّمة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حفظه الله بحث قيِّم حول هذا الحديث بعنوان: «دراسة حديث نضَّر الله امرءا سمع مقالتي..رواية ودراية» وهو ضمن «كتب ورسائل عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر»(٣/ ٢٩٧).

يُعرف عند أكثر أهل العلم -يعني فضلا عن العوام- «**فكيف العمل به**» أي: فكيف يعمل به ويحقِّق السَّمع والطَّاعة الَّتِي أُمر بها!! إذا دخلت الأهواء القلوب عميت عن السُّنَّة، وأصبح يشتغل من هو معتنٍ بالعلم بالوقيعة في الولاة وإغارة الصُّدور عليهم، وملأ القلوب بالحقد وغير ذلك من المعاني الَّتِي ليست في القرآن ولا في الأحاديث ولكنَّه يدعو إليها، وترى في الأحاديث وأقوال الأئمة وبكثرة: أمر بالسَّمع والطاعة، أمر بالاجتماع، الحث على الدعاء للولاة، والنصيحة لهم، ولا يوجد حديث واحد فيه الأمر بسبِّهم، أو بغشِّهم، أو بإغارة الصُّدور عليهم، أو ملأ النُّفوس حقدًا عليهم.

فمن عمل بهذه الأمور -أعني الغش والغل والسب-هل رائده في هذه الأعمال السُنَّة؟ إن قال: نعم، فليأت بحرف واحد في السُنَّة يدل على ذلك، وإن كان قائده الهوى -وهو فعلا رائده-فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره.

فالسُنَّة ليس فيها إلَّا الدعوة للاجتماع والمناصحة، حتَّى لو حصل من ولي الأمر فساد وجور وظلم ففي هذا المقام أكَّد النَّبِيُّ ﷺ أيضـًا على السَّمع والطَّاعة، بقوله ﷺ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»[١].

وهذا فيه لفت انتباه إلى عموم النَّاس أنَّ ضياع حظِّ الإنسان ونصيبه الدُّنيوي ليس مخوَّلا لنزع اليد من الطاعة، وكم من أناسٍ نزعوا أو كان سبب نزع اليد من طاعة هو فوات حظِّه الدنيوي[٢]، لم يحصِّل كذا وكذا فيبدأ بسب الولاة ويطعن

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) قال العلاَّمة ابن عثيمين رحمه الله: «لو استأثر ولي الأمر بشيء مِنْ أموالٍ أو أراضٍ أو غيرها

فيهم ويوغر الصدور عليهم، وإذا فتشت عن سبب هجمته هذه لا تجدها نصرةً للدِّين وإنما نظرًا لحظِّ النَّفس، ولهذا لفت النَّبيُّ ﷺ الانتباه لهذا الأمر فقال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[1].

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**اتَّقُوا اللهَ وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلاَلَةٍ**»[2]، وكثير من الناس عندما يدخل في هذه القضية يدخل لحظوظه الدنيويَّة؛ إمَّا كان يريد رئاسة فما حصلت له، أوزعامة لم تتحقَّق له، أو مالاً، أو غير ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة].

لكن النَّاصح الَّذي ليس في قلبه غل همُّه دين الله ﷻ، حتَّى لو فات بعض حظه؛ لأنَّ اجتماع النَّاس وصلاح أمرهم أهم وأولى عنده بالعناية.

فعليك السَّمع والطَّاعة، حتَّى لو فرض لك من بيت المال أقل مِنْ كفايتك، وهو يأخذ مِنْ بيت المال ما شاء، فهذا استأثار بلا شك، فلا تقل: لماذا لا تعطيني مثل ما تأخذ؟ بل نقول: عليك السَّمع والطَّاعة ولو وجدة الأثرة عليك.

وهذا في الحقيقة هو الَّذي يضبط الأمَّة؛ لأنَّه لو بقيت الأمَّة هذا يقبل ويمتثل، وهذا لا يقبل ويعاند صارت الفوضى، وصار الشر والفساد.

فالواجب: السَّمع والطَّاعة على كل حال ما لم يأمروا بمعصية»«التَّعليق على صحيح مسلم» (٩/ ٢٥٥).

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٧١٩٢)، وابن بطة في «الإبانة»(١٤٩).

أتى رجُلٌ من الخَوارج الحسنَ البصري، فقالَ لَهُ: ما تَقولُ في الخَوارج؟

قالَ: هُمْ أصْحَابُ دُنيا.

وقَالَ: ومن أينَ قُلتَ وأحدهُمْ يمْشي في الرُّمح حتى ينكَسرَ فيه، ويخرج من أهله ووَلَده؟

فَقَالَ الحسنُ: حدثني عن السلطان أيَمْنعُكَ من إقَامَة الصلاة، وإيتَاءِ الزَّكَاة، والحجِّ والعُمْرة؟

قَالَ لاَ.

قَالَ: فأرَاهُ إنما مَنَعَكَ الدنُّيا فقاتلتَ.

قال الإمام الشّوكاني ﵀: «اجتمعت في أيام الطَّلب بجماعة من أهل العلم، فسمعتُ مِنْ بعض أهل العلم الحاضرين ثلبًا شديدًا لوزير مِنَ الوزراء، فقلت للمتكلِّم: أنشدك الله يا فلان أَنْ تجيبني عمَّا أسألكَ عنه وتصدقني، قال: نعم، قلت له: هذا الثَّلب الَّذي جرى منك، هل هو لوازع ديني تجده من نفسك لكون هذا الَّذي ثلبه ارتكب منكرا، أو افترى مظلمة أو مظالم؟ أم أنَّ ذلك لكونه في دنيا حسنة وعيشة رافهة؟ ففكَّر قليلا ثُمَّ قال: ليس ذلك إلَّا لكون الفاعل ابن الفاعل يلبس النَّاعم من الثِّياب ويركب الفاره من الدَّواب، ثُمَّ عدَّد من ذلك أشياء، فضحك الحاضرون، وقلتُ له: أنت إذا ظالم له، تخاطب بهذه المظلمة بين يدي الله، وتحشر مع الظَّلمة في الأعراض، وذلك أشدُّ منَ الظُّلم في الأموال عند كلِّ ذي نفس»[1].

---

(١) «التَّعليق على رسالة رفع الأساطين في حكم الاتِّصال بالسَّلاطين» (ص٤٠).

فهذه الأمور ما تصلح إلا بالسنة، ولابد فيها من قراءة أحاديث النَّبِيِّ ﷺ بتجردٍ من الأهواء.

وكثير من الناس بسبب غلبة الأهواء عليهم يستوحش من قراءة الأحاديث الَّتِي فيها الأمر بالسَّمع والطاعة، يقرأ بلا استيحاش الأحاديث الَّتِي في الصلاة، ويقرأ بلا استيحاش الأحاديث الَّتِي في الزكاة، وإذا جاء إلى مثل كتاب الإمارة من «صحيح مسلم» ـ مثلا ـ استوحش من هذه الأحاديث! فالَّذي أمر بالصَّلاة والصِّيام هو الَّذي أمر بالسَّمع والطَّاعة، ومصلحة المسلمين في هذا كلِّه.

فهذا باب عظيم وأصل مهم؛ لكن عندما تغلب على النَّاس الأهواء يضيِّعونه، ويكون تضييعهم له ليس مبنيًّا على قواعد شرعية، وإنَّما مبني على أهواء تتجارى بالنَّاس وتذهب بهم المذاهب.

وفي هذا الباب تجد من يسلك هذا المسلك -مسلك الفرقة والوقيعة في الولاة- يوصف بين عوام المسلمين بالَّذي لا تأخذه في الله لومة لائم!، ويقول كلمة الحق ولا يبالي!، وغيرها مِنَ الألقاب الَّتِي تطلق في غير محلِّها حتَّى يُنفخ في النَّاس، وحقيقة أمره أنَّه يشقُّ صفَّ المسلمين ويفرِّق كلمتهم ولا يتحقَّق على يديه خيراً؛ لأنَّ الخير والرَّحمة بالاجتماع، وبإصلاح الأمور، وبالنَّصيحة والدُّعاء والتَّعاون، وباللِّين، وليس بإيغار الصدور، وتفريق الكلمة، وتشتيت الشَّمل[١].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «ولهذا كان المشهور مِنْ مذهب أهل السُّنَّة أنَّهم لا يرون الخروج على الأئمَّة وقتالهم بالسَّيف وإن كان فيهم ظلم كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصَّحيحة المستفيضة عنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم مِنَ الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلَا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، ولعلَّه لا يكاد يُعرف

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«**الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس منهم ,وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في أول (سُورَةُ البَقَرَةِ) من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ «البقرة: ٤٠» إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾«البقرة: ٢٢١» الآية، ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثُمَّ صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الَّذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم**».

[الشرح]

قال المصنف رحمه الله: «**الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم**»: هذا الأصل عقده المصنِّف رحمه الله وأورده هنا لأنَّه أصل الْتَبَس على كثير منَ النَّاس واختلط عليهم دعاة الخير مِنْ دعاة الشر، وأصبحوا

طائفة خرجت على ذي سلطان إلَّا وكان في خروجها مِنَ الفساد ما هو أعظم مِنَ الفساد الَّذي أزالته»«منهاج السُنَّة النَّبويَّة» (٣/ ٢٣١).

يأخذون عن كلِّ متكلِّم، ولا يميِّزون بين أهل الحق والباطل؛ بل ليس عندهم آلة يميزون بها بينهما.

و قد أرشد رب العالمين ﷻ في كتابه السائلين والمستفتين والمتعلمين إلى الأخذ عن أهل الذِّكر فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل].

فلا يكون الأخذ عن كلِّ أحد؛ وإنَّما عن أهل الذِّكر، وهم أهل العلم والفقه بدين الله ﷻ.

وعندما يختلط هذا الأمر على الناس يصبح أخذهم عن كلِّ أحد وتلقِّيهم عن كل متحدِّث، وهذا من أعظم أسباب الانحراف عن دين الله ﷻ، وقد صحَّ في الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»[1].

وأئمة الضَّلال هم من يلبسون لبوس العلم ويتزينون بزي العلماء ولكنهم ينشرون البدع في الأمَّة والخرافات والأهواء والضَّلالات وما لا أصل له في دين الله، ويلبسون الحقَّ بالباطل، ويكتمونه ويحجبون النَّاس عنه ؛ فتنتشر على أيديهم البدع والخرافات، ولا يزال أتباعهم يحسِّنون بهم الظنَّ، ويظنُّون أنَّهم يبيِّنون دين الله ﷻ، وتراه يؤيِّد باطله إمَّا بحديثٍ مكذوب، أو بآية يحرِّفها عن معناها، أو قصَّة يخترعها، أو رؤية منامية يدَّعيها، أو تجربة يزعمها، أو نحو ذلك مِنَ المسالك المتَّبعة عند هؤلاء في نشر ما عندهم من خرافة وباطل.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، والتِّرمذي (٢٢٢٩)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٥٨٢).

ولضعف البصيرة في النَّاس والفهم والدِّراية يروِّج عليهم كلام أمثال هؤلاء.

ولهذا عقد المصنِّف ﵀ هذا الأصل نصحًا للنَّاس، وبيانًا لهذا الأمر؛ أن يُعرف الفقه والفقهاء والعلم والعلماء.

والعلم والفقه أيَّ النَّافع؛ الَّذي أمر الله ﷻ به، فليس كل كلام يُلقى أو بيان يبيِّن هو فقه، وإنَّما مدح الله ﷻ أهله ورغَّب النَّبيُّ ﷺ في تحصيله وتلقيه هو العلم الشَّرعي المستمد مِنْ كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

قال الإمام ابن القيم ﵀:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرَّسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم على ضوء فهم الصَّحابة الكرام ومن اتَّبعهم بإحسان؛ وهذا هو الَّذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء، كما قال ﵊: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وقال الألباني: (حسن لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٧٠).

وهذا هو العلم الَّذي شهد عليه النَّبيُّ ﷺ لصاحبه بالخيريَّة في أحاديث كثيرة:

كقوله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(١).

وقوله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٢).

فكلُّ الأحاديث الَّتِي وردتْ في التَّرغيب في العلم والحثِّ عليه فالمراد بها العلم الشَّرعي، والمراد بالفقه الَّذي يُستمد من كتاب الله ﷻ وَمِنْ سُنَّة النَّبِيِّ ﷺ على ضوء فهم السلف الصَّالح رحمهم الله.

وهذا الفقه قد يقصد به (الفقه الأكبر) الَّذي هو العقيدة وأصول الدِّين، أو (الفقه الأصغر) الَّذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلُّها فقه في دين الله ﷻ(٣).

وعندما لا تميَّز هذه الحقيقة وتُخلط الأمور في هذا الباب وتسمَّى علمـاً فتُضرُّ بالنَّاس غاية الضَّرر، ومن أعظم ذلك خطراً عليهم وأدهاه عليهم علم الكلام الَّذي بنى عليه أربابه فهم دين الله ﷻ بمعزل عن كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمور دينه وأمور الاعتقاد يذكر عقليات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أنْ يقرر عقيدة قال: (بما أنه كذا يكون كذا) ، (ولو كان كذا لكان كذا) ؛ فيمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق وبين يديه سنة رسول الله ﷺ شاهدة بالحقّ ودالة عليه فيُعرض عنهما،

---

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) رواه البخاري(٥٠٢٧).

(٣) انظر: «قطف الجنى الدَّاني» (ص٥٥)، للعلاَّمة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حفظه الله .

ثُمَّ يقحم عقله القاصر وتصوراته الضعيفة! فيقرر في الاعتقاد ما لا أساس له ولا أصل عليه، خوضا في أسماء الله وصفاته، وفي دين الله وفي شرعه بلا علم؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٣﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ۝٣٦﴾ [الإسراء].

وبات علم التوحيد الَّذي هو أعظم العلوم وأجلها يسمى ـ بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام ـ يسمى «علم الكلام»! يسمى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة بهذا، ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله ﷻ بالعقليات والآراء، وقد قال الإمام ابن أبي العزّ ﵀: «**فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ؟!**»[1] أي: لا يمكن للإنسان أَنْ يصل إلى الأصول الصَّحيحة والعقيدة السَّليمة دون أنْ يتلقَّى ذلك عنْ رسول الله ﷺ، ولا يمكن أيْضـًا أنْ يعرف العبادة الصَّحيحة إلَّا بالتلقِّي عن الرَّسول ﷺ.

ولهذا فكلُّ طريق إلى الله ﷻ مسدود؛ إلَّا عنْ طريق الرَّسول ﷺ، ولا يمكن للإنسان أنْ يصل إلى الهدى والحقّ، وإلى العلم النَّافع السَّديد أوالقول والعمل الصَّالح إلَّا بالاتِّباع للرَّسول ﷺ، وجعله أسوة وقدوة في عقيدته وعبادته وعمله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾ [الأحزاب].

---

(١) «شرح للعقيدة الطَّحاوية» (ص٢٥).

ومن فارق ما جاء به ﷺ ضلّ ولا شك، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كثيراً ما يقول: «**من فارق الدَّليل ضلَّ السَّبيل، ولا دليل إلاّ ما جاء به الرَّسول ﷺ**»(١).

فكلُّ أحدٍ يُستدلُّ لقوله لا به إلَّا الله ورسوله ﷺ، لأنَّ كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام هو الحُجَّة، وكلام غيرهما ليس بحجَّة، وإنَّما تُطلب له إنْ وجدت في الكتاب أو السُنَّة ، فإن وجدت وإلاَّ ردَّ عليه قوله، وهذا معنى قول الإمام مالك رحمه الله: «**إنَّما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في قولي؛ فكلُّ ما وافق الكتاب والسُنَّة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسُنَّة فاتركوه**»(٢).

وكما يشير المصنِّف رحمه الله هنا؛ المصيبة عظمت على النَّاس في هذا الباب لأنَّهم أصبحوا لا يميِّزُون بين دعاة الحقِّ وأدعياء الباطل؛ بل أصبح بعض العوام يميل في تلقِّيه وفي استفتائه إلى من يراه يفتيه بما يريد أو من يراه يفتيه على هواه، وتجده يتنقَّل بين من يفتون واحداً تلو الآخر إلى أَنْ يقع على شخص يرَخِّص له فيما يريد، ليس منشوده الحقّ ومطلوبه دين الله عزّ وجلّ، وإنَّما مبتغاه الأمر الَّذي اتَّجه للسُّؤال عنه أو طلب الرُّخصة فيه، وهذه من المصائب العظيمة، فأصبح في النَّاس مَنْ لا يميِّز بين الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، وأصبح الدَّاعية للبدعة الَّذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصَّحيح والدِّين القويم على ضوء الدَّليل المستمَدِّ مِنْ كتاب الله وسُنَّة رسوله عليه الصلاة والسلام يُعد عند بعض النَّاس عالمـاً وفقيهـاً، وأصبح أيضـاً عكس ذلك؛ العالـم المنضبط بضوابط الكتاب والسنة المتقيّد بما جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ

---

(١) نقله عنه الإمام ابن القيِّم رحمه الله في «مفتاح دار السَّعادة» (١/ ٨٣).

(٢) ذكره الإمام ابن القيِّم رحمه الله في «إعلام الموقِّعين» (١/ ٧٥).

يُرمى بأوصاف ينفَّر بها النَّاس عنه، والأوصاف الَّتِي يرمون بها العلماء الَّذين هم على السنَّة وعلى التَّلقِّي مِنْ كتاب الله ﷻ كثيرة جداً في القديم والحديث.

قال: «**بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبّه بهم وليس منهم**»: يشير هنا إلى أن في النَّاس من يتشبَّه بأهل العلم ويتظاهر به وهو في الواقع يدسُّ البدع وينشر الباطل والخرافة بينهم.

فلا ينشر دين الله ﷻ، وإنَّما هي الخرافات الباطلة والبدع الضالة؛ فهذه بضاعته؛ لكنَّه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغر العوام ويخدع الجهال.

قال: «**وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في أول (سُورَةُ البَقَرَةِ) من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢] الآية**».

يشير رحمه الله إلى أنَّ في هذا السِّياق بيانـًا لهذه الحقيقة، وإيضاحـًا إلى أنَّ العالم الحق شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لها تبارك وتعالى، وعدم لبسه الحقّ بالباطل، وعدم كتمانه للحق، ومحافظته على ما أُمر مِنْ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشيء ولا يعمله، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة].

فهذا السياق المبارك عندما يتأمّله المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميِّز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم نعوتهم، وكلّها مبينة في هذا السياق وفي مواضع أيضـًا أخرى من كتاب الله ﷻ تكشف هذا الأمر وتجلِّي هذه الحقيقة.

قال: «**ويزيده وضوحًا**» أي: يزيد هذا الأمر وضوحًا وبيانًا «**ما صرّحتْ به السُنَّة في هذا الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد**» أي: أنَّ السُنَّة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنَّفة في هذا الباب -وبخاصة كتاب: «جامع بيان العلم وفضله» للامام ابن عبد البر ﵀ لوجد فيه من السنَّة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتهم في ضوء سنة النَّبِيِّ الكريم ﷺ، فهو أمر بُيِّن في الوحي غاية البيان؛ بل كما قال المصنف ﵀ بيانًا واضحًا حتَّى للعامي البليد، ذُكر في القرآن والسُنَّة نصوص توضِّح مَنْ هم العلماء وما هي صفاتهم وغير ذلك؛ لكن المعرض والمتبع لهواه ونحو هؤلاء تختلط عليهم الأمور وتلتبس إمَّا بسبب الجهل أو بسبب اتِّباع الأهواء.

قال: «**ثُمَّ صار هذا أغرب الأشياء**» يعني: معرفة العلماء وعلاماتهم، والفقهاء وصفاتهم، صار هذا أغرب الأشياء، لا يكاد يعرفه إلَّا القليل منهم، والأمر الغريب: الَّذي لا يعرفه إلَّا القلَّة من النَّاس.

«**وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات**» أي: العلم الصَّحيح المستمد من الكتاب والسنة هو البدع والضلالات، وأصبح كثير النَّاس ينكرون السُّنن ويسمُّونها بالبدعة، وينكرون العقيدة الصَّحيحة ويصفونها بالضّلال، وينكرون العبادات الثَّابتة عن الرَّسول ﷺ ويصفونها بالباطل؛ هذا معنى قوله ﵀ «وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»: أي أنّ هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصحيح والفقه السَّليم بأنَّه بدعة وضلالة، وأمَّا العلم عندهم هي البدع الَّتِي يمارسونها، الَّتِي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.

«وخيار ما عندهم»: يعني أفضل شيء عند هؤلاء «لبس الحق بالباطل»: وهذا أمر لا خير فيه، فأيُّ خيرية في أن يلبس الحق بالباطل، وتُخلط على النَّاس المفاهيم الصَّحيحة، وتغيَّب عنهم الحقيقة النَّاصعة المأخوذة من الكتاب والسُنَّة؟!

فإذا كان هذا خيار ما عندهم فمعنى ذلك أنَّ هؤلاء في ضياع تام وإعراضٍ عن كتاب الله ﷻ وسنَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال ﷺ: **«وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون»** ؛ قوله ﷺ: **«لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون»** أي بزعم هؤلاء؛ فيصفون الَّذي يتفوَّه بالعلم الشَّرعي المستمدِّ من الوحي بالجنون، وربَّما وصفوه بالزَّندقة الَّتِي هي: المروق عن دين الله ﷻ، وأسوتهم في ذلك المشركون الَّذين وصفوا النَّبِيَّ ﷺ بالسَّاحر والكاهن والمجنون والمفتري إلى غير ذلك من الأوصاف الَّتِي لقبوه بها، ولُقِّب بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السائرين على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: **«وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم»**، قوله: **«وصار من أنكره وعاداه»** الضَّمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصَّحيح المستمدِّ من الكتاب والسنَّة، فصار من أنكر العلم والفقه الصَّحيح، وصنّف في التَّحذير منه والنَّهي عنه هو الفقيه العالم!! وهذا موجود في عصرنا، تُصنَّف كتب في ردِّ السُّنن والإشادة بالبدع وإحياء الضَّلالات ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقَّبون بالفقهاء، ورُبَّما قيل في حقِّه إمام! أو إمام الأئمة من قِبل أتباعه من الغوغاء والجهَّال؛ وهو ليس عنده إلَّا نشر الخرافة، كالتَّعلُّق بالقبور والكذب على

رسول الله ﷺ، أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة، أو تحريف الآيات عن معانيها، أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات، ويكون الكتاب كلُّه مبنيًا على هذا الأمر ولا ترى فيه مثلًا حديث النَّبِيِّ ﷺ: **«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**(١)، وغيره مِنَ الأحاديث الصَّحيحة في هذا الموضوع، وإنَّما تجد فيه إمَّا آيةً يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها.

وقد يستشهد هؤلاء وغالب من كتب منهم في هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف].

والجواب عنهم: أن هذا أمر ذكره الله ﷻ عن أهل الغلبة، والظاهر من سياق الآية أنَّهم كفار، فيستدلون به لفعل هؤلاء، ويتركون ما قاله النَّبِيُّ ﷺ قبل أنْ يموت: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

ولا يصح أنْ نقول هذا شرع مَنْ قبلنا لأنَّه لو كان كذلك: أيصحُّ أنْ يقول ﷺ: **«لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**؟

أيلعنهم على أمر هو مشروع عندهم؟ هذا لا يقال؛ بل اتِّخاذ القبور مساجد هو باطل في أديان جميع الأنبياء والمرسلين، والآية ذكرٌ لحال أهل الغلبة من غير المسلمين: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩).

فالسّياق واضح ووصف لحالهم(١)، فيستدلون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح؛ بل في سياق ذم ويتركون أحاديث رسول الله ﷺ!!

والعامي المسكين إذا قالوا له: يقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾، هذا القرآن ناطق باتِّخاذ القبور مساجد، فكيف

---

(١) قال العلاَّمة محمد ناصر الدِّين الألباني رحمه الله في ردِّه على هذه الشبهة: «فالجواب عنها مِنْ ثلاثة وجوه:

الأوَّل: أنَّ الصَّحيح المتقرّر في علم الأصول أنَّ شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحدا منَ الأنبياء قبلي... (فذكرها وآخرها) وكان النَّبيُّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النَّاس كافَّة».

فإذا تبيَّن هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدلُّ على أنَّ جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا.

الثَّاني: هب أنَّ الصواب قول من قال: «شريعة منْ قبلنا شريعة لنا» فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا؛ لأنَّ الأحاديث تواترت في النَّهي عن البناء المذكور كما سبق فذلك دليل على أنَّ ما في الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لا نسلِّم أنَّ الآية تفيدُ أنَّ ذلك كان شريعة لمن قبلنا؛ غاية ما فيها أنَّ جماعة منَ النَّاس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ فليس فيها التَّصريح بأنَّهم كانوا مؤمنين، وعلى التَّسليم فليس فيها أنَّهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل؛ بل الظَّاهر خلاف ذلك؛ قال الحافظ ابن رجب في «فتح الباري في شرح البخاري» (٦٥ / ٢٨٠) منَ «الكواكب الدراري» «حديث لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: وقد دلَّ القرآن على مثل ما دلَّ عليه هذا الحديث وهو قول الله ﷻ في قصَّة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾، **فجعل اتِّخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور وذلك يشعر بأنَّ مستنده القهر والغلبة واتِّباع الهوى، وأنَّه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى...**» «تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد» (ص٥٥).

يقول هـؤلاء: لا يجوز؟! وهذه آية من (سُورَةُ الكَهْفِ)، ثُمَّ يردفون هذه الآية الَّتِي حرفوا معناها بأحاديث المكذوبة باطلة يوردونها ـ مثلاً ـ : «من اعتقد في حجر نفعه»!!، أو أشياء من هذا القبيل، ثُمَّ بعد ذلك يردفونها بقصص واهية، ثُمَّ قد تُجمع هذه الشُّبه في كتاب ويُعدُّ علمـًا، ويُعدُّ مؤلفه عالما فقيها، وكلُّه كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، وقولٌ على الله بلا علم، وتلفيقٌ وتزويرٌ وكتم للحقِّ ولبسه بالباطل، وخلط للأمور، والَّذين يكتوون من جمرة هؤلاء من علماء السُّوء إنَّما هم العوام الجهّال، فيغترون ويقعون في أنواع مِنَ الباطل، والله المستعان.

فهذا مثال واحد، وقلْ في جميع أبواب الدِّين مثل هذا، فعندما يتصدَّر للنَّاس دعاة للباطل والضّلال فسيفسدون في الناس بمثل هذه الطريقة.

فالمؤلف ﵀ وضع هذا الأصل نصحـًا للنَّاس حتَّى لا يختلط الأمر على عوام المسلمين وعلى المبتدئين وعلى طلبة العلم، ويعرفون الحقيقة كما هي.



[المتن]

قال رحمه الله تعالى:

«الأصل الخامس: بيان الله سبحانه للأولياء وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية (آل عمران) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾، وآية في (سورة المائدة)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الآية، وآية في (سورة يونس) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾، ثُمَّ صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم، ولابد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولابد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية إنّك سميع الدّعاء».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**الأصل الخامس**»: وهذا أصل عظيم ومفيد جدّاً للمسلم، والنَّاس بحاجة ماسَّة للعلم به ولفهمه.

يقول رحمه الله: «**بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**» هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولعلّنا نلحظ الطريقة المباركة والنَّهج السَّديد الَّذي عليه

هذا الإمام في توضيحه للأمور، فلمَّا أراد أنْ يذكر علامة العلماء وأمارة الفقهاء أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أنْ يبيِّن علامات أولياء الله ﷻ أيضـًا أورد آيات منْ كتاب الله ﷻ تعرف من خلالها علاماتهم؛ منبِّهـًا بذلك أنَّ الحق وأهله ودعاته إنَّما يُعرفون منْ جهة دلالة كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

قال: «**بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**»؛ فأولياء الله لهم علامات ذُكرتْ في القرآن والسنَّة، وأولياء الشيطان الَّذين يدَّعون أنَّهم أولياء الله أيضـًا لهم علامات ذكرت فيهما الكتاب، وقد صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ مصنفـًا عظيم النفع كبير الفائدة سماه «الفرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان»، وهو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يُميَّز به بين ولي الله، وولي الشَّيطان، ومَنْ لم يميِّز خدعه أولياء الشَّيطان وغرَّوه وصرفوه عنْ دين الله ﷻ.

قال: «**ويكفي في هذا آية (آل عمران) وهي قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾، **وآية في (سورة المائدة)، وهي قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ **الآية، وآية في (سورة يونس) وهي قوله تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾».

فيكفي أنْ تعرف الأولياء حقًّا وصدقًا من خلال هذه الآيات الثَّلاث فقط؛ ففيها كفاية لك في معرفة منْ هو الولي، وما هي علاماته.

فالعلامة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

أي: اتباع النَّبِيِّ ﷺ، ولقد كان بعض أهل العلم يسمُّون هذه الآية «آية المحنة»؛ أي أنَّ من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوَّة محبَّته لرسول الله ﷺ وقبل ذلك محبَّته لربّ العالمين؛ فلينظرْ أو ليقِسْ ذلك على ضوء الاتِّباع الَّذي عنده، فإنَّه كلَّما كان أعظم اتِّباعـًا وتمسُّكـًا بهدي الرَّسول ﷺ فإنَّ هذه أمارة على صدق المحبَّة، وكلَّما ضعُف فيه الاتباع فهذا أمارة على ضعفها، فكيف يكون وليًّا وهو لا يتَّبع الرَّسول ﷺ؟!(١).

وقد تجد في بعض البلدان مَنْ يزعم ويدَّعي أنَّه ولي، ويجلس متَّكئـًا على سارية

---

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كلِّ من ادَّعى محبَّة الله، وليس هو على الطَّريقة المحمديَّة فإنَّه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّدي والدِّين النَّبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبَّتكم إيَّاه، وهو محبته إيَّاكم، وهو أعظم من الأوَّل، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشَّأن أن تُحِبّ، إنَّما الشَّأن أن تُحَبّ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: **زعم قوم أنَّهم يحبُّون الله فابتلاهم الله بهذه الآية**» «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢).

في المسجد أو يكون في الشَّارع جالسـاً وتقام الصَّلاة ويصلِّي النَّاس وهو لا يصلِّي معهم! فأين الصلاة الَّتِي فرضها الله على عباده؟

يقول أحد الأشخاص: «مررتُ ببلدٍ وفي مكان ما وإذا برجل كلَّما مررت به أراه جالسا لا يقوم حتى إلى الصلوات المفروضة! فسألتُ عنه: من هذا؟ فقالوا: سبحان الله ما تعرفه! هذا وليٌّ من أولياء الله، وكلّ الناس يشهدون له بالولاية! وقد نذر أنْ لا يقوم من هذا المكان أبداً، فيجلس فقط ويصلي على النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قالوا: لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه وهو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدّواء لها».

فالعوام يُخدعون بمثل هذا الكلام، ثُمَّ إذا قيل لهم: فلان جرَّب أوفلانة جرَّبت فلا تسأل عن ركضهم إلى مثل هذا زرافات ووحدانـاً، وهذا هو الضياع بعينه، والله المستعان، وأصبحتْ العبرة في الولاية مثل هذه المقاييس الفاسدة، أمَّا الَّتِي في الكتاب والسنَّة لا تجدهم يعرِّجون عليها ولا يقفون عندها.

فأين الولاية بدون الاتباع؟! وأين الصَّلاة المفروضة الَّتِي افترضها الله على عباده وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد أتُترك هكذا؟

وإذا كان الشخص لا يصلِّي ولا يشهد الصَّلاة مع الجماعة فهذا بالتأكيد ولي من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن.

وأين الاقتداء بالرَّسول ﷺ وبسنَّتِه، ومن أعظم ما يكون في ذلك شأن الصَّلاة، فقد كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقَّى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته؛ فإذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأنَّ لعلمه

وأخذ عنه، وإذا كان مضيِّعًا لها فهو لما سواها أضيع[(١)]، «**ولاحظَّ في الإسلام لمن ترك الصَّلاة**»[(٢)]، لأنَّها الميزان الحقيقي لإسلام الشخص.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه «**أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّي فِيهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، وَهْوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلاَةِ ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ**»[(٣)].

تهلَّل وجهه ﷺ والنَّاس يراهم وهم صفوف يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فهذه هي الولاية، بالصَّلاة وفي عبادة الله واتِّباع الرَّسول عليه الصلاة والسلام، وهذه علامة واضحة بُيِّنتْ في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك التبس على كثير مِنَ العوام والجهَّال، وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة.. وإنما ينظر إلى طول العمامة؛ أو الشكل، وأصبح بعضهم يعتقد أنَّ الولاية

---

(١) «عن أبي العالية، قال: كنتُ أرحل إلى الرَّجل مسيرة أيَّام لأسمع منه، فأتفقَّد صلاته، فإن وجدته يحسنها، أقمت عليه، وإنْ أجده يضيِّعها، رحلت ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أضيع» «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩)، وانظر: (٧/ ١١١).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٥١)، والمروزي في «تعظيم قدر الصَّلاة» (٩٢٣)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٢٠٩)، وانظر: مبحث (مكانة الصَّلاة) من كتاب «تعظيم الصَّلاة» لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

(٣) رواه البخاري (٨٦٠)، ومسلم (٤١٩).

نوع من اللِّباس أو زَيٍّ معيَّن، أوحركات تُفعل إذا وُجدت أصبحت مقياسـًا، والله تعالى يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾ [آل عمران].

يقولون مثلا: (الأولياء لا يطوفون بالبيت، وإنَّما يطوف بهم البيت)، وهذا ليس كلامـًا يقال عنهم فحسب؛ بل كلام موجود في كتبهم ويُنشر بينهم.

وقد حُدّثتُ عن شخص أنَّه جاء ووصل إلى مكَّة ولم يطف بالكعبة، وقال: الأولياء هم الَّذين يطوف بهم البيت!!.

و المتأمِّل في سيرة إمام الأولياء ﷺ يجد أنَّه ﷺ حجَّ واعتمر أربع مرَّات، فطاف بالبيت طوافـًا متكرّراً، ثُمَّ يدَّعي هؤلاء أنَّ الولي لا يطوف بالبيت وأحقيته ومكانته أنَّ البيت يطوف به!

حتَّى إنَّه في أحد كتب الفقه عُقدت مسألة فقهية!! في كتاب الصَّلاة مبنية على خرافة هؤلاء: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلِّي النَّاس؟ قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم على قولين: قال بعض العلماء يصلُّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار أنَّ النَّاس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة، والقول الآخر: لابدَّ أن يتحرَّى النَّاس أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها.

فهذا بُحث في أحد الكتب!! و تروَّج عند العوام، وفيها مثل هذه الخرافات ما الله به عليم، وتنشر على أنَّها علامة للأولياء، فلا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويُدَّعى أنَّه وليٌّ من أولياء الله!! وهو وليٌّ للشيطان بلا شك ولا ريب، إي واللهِ وليٌّ للشيطان

ليس وليًّا للرَّحمن، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[الأنفال]، لأنَّ الولاية بمثل هذا: ضياع والضلال وباطل.

وأيضًا جانب التَّقوى لا تراها فيهم ـ أقصد الغلاة ـ بل تراه يمارس بعض المحرَّمات الصَّريحة الواضحة البيِّنة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

لكنَّه يمارسها والعياذ بالله باسم الولاية، وقد قرأتُ في بعض الكتب لهؤلاء وحدَّثني بعض المهتدين منهم: أنَّ المريد يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنَّه ولي في ليلة زواجه مع زوجته البكر إلى شيخه ويتوسَّل إليه ويتذلَّل بين يديه أنْ يتكرَّم بافتضاض بكارتها، ثُمَّ يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة ـ زعموا ـ، ثُمَّ تخرج مِنْ عنده ويقبُّل هذا المريد قدمي شيخه شكراً له على هذا الإحسان، وربَّما أعطاه أيضًا مالا على إحسانه له.

فهذا يمارس الفواحش والعياذ بالله، وأمور منكرة باسم الولاية، فهؤلاء أولياء الشيطان ـ إي والله ـ ليسوا أولياء الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال].

«فكل من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»[(١)]، فلما اختلطت الأمور على النَّاس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت الخرافات تُبثُّ والضلالات تنشر بين النَّاس وأصبحتْ هي المقياس.

ولكن قد يغتر العوام عندما تؤتى لهم بقصص وحكايات، ويظنُّون فعلاً أن هذا

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤).

من أولياء الله، وهذا خطأ عظيم فولي الله علامته واضحة ، وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض، فإذا ضيَّع الفرائض فهو ليس من أولياء الله، ولا تحتاج هذه إلى مفاصلة واضحة؛ ومن ضيَّع الفرائض فهو لما سواها أضيع.

ولهذا فالولاية درجتان بُيِّنت في قوله ﷺ عن الله تعالى في الحديث القدسي: **«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَي بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»**(١).

فالأولياء على درجتين:

١. درجة فعل الفرائض؛ فالَّذي يحافظ عليها ويترك المحرمات هذا من أولياء الله، وهي درجة في الولاية.

٢. أعلى منها درجةً: من يفعل الفرائض ويترك المحرمات، وينافس في فعل الرَّغائب والمستحبات، وهذا معنى قوله تعالى: **«ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سألَني لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَني لأُعِيذَنَّهُ»**(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) قال العلاَّمة عبد الرَّحمن السَّعدي ﵀: «**هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء**، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أنَّ معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، ومنْ كان متصدِّيا لعداوة الرَّب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول، ومنْ تكفَّل الله بالذَّبِّ عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابِّه، فأحبَّهم وقام بكفاياتهم، وكفاهم ما أهمَّهم.

الآية الثانية الَّتِي ذكرها المؤلف هي قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤ ﴾ [المائدة] ذكر لهم أربع علامات:

١. أذلّة على المؤمنين؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين، ومحبّة للخير لهم، ونصح، ودعاء، وتعاون معهم على الخير.

٢. أعزّة على الكافرين؛ قلوبهم فيها عزّة ومنعة، وفيها أيضًا بغضٌ وكراهية للكفّار وأعداء دين الله ﷻ.

٣. وفيهم أيضًا الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ﷻ ونصرة دينه.

٤. وفيهم أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحقّ وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات على أن للإنسان من أولياء الله ﷻ.

ثم ذكر صفة الأولياء الصِّفة الكاملة، وأنَّ أولياء الله هم الَّذين تقرَّبوا إلى الله بأداء الفرائض والنوافل أوّلًا: منْ صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه وحقوق عباده الواجبة.

ثمَّ انتقلوا من هذه الدرجة إلى التَّقرُّب إليه بالنَّوافل، فإنَّ كل جنس منَ العبادات الواجبة مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل عظيمة تكمِّل الفرائض، وتكمِّل ثوابها.

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنَّوافل، فتولَّاهم وأحبَّهم وسهَّل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه، ووفَّقهم وسدَّدهم في جميع حركاتهم، فإنْ سمعوا سمعوا بالله، وإنْ أبصروا فلله، وإنْ بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله»«بهجة قلوب الأبرار» (ص١٢٤).

ثُمَّ ختم المؤلف رحمه الله بعلامة أخيرة في قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

ثُمَّ ذكر علامتهم عز وجل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]: والعلماء رحمهم الله يقولون: إذا جُمع بين الإيمان والتَّقوى في آية واحدة أو في نصٍّ واحد؛ يكون الإيمان يتناول العقائد الصَّحيحة وفعل الأوامر، والتَّقوى: البعد عن العقائد الزَّائفة الباطلة وترك النَّواهي، فالإيمان: اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطَّاعات الَّتِي دلَّ عليها الكتاب والسُنَّة، والتّقوى: البعد عن العقائد الباطلة واتقاؤها، وأيضـًا اتقاء المحرمات وما نهى الله عنه تبارك وتعالى ويأتي في مقدِّمة ذلك الشِّرك بالله تعالى، والعياذ بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتَّقوى؛ ولهذا من كان مؤمنـًا تقيّـًا كان لله وليّـًا ـ كما سبق ـ، هذا أمر واضح في كتاب الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال المصنف: «**ثُمَّ صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من أهل العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرَّسول**»؛ يعني أصبحت العلامة للولي : ترك تعاليم الدين، كما ذكرنا من أمثلة سابقة.

«**ومن تبعهم فليس منهم**» يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم ليس منهم،لأنَّه لا يكون منهم إلا بترك الاتِّباع هكذا فُهمت الأمور عندهم.

«**ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم**»: هذه المقاييس الَّتِي في الآية تركوها وأصبحت الولاية عندهم بعكس ذلك؛ ولهذا دعا المصنِّف رحمه الله بهذه الدَّعوة قال: «**يا ربّنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء**».

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

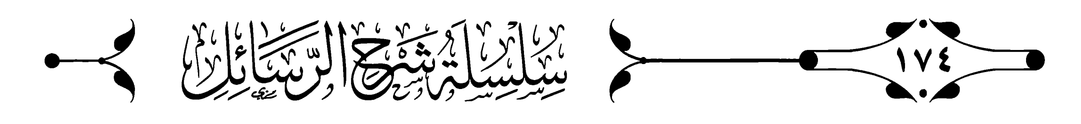
[المتن]

قال رحمه الله تعالى:

«الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة؛ وهي: أنّ القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر؛ فإن لم يكن الإنسان كذلك فليُعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها؛ فسبحان الله وبحمده! كم بيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ «غافر».

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ «يس».

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين».



[الشرح]

قال ﷺ : «**ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة**».

إنَّ الشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدَّتهم عَنْ كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ[١]، وأصبح هؤلاء يروِّجونها بين النَّاس، وكانت النَّتيجة إعراض هؤلاء في التلقِّي والأخذ عَنْ الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجِّههم إليه أئمّة الضّلال، فوضع لهم شبهة خبيثة:

أولاً: «**لا يقرأُ القرآنَ ولا يتدبَّره إلَّا مجتهد**».

ثانيا: «**لا يكون الإنسان مجتهداً إلَّا بأنْ يكون موصوفًا بصفات كثيرة**» كما قال المصنِّف ﷺ: «**لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**».

بل وصل الأمر بهم إلى قول: «لا يوجد في زماننا مجتهدين».

إذا نستنتج من كلامهم أنَّ قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢] أُلغي بهذه الشبهة، وأصبحوا لا يتدبَّرون القرآن، ويقرؤونه إلَّا للبركة فقط وبدون

---

(١) قال الإمام ابن القيِّم ﷺ:«قال بعض السلف : ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشَّيطان فيه نزغتان : إمَّا إلى تفريط وتقصير، وإمَّا إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيِّهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر النَّاس إلَّا أقلُّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتَّعدي، والقليل منْهم جدًّا الثَّابت على الصِّراط الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه» «إغاثة اللَّهفان» (١/ ١١٦).

محاولة لفهمه، بل بعضهم ينبِّه غيره ويقول: (**انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أنْ تفهم؛ لأنَّك إنْ فهمت شيئًا من القرآن فإنَّ دينك على خطر، يُخشى عليك الانحراف!**).

فإذا قيل له: نهى الله ﷻ عن الشِّرك، والدَّليل قوله تعالى كذا، وأمر بكذا والدَّليل قوله كذا، يقول: لا تتكلَّم في هذا، لأنَّ هذا خاص بأهل الاجتهاد.

والعلماء رحمهم الله يقولون: الَّذي جاء في القرآن أمور كثيرة واضحة لكلِّ أحد، فلَّما قال الله ﷻ (مثلًا): ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذه الكلمة واضحة ولا تحتاج إلى اجتهاد ومعرفة بالمقدمات الَّتِي ذكروها؟ لأنَّ شهر رمضان معروف عند كلِّ أحد، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥] نزول القرآن في رمضان أيضًا واضح، والأمثلة في ذلك كثيرة:

من الَّذي لا يفهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] أو ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾[النساء]، ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾[النور:٣٠]، ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

فهل تحتاج إلى مجتهد مطلق حتَّى يفهم معنى غضِّ البصر؟!

خاطب الله ﷻ النَّاس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، وهناك أمور تحتاج إلى استنباطات واجتهادات كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣]، أي دقائق المسائل التي تحتاج إلى فقه واستنباط، أمَّا أنْ يُهجر القرآن ويُترك تدبُّره، ويقال يقرأ فقط للبركة هذه شبهة أردتْ بكثير من الناس إلى

الضلال المبين، وأصبحوا معرضين عن كلام الله سبحانه وعن دلالاته، منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعة، وبالقصص الواهية، وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيه ﷺ ـ نسأل الله العافية ـ.

فهذه شبهة وضعها الشَّيطان لهم وأثَّرت في كثير منهم، من أجل ترك القرآن والسنَّة واتِّباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وإذا تُرك أخذ الدِّين والتدبُّر للقرآن الكريم وسنَّة النَّبيِّ ﷺ فمن أين يأخذ الناس دينهم؟ فهذا عين الضَّياع والضلال.

فالشبهة: «**هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق**»، هذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: «**والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافًا لعلّها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**».

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء].

فالرد إلى الله: الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرَّسول ﷺ: الردُّ إلى سنَّته، ولكن على ضوء هذه الشبهة يُخالف القرآن؛ فلا يُردُّ لا إلى الكتاب ولا إلى السنَّة.

قال: «**فإن لم يكن الإنسان كذلك**» يعني: بتلك الأوصاف للمجتهد «**فليعرِض عنهما فرضًا حتمًا لاشك ولا إشكال فيه**» هكذا يقولون، وبعضهم بمثل هذه

الألفاظ يهزُّ العوام ويخلخل ثوابتهم؛ ويجعل ترك تدبر القرآنفرضـًا حتمـًا لا شك ولا إشكال فيه.

قال: «**ومن طلب**» يعني هذا كلامهم، «**الهدى منهما**» أي: من الكتاب والسنة، «**فهو إما زنديق**» لأنه خاطر بدينه، «**وإما مجنون**» لأجل صعوبة فهمهما، فهو يحاول أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أنْ يُفهم منه؛ وهذا نوع من الجنون!!

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» عند قول الله تعالى في (سُورَةُ مُحَمَّدٍ): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وقف وقفة مطوّلة عند هذا الموضوع، وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها بإجابة موفقة، وأشار إلى بعض من قالها، وتوسّع توسّعـًا طويلاً في ذلك؛ بل تصلح أن تكون هذه المعاني العظيمة، والتقريرات المفيدة الَّتِي ذكرها رحمه الله في رسالة مفردة[1].

ثُمَّ ختم المؤلِّف رحمه الله رسالته بتسبيح الله وحمده؛ تسبيحه: تنزيهه تبارك وتعالى عن مثل هذه الافتراءات، والقول الباطل في كلامه سبحانه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

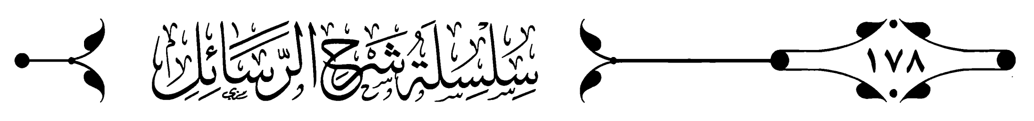
وحمداً:على نعمة التوفيق للخير والهداية والسَّلامة مِنْ هذه الشُّرور.

قال رحمه الله: «**فسبحان الله وبحمده كم بين الله سبحانه شرعـًا وقدراً خلقـًا وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدّ الضروريات العامة، ولكن أكثر**

---

(١) قال رحمه الله في ذلك الموضع: «يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربِّه، يوم القيامة، أنْ يتأمَّل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطَّاعة الكبرى، الَّتي عمت جل بلاد المسلمين منَ المعمورة.

وهي ادِّعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنَّة رسوله، استغناءً تامًّا، في جميع الأحكام منْ عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدوَّنة»«أضواء البيان» (٧/ ٢٦٢).



الناس لا يعلمون» أي: هذه الشبهة زيفُها مكشوف تماما، وكم بُيّن في القرآن والسنَّة من الدَّلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التَّقرير الفاسد حتَّى أصبح في درجة العلم بها من الدِّين بالضَّرورة، ولكن استطاع الشَّيطان بمكره ومصائده أنْ يُقنع أناسًا بها، فأخذُوا يروِّجونها ويصدُّون بها النَّاس عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

ثُمَّ ختم بهذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس][1].

ثُمَّ قال: «**آخره**» أي: آخر هذا الكتاب أو هذه الرسالة، «**والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين**»[2].

ونسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنَى وصفاته العلا أنْ يجزي هذا الإمام وغيره منَ أئمة المسلمين على نصحهم وبيانهم ودعوتهم وجهادهم ومجاهدتهم وبذلهم، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وأنْ يلحقنا أجمعين بالصَّالحين من عباده.

---

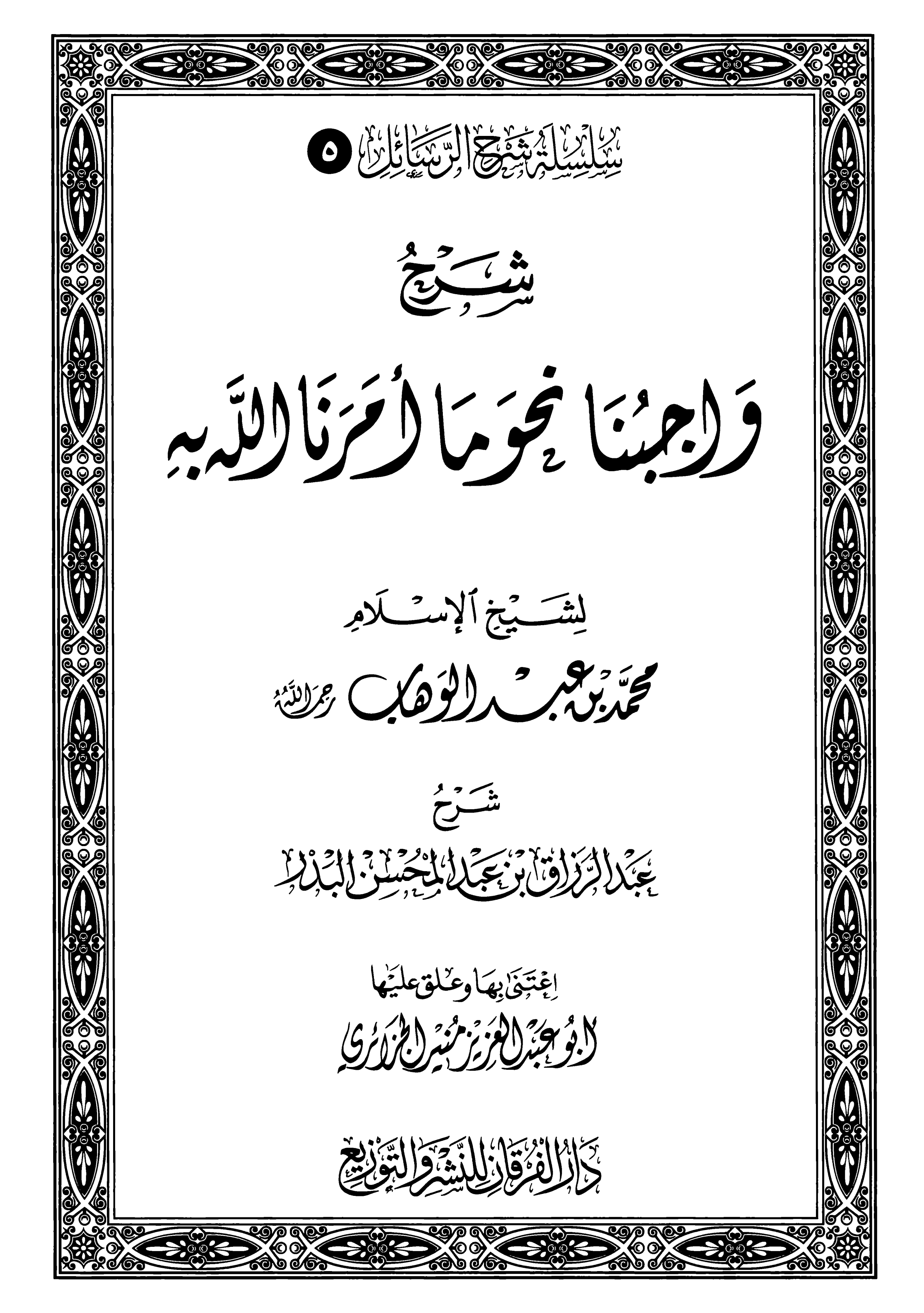
(١) قال العلاَّمة صالح الفوزان حفظه الله: «هذه الآيات في المعرضين عن تدبُّر كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفي آخرها الَّذي مَنَّ الله عليه وهو ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس:١١] فهذا مثل الفريقين.

(٢) ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصَّلاة والسَّلام على رسوله، وهذا مِنْ محاسن التَّأليف والتَّعليم، وذلك بالثَّناء على الله أوَّلًا وآخرًا» «سلسلة شرح الرَّسائل» (ص٥٠).

ونسأله ﷻ أنْ لا يزيغ قلوبنا، فاللهم ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [آل عمران].

اللهم أصلح لنا ديننا الَّذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا الَّتِي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا الَّتِي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير والموت راحة لنا من كلِّ شر، اللَّهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، اللَّهم اهدنا واهد بنا واهد لنا، ويسِّر الهدى لنا، واشرح صدورنا للخير يا ربَّ العالمين، إنَّك سميع الدُّعاء، وأنت أهل الرجاء، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

* * * * *



سلسلة شرح الرسائل (٥)

شرح
واجبنا نحو ما أمرنا الله به

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

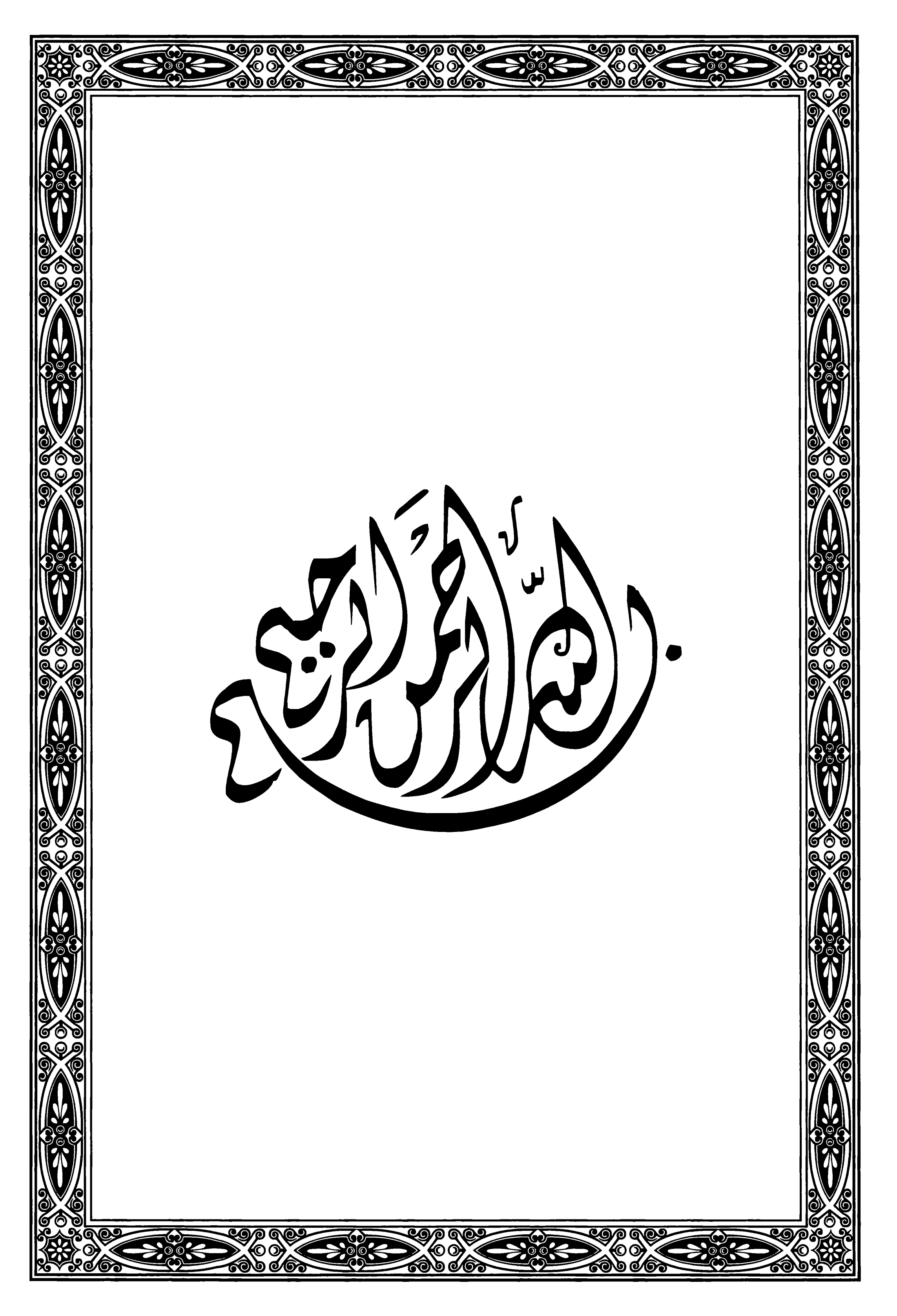
شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



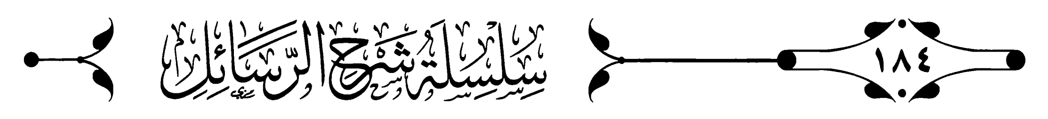
مُقَدِّمَةُ المُعْتَنِي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه



تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المغمورة **(واجبنا نحو ما أمرنا الله به)**، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٢].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

---

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي اللهِ

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب:00213555903095





مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فبين أيدينا رسالة قيمة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﵀ في بيان الواجب على كل مسلم نحو ما أمره الله تبارك وتعالى به، والله ﷻ أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور عديدة، جاءت في كتابه تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، فما الواجب علينا، نحو ما أمرنا الله به، ونحو ما نهانا عنه؟

فلاشك أن هذا من الأمور العظيمة التي ينبغي أن يعيها كل مسلم ومسلمة؛ وفي هذه الرسالة القيمة للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ﵀، بين أن الواجب علينا

نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به أمور سبعة بينها واحدا تلو الآخر نقرؤها في رسالته ﷺ أولا، ثم أعلق عليها بما ييسره الله ﷻ، والله الموفق لا شريك له.

وقبل هذا أذكر بعض ما تتميز به مصنفات الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﷺ أشير إليها إجمالا[١]:

الميزة الأولى: أن النصيحة للمؤمنين، والحرص عليهم، وعلى نفعهم، وهداية المخالف منهم والضال عن سواء السبيل، ظاهرة بارزة فهي شغله الشاغل ﷺ.

والميزة الثانية: أن رسائله أتت على مهمات الدين، وقواعد الشريعة، وأصول الإيمان وأموره الكبار، فكان يعتني بهذه المسائل التي يجهلها الكثير من الناس عناية بالغة لمسيس الحاجة إليها من جهة، والبيان المغلوط لها من أئمة الضلال وترويج الباطل فيها بين الناس من جهة أخرى

والميزة الثالثة لمصنفاته ﷺ: أنها مختصرة، وموجزة أي: يوجز القول ويقلل الكلام، ولكنه يأتي بجوامع الخير تقريرا وتقعيدا وتأصيلا بدون إطالة مملة أو اختصار مخل.

والميزة الرابعة: عنايته الدقيقة ﷺ بالدليل: قال الله، قال رسوله ﷺ، وهذه ميزة عظيمة تميزت بها مؤلفاته ﷺ وهو سائر في ذلك على سنن السلف الصالح، وأئمة

---

(١) للشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله رسالة نافعة بعنوان: «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف».

الهدى، وقد جاء عن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ﷺ قَالَ: «كَانُوا يَقُولُونَ: إِذَا كَانَ الرَّجُلُ عَلَى الْأَثَرِ فَهُوَ عَلَى الطَّرِيقِ»(١).

فهذه من الأمور والميزات التي تتميز بها مصنفات هذا الإمام ﷺ ويلاحظ فيها نحسبه كذلك والله حسيبه، أنها نابعة عن إخلاص وصدق، ولهذا بارك الله تبارك وتعالى فيها بركة عظيمة في العالَم كله، ونفع الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما، وتبصر الناس وعرفوا التَّوحيد، وعرفوا السنَّة، وعرفوا الإيمان الصحيح وسلموا من شبهات أهل الباطل، وأضاليل أهل الضلال، وكل ذلك حصل لمن كتب الله تبارك وتعالى له التوفيق من عباده.

وفي هذه الرسالة التي بين أيدينا - وهي رسالة عظيمة جدا وقيمة للغاية - يجيب فيها ﷺ عن سؤال ربما يطرحه كل مسلم، أو ربما يشغل بال كل مسلم ناصح لنفسه، ألا وهو ما الذي يجب علينا نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به؟

فالله ﷻ أمرنا بأوامر كثيرة في كتابه، وأمرنا رسوله ﷺ بأوامر العديدة في سنته، ونهانا ربنا تبارك وتعالى عن نواه كثيرة في كتابه، ونهانا رسوله ﷺ عن نواه عديدة في سنته، فما الذي يجب علينا معاشر المسلمين نحو ما أمرنا الله وتعالى به، وما أمرنا رسوله ﷺ، ونحو ما نهانا الله تبارك وتعالى عنه، ونهانا عنه رسوله ﷺ؟

فيلخص لك الإمام ﷺ الواجب نحو ما أمرنا الله به في أمور سبعة، فاحفظها واعتن بها ينفعك الله تبارك وتعالى بها نفعا عظيما.

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (١٤١)، وانظر على سبيل المثال: «الإبانة الكبرى» (٢٤٢)، و«الشريعة» (٣٠).

فيجب عليك نحو ما أمرت به ونهيت عنه في القرآن والسنة أمورا سبعة بينها وجمعها ﷺ في هذه الرسالة المختصرة، ولعل من الدوافع - والله تعالى أعلم - لتأليف هذه الرسالة أن كثيرا من الناس يعلمون الأوامر وتبلغهم ولكنهم لا يدرون بدقة ما الذي يجب عليهم فكان تأليف هذه الرسالة، ولهذا ستلاحظ في رسالة الشيخ ﷺ أنه ركز على هذا الجانب، ألا وهو بيان حال الناس وواقعهم مع هذه الأوامر لما عرض الأمور السبعة أشار إلى واقع كثير من الناس معها، وأن القليل من الناس هم الذين كملوها ورعوها واعتنوا بها، وأن كثيرا من الناس فرطوا في هذه الأمور فتجده إما عمل ببعضها وفرط في باقيها، أو فرط في جميعها، وأما القليل من الناس هم الذين وفقهم الله بالعمل بهذه الأمور السبعة مجتمعة ورعوها واعتنوا بها محققين بذلك إسلامهم ومتممين إيمانهم، ولهذا أيها الأخ الموفق ينبغي أن تعير هذه الأمور اهتمامك وأن تعتني بها حفظا أولا، وفهما ثانيا، ثم عناية بتطبيقها.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

✲ ✲ ✲ ✲ ✲

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب ﷺ وغفر له في رسالته «واجبنا نحو ما أمرنا الله به»:

«إِذَا أَمَرَ اللهُ العَبْدَ بِأَمْرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الأُولَى: العِلْمُ بِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ.

وَالثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَى الفِعْلِ.

وَالرَّابِعَةُ: العَمَلُ.

وَالخَامِسَةُ: كَوْنُه يَقَعُ عَلَى المَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

وَالسَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلِ مَا يُحْبِطُهُ.

وَالسَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

إِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللهَ أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ اليَتِيمِ وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبِرَ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَى، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الرِّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ.

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحبَّةُ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَكُفْرِ مَنْ كَرِهَهُ، لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ] فَأَكْثَرُ النَّاسِ لَمْ يُحِبْ الرَّسُولَ بَلْ أَبْغَضَهُ، وَأَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّ الله أَنْزَلَهُ.

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَى الفِعْلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَرَفَ وَأَحبَّ وَلَكِنْ لَمْ يَعْزِمْ خَوْفًا مِنْ تَغَيُّرِ دُنْيَاه.

المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: العَمَلُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُهُ مِنْ شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِمْ تَرَكَ العَمَلَ.

المَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا.

المَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ العَمَلِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]، وَهَذِهِ مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا.

المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ، وَالخَوْفُ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».

وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ، وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا، فَالتَّفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ، وَاللهُ أَعْلَم[1].

---

(١) «الدُّرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٧٤).

[الشرح]

قال ﷺ: «إِذَا أَمَرَ اللهُ العَبْدَ بِأَمْرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ».

قوله ﷺ: «وَجَبَ» يدل على أن هذه الأمور السبعة التي يذكرها ﷺ هي من الواجبات على كل مسلم ومسلمة نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به، ونحو أيضا ما نهانا تبارك وتعالى عنه، ثم ذكرها أولا مجملة ثم بعد ذلك فصَّلها بعض التفصيل قال ﷺ:

الأُولَى: العِلْمُ بِهِ.

وَالثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ.

وَالثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَى الفِعْلِ.

وَالرَّابِعَةُ: العَمَلُ.

وَالخَامِسَةُ: كَوْنُه يَقَعُ عَلَى المَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

وَالسَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلِ مَا يُحْبِطُهُ.

وَالسَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

فهذه أمور سبعة عظيمة تجب عليك أيها المسلم نحو كل ما أمرك الله تبارك وتعالى به، وقد جمعت لك الخير كله، وهي ليست أمورا غامضة، بل أمور واضحة يفهما العامي فضلا عن طالب العلم أو العالم، وهي بينة وظاهرة، ولا تحتاج إلى شرح وبيان[1].

---

(١) الإمام ابن القيم ﷺ بيَّنَ أن العلم منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفائي وساق

قال رحمه الله: «**الأولى: العِلْمُ بِهِ**» أي: إذا أمرك الله تبارك وتعالى بأمر، فإن أول ما يجب عليك نحوه أن تعلمه، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ : ١٩]، وقال جل وعلا: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾ [سُورَةُ طه].

أن تعلم الذي أمرت به، لتعبد الله تبارك وتعالى على بصيرة، ومن كان لا يعلم المأمور فإنه لا يعلم ما أمره الله تبارك وتعالى به، فكيف يعبد الله وهو يجهل دين الله؟ ولهذا أول واجب علينا نحو ما أمرنا به أن نتعلمه، أمرنا بالتوحيد، فما واجبنا الأول نحو التوحيد؟ أن نتعلمه، وأن نفهمه فهما صحيحا.

وأمرنا بالصلاة وهي من أعظم الأوامر بعد التوحيد، فما واجبانا نحوها؟ أن نتعلمها: فنعرف الصلاة بأركانها، واجباتها، شروطها، كما أمرنا ربنا بذلك، وكما جاء في سنة نبينا عليه الصلاة والسلام القائل: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1]، ولا يمكن أن يصلي الإنسان كما كان رسول الله ﷺ يصلي إلا بالعلم، وهكذا قل في بقية الأوامر التي أمرك الله تعالى بها، ولهذا قدم رحمه الله العلم قبل الأمور الأخرى التي ذكرها، لأن العلم به يبدأ، كما قال الله تعالى في القرآن ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ : ١٩].

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، ولهذا العلم أول ما يبدأ به من أمور الدين، أن يتعلم الإنسان دينه، وأن يتعلم الأوامر التي أمره الله تبارك وتعالى بها، وأن يتعلم

التفصيل في ذلك، فمما ذكره رحمه الله: «إن العلم بالمفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو أنواع... وأما فرض الكفاية» «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٧).

(١) رواه البخاري (٦٣١).

النواهي التي نهاه الله تبارك وتعالى عنها، ليكون في عبادته لله تبارك وتعالى على بصيرة لا أن يعبد الله بالجهل، أو يعبد الله بالأهواء، أو يعبد الله بالبدع والضلالات، فقد قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، ولا يمكن أن تعمل العمل الذي عليه النبي ﷺ إلا بالعلم النافع الذي تقتدي به وتعرف به الحق والهدى، وتميز به بين الحق والباطل، وتعبد الله على بصيرة وبينة، وإنَّ من الدعوات العظيمة النافعة التي كان النَّبِيُّ ﷺ يُلازمُ المحافظةَ عليها كلَّ صباح ما ثَبت في «مسند الإمام أحمد» و«سنن ابن ماجه» من حديث أمِّ سلمة ﵂ **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا»**(٢).

وذلك أن اليوم هو للعمل، وتحقيق الأهداف العظيمة التي يسعى إليها المسلم ذكرت في هذه الدعوات المباركة، فبدأ بالعلم النافع قبل الرزق الطيب، وقبل العمل المتقبل، وذلك فيه تنبيه إلى أهمية العلم فبه يميز بين الرزق الطيب والخبيث، وبين العمل المتقبل والمردود.

قال ﵀: «**وَالثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ**» أي: محبة الشيء الذي أمرك الله به، والمحبة مكانها القلب ولذلك ينبغي على المسلم أن يعود نفسه دائما على محبة الشيء الذي أمره الله به، لأن المحبة هي التي تسوق إلى الجد في العمل؛ فإذا أحب المأمور حبا عظيما وأحبه قلبه حبا قويا تحركت نفسه للعمل به.

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٦/ ٣٢٢)، وابن ماجه (٩٢٥)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

بينما إذا انعدمت المحبة فإن العمل سيضعف أي يذهب تبعا لذلك، ولهذا يعوِّد المسلم نفسه دائما أن يحب الشيء الذي أمره الله تبارك وتعالى به، ويعود نفسه على محبة ذلك وعلى بغض الشيء الذي نهاه الله عنه، لأن الله لا يأمرك بشيء إلا هو خير للعبد في دنياه وأخراه ولا ينهاه تبارك وتعالى إلا عما فيه مضرة عليه في دنياه وأخراه.

«قال بعض الأعراب وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله؟

فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال: ليته أمر به»[1] أي: أن الذي يأمر به أمور عظيمة فيها مصالح رفيعة وعظيمة للإنسان في دنياه وأخراه، والذي ينهى عنه ﷺ أمور تضره في دنياه وأخراه.

ولهذا الواجب على كل مسلم نحو الأوامر أن يحب ما أمر الله تعالى به وأن يبغض الأشياء التي نهى الله عنها.

فمثلا نهانا عن الكفر فنبغض الكفر، ونهانا عن المعاصي فنبغض المعاصي، ونهانا عن الفسوق فنبغض الفسوق، ونهانا عن الزنا والكذب والغش والخيانة.. إلى آخره فنبغض هذه الأشياء ونكرهها من قلوبنا.

وأمرنا سبحانه بالصلاة وبالصيام وببر الوالدين وبصلة الأرحام وبالوفاء وبالأمانة وبالصدق وبالحياء وبالخشية.. إلى آخره، فنحب هذه الأشياء التي أمرنا تبارك الله تعالى بها فهي أساس عظيم ومطلب جليل.

أما والعياذ بالله إذا انقلبت حال الإنسان وأصبحت نفسه تبغض المأمورات:

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦).

فتبغض الشيء الذي أمر الله به أو تبغض بعضه، وفي الوقت نفسه تحب المنهيات والفواحش، فمن أين يريد أن يأتيه الخير إذا كانت نفسه رديئة إلى هذا الحد ودنيئة إلى هذا القدر؟

فتجد نفسه والعياذ بالله تحب الزنا وأماكن الفواحش والمحرمات، وتنكمش وتنقبض من المساجد وبيوت الله وأماكن الطاعات، ويقول نفسي ما تميل للذهاب للمساجد وتنشرح نفسه لأماكن الخمارات وأماكن الرقص وأماكن العهر والفجور ويقول: نفسي ترتاح وتميل لذلك، وإذا ذكرت له الصلاة اشمأزت نفسه، فكيف يمكن أن يصل الخير إلى قلبه وأن يبلغ منه المبالغ العالية الرفيعة؟

ولهذا قال ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١)، فهذا القلب إذا صلح - ومن أعظم ما يصلح به المحبة - أن تحب أولا بقلبك الله جل وعلا ونبيه ﷺ، وأن تحب كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، وتحب الأنبياء والأولياء والصالحين، وتحب الطاعات والأوامر التي أمرك الله تبارك وتعالى بها، ولهذا قال ﷺ: «**أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلَّهِ، وَتُبْغِضَ لَهُ**»(٢).

وقال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ**

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٥٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٨).

الإِيمَانَ»(١)، وقال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

إذا الواجب الثاني علينا نحو ما أمرنا الله تبارك وتعالى به أن نحبه محبة صادقة من قلوبنا نعمر قلوبنا بمحبة الله ومحبة كل ما يحبه الله تبارك وتعالى(٣).

وليعتن في هذا المقام بالأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها، وهي عشرة:

«**أحدها**: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كلام جميل له: «فالمحب الصادق: إن نطق نطق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله، فهو لله وبالله ومع الله» «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٠).

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل»[1].

ثم ذكر المرتبة الثالثة: ألا وهي «**العَزْمُ عَلَى الفِعْلِ**»: علمت أحببت، علمت ما أمرك الله به وأحببته.

فالأمر الثالث الذي تقوم به، والشيخ ﵀ في هذه الأمور راعى ترتيبها من حيث الوقوع:

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٨).

أولا: العلم به تبدأ.

ثانيا: المحبة؛ تحب هذا الشيء الذي أمرك الله تبارك وتعالى به.

ثالثا: العزم على الفعل، والعزم مكانه القلب، ولهذا بعد أن تعلم وتحب تعزم في قلبك عزما صادقا على العمل بهذا الذي أمرت به.

مثال ذلك: حضرت درسا أو سمعت خطبة أو موعظة وعلمت هذا الشيء الذي وعظت به وعلمته، وقلبك ارتاح له وأحببت ما أمرك الله به، فانتقل بعد هذا العلم وهذه المحبة إلى عزم صادق في قلبك لكي تقوم بهذا الذي تعلمته.

قال الإمام ابن القيم ﵀: «ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**» وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتي العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتي أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البدوات لهن أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها، فإذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»[1].

فإن أعطاك الله هذه الدعوة «**وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**» لم يبق لك من الخير شيء إلا ونلته وفزت به.

ومعنى «**وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»: بمعنى أنك إذا علمت شيئا من الرشد وشيئا من دين الله تبارك وتعالى تعزم بهمة عالية وإقبال صادق من قلبك على القيام بهذا الذي

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٢).

أمرت به، ولهذا لا ينبغي علينا أن نفوت على أنفسنا العناية بهذه الدعوات وهي تتعلق بالأمر الثالث(١).

لأن **المرتبة الأولى**: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمـًا نَافِعـًا**»، **والمرتبة الثاني**: ثبت عن نبينا ﷺ أنه كان يقول في دعائه: «**أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ**»(٢).

والمرتبة الثالثة: العزم على الفعل؛ ومن أعظم الدعاء في هذا الباب ما ثبت عنه ﷺ: عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، **والعزيمة على الرشد**، وأسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلبا سليما، ولسانا صادقا، وأسألك خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب»(٣).

ثم ذكر **المرتبة الرابعة**: وهي «**العَمَلُ**» أي: أن تعمل بما أمرت به؛ علمت وأحببت وعزمت في قرارة نفسك وفي قلبك، أن تقوم بما أمرت به، فالمرتبة الرابعة أن تعمل وتقوم وتنطلق للشيء الذي أمرت به، وقيامك بالعمل أيضا لا غنى لك

---

(١) العزيمة على الفعل.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح المشكاة» (٦٠).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

فيه عن عون الله، ومن المشروع للمسلم أن يقول أدبار الصلوات ما أوصى به النَّبِيّ ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، ففي «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ يَوْماً وَقَالَ: يَا مُعَاذٍ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذٍ، لاَ تَدعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أَنْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١]، وهذا الدعاء يكون دبر الصلاة[٢]، وهو في غاية المناسبة لأنك إذا صليت فالذي أعانك هو الله جل جلاله، ولذلك تطلب العون مرة أخرى لأن أمامك صلوات وعبادات وأمور لا غنى لك فيها عن عون الله تبارك وتعالى ولهذا يحافظ على هذا الدعاء محافظة تامة دبر كل صلاة كما وجه ذلك نبينا عليه الصلاة والسلام، والأحاديث التي فيها طلب العون على العمل والقيام به كثيرة معلومة عن رسولنا صلوات الله وسلامه عليه.

إذن المرتبة الرابعة: **أن تعمل**: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، فالمطلوب منك أن تفعل الشيء الذي وعظت به، وينبغي أن تعلم أن المقصود من طلب العلم ومجالسه: العمل.

فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٢) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ودبر الصلاة المذكور في هذا الحديث والذي قبله يحتمل قبل السلام وبعده، قال ابن القيم رحمه الله: « وكان شيخُنا - يعني ابنَ تيمية رحمه الله - يُرجِّح أن يكون قبل السلام، فراجعتُه فيه، فقال: دُبر كلِّ شيء منه كدبر الحيوان «وبالله التوفيق» «فقه الأدعية والأذكار» (٢/ ١٠٣).

(٣) رواه ابن عساكر في «ذم من لم يعمل بعمله» (ص٣٨).

يقصد رضي الله عنه بالعلم أن يعمل الإنسان بما علم وإلا كان علمه حجة عليه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**» خرجهما الإمام مسلم رحمه الله في «صحيحه».

قال رحمه الله: «**المَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: كَوْنُه يَقَعُ عَلَى المَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا**»: فعمل العبادة لا يكون باتباع الهوى، بل لابد من شرطين ألا وهما:

١/ الإخلاص للمعبود.

٢/ المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

فيحرص العبد على أن يقع منه العمل خالصا لله صوابا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الدعاء المتقدم قال: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢)؛ لأن العبادة لا تقبل إلا إذا اتصفت بالحسن ولا تكون العبادة متصفة بالحسن إلا بالإخلاص والمتابعة، قال الله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض رحمه الله في معنى الآية: «أي: أخلَصُه وأصوَبُه»، قيل: يا أبا علي وما أخلَصُهُ وأَصْوَبُه؟

قال: «إنَّ العملَ إذا كان خالصـًا ولَم يكن صوابـًا لَم يُقبَل، وإذا كان صوابـًا ولم يكن خالصـًا لَم يُقبَل حتى يكون خالصـًا صوابـًا، والخالصُ ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «الإخلاص والنية» (ص٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٥).

إذن علمت وأحببت وعزمت في قلبك على العمل وعملت مع حرصك على أن يكون العمل منك حين يقع على الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ.

والدليل على أن الله لن يقبل العمل الذي ليس قائما على الإخلاص قوله تعالى في الحديث القدسيّ: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

والدليل على أن الله لا يقبل العمل إذا لم يكن صوابا على السنة قوله ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢): أي مردود على صاحبه وغير مقبول منه، فهذه المرتبة الخامسة.

قال ﵀: «**المَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ العَمَلِ**» أي: أن تحذر من فعل شيء يحبط عملك، فالصالحون كانوا يخافون من حبوط الأعمال، وفرق بين الصالحين مع أعمالهم وبين غير الصالحين؛ فغير الصالح يقوم بالعمل ثم يمن بعمله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]، بينما الصالح يقوم بالعمل وهو خائف أن يحبط وأن لا يقبل كما قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ ﷺ: «لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) رواه مسلم (١٧١٨).

وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»[١].

ومحبطات الأعمال عديدة[٢] جاء بيانها في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه، ومن أعظم الأمور التي تحبط الأعمال الرياء والسمعة سواء كانت وقت العمل أو بعده:

فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ قَالَ: خَرجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟».

قَالَ: قُلْنَا بَلَى.

فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٤).

قال العلامة الألباني ﷺ: « والسر في خوف المؤمنين أن لا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم أن لا يوفيهم الله أجورهم... وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله ﷻ، وَهُمْ لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون أن لا تقبل منهم، فليتأمل المؤمن هذا عسى أن يزداد حرصا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها له، واتباع نبيه ﷺ في هديه فيها »«السلسلة الصحيحة» (١/ ١٦١).

(٢) قال الإمام ابن القيم ﷺ: «ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر؛ وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه» «الوابل الصيب» (ص١٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٤١٩٤)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨٩).

فيحسن الصلاة لا لأجل الله وإنما لأجل نظر الناس إليه، أو بعد العمل فيحاول أن يبرز عمله للناس من أجل ثنائهم عليه.

مثال ذلك: قام شخص الليل خاشعا باكيا مخلصا متبعا سنة النبي ﷺ، ثم جلس مع رفقائه يحدثهم: كنت في صلاة، وكنت في خشوع وبكاء، وهو يقصد بذكر هذه الأمور أن يحمد بذلك وأن يشتهر وأن يعرف وأن يثنى عليه، فهذه مصيبة من المصائب! وقد فشت في الناس أن عددا من الحجاج يلتقط لنفسه صورا تذكارية في المشاعر وأماكن العبادات، ورأيت بأم عيني عند الجمرات أحد الحجاج يمد آلة التصوير التي معه لصاحبه ثم يقف ويعطي ظهره للجمرات بسرعة ويمد يديه وأخذ يحركها كهيئة الداعي لأن التصوير بالفيديو، ثم بعد ذلك يحملها إلى بلده ويعرضها على رفقائه وزملائه ويقول: انظروا وأنا في الجمرات، وفي عرفة، وفي الطواف.. وهكذا.

فالنبي ﷺ لما حج حجة الوداع وصل إلى الميقات ولبس الإحرام متوجها إلى مكة ماذا قال؟

الجواب: عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: حَجَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ أَوْ لاَ تُسَاوِي ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ حجَّةٌ لاَ رِيَاءَ فِيهَا وَلاَ سُمْعَةَ**»(١).

أي: لا يُقصد بها إلا وجهك الكريم، ولا يبتغى بها أي شيء آخر: لا أحد يثني علي، ولا أحد يمدحني، لأن الله سبحانه لا يقبل العمل الذي فيه شركة، فإذا حج وهو يريد ثواب الله أو يريد مدح الناس له وثناءهم عليه إلى آخره.. فالله لا يقبل

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٨٩٠)، وصححه الألباني في «مختصر الشمائل المحمدية» (٢٨٨).

هذا العمل الذي جعل له معه شريكا، ولهذا قال في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1]: فلا يقبل العمل إلا إذا كان خالصا لوجهه الكريم ﷻ، ولهذا قال ﷺ في آخر آية من [سورة الكهف]: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾: فإذا كنت ترجو لقاء الله بعملك الذي يثيبك عليه ويكون العمل الذي قمت به من صالح عملك الذي تلقى الله به يوم القيامة فليكن عملا صالحا ولا تشرك مع الله أحدا لا في قليل ولا في كثير.

ولهذا إذا علمت وأحببت وعزمت وعملت وأخلصت واتبعت كما مر في المراتب الأولى احرص بعد ذلك ألا تأتي بشيء يحبط العمل ويبطله، وأعظم مبطل للعمل ومفسد ومتلف له تماما الشرك بالله والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الزمر]، ولهذا إذا وجد من يدعو غير الله أو يستغيث بغير الله أو يذبح لغير الله أو غير ذلك من العبادات فإن هذا من مبطلات الأعمال كلها، فلا صلاة ولا صيام ولا حج ولا صدقة.. لأن الشرك والعياذ بالله إذا دخل على الأعمال أبطلها برمتها.

قال تعالى عن أهل الشرك: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الفرقان]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة الكهف].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

إذن فليحذر العبد كل الحذر من محبطات الأعمال ومبطلاتها حمانا الله وإياكم ووقانا ووقاكم.

قال ﷺ: «**المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ**» أي: أن تثبت على هذا الأمر إلى أن يتوفاك الله تبارك وتعالى وهو عنك راض والله تعالى يقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ]، وكان أكثر دعاء نبينا ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**».

فعن شَهْر بْن حَوْشَبٍ قَالَ: قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَةَ ﵂ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟

قَالَ: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»[1]. والله يقول في القرآن الكريم: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ]، ولهذا الأمر السابع الذي ينبغي أن تحرص عليه نحو المأمورات الثبات على ذلك إلى أن يتوفاك الله، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سُورَةُ فُصِّلَتْ].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَحْقَافِ].

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ ﵁ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ.

قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ**»(١).

وتأمل معي أيضا في هذه الدعوة التي كان يدعوا بها نبينا ﷺ وهي ثابتة في «الصحيحين» كان يقول ﷺ في دعائه: «**اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(٢).

ومن الأذكار العظيمةِ النافعةِ للمسلم عند خروجِه من منزلِه ما ثبت في «سنن أبي داود» و«ابن ماجه» وغيرِهما عن أمِّ سلمة ﵂ قالت: مَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِي قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي، أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عليَّ**»(٣).

إذن الثبات على الأمر والدوام عليه والبقاء عليه والمحافظة عليه إلى أن يموت الإنسان على هذه الحال فهذا الذي ينال به الإنسان المقصود.

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٢٧١٧).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

أما والعياذ بالله لو أن الإنسان ختم له في آخر حياته بخاتمة سيئة كما قال المصنف رحمه الله: «**المَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ، وَالخَوْفُ مِنْ سُوءِ الخَاتِمَةِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة، وَيُخْتَم لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار**» ولهذا مما يخافه الصالحون السوابق والخواتيم[1]، السوابق فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ]، فيخاف السابق أي في الكتاب، ويخاف الخاتم التي يختم عليه بها وأمره بيد الله ولهذا يلجأ دائما إلى الله أن يثبته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، أن يعيذه من الضلال وأن يجنبه الزلل.. وغير ذلك من الدعوات العظيمة المباركة الثابتة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وأن يجنبه الفتن إلى غير ذلك من الدعوات العظيمة المباركة الثابتة عن نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

فهذه مراتب سبعة عرضها المصنف رحمه الله عرضا مجملا ثم شرحها بشيء من الاختصار مع ضرب مثال يوضح المقصود.

قال رحمه الله: «**إِذَا عَرَفَ الإِنْسَانُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللهَ أَحَلَّ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا، أَوْ عَرَفَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ اليَتِيم وَأَحَلَّ لِوَلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ،**

---

(١) قال الإمام ابن رجب رحمه الله: «كان يشتد خوف السلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق، وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون بماذا يختم لنا؟! وقلوب المقربين معلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟!» «جامع العلوم والحكم» (ص٥٧).

وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَى، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الرِّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ، وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ«.

فعليك أن تعرف التوحيد ما هو وأن تعرف الشرك ما هو؛ إذ كيف يكون موحدا من لا يعرف التوحيد وكيف يسلم من الشرك من لا يعرف الشرك؟ ولهذا قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟»[1].

أي: كيف تتقي المنهيات وأنت لا تعرفها؟

وكيف تفعل الأوامر وأنت لا تعرفها؟

إذن الخطوة الأولى والمرتبة الأولى التي تجب علينا نحو المأمور أن يعلمه.

قال رحمه الله: «**وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ المَأْمُورَ بِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ المَنْهِيَّ عَنْهُ وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ**» لأن هذا الدين خلقنا الله تبارك وتعالى لأجله، ولهذا يجب على العبد أن يتعلم، ومن طرق التعلم سؤال أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل].

وهذا العلم ليس خاصا بالأوامر فقط، بل النواهي كذلك فيسأل أهل العلم ويبحث عنها حتى يعرف الشيء الذي نُهِيَ عنه، ولهذا ألف غير واحد من أهل العلم في الكبائر ومنهم المصنف رحمه الله، وكذلك الإمام الذهبي رحمه الله، وأوصي كثيرا بكتاب «**الكبائر**» له، وأن يقرأه المرء ولو مرة واحدة على أهل بيته؛ لأن المجتمعات

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٦٥).

كثرت فيها الكبائر والنواهي فتكون براءة ذمته بتعلمه وتعليمه لأولاده وأهله؛ لأن العلم إذا وجد يتبين الناس الحق من الضلال.

إذن **المرتبة الأولى العلم**، قال ﷺ: «**وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الأُولَى، وَهِيَ مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ، أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ**»، ولكن أعرض عنه ولم يسأل عنه الكثير من الناس. والمؤلف ﷺ يقول: «التَّوْحِيد زِين»[1]، ولكن رغم فضائله العديدة والكثيرة إلا أن بعض الناس لا يخصص الوقت ليتعلم هذا الزين، ولو سألته عن التوحيد والشرك يقول لك: التوحيد زين وجميل، والشرك شين وقبيح؛ لكن ما يخصص وقتا يتعلم فيه التوحيد وما يتعلق به، وكذلك ما يتعلق بالشرك حتى يحذر منه ويجتنبه، ولهذا المصنف ﷺ يقول: «**أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ؛ وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَسْأَلْ**» فيتعلم أشياء كثيرة من أمور الدنيا ولكن يعرض عن أعظم موضوع وهو التوحيد، فأكبر خسارة يخسرها الإنسان أن يخرج من الدنيا وهو ما عرف أحسن شيء فيها، وقد قال الله ﷻ عن الكفار: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ [سُورَةُ الرُّومِ].

فأخطر ما يكون على الإنسان أن يخرج من الدنيا ولم يعرف أجمل ما يكون، ولم يتعلم عن أزين ما فيها وهو توحيد رب العالمين، وكما قال المصنف ﷺ عندما تسأل كثيرا من الناس عن التوحيد وعن الشرك يقول لك: التوحيد زين، ويقول لك: الشرك شين، ولكن ما عنده وقت بل معرض عن التعلم.

وكذلك مما جعل إعراض بعض الناس عن تعلم التوحيد أئمة الباطل ودعاة

---

(١) «الدرر السنية» (٣/ ٥٣).

الضلال وأهل الصد عن دين الله تبارك وتعالى فصرفوا الناس عن التمييز بين الحق والباطل، وفي الوقت نفسه علموهم الضلال والبدع والخرافات، فصرفوهم عن التوحيد وعن السنة وعن معرفة الحق الذي بعث به رسوله صلوات الله وسلامه عليه حتى إن بعض الناس - وهذا من التناقضات العجيبة - يسأل عن التوحيد ثم يمد يديه ويقول: (مدد يا فلان) فأين التوحيد زين؟ مدد يا فلان! أدركني يا فلان! من الذي يدركني؟! من ألوذ به سواك؟! فيخاطب مخلوقا، ويدعو ميتا من دون الله والعياذ بالله، والله تعالى يقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

قال رحمه الله: «**وَعَرَفَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الرِّبَا وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ**» لأنَّ أهم سؤال عنده كيف تكون الأرباح؟ وكيف السبيل لتحصيلها؟ فإذا كانت النسبة عالية دفع ولم يبال، لكن نوع البيع هل هو جائز أم لا؟! ما يسأل رغم أنه قريب من الشيخ الفلاني، وفي الحديث: عَنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وبَينَهُما أُمُورٌ مُشتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ مِن النَّاسِ، فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لِدينِهِ وعِرضِه، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ، كالرَّاعي يَرعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرتَعَ فيهِ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذَا فَسَدَت فسَدَ الجَسَدُ كلُّه، ألا وهِيَ القَلب**»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وفي الحديث الآخر: «**دَعْ ما يريبُكَ إلى ما لاَ يرِيبُكَ**»(١) أي: عليك بالواضح البين وإياك بأمر فيه شبهة وفيه باطل أو تخاطر بدينك(٢).

وبعض الناس في هذا الباب أهم سؤال عنده في هذه المسألة عن الربح، وقد يقع في الربا والعياذ بالله التي قال الله عنها: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وبعض الناس لما تركوا السؤال والتعلم حول هذه المسائل فباعوا واشتروا وقعوا في أمور كثيرة، وبعض الناس أموالهم ضاعت وصحتهم تلفت وأصيب بعضهم بأمراض عديدة، والله المستعان.

وقد قرأت في أحد الكتب (ومؤلفه رجل غير مسلم) - وهذا قبل أكثر من خمسين سنة - عن حال بعض الناس في بلاد الكفر، وأرى أنها وجدت في عدد من المجتمعات المسلمة؛ قال: «بات من المقرر أنه كلما نزلت نسبة الأرباح في الأسهم زادت نسبة السكر في الدم».

قال رحمه الله: «**وَعَرَفَ تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وَجَوَازَ الأَكْلِ بِالمَعْرُوفِ وَيَتَوَلَّى مَالَ اليَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ**» هذه مصيبة أخرى، يعلم أن الله حرم أكل مال اليتيم ويكون تحته يتامى وعنده أموال لهم فيأكل من مال اليتيم ولا يسأل عما يجوز مما لا يجوز، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٤٧).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله: «مِمَّا يُستفاد من الحديث:
١- ترك ما يكون فيه ريبة، والأخذ بما لا ريبة فيه.
٢- أنَّ تركَ ما يُرتاب فيه فيه راحة للنفس وسلامتها من القلق» «فتح القوي المتين» (ص٥١).

﴿نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، ويقول سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

فهذا إعراض بعض الناس عن العلم بالتوحيد، والعبادات والمعاملات إلى غير ذلك.

قال رحمه الله: «**المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ الله وَكُفْرِ مَنْ كَرِهَهُ، لقول الله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ] **فَأَكْثَرُ النَّاسِ لَمْ يُحِبْ الرَّسُولَ بَلْ أَبْغَضَهُ، وَأَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ وَلَوْ عَرَفَ أَنَّ الله أَنْزَلَهُ**».

أي: تجد بعض الناس يعرف أن الذي جاء به الرسول ﷺ حق، وأنه منزل من عند الله تبارك وتعالى ولكنه يبغضه.

وبعض الناس يكون بغضه للرسول ﷺ أو ما جاء به لأطماع أو أغراض دنيوية؛ لأن ما جاء به الرسول ﷺ لا يوافق هواه ولا يتماشى مع رغباته وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يُؤمِنُ أَحدُكُم حتّى يكونَ هَواهُ تَبعًا لِما جِئتُ بِهِ**»(١).

قال رحمه الله: «**المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: العَزْمُ عَلَى الفِعْلِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَرَفَ وَأَحَبَّ وَلَكِنْ لَمْ يَعْزِمْ خَوْفًا مِنْ تَغَيُّرِ دُنْيَاه**» فهذا سبب من الأسباب، أي: أن بعض الناس

---

(١) رواه الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٣٦٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، وضعفه الألباني في «ظلال السنة» (١٥).

يعرف ويحب قلبه لكن ما يعزم على الفعل لأنه لو يعزم عليه فإن دنياه تتغير إما رئاسة أو مكانة، وهكذا.

فخوفه على التغير يجعله يحجم، وفي قصة أبي طالب عم النبي ﷺ دروس وعبر، فقد كان ﷺ يدعوه للإسلام دعوة متكررة فعرف أن الدين حق وأدرك أنه شيء محبوب وشيء طيب، ولكنه لم يعزم على العمل خوفا من تغير الدنيا، وهو نفسه يقول:

وعرضت ديناً قد عرفت بأنّه ... من خير أديان البرية ديناً

إذن لماذا لم تعمل ولم تعتنق هذا الدين الذي وصفته بهذه الأوصاف؟ يقول بعد ذلك:

لولا الملامة أو حِذار مسبّة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً(١)

فيخاف التغير أن يلام وأن يسب وأن يقال له: صبأت وتركت دين الآباء إلى آخره، فيخاف من تغير دنياهن مما يجعله لا يعزم.

وبعض الناس يعرف السنة ويقول: هذا حق والأدلة واضحة، ثم تأتيه الشبهة فيقول: إذا ذهبت إلى بلدي سينشغل بعض الناس بي ويلمزونني بأبشع الصفات والتصنيفات، ولا أنسى شابا قبل ما يقارب عشرين سنة حدثني بنفسه لما أراد أن يأتي للحج أو العمرة، فقال له أحد الشيوخ في منطقته: إذا ذهبت إلى هناك فانتبه

---

(١) انظر: «دلائل النبوة» (٢/ ٦٣)، و«زاد المعاد» (٣/ ٥٥٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٥٦)، و«الإصابة» (٧/ ٢٣٥).

للشيوخ الوهابية وأخذ يصف لهم العلماء والدعاة بأوصاف شنيعة، ثم قال: واحذر أن يخدعوك فلهم صفة واضحة يعرفون بها، يقولون: قال الله، قال رسوله»، نسأل الله السلامة آيات قرآنية وأحاديث نبوية ثم يُصد ويُطعن في أهلها، لأنهم استبدلوها بأفكارهم السقيمة وتجاربهم الفاسدة، ويبنون عقائدهم على منامات ثم يعيشون على ضلال مبين، ومن أراد منهم أن يقبل على الحق والهدى وضعوا حواجز دونه ودونها حتى لا يقبل عليها.

قال ﵀: «**الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا عَزَمَ أَوْ عَمِلَ وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُهُ مِنْ شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِمْ تَرَكَ الْعَمَلَ**».

فيعمل فعلا بعد ما أحبه وعزم على فعله؛ فيظهر عليه بعض شيوخه أو بعض المُعَظَّمين عنده قالوا له: بعد كل هذه السنوات الطويلة والعمر المديد ومضينا فيه على يد واحدة وعقيدة واحدة، عقيدة الآباء والأجداد والعشيرة ثم تتغير بهذه السهولة وتُخدع؟!

فتجده يترك الحق والهدى حتى لا يَتكلم عليه من هو معظم عنده، والله المستعان.

وقوله ﵀: «**وَتَبَيَّنَ عَلَيْهِ مَنْ يُعَظِّمُهُ**»: أي اطَّلع عليه ووقف على عمله بعض من يعظمه من الشيوخ والآباء، وقصة هرقل مشهورة لما دعا عظماء الروم وقال لهم: « يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَ.

وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ»[١].

قال ﵀: «**الْمَرْتَبَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لا يَقَعُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا**».

هذه مسألة تحتاج إلى مجاهدة من العبد في كل عمل على أن يقع منه بإخلاص ومتابعة.

فالإخلاص للمعبود ﷻ، والمتابعة للرسول ﷺ، وقد قال سفيان الثوري ﵀: «ما عالجتُ شيئـًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي »[٢].

ثم ذكر ﵀: «**الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ العَمَلِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]» أي: أن تبطل بعمل العبد أعمال أخرى، فيخاف أن تبطل أعماله التي مضت كلها.

«**لِقَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾»: يقول الشيخ ﵀ منبها على أهمية هذا الأمر، «**وَهَذِهِ مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا**» أي: أقل الأشياء وجودا، يعني قليل من الناس الذي يخاف على عمله أن يحبط؛ بل ولا يبالي ويمارس أمورا كثيرة ربما تكون سببا لحبوط عمله، فيقول المصنف ﵀ منبها على ذلك: «**وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا**».

ثم ختم ﵀ فقال: «**الْمَرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ، وَالخَوْفُ مِنْ سُوءِ**

---

(١) رواه البخاري (٧).

(٢) رواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٢).

الخَاتِمَةِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَل بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّة، وَيُخْتَم لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار».

جاء في «الصحيحين»: «**فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ**»(١).

فهاتان الكلمتان «يسبق» و«يختم» يخاف منها الصالحون؛ من السوابق: ما سبق في علم الله أن يموت عليه العبد، ويخاف كذلك من الخواتيم أن يموت على خاتمة سيئة والعياذ بالله، فهذا مما خافه الصالحون، فهذا الخوف عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى، وتحرك في نفس المؤمن الدعاء المستمر لله بالثبات والهداية، وأن لا يزيغ قلبه.

وتثمر فيه المجاهدة المستمرة الدائمة على الاجتهاد في الأعمال الصالحات والاستقامة على دين الله تبارك وتعالى، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه من الأعمال التي لا ترضيه، بل تغضبه وتسخطه.

قال ﷺ: «**وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا**»: وهو مما يخاف منه الصالحون ولكن هو قليل في زماننا أي: الخوف من الخاتمة.

ثم ختم بتنبيه عام فقال ﷺ: «**فَالتَّفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ**» أي: عندما تقرأ هذه الأمور بتأن ثم تتفكر في أحوال الناس فإن هذا يدلك على شيء كثير تجهله.

---

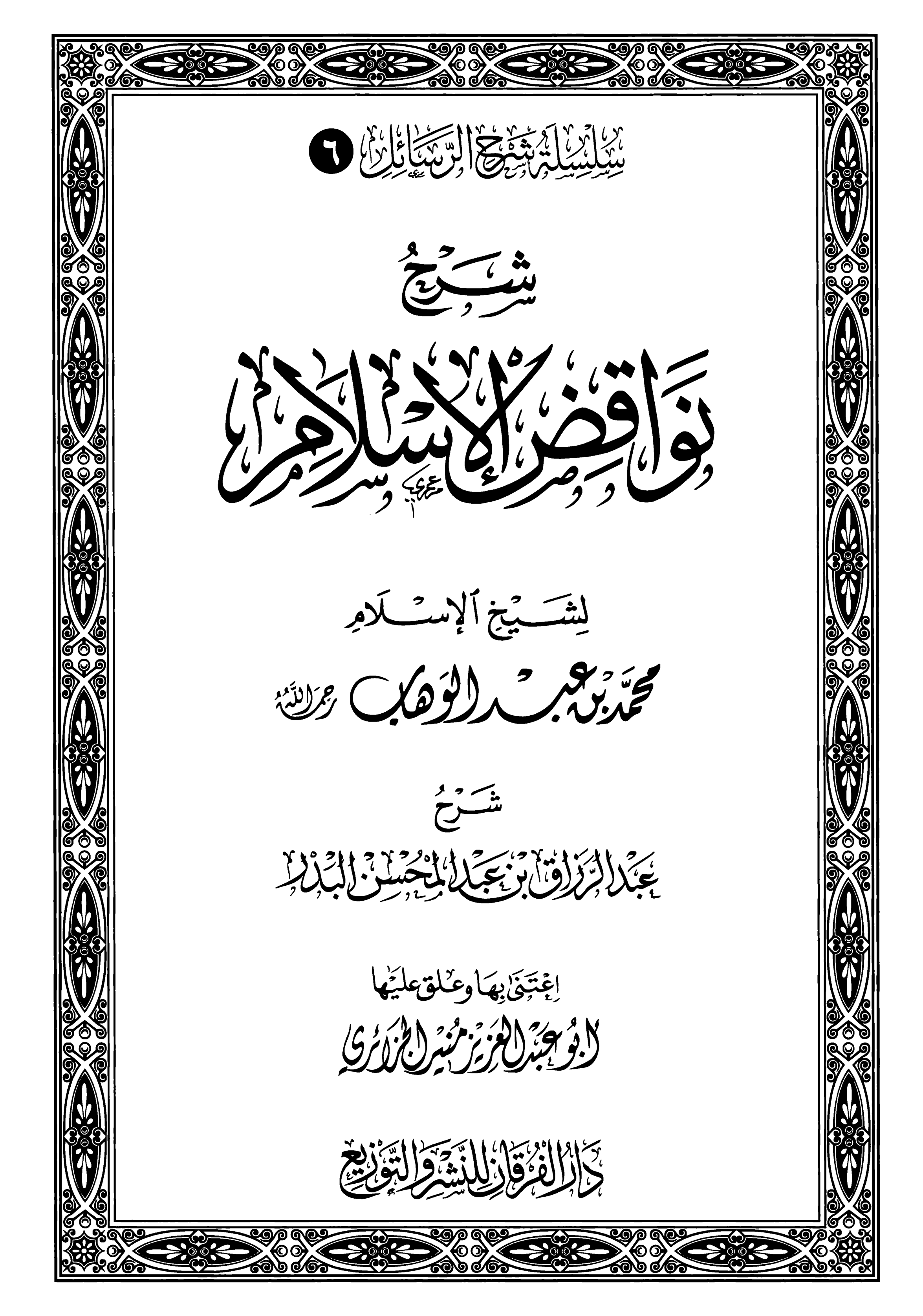
(١) رواه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

وجعل آخر رسالته قوله ﷺ **«وَالله أَعْلَم»**.

وهي رسالة عظيمة ونافعة ولعلها تكون من الرسائل التي نحرص على تهاديها لجيراننا وأقربائنا وإخواننا، وأن نتدارس هذه المعاني العظيمة الموجودة فيها، ونتعاون على البر والتقوى وعلى تحقيق التوحيد والإيمان والسنة ونجاهد أنفسنا على هذا الخير العظيم.

ونسأل الله ﷻ أن يجزي هذا الإمام خير الجزاء، وأن يعلي درجاته وأن يلحقنا به وبعباده بالصالحين، وأن يهدينا جميعا سواء السبيل، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.





سلسلة شرح الرسائل ٦

شرح نواقض الإسلام

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

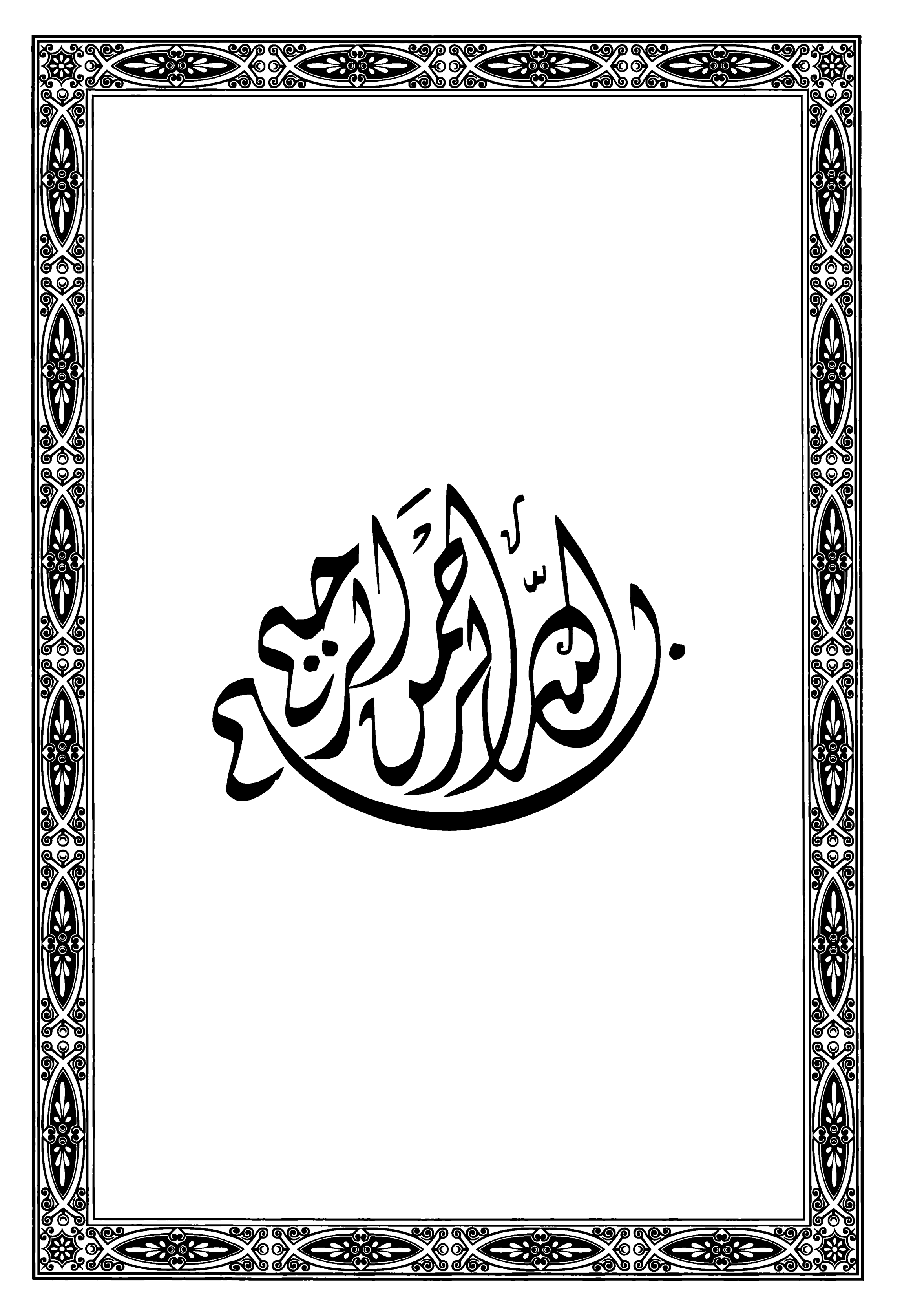
شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»(١).

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»(٢).

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»(٣).

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»(١).

وقد كتب ﷺ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (**نواقض الإسلام**)، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا(٢).

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

---

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095





إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فهذا تعليق مختصر لرسالة قيمة للإمام المصلح المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، عنوانها: **(نواقض الإسلام)**، وقد كتبها ناصحًا ومحذرًا؛ لأن المسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق والهدى ليحبه ويسلكه فإنه مطالب أيضًا بمعرفة الباطل والضلال والردى ليبغضه ويجتنبه، والله سبحانه وتعالى بيَّن في القرآن سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، وأعمال المؤمنين وأعمال المجرمين، وأوصاف هؤلاء وأوصاف هؤلاء، وعاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وما أعده للمؤمنين من الثواب العظيم، و للمجرمين من العذاب الأليم.

ولهذا فإن المسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق ليسلكه فهو كذلك مطالب

بمعرفة الباطل ليجتنبه، ومن لم يعرف الباطل ربما وقع فيه من حيث لا يشعر، وقد جاء في «الصحيحين» أن حذيفة بن اليمان ﵁ قال: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»[1].

وقد قيل:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لاَ لِلشَّرِّ ... لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
فَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

وقيل أيضًا: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟!».

أي: كيف يتقي المحرمات ويجتنب المنكرات، وهو لا يعرفها، ولا يعرف خطورتها، ولا يعرف العقوبات التي وردت في نصوص الشرع محذرة منها؟![2].

فالله ﷻ أمرنا باتقاء الشرك والكفر والباطل والضلال، ولا يتسنى للعبد اتقاء ذلك إلا بعد أن يعرفه، ولهذا كتب أهل العلم في المكفرات، وفي محبطات الأعمال، وكتبوا عن الشرك، وعن الكفر، وعن النفاق، وكتب الأحكام يعقد فيها باب في الردة وما يرتد به الإنسان عن الدين، وكذلك كتب العقائد بُسطت فيها هذه المسائل، بل أفرد أهل العلم في هذا مصنفات.

وكتب شيخ الإسلام ﵀ كعادته في مصنفاته ورسائله فيما تمس إليه الحاجة،

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) انظر: «شرح الدروس المهمة لعامة الأمة» (ص٢١٢)، لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله تعالى.

وكان يكتب أيضًا في حدود الحاجة، فتأتي رسائله دائمًا مختصرة ووافية ونافعة للغاية، فقد نفع الله ﷻ بها نفعًا عظيمًا.

وهذه الرسالة المسماة بـ (**نواقض الإسلام**) كتبها رحمه الله في صفحتين تقريبًا لكنها حوت على معاني عظيمة في هذا الباب: على أهم ما ينبغي أن يُعرف، فذكر عشرة نواقض، وذكره لها ليس للحصر، ولكنه ذكر أمهات النواقض وما ترجع إليه النواقض الأخرى التي لم تُذكر، ويمكن أيضًا أن ترجع إلى أربعة نواقض:

الناقض الأول: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالقلوب.

الناقض الثاني: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالأقوال.

الناقض الثالث: ما ينتقض به الدين مما يتعلق بالأفعال.

الناقض الرابع: انتقاض الدين بالشك.

وهذا الموضوع تمس الحاجة لمعرفتها ليكون المسلم منها على حذر.

وبدأ رحمه الله رسالته بقوله: «**اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض**» كما سيأتي.

فاختار هذا الاسم: **نواقض الإسلام**، ويمكن أن تُسمَّى: ما يرتد به الإنسان عن الدين، أو الأمور المخرجة عن الملة، أو التي يكفر من وقع فيها، فيمكن أن تسمى بعدة أسماء، واختيار الشيخ لهذا الاسم له فيه سلف من أهل العلم والأئمة، وهي لفظة درج أهل العلم على استخدامها في هذا الباب، وهو استخدام صحيح في محله من حيث المعنى اللغوي، ومن حيث المدلول الشرعي.

والنواقض: جمع ناقض، من النقض الذي هو ضد الإبرام، والنقض للشيء

إفساد له، فنقض الشيء المبرم إفساد لإبرامه، ولهذا يقال: نقض الغزل أو نقض الحبل أو نقض البناء أو نقض البيت، كل ذلك يراد به الإفساد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾[النحل: ٩٢]، ومنه قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾[البقرة: ٢٧]، ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[النحل: ٩١].

ونقض الدين أو نقض الإسلام أو نقض الإيمان فعل شيء يفسده ويبطله، ولهذا الناقض للدين أو الإسلام لا تطلق هذه الكلمة إلا في حق ما من شأنه إبطال الدين إذا وقع وإفساده، ولهذا قال أهل العلم: الإسلام له نواقض وله نواقص. والنواقض هي التي تفسده وتبطله تمامًا، والنواقص هي التي تخل بكماله الواجب، ويقال أيضًا: قوادح، وهذه الكلمة تطلق على النواقض وعلى النواقص؛ لأن القوادح منها ما يقدح في الأصل فتكون ناقضًا للدين، ومنها ما يقدح في الكمال الواجب فتكون منقصة له، ولكل منهما يقال له: قوادح.

وأما النواقض فهي التي تنقض الدين وتبطله ويكون صاحبها أو فاعلها أو مرتكبها خارجًا من ملة الإسلام ومن حظيرة الدين ومرتدًا وكافرًا بالله العظيم، وإذا مات على ذلك يكون يوم القيامة من أهل النار، وينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٦٧]، وهذه في حق من يموت ويلقى الله ﷻ وهو مرتكب لناقض من نواقض الدين.

ولهذا كان من الأهمية بمكان والحاجة شديدة والضرورة ملحة إلى أن يعرف كل مسلم نواقض الدين ليحذر منها هو في نفسه، وليحذر منها من تحت يده،

وينصح الناس من هذا الجرم الذي هو أكبر جرم، ومن هذا الذنب الذي هو أعظم ذنب، ولهذا تعد هذه الرسالة ونظائرها مما كتبه أهل العلم في هذا الباب رسالة مهمة للغاية، يحتاج كل مسلم إلى معرفتها.

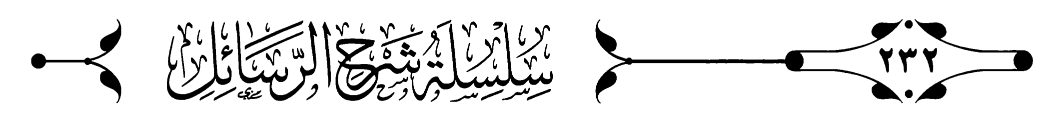
وبين يدي دراسة هذه الرسالة أذكر كلامًا كنت كتبته سابقًا في كتابي «فقه الأدعية والأذكار»[١]، حول بيان أهمية معرفة المسلم لنواقض الإسلام وحاجته الشديدة إلى ذلك، جعلتها في المقدمة بين يدي ذكر نواقض الإسلام العشرة:

وإنَّ مما ينبغي أن يهتم به المسلم في هذا الباب العظيم معرفة نواقض هذه الكلمة ليكون منها في حذر، فإنَّ الله ﷻ قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين المحقّقين لهذه الكلمة مفصّلة، وبيّن سبيل المجرمين المخالفين لها مفصّلة، وبيّن سبحانه عاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء والأسباب التي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابِه وكشفَهما وأوضحَهما وبيّنَهما غايةَ البيانِ، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبِن له طريقهم أوشك أن يقع في بعض ما هم فيه من الباطل، ولذا قال أمير المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: (إنَّما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية).

ولهذا جاءت النصوص الكثيرةُ في الكتاب والسنة المحذرةُ من أسباب الرِّدة

---

(١) (١/ ١٧٢).



وسائر أنواع الشرك والكفر المناقضة لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، وقد ذكر العلماء ﷺ في باب حكم المرتدّ من كتب الفقه: أنَّ المسلم قد يرتدُّ عن دينه بأنواعٍ كثيرةٍ من النواقض إذا وقع فيها، أو في أيِّ شيء منها ارتَدَّ عن الدِّين وانتقل من الملّة، ولم ينفعه مجرّد التلفّظ بـ «لا إله إلا الله»؛ إذ إنَّ هذه الكلمة العظيمة التي هي خير الذِّكر وأفضله لا تكون نافعة لقائلها إلا إذا أتى بشروطها واجتنب كلَّ أمرٍ يُناقضها.

وما من ريب أنَّ في معرفة المسلم لهذه النواقض فائدة عظيمة في الدين، إذا عرفها معرفة يقصد من ورائها السلامة من هذه الشرور، والنجاة من تلك الآفات، ولهذا فإنَّ من عَرَفَ الشركَ والكفرَ والباطلَ وطرقَه وأبغضها وحذرها وحذّر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش إيمانه، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لتلك الأمور ونفرةً عنها كان له في معرفته هذه من الفوائد والمنافع ما لا يعلمه إلا الله، والله سبحانه يُحبُّ أن تُعرف سبيلُ الحق لتُحب وتُسلك، ويحب أن تُعرف سبيل الباطل لتُجتنب وتُبغض؛ إذ المسلم كما أنَّه مطالب بمعرفة سبيل الخير ليطبّقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة سبل الشر ليحذرها، كما سبق في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

وإذ كان الأمر بهذه الحال وعلى هذا القدر من الأهمية فإنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يعرف الأمور التي تناقض كلمة التوحيد لا إله إلا الله ليكون منها على حذر، وهي كما تقدّم تنتقض بأمورٍ كثيرةٍ، إلا أنَّ أشدَّ هذه النواقض خطرًا وأكثرها وقوعًا عشرةُ نواقض ذكرها غيرُ واحد من أهل العلم رحمهم الله(١).

(١) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٢/ ٢٣٢ وما بعدها)، «فقه الأدعية والأذكار» =

وهذا الكلام جله مخلص من كتاب «الفوائد» للإمام ابن القيم رحمه الله تحت عنوان: «قاعدة جليلة أهل الهدى وأهل الضلال»(١)، وأورد قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وأيضًا قول الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: ١١٥]، وذكر رحمه الله أن الله جل جلاله بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصلًا، وبين سبيل المجرمين مفصلًا، وبين عاقبة هؤلاء وعاقبة هؤلاء، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، كل ذلك جاء مبينًا في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

ثم إنه رحمه الله أشار إلى أن الناس في هذا الموضع الذي هو معرفة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ينقسمون إلى أربعة فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملًا، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها، فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفته ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة

(١/ ١٧٢).

(١) «الفوائد» (ص١٤٢).

من سلمت نفسه من إرادة الشهوات، فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها... إلى آخر كلامه رحمه الله.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المجرمين مجملة، وهذه حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له في بعض الأشياء.

وكما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق وسبيل أهل الإيمان والهدى ليسلك ذلك، فإنه أيضًا مطالب بمعرفة الباطل وسبيل أهله ليكون منه على حذر، ولهذا الغرض كُتبت مثل هذه الرسائل في بيان نواقض الدين أو بيان الأمور التي يرتد بها الإنسان، وكذلك كُتبت الكتب التي في البدع وفي الكبائر، كل ذلكم كُتب من أجل أن يعرفه الإنسان ليبغضه وليكون منه على حذر[1].

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

---

(١) ينبغي للمسلم أن يخاف على نفسه أشد الخوف من الوقوع في هذه النواقض والعياذ بالله، وأن يسأل الله تبارك وتعالى دوما وأبدا أن يعيذه من الكفر والشرك والنفاق، ومن موجبات سخطه وأليم عقابه، وقد جاء عن نبينا ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ تُعِيدُهَا ثَلاَثًا حِينَ تُصْبِحُ وَثَلاَثًا حِينَ تُمْسِي**»، والأدعية في هذا المعنى عنه صلوات الله وسلامه عليه كثيرة، ومن ذلك تعليمه ﷺ لأصحابه أن يقولوا: «**اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أُشركَ بك وأنا أعلمُ، وأستغفرُك لِما لا أعلم**».

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى وقدس روحه في الجنة-، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«اعلم أن نواقض الإسلام عشرة».

[الشرح]

قوله: «بِسم الله الرحمن الرحيم»: بدأ هذه الرسالة بالبسملة تأسيًا بكتاب الله ﷻ، وبهدي نبينا صلوات الله وسلامه عليه في مراسلاته ومكاتباته ﷺ، والبسملة المراد بها الاستعانة، والبدء باسم الله تيمنًا وتبركًا بذكر اسمه ﷻ، وطلبًا للمد والعون منه سبحانه.

والباء في بِسم الله باء الاستعانة، والمعنى: أبدأ كتابي هذا مستعينًا بالله، قائلًا بِسم الله، فهي كلمة استعانة، ولهذا يُشرع للمسلم أن يقولها في دخوله، وفي خروجه، وعند تناوله لطعامه، وعند قراءته لكتاب الله ﷻ، وفي مواضع عديدة جاءت بها السنة، فيأتي بها طالبًا البركة والمد والعون والتوفيق من الله ﷻ.

قوله: «اعلم»: جرت عادة الشيخ في أغلب رسائله أن يبدأ بهذه الكلمة: اعلم، وهي كلمة يؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة الكبيرة المهمة التي يحتاج إليها كل مسلم، وفي القرآن مواضع عديدة تُبدأ بهذه الكلمة، مثل قول الله ﷻ: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، فيؤتى بها بين يدي الأمور العظيمة استدعاء للسمع،

وشدًا للانتباه وإحضارًا للقلب، وتنبيهًا للسامع أن ما سيلقى عليه من العلم أمر عظيم يحتاج إلى إصغاء وانتباه وحسن استماع، ولهذا بدأ ذلك بقوله: اعلم، أي سيلقى عليك أمر عظيم من أبواب العلم يحتاج منك إلى انتباه وإلى عناية ورعاية.

قوله: «أن نواقض الإسلام عشرة»: عرفنا أن التعبير بنواقض في المكفرات وما يرتد به المسلم عن دينه تعبير سديد، ودرج عليه السلف ﷺ في هذا الباب، وهناك أثر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: «تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية»(١).

وهناك أثر آخر لابن عباس ﷺ في هذا الباب استعمل هذه اللفظة فقال: «القدر: نظام التوحيد، فمن وحد الله تعالى وآمن بالقدر، فهي العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله تعالى وكذب بالقدر، فإن تكذيبه بالقدر نقض للتوحيد»(٢).

والشاهد أن اللفظ درج أهل العلم على استعماله من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان في الأمور التي يكفر بها المرء ويخرج بها من الدين.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١)، والإمام ابن القيم في «الفوائد» (ص١٤٢) بهذا اللفظ.

رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣١٣٩)، والحاكم في «مستدركه» (٨٣١٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٥) بلفظ: «قَدْ عَلِمْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ مَتَى تَهْلِكُ الْعَرَبُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: مَتَى يَهْلِكُونَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: حِينَ يَسُوسُ أَمْرَهُمْ مَنْ لَمْ يُعَالِجِ الْجَاهِلِيَّةَ وَلَمْ يَصْحَبِ الرَّسُولَ ﷺ».

(٢) رواه الآجري في «الشريعة» (٤٥٦)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٦٢٤)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٢٢٣).

وهنا أيضًا وجه مشابهة بين إطلاق النواقض على هذه الأمور والنواقض على مفسدات الوضوء، فتجد في كتب الأحكام يقال: نواقض الطهارة، وأن الطهارة تنتقض بكذا وكذا، وهناك ارتباط بين الطهارة والتوحيد، والله ﷻ قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: ٤]، وأهل العلم في معنى الآية قالوا: طهر ثيابك أي بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، وقيل: من النجاسات، وكما أن الطهارة تنتقض بالوقوع في شيء من نواقضها المعلومة كخروج الريح أو البول أو نحو ذلك، فإن التوحيد ينتقض بحصول شيء من نواقضه المعلومة المبينة في كتب التوحيد وأيضًا في كتب الأحكام.

* * * * *

[المتن]

«**الأول: الشرك في عبادة الله تعالى، والدليل قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، **وقال تعالى:** ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، **ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر**».

[الشرح]

قوله: «الأول: الشرك في عبادة الله تعالى»: بدأ المصنف بالشرك لأنه أخطر النواقض، وأعظم ذنب عصي الله ﷻ به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

فالشرك بالله هو أعظم ذنب عصي الله ﷻ به، وهو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائصه سبحانه، كالربوبية، والأسماء والصفات، أو حقوقه، وهي أن يفرد وحده بالعبادة وأن يخص وحده بالذل والخضوع فلا يُجعل معه شريك في شيء من ذلك ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فكما أنه ﷻ وحده تفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتفرد بصفات الكمال ونعوت العظمة

والجلال، وتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى، فإنه يجب أن يُفرد وحده ﷻ بالعبادة.

فالشرك به أن يسوى غيره به ﷻ في شيء من خصائصه سبحانه وشيء من حقوقه، والشرك هو التسوية والمساواة بين الشيئين في أمر ما، فمن سوى غير الله بالله في شيء من حقوق الله أو خصائص الله ﷻ فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم، نقض شركه دينه وأبطل أعماله، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

والشرك أظلم الظلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهو هضم لحقوق الله ﷻ من العبادة والذل والخضوع، وانتقاص لجناب ربوبيته سبحانه، وسوء ظن برب العالمين، وهو أكبر الكبائر، وفي الحديث: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثَلاَثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ**، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ»[1]، فهو أكبر الذنوب وأعظم الجرائم.

ولهذا بدأ المصنف به فقال: «**الشرك في عبادة الله**»: أي بأن يجعل مع الله ﷻ شريكًا في العبادة، ومن العبادة: الدعاء والاستعانة والتوكل والركوع والسجود والذبح والنذر، وغير ذلك، والعبادة حق لله على عبيده، فلا يجوز أن يشرك مع الله

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ﷻ غيره في شيء منها، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]: أي أحد كان، ولو كان ملكًا مقربًا أو نبيًا مرسلًا، أو وليًا من الأولياء، فالعبادة حق لله ﷻ رب العالمين.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]»: ساق ؒ آيتين: الأولى وردت في موضعين من سورة النساء، وفيها دلالة ظاهرة على خطورة الشرك، وأنه الذنب الذي لا يُغفر لمن لقي الله ﷻ به، وفي حق من مات على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾: أي من مات على ذلك.

وأما الإنسان الحي المشرك فإن الله يغفر له شركه إن تاب منه، ولهذا قال الله ﷻ في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فالله ﷻ يغفر الذنوب جميعًا بما فيها الشرك، ولا تعارض بين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، في هذه الآية، وقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأن آية [سورة النساء] في حق من مات على ذلك، وآية [سورة الزمر] في حق من تاب من ذلك[1].

---

(١) العلامة محمد الأمين الشنقيطي ؒ في كتابه القيم «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص١٢٤) وضح ذلك فقال: «دلت على غفران جميع الذنوب، مع أنه دلت آيات أخر على أن من الذنوب ما لا يغفر وهو الشرك بالله تعالى.

والجواب: أن الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مخصصة لهذه، وقال بعض العلماء هذه

فالله ﷻ يغفر الذنوب جميعًا أي للتائبين بدليل قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾: أي في حق من مات على ذلك ولقي الله ﷻ مشركًا به، فهذا لا يغفر الله له، ولا مطمع له يوم القيامة في مغفرة الله، بل ليس له يوم القيامة إلا النار خالدًا فيها أبد الآباد.

قوله: «وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ **[المائدة: ٧٢]»**: وهذا أيضًا فيه أن المشرك لا مطمع له في الرحمة والمغفرة، وأنه ليس له يوم القيامة إلا النار خالدًا مخلدًا فيها أبد الآباد.

قوله: «ومنه»: أي من الشرك.

قوله: «الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر»: فهذا نوع من الشرك، قال الله ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ونسكي أي ذبحي.

وفي «صحيح مسلم» عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[١].

مقيدة بالتوبة بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فإنه عطف على قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾»، وعليه فلا إشكال وهو اختيار ابن كثير».

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).

[المتن]

«الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم كفر إجماعًا، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]».

[الشرح]

قوله: «**الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم**»: هذا الناقض الثاني من نواقض الإسلام، وهو جعل الوسائط بين العبد وبين الله ﷻ لكي يتقرب إلى الله زلفى كما هو زعم المشركين هو من باب اتخاذ الأنداد والشركاء، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣][1]، ومن باب تسمية الأمر بغير اسمه، وهذه فعلة المشركين يتخذون الأنداد ويصرفون لهم حقوق الله على العباد من الذل والخضوع والذبح والنذر والدعاء ونحو ذلك، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، أي اتخاذنا لهم هو من باب اتخاذ الوسائط، ومن ذلكم ما جاء في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]: أي وسائط لنا عند الله، فهذا نوع من الشرك

---

(١) ومعنى الآية كما قال العلامة السعدي رحمه الله: «﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ أي: لترفع حوائجنا للّه، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا» «تيسير الكريم الرحمن» (ص٧١٨).

بالله، ونوع من اتخاذ الأنداد والشركاء مع الله ﷻ، ويسمون هؤلاء الأنداد وسائط ووسائل وشفعاء، يقربون الداعي لهم بزعمهم من الله ﷻ.

وقد فعلوا ذلك قياسًا منهم للخالق ﷻ بالمخلوق حيث رأوا أن ملوك الدنيا والعظماء لا يتوصل إليهم إلا من خلال الوسطاء والمقربين عندهم فقاسوا الله ﷻ بخلقه، وصرفوا لبعض خلقه شيئًا من حقوقه طامعين بأن يقربهم هذا الوسيط إلى الله ﷻ زلفى، وهذا شرك بالله ﷻ.

قوله: «ويسألهم الشفاعة»: فالشفاعة مُلك لله، قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]، ومن أراد الشفاعة فليطلبها بتوحيد الله لا باتخاذ الأنداد، ولهذا جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[1].

وفي الحديث الآخر عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[2]، فالشفاعة لله جميعًا ولا تنال إلا بتوحيده سبحانه وإخلاص الدين له.

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له.

وأما اتخاذ الوسطاء تحت مسمى الشفاعة فهذا نوع من الشرك والتنديد لا يزيد الإنسان عن الله ﷻ إلا بُعدًا.

قوله: «ويتوكل عليهم»: أي يعتمد عليهم في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء.

قوله: «كفر إجماعًا»: أي بإجماع أهل العلم أن هذا ناقض للدين ويخرج به المرء من ملة الإسلام(١).



---

(١) نقل الإجماع على هذا غير واحد من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فقال رحمه الله: «فَمَنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ جَلْبَ الْمَنَافِعِ وَدَفْعَ الْمَضَارِّ مِثْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ غُفْرَانَ الذَّنْبِ وَهِدَايَةَ الْقُلُوبِ وَتَفْرِيجَ الْكُرُوبِ وَسَدَّ الفاقات: **فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ**» «مجموع الفتاوى» (١/ ١٢٤)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص ٤٢٧).

[المتن]

«الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر».

[الشرح]

قوله: «الثالث: من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر»: هذا الناقض الثالث من نواقض الإسلام، وهذه ثلاثة أمور ذكرها المصنف:

الأمر الأول: من لم يكفر المشركين، أي لا يرى كفرهم ولا يعتقد ذلك، كأن يقول مثلًا: إن اليهود ليسوا كفارًا، أو النصارى، أو المجوس، أو عبدة الأصنام ليسوا كفارًا؛ فهو بهذا لا يكفر المشركين، ولا يعتقد كفرهم ولا يقول بهذا فهذا كافر؛ لأنه لم يكفر من كفره الله، وكفره رسوله ﷺ، قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦]، فإذا قال قائل: لم يكفروا، فيكفر من يقول ذلك.

الأمر الثاني: (من شك في كفرهم): أي شك في كفر من كفره الله ورسوله، ومن حكم الله عليه وحكم عليه رسوله ﷺ بالكفر، فمن شك في كفر الكافر كفر، إذ الواجب على المسلم أن لا يقع في قلبه شيء من التردد أو الشك في كفر من كفره الله، أو كفر من كفره رسول الله ﷺ.

الأمر الثالث: (أو صحح مذهبهم): كأن يقول في شيء من عقائد الكفار الكفرية الناقلة من الملة: هذا فعل صحيح، أو هذا قول صحيح، أو هذا عمل صائب، أو هذا أمر لا شيء فيه، فمن صحح مذهب الكفار أو شيء من عقائدهم الكفرية الناقلة

من الملة فهو كافر، فهذه ثلاثة مكفرات ونواقض للملة: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذاهبهم.



[المتن]

«الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر».

[الشرح]

قوله: «الرابع»: أي الناقض الرابع من نواقض الإسلام.

قوله: «من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه»: هذا ناقض من نواقض الإسلام العشرة وهو أن يعتقد الإنسان أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هدي النبي ﷺ، وهذا كفر بالله ﷻ؛ لأن هدي النبي ﷺ وحي نازل من السماء، وهدي غيره ﷺ أمر نابت في الأرض، وشتان بين الثرى والثريا.

وقد كان ﷺ يقول إذا خطب الناس يوم الجمعة: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيِ محمد ﷺ»[1]، فهديه صلوات الله وسلامه عليه هو صراط الله المستقيم، ودين الله القويم الذي رضيه الله ﷻ لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ أي هذا الوحي الذي نزل عليه ﷺ، ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

فهديه ﷺ هو خير الهدي وأتمه وأكمله وأقومه، فمن اعتقد أن هدي غيره ﷺ أكمل من هديه ﷺ فهذا كافر بالله، وخارج من ملة الإسلام.

قوله: «أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر»: أي ومن اعتقد أن حكم غير النبي ﷺ أكمل من حكمه ﷺ فهو كافر بالله، وخارج من ملة الإسلام، وحكمه صلوات الله وسلامه عليه وحي من الله، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④﴾ [النجم: ٣، ٤].

فمن اعتقد أن حكم غير النبي ﷺ خير من حكمه ﷺ فهو كافر بالله؛ لأنه ارتضى حكم الجاهلية، واختاره على حكم الإسلام وحكم النبي ﷺ، فهذا كافر بالله، وكافر برسوله ﷺ، ومؤمن بالطاغوت، وقد قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]، فهذا من التحاكم إلى الطاغوت وهو كفر بالله؛ لأن العبد لا يكون من أهل لا إله إلا الله ولا يكون من أهل التوحيد إلا إذا كفر بالطاغوت، ولهذا قال الله ﷻ في الآية التي تلي آية الكرسي، وآية الكرسي فيها تقرير التوحيد وذكر براهينه[1]، فقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالكفر بالطاغوت ركن من أركان الاستمساك بـ «لا إله إلا الله» التي هي العروة

---

(١) ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة قيمة بعنوان: «آية الكرسي وبراهين التوحيد».

الوثقى، فمن لم يكفر بالطاغوت ليس من أهل لا إله إلا الله، والذي يفضل حكم غير النبي ﷺ على حكمه ويعتقد أن حكم غيره أحسن من حكمه فهو مفضل لحكم الطاغوت، ومن كان مفضلًا لحكم الطاغوت فهو كافر بالله.

قوله: «كالذي يفضل حكم الطواغيت»: جمع طاغوت وهو مشتق من الطغيان وهو ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

«الخامس: من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر».

[الشرح]

قوله: «الخامس»: أي الناقض الخامس من نواقض الإسلام.

قوله: «من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به كفر»: سواء من العقائد الدينية التي هي أصح العقائد وأقومها، أو العبادات الشرعية وهي أكمل العبادات وأحسنها، أو الآداب المرعية وهي أجمل الآداب وأطيبها، فمن أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ أي وقع في قلبه بغضة له وكراهية وعدم حب له فإنه كافر ولو عمل به، أي ولو عمل بهذا الذي أبغضه؛ لأنه بمجرد بغضه لما جاء به الرسول ﷺ فإنه يكفر، وكفره كفر نفاق؛ لأن كفر النفاق كما بين أهل العلم ينقسم إلى أقسام عديدة، منها: بغض شيء مما جاء به الرسول ﷺ، فهذا البغض محبط للأعمال مخرج من الدين.

والمؤمن هو الذي رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وأما الذي يبغض ما جاء به الرسول ﷺ، أو في قلبه كراهية لشيء مما جاء به الرسول ﷺ فهذا يتنافى مع حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام: الاستسلام لله ﷻ والرضا بشرعه ودينه ﷻ.

قوله: «ولو عمل به كفر»: أي ولو عمل بهذا الشيء الذي أبغضه، فإنه يكفر بمجرد وجود البغض له في قلبه.

[المتن]

«السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾**[التوبة: ٦٥، ٦٦]».**

[الشرح]

قوله: «السادس»: أي الناقض السادس من نواقض الإسلام.

قوله: «من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه»: أي الذي أعده ﷻ لعباده المتقين، فالذي يستهزأ بالدين سواء منه العقائد أو العبادات أو الآداب فإنه بهذا الاستهزاء يكفر، وكذلك من يستهزأ بالثواب، سواء الأمور الدنيوية التي يعجل فيها لعباده المؤمنين بالمثوبة أو ما أعد لهم في الدار الآخرة من الثواب العظيم والنعيم المقيم والنجاة من النار، فمن استهزأ بشيء من ذلك فإنه كافر، سواء استهزأ بدين الله أو شيء منه أو استهزأ بثواب الله الذي أعده لعباده المؤمنين فإنه يكفر بذلك.

قوله: «أو عقابه كفر»: أي العقوبات التي أعدها للكفار أو أعدها للعصاة فإنه بهذه الفعلة يكفر وينتقل من الملة، وهذا أيضًا من كفر النفاق، ومن أوصاف المنافقين، ومن أعمال أهل النفاق.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾**[التوبة: ٦٥، ٦٦]».**

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ يَوْمًا: مَا رَأَيْتُ

مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلاءِ لا أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ لأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الْحَاجِرَةُ وَهُوَ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

فقوله: «﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾»: دليل على أن هؤلاء قبل هذا الاستهزاء كانوا على الإيمان وبه كفروا وخرجوا من الملة، أي قد كفرتم بعد أن كنتم من أهل الإيمان، وهذا مما يدعو العاقل إلى الخوف الشديد من نواقض الإسلام، كلمة قالها هؤلاء ثم اعتذروا فقالوا: أردنا أن نقطع عناء الطريق ونُذْهب ملل السفر، ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، ما قصدنا حقيقة الكلمة، فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

فالاستهزاء بالدين أو بالثواب أو بالعقاب هذا من أوصاف النفاق، ومن الأمور التي تُخرج من دين الإسلام؛ لأن هذا الاستهزاء لا يصدر ممن عرف الله ﷻ حق المعرفة، وعرف دينه، وعرف شرعه، وعرف ثوابه، وعرف عقابه، فلا يصدر إلا من قلب أصيب بمرض النفاق، والعياذ بالله.

* * * * *

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٦٩١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠٠٤٧).

[المتن]

«**السابع: السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]».

[الشرح]

قوله: «السابع»: أي الناقض السابع من نواقض الإسلام.

قوله: «السحر»: وهو عُقد ونفث في تلك العقد وصلة وارتباط بالشياطين وتقرب من الساحر لهم، وكفر بكتاب الله ﷻ، وله حقيقة وهو يضر ويؤذي، وله تأثير، فمنه ما قد يقتل ومنه ما قد يمرض، ومنه ما قد يفرق بين المرء وزوجه، قال سبحانه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فيقع بسببه أنواع من المضرات من موت أو فرقة أو قتل أو غير ذلك، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ لأن الأمر كله بيد الله ﷻ، فالسحر كفر بالله ﷻ.

قوله: «ومنه الصرف والعطف»: أي من أنواع السحر: الصرف والعطف، وهو بهذه الكلمة يشير إلى أنه أنواع عديدة، ولهذا لما عقد في كتابه (التوحيد) بابًا في السحر والتحذير منه، عقد بعده بابًا في بيان أنواع السحر؛ لأن السحر أنواع عديدة، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: (ومنه الصرف والعطف)، أي أن السحر أنواع عديدة ومن أنواعه الصرف والعطف.

وخص المصنف هذا النوع بالذكر هنا لكثرة وقوعه، وكثره افتتان الناس به،

والصرف أي: صرف الإنسان عما يحبه ويميل إليه، والعطف: عطف الإنسان أي إمالته إلى ما لا يحب ولا يرغب فيه، فهذا من السحر، وكثيرًا ما يقع، و يتسلط به السحرة على الناس من هذا الباب: بين الزوجين، بين الشريكين، بين المتعاملين، في محيط التجار، والطلب للربح والكسب للمال، فتحت هذا النوع من السحر يزعم الساحر لمن يرتاده ويأتيه أنه يستطيع أن يستميل إليه الناس ويعطفهم إليه، ومن لا يرغب فيهم يصرفهم عنه، وهذا كفر بالله.

فقوله ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة: ١٠٢]، فهذا سحر صرف، أي يصرف الزوجين بعضهما عن بعض ويوجد بينهما العداوة والبغضاء، فهذا من الكفر.

والساحر لا يكون ساحرًا إلا إذا كفر بالله، والسحر من الموبقات المهلكات وهو مما ينقل صاحبه عن الملة، ولهذا ذكره المصنف رحمه الله في نواقض الإسلام.

قوله: «فمن فعله»: أي تعاطى السحر وكان من أهله فإنه يكفر بذلك.

قوله: «أو رضي به كفر»: أي ومن رضي بالسحر حتى إن لم يكن ساحرًا فإنه يكفر؛ لأنه رضي الكفر، ومن رضي الكفر كفر، مثل الذي يرضى بعبادة الأصنام، أو يرضى بقول من يقول: إن الله ثالث ثلاثة. أو غير ذلك من الكفريات.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة: ١٠٢]»: وهذا تنصيص على أن الإنسان إذا باشر السحر وكان من أهله

كفر بالله، ﴿ فَلَا تَكۡفُرۡ ﴾: أي فإنك إن تعاطيته وباشرته وفعلته وكنت من أهله تكفر بالله، والمصنف اكتفى بهذا الجزء من الآية مستدلًا به على كفر الساحر وإلا فإن الآية بتمامها مع الآية التي قبلها[1] دلت على كفر الساحر من وجوه سبعة، بينها الشيخ حافظ حكمي بيانًا نافعًا في كتابه «معارج القبول»[2].

* * * * *

(١) يقصد الشيخ حفظه الله بالآية التي قبلها قول الله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١ ﴾ [البقرة: ١٠١].

(٢) «معارج القبول» (١/ ٣٠٧).

[المتن]

«**الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **[المائدة: ٥١]**».

[الشرح]

قوله: «**الثامن**»: أي الناقض الثامن من نواقض الإسلام.

قوله: «**مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين**»: وهذا لا يكون إلا من شخص كافر بالله، والمراد بالمظاهرة النصرة؛ أي: نصرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين بحيث إذا وقعت حرب بين أهل الإسلام وأهل الكفر يقف في صف أهل الكفر ويناصرهم ويعاونهم، ويكون صفًا واحدًا معهم في الانتصار على أهل الإسلام، فهذا من الكفر بالله ﷻ.

قوله: «**والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **[المائدة: ٥١]**»: أي فمن يتولهم منكم فإنه منهم في الكفر بهذا التولي، والمراد به في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾: نصرة الكافر على المسلم عند وقوع حرب بينهما قاصدًا بهذه النصرة ظهور دين الكفار، ويكون محبا بقلبه لانتصار الكفار على المسلمين، وهذا لا يقع من مسلم البتة، فالمسلم لا يحب نصرة الكفار على المسلمين، ولا يحب ظهور دين المشركين، ولكن يحب ظهور دين الله، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالذي يحب ظهور دين الكفار على دين الإسلام ليس من أهل الإسلام.

وثمة فرق بين التولي وبين الموالاة، والله جعل وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]، فالموالاة هي محبة الكفار ومودتهم لأجل الدنيا وليس من أجل ظهور دين الكفار ولا رغبة في دينهم، ولا حبًا في ظهور دينهم على دين الإسلام، ولكن لأجل الدنيا، فهذا فسق وهو من كبائر الذنوب وليس كفرًا ناقلًا من الملة، ولهذا خاطب الله ﷻ بمن وقع منهم ذلك بوصف الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

قوله: «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١]»: المراد بالظلم هنا الكفر.

* * * * *

[المتن]

«التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر».

[الشرح]

قوله: «**التاسع**»: أي الناقض التاسع من نواقض الإسلام.

قوله: «**من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهو كافر**»: لأن في هذا تكذيب بشريعة محمد ﷺ التي هي شريعة للعالمين، وقد بُعث ﷺ إليهم أجمعين، وكان من قبله يبعث في قومه خاصة، وهو ﷺ بعث في الناس عامة، كما جاء في «الصحيحين»: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»[1].

وشريعته ليست لفئة من الناس، أو لقوم دون آخرين، بل هي للناس عامة، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فإذا قال قائل: إن من الناس من يسعه أن يخرج على شريعته بحيث لا تكون شريعة محمد ﷺ شاملة له. فهذا كفر، واستدلال من يقول بذلك من أهل الكفر والضلال بأن الخضر وسعه الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهذا استدلال في غير بابه، بل قال ﷺ: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[2]، فموسى عليه السلام كليم الله وهو من

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٤٦٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٦)، وابن أبي شيبة في

أولي العزم من الرسل، ومعه رسالة من رب العالمين ولو كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبع النبي ﷺ، فكيف بأفراد الناس وآحادهم؟! بأن يقال: إن من الناس من يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، فهذا كفر ناقل من ملة الإسلام بلا شك.

وأما تنظير هؤلاء بأن الخضر وسعه الخروج عن شريعة موسى عليه السلام فهذا استدلال باطل، وإيراد للأمر في غير بابه، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله جواب موسع في رد هذه الشبهة، وهي تثار عند غلاة الطرقية من المتصوفة وأرباب الباطل، فأجاب عن هذه الشبهة بجواب موسع وواف وكاف.

ومما قاله في ذلك الموضع رحمه الله: «وَمِمَّا يُبَيِّنُ الْغَلَطَ الَّذِي وَقَعَ لَهُمْ فِي الِاحْتِجَاجِ بِقِصَّةِ مُوسَى وَالْخَضِرِ عَلَى مُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ: أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إلَى الْخَضِرِ وَلَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْخَضِرِ مُتَابَعَتَهُ وَطَاعَتَهُ؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: إنَّ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ: «يَا مُوسَى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ»[1]، وَذَلِكَ أَنَّ دَعْوَةَ مُوسَى كَانَتْ خَاصَّةً.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِيمَا فَضَّلَهُ اللهُ بِهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْت إلَى النَّاسِ عَامَّةً»[2] فَدَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الْعِبَادِ لَيْسَ لِأَحَدِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ وَلَا اسْتِغْنَاءَ عَنْ رِسَالَتِهِ كَمَا سَاغَ لِلْخَضِرِ الْخُرُوجُ عَنْ مُتَابَعَةِ مُوسَى وَطَاعَتِهِ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ بِمَا عَلَّمَهُ اللهُ. وَلَيْسَ

«مصنفه» (٢٦٤٢١)، وانظر: «الإرواء» (٦/ ٣٤).

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

لِأَحَدٍ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ أَنْ يَقُولَ لِمُحَمَّدٍ: إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لَا تَعْلَمُهُ وَمَنْ سَوَّغَ هَذَا أَوْ اعْتَقَدَ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ: الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ أَوْ غَيْرِهِمْ لَهُ الْخُرُوجُ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمُتَابَعَتِهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَدَلَائِلُ هَذَا مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ هُنَا»[1].

* * * * *

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٢٥).

[المتن]

«العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به؛ والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **[السجدة: ٢٢]».**

[الشرح]

قوله: «العاشر»: أي هذا الناقض العاشر من نواقض الإسلام، والأخير من النواقض التي ذكرها المصنف رحمه الله.

قوله: «الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه ولا يعمل به»: أي يكون معرضا تمامًا عن دين الله، وهذا من أنواع الكفر ويسميه أهل العلم كفر الإعراض، وقال أهل العلم في بيانه: إذا عدم في الإنسان الأصل الذي يدخل به في الإسلام وأعرض عنه بالكلية لا يتعلم ولا يعمل، كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة»[(١)].

فمن كانت هذه حالة فهو كافر، وكفره بالله جل جلاله كفر إعراض، وهذا هو المراد بكفر الإعراض.

وأما الذي إعراضه بترك بعض الواجبات مما لا يصل به إلى حد الكفر، أو ترك المستحبات فليس داخلًا في هذا الباب، وإنما المراد كما ذكرنا وهو أن يُعدم في الإنسان

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٨).

الأصل الذي يكون به مسلمًا، ويعرض عن هذا تمامًا، فلا يتعلم ولا يعمل ولا يقبل ولا يصغي، فهذا كفره كفر إعراض.

قوله: «والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ **[السجدة: ٢٢]: فقوله:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾»: الاستفهام هنا بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها.



[المتن]

«ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرًا، وأكثر ما يكون وقوعًا، فينبغي للمسلم أن يحذرها، ويخاف منها على نفسه.

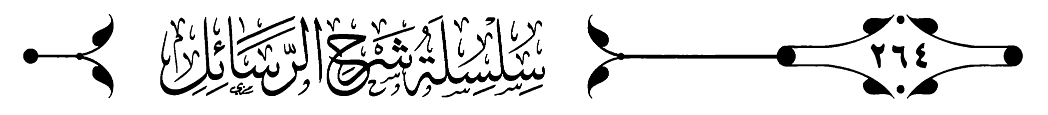
نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

[الشرح]

قوله: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف»: أي كلهم سواء يكفرون، سواء وقع في هذه النواقض ودخل فيها بسبب الخوف أو دخل فيها بسبب الهزل والمزاح واللهو واللعب، أو كان جادًا، فلا فرق في جميع هذه النواقض.

قوله: «إلا المكره»: أي إذا وصل الأمر إلى حد الإكراه بأن أكره على الكفر وفعله أو قاله فإن الله ﷻ لا يعذبه على ذلك ولا يكون بذلك من الكافرين، كما قال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا بلغ الأمر مبلغ الإكراه، والإكراه لا يكون إلا على القول والفعل وأما العقيدة التي في القلب فليس عليها إكراه؛ لأنه لا يُدرى ماذا في قلب الإنسان وما يكون في صدره، فلو أكره الإنسان إلى أن يقول كلمة الكفر، أو أكره الإنسان أن يفعل الكفر، فقال الكفر أو فعله تحت وطأة الإكراه وتحت سوط الإكراه ففعله أو قاله فإنه لا يكفر بذلك.

ودليل الإكراه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلم يستثن الله ﷻ إلا المكره.



قوله: «ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره»: للمصنف رحمه الله في هذه المسألة وبيانها والاستدلال لها كلام عظيم النفع كبير الفائدة ختم بها رحمه الله كتابه (**كشف الشبهات**).

فقال رحمه الله: «ولنختم الكلام إن شاء الله تعالى بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا. فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناس، ويقولون هذا حق، ونحن نفهم هذا ونشهد أنه الحق، ولكننا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم، أو غير ذلك من الأعذار، ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار، قال تعالى: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات، كقوله: ﴿ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فإن عمل بالتوحيد عملًا ظاهرًا وهو لا يفهمه أو لا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافر الخالص ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥]، وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تتبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله:

أولاهما: قوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ [التوبة: ٦٦]، فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها

على وجه المزح واللعب تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحدٍ أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[النحل: ١٠٦، ١٠٧]، فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفًا أو مداراة أو مشحة بوطنه، أو أهله، أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره، فالآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ [النحل: ١٠٦]، فلم يستثن الله تعالى إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل، وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين، والله ﷻ أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

قوله: «وكلها من أعظم ما يكون خطرًا»: أي فكل هذه النواقض العشرة من أعظم ما يكون خطرًا، فهي أخطر الأمور، وأضر الأشياء، وأعظم الموبقات، وأكبر المهلكات.

---

(١) «كشف الشبهات» (ص٤٤).

قوله: «**وأكثر ما يكون وقوعًا**»: أي اجتمع فيها أمران:

الأمر الأول: أنها أخطر ما يكون.

الأمر الثاني: أنها أكثر ما يكون وقوعًا، فتقع كثيرًا.

فإذا علمت أنها أخطر ما يكون على الإنسان، وأنها أكثر ما يكون وقوعًا في الناس فهذا يستجلب الخوف من هذه النواقض، ولهذا قال: فينبغي للمسلم أن يحذرها.

قوله: «**فينبغي للمسلم أن يحذرها، ويخاف منها على نفسه**»: وللمصنف ﵀ في كتابه (التوحيد) باب عظيم نافع مهم للغاية بعنوان: باب الخوف من الشرك، وأورد فيه قول الله ﷻ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ونقل عن إبراهيم التيمي قوله: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم»(١).

فإذا كان إبراهيم ﵇ إمام الحنفاء الذي حطم الأصنام بيده خاف وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم ﵇!.

ولذلك إذا علم المسلم خطورة هذه الأمور، وأنها أعظم ما يكون خطرًا، وأكثر ما يكون وقوعًا فهذا يجلب للقلب الخوف من هذه النواقض، وشدة الحذر منها.

قوله: «**نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه**»: ختم المصنف ﵀ بهذه الدعوة العظيمة المباركة، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، فهذه العشرة المذكورة هي أعظم موجبات غضب الله.

---

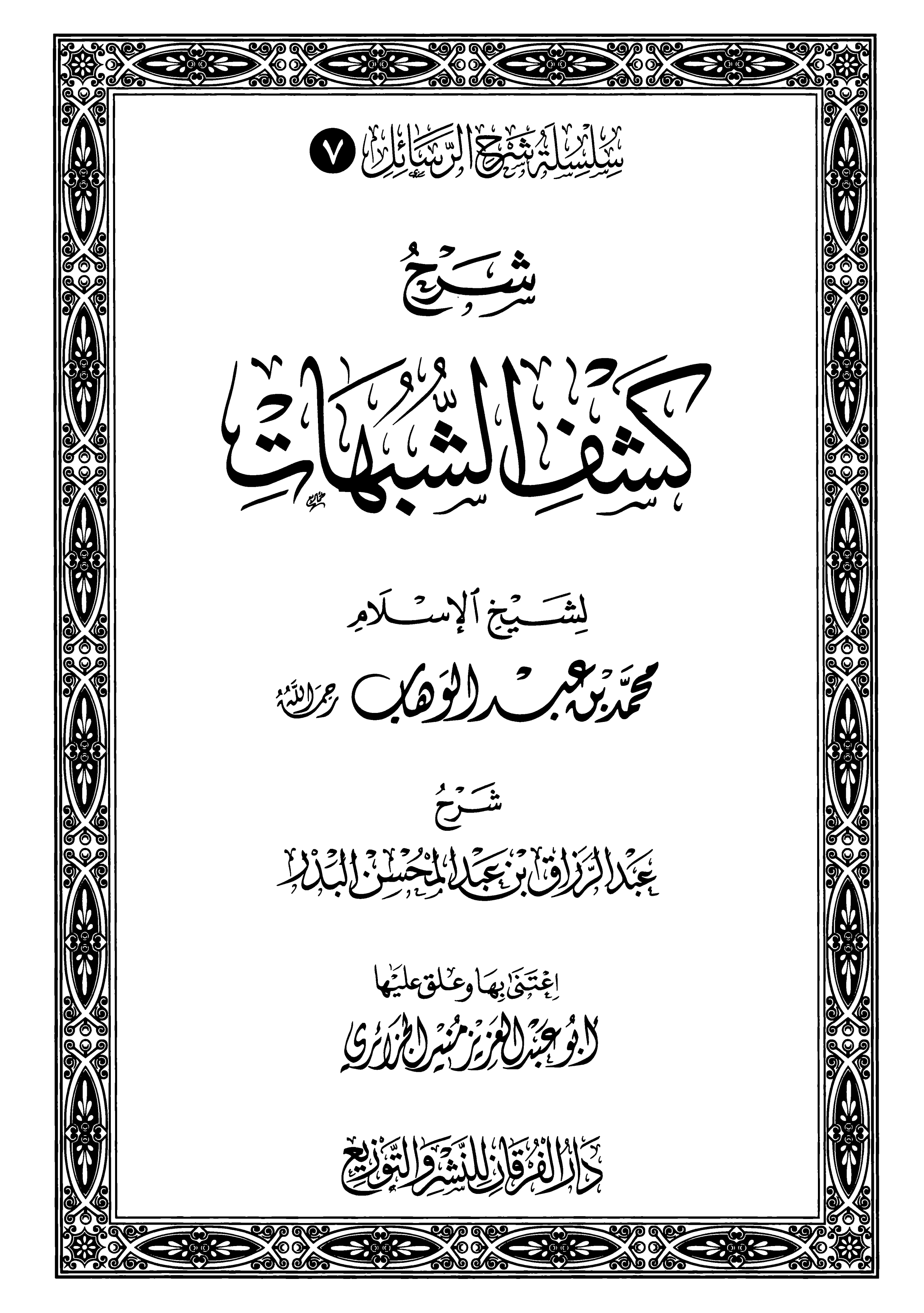
(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٧).

قوله: «وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم»: وكذلك ختم بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبهذا نصل إلى ختام الكلام على هذه الرسالة القيمة (**نواقض الإسلام**) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

ونسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يعيذنا أجمعين من نواقض الإسلام، وأن يحفظ لنا ديننا، اللهم احفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين، واحفظنا بالإسلام راقدين، اللهم اصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، اللهم إنا نعوذ بك من الكفر ومن الفقر، اللهم لك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا، نعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلنا، فأنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



سلسلة شرح الرسائل ٧

شرح كشف الشبهات

لشيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

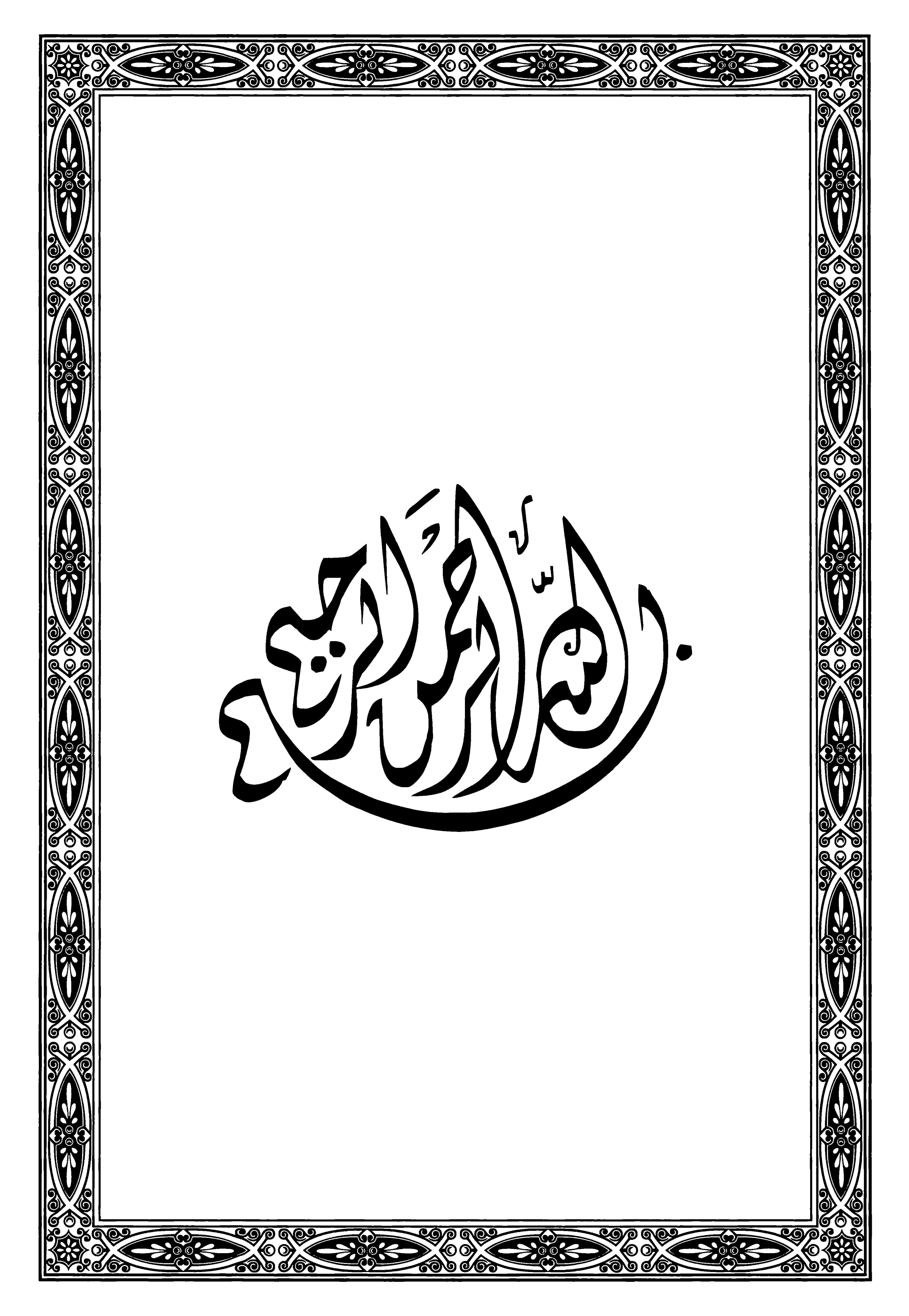
شرح

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم



الحَمْدُ لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]»[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟

قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ**»[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا).

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ...**»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله «فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

---

(١) «معارج القبول» (١/ ٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب رحمه الله العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة (**كَشْف الشُّبُهَات**)[٢]، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذَنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٣].

---

(١) «الدُّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) سئل الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أحسن الله إليكم شيخنا ماهي المسوغات التي دفعت الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لتأليف هذا الكتاب؟

الجواب: إيضاح الشبهات التي اعترض بها عباد القبور ولبسوا بها على المسلمين» «شرح كشف الشبهات» (ص ١١).

(٣) كان ذلك في بيته بالمدينة النبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافَظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

سائلًا الله ﷻ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095





مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإن من نعم الله العظيمة على عبده المسلم أن ييسر له في حياته تعلم التوحيد الذي خلق لأجله، وأُوجد لتحقيقه، ومعرفة دلائله وحججه وبيناته، وأيضاً أن يعرف ما يضاد التوحيد ويناقضه أو ينقص كماله ليكون على حذرٍ تامٍ من كل أمر يناقض التوحيد أو ينافيه، ومن كل أمرٍ ينقص من كمال التوحيد، ويكون التوحيد عند المرء المسلم أثمن شيء وأغلى كنز وأعظم أمرٍ يعنى به في حياته كلها وتكون عنايته بتوحيده مقدمة على العناية بكل أمر، واهتمامه بتوحيده مقدماً على الاهتمام بكل أمر، لأن التوحيد أعظم مطلبٍ وأجل مقصد وأنبل غاية وهو أساس هذا الدين، وأصله الذي عليه يبنى، وهوأساس قبول الأعمال، وزكاء

الطاعات وصلاحها، وأساس قبولها عند الله -تبارك وتعالى- وكل عمل يقوم به الإنسان ولا يكون قائماً على توحيد الله عز وجل فإنه يذهب هباءً، ولا ينتفع به عامله أي شيء ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، قد قال الله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال -جل وعلا-: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩]، ولهذا فإن عقد المجالس لدراسة التوحيد وبذل الأوقات بمعرفته ومعرفة دلائله وحججه وقراءة ما كتبه أئمة أهل العلم في هذا الباب هو من أهم المهمات وأعظم المطالب التي ينبغي على طالب العلم أن يعنى بها.

والعناية بالتوحيد تتناول جانبين لا بد منها:

الجانب الأول: معرفة التوحيد من حيث تقريره وتأصيله وذكر دلائله وحججه وبيناته.

والناحية الأخرى: معرفة الأمور التي هي من نواقض التوحيد أو من نواقصه؛ لأن للتوحيد نواقض وله نواقص، وطالب العلم والمسلم عموماً كما أنه مطالب بمعرفة التوحيد ليحققه، فإنه في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة نواقضه ونواقصه ليحذرها، لتكون مستبينة له، واضحة عنده، فيكون منها على حذر، ويكون أيضاً محذراً الناس من الوقوع فيها ومن سوء مغبتها وعاقبتها على من وقع فيها في دنياه وأخراه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٥]، وفي «الصحيحين» عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ**

اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1]، فهذا مطلب لا بد منه، فكما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليتبعه فإنه كذلك مطالب بمعرفة الباطل ليحذره، ولأجل هذا ألف العلماء -رحمهم الله- مؤلفات مفردة في الكبائر وبيانها وعدِّها، وممن ألف في الكبائر، مؤلف هذا الكتاب الذي أعني شيخ الإسلام الإمام الهمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- له كتاب في الكبائر من أنفس ما يكون، ومن قبله للإمام الذهبي وغيرهما من أهل العلم فقد ألفوا في بيان الكبائر، وأكبر الكبائر الشرك بالله ﷻ، وهو ناقض التوحيد، وقد قيل قديمـًا: «كيف يتقي من لا يدري من يتقي؟!»[2]، كيف يتقي الشرك من لا يعرفه! وكيف يتقي المحرمات من لا يعرفها، ولهذا فالمسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق فإنه مطالب أيضًا بمعرفة ما يناقض الحق أو ينقصه ليحذر من الوقوع فيه، ويأكد هذا الأمر عندما تموج الشبهات وتكثر الفتن، ويتعاون أهل الباطل على تشكيك أهل الحق في ثوابتهم ومسلماتهم، بطرح الشبهات العاصفة التي تفتن الناس، وتلبس عليهم دينهم وتصرفهم عن الحق الذي خلقوا لأجله، وأوجدوا لتحقيقه، وقد خاف النبي ﷺ على أمته من أئمة الضلال قال: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ»[3]، فخاف ﷺ على أمته من أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق؛

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٢٥٤)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٢).

لأنهم يوردون الشبهات على الناس، وكم من أناس حرفت عقائدهم وصرفوا عن الجادة السوية بسبب دعاة الباطل وأئمة الضلال؟ بل إن دعاة الباطل يستميتون في جَلَد عجيب ودأبٍ وجدٍ واجتهاد في تمكين الشبهات وغرسها في الناس، ليبعدوهم عن دين الله -ﷻ-، ولا يزال أهل الباطل يشبهون على الناس ويفتنونهم في دينهم في قديم الزمان وحديثه، وقد قال الله -ﷻ- عن هؤلاء واصفـًا حالهم على مر العصور واختلاف الأزمان قال: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [البقرة:١١٨]، فهي متشابهة في الصد عن الحق والتمكين للباطل وطرح الشبهات على الناس ليبعدوهم عن دين الله -ﷻ-.

ولقد عظمت المصيبة في زماننا هذا عندما انفتح على الناس من وسائل الاتصال الحديثة ونقل المعلومات السريعة، بحيث يمكن للإنسان أن يقول الكلمة فتصل في اللحظة الواحدة إلى أطراف الدنيا، من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت الشبكة العنكبوتية، ومن خلال الهواتف ولا سيما الهاتف النقال الذي يحمله كثير من الناس، وأصبح أهل الباطل يجدون من خلال هذه المجالات وسائل سهلة لهم لنشر باطلهم، والذي يدمي القلب ويحزن الغيور أن ترى في كثير من أبناء المسلمين وبناتهم من يجد متسعـًا من وقته ليسمع لمن يلقون الشبهات، ولا يجد متسعـًا من وقته ليتعلم التوحيد!؛ بل بعضهم ما جلس لتعلم التوحيد ثم فتح قلبه لأصحاب الشبهات ليودعوا في قلبه سم شبهاتهم وركام باطلهم، وهنا تتلوث العقول وتفسد العقائد وتخرّب الأديان وتفشوا الضلالات، ومما يتطلب على أهل الحق والغيرة على دين الله -ﷻ- أن يبذلوا ما استطاعوا من جهودٍ لتعلم

العلم والجلوس لمدارسته ومذاكرتهومن ثَمّ بثه ونشره في الناس وتعليمه لهم، ولهذا أدعوك أخي القارئ أن تحتسب في قراءتك لمثل هذه المؤلفات أن تكون متعلماً للخير، ناصرًا لدين الله -ﷻ- فتفقه الدين لتعرف التوحيد، وتعرف الحق والهدى وتعرف أيضا شبهات أهل الباطل وطريقة أهل العلم في ردها لتكون بإذن الله -ﷻ- من أنصار هذا الدين ومن دعاة الحق ومنارات الخير، ومن العاملين في صد هذه الأباطيل ورد هذه الشبهات.

ومن عجيب وغريب أمر كثير من الناس أعني عوامهم وجهالهم أن صار أمرهم في مجالسهم تطارح شبهات ويحارون في جوابها، وترى كلاً منهم يتكلم ويهرف بما لا يعرف!، مما سمعوه من تلك القنوات، ولا يجد هؤلاء وقتاً لدراسة الحق والهدى على بابه الصحيح ووجهه القويم.

إن شبهات أهل الباطل التي أثاروها في قديم الزمان ولا يزالون يثيرونها في كل زمان وأوان، تحتاج من دعاة الحق وأهل الخير إلى وقفة صادقة في الذب عن دين الله -ﷻ- وحماية حماه، وإذا كان نبينا ﷺ عدّ من شعب الإيمان العظيمة وخصاله الجليلة إماطة الأذى عن الطريق[1]، أي: أن تجد شيئاً من القذر أو الشوك أو الأمور المؤذية في طريق الناس فتميطها عن طريقهم لئلا تؤذيهم، فكيف بإماطة الشبهات التي هي أقذع الأذى وأشده؟ لأنها في طريق السائرين إلى الله ﷻ بالإخلاص والتوحيد، وإذا ابتلي الناس بهذه الشبهات ربما أخرجتهم عن صراط الله المستقيم، فإذا كان إماطة الأذى عن طريق المسلمين شعبة من شعب الإيمان،

---

(١) رواه مسلم (٣٥).

فإن إماطة الشبهات بكشفها وتعريتها وبينان حقيقة أمرها وإيضاح زيفها ووهائها من أَجَلِّ القربات وأنفع الطاعات التي يتقرب بها إلى الله -ﷻ-، وهنا ندرك الفضل العظيم والخير الكبير الذي حبا الله -ﷻ- به من حبا من عباده في أن كانوا أنصاراً للحق ببيانه ورد الشبهات التي يثيرها أهل الباطل صداً عن الحق والهدى، ولا أبالغ عندما أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا أعني كتاب **(كشف الشبهات)** لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- لم يؤلف في بابه مثله! مع وجازة الكتاب واختصاره في مادته العلمية ومباحثه، ولا غروَ في ذلك فإن من كتب هذا الكتاب إمامٌ مجدد وعلم مصلح وإن رغمت أنوف، نصر الله ﷻ به دينه وأعلى به كلمته، وانتشر دين الله ﷻ الصافي النقي في أنحاء المعمورة، في دعوة مباركة يسّر الله - ﷻ- هذا الإمام للقيام بأعبائها، وكان من جهوده في نصرة الحق وبيانه أن ترك مؤلفات عظيمة نافعة لا تزال زاداً لطلاب العلم، وبركة هذه المؤلفات ظاهرة، في عقد الدروس والمجالس الكثيرة لمذاكرتها، وكتابة المؤلفات الكبيرة في شرحها وبيانها، وترجمتها إلى كثير من لغات العالم، وهذه بركة طرحها الله ﷻ في دعوة هذا الإمام الدعوة الصافية النقية إلى توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له، واتباع رسوله -صلوات الله وسلامه عليه-.

ولما كان -رحمه الله تعالى- في زمانه متحملاً أعباء الدعوة، ناشراً التوحيد في الناس مبيناً دلائله وحججه، كان دعاة الباطل وأهل الأهواء في زمانه يثيرون الشبهات في الناس لصدهم عن هذه الدعوة، وأثاروا شبهات كثيرة، أرادوا من ورائها صد الناس عن الدعوة إلى التوحيد التي قام بأعبائها هذا الإمام ؒ، فانبرى -رحمه

الله تعالى- وأتى على أبرز شبهات هؤلاء وجمعها في هذه الرسالة وأجاب عنها بأجوبة مقنعة وكشف ما فيها من زيف وضلال وباطل بما لا مزيد عليه، ولم يكن -رحمه الله تعالى- في هذا الكتاب مقتصراً على كشف تلك الشبهات التي أُثيرت في زمانه من دعاة الباطل؛ بل كان -وهذا من تمام نصحه رحمه الله تعالى- مؤصلاً في كتابه الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في موقفه من الشبهات وفي طريقة ردها وبيان فسادها، وشبهات أهل الباطل كثيرة وعديدة، قد لا يتسنى لكل طالب علم أن يعرف بشبهات أهل الباطل وأجوبة أهل العلم لها معرفةً تفصيلية، قد لا يتسنى هذا لكثير من طلبة العلم، فوضع ﷺ في مقدمة كتابه كشف الشبهات تأصيلاً مباركًا وتقريراً نافعًا لطالب العلم يسير على ضوئه في رد شبهات أهل الباطل، ولا سيما إذا لم يكن على معرفة تفصيلية بكشف تلك الشبهات، ومن أهم ما يكون في ذلك أن يعرف الحق الذي بعث به النبي ﷺ واجتمعت عليه دعوة الأنبياء والمرسلين فكانوا من أولهم إلى آخرهم دعاةً له، يعرف ذلك معرفة جيدة، ويعرف دلائله وحججه وبيناته، ويعرف أيضًا في الوقت نفسه دين المشركين الذي بعث النبي ﷺ بإبطاله ونقضه وهدمه، ماذا كان عليه المشركين من دين، يعرف ذلك، فإذا عرف دين النبي ﷺ وعرف دين المشركين الذي بعث النبي ﷺ بإنكاره، إذا عرف هذين الأمرين معرفة جيدة سلم من جُلّ شبهات أهل الباطل، فإذا عرف الحق وعرف ضده، عرف صحة الحق وعرف بطلان ضده، فإنه بإذن الله -ﷻ- لا تنفق عنده شبهة ولا تروج، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢] ولهذا مهّد الشيخ -رحمه الله تعالى- بتمهيد نافعٍ جداً جعله في صدر الكتاب وأوله

في بيان دين نبينا ﷺ ودين الأنبياء واجتماعهم على توحيد الله وإخلاص الدين له وبيان دين المشركين وحقيقة دينهم الذي بعث النبي ﷺ وبعث الأنبياء عليهم -صلوات الله وسلامه عليهم- من قبله لإنكاره و إبطاله، مهّد لذلك ثم بعد ذلك ذكر تقريراً مجملاً في رد الشبهات وكشفها، ثم ذكر أبرز الشبهات التي أثيرت في زمانه من أرباب الباطل وأهل الأهواء، فأجاب عنها إجابة تفصيلية، وبهذه الأمور الثلاثة يكون رحمه الله وضع النقاط -كما يقال- على الحروف، ووضع المنهج السديد في السلامة من الباطل وشبهات أهله أيـًا كانت، فنسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع قدره، وأن يعلي مقامه في جنات النعيم مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقـًا، وأن يبارك في جهوده العظيمة وأن يرزقنا جميعـًا حسن الاستماع وحسن الانتفاع، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وأما مؤلِف الكتاب فهو غني عن التعريف -رحمه الله تعالى-، وأما مؤلَفه فهو الذي بين أيدينا كتاب (كشف الشبهات)، فسنقف بإذن الله على مضامين هذا الكتاب العظيمة، وأشير إلى أن هذا الكتاب حظي بشروحاتٍ عديدة مكتوبة وصوتية من أكابر أهل العلم، **وأنصح بمطالعة الشروحات لهذا الكتاب ولا سيما شرح الشيخ محمد بن بن إبراهيم -رحمه الله تعالى-، وهو مطبوع جمع من تقريراته -رحمه الله-، جمعه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القاسم -رحمه الله-، وأيضـًا شرح الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالى -، والشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-، والشيخ صالح الفوزان -حفظه الله تعالى-**، وجميعها موجودة صوتـًا وكتابةً، فرغت من الأشرطة وهي شروحات نافعة ومفيدة جداً لطالب العلم، ونسأل الله

جل وعلا أن يمن علينا أجمعين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسلك بنا جميعًا في الباب العظيم من أبواب الخير، فإنه تبارك وتعالى ولي التوفيق والسداد.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

* * * * *

[المتن]

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى وقدس روحه في الجنة-، قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم

اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أن التوحيد هو إفراد الله ﷻ بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده».

[الشرح]

الشيخ رحمه الله تعالى هذا الكتاب سماه (كشف الشبهات)[1]، والكشف في اللغة معناه معروف، عندما يقال كشف الشيء أي أزال عنه ما يغطيه، يقال كشف فلان اللثام عن وجهه أي: أماطه وأزاله عن وجهه، فأصبح وجهه بدل أن كان خفياً

---

(١) قال الشيخ العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «منهجه في تأليف كتاب كشف الشبهات: اسم الكتاب مُطابقٌ لموضوعه، فالشيخ ﷺ أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهلُ البدع، ملبِّسين بها على الدعوة إلى الحقِّ والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لِما كان عليه سلف هذه الأمَّة من الصحابة ومَن سار على نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يَدعونهم ويَستغيثون بهم، فجمع الشيخ ﷺ جُملاً كبيرة من هذه الشُّبَه، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاً على ذلك بنصوص الكتاب والسنَّة وما كان عليه سلف الأمَّة، وكتابه هذا متمِّمٌ لكتبه الأخرى في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنَّة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب على ما يُورَد على العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيِّناً بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدى الذي كان عليه سلف هذه الأمَّة» «منهج شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في التأليف» (ص١٢).

أو غير ظاهرٍ أصبح ظاهراً، فكشف الشيء بأن يُماط عنه ما يغطيه، والشبهات هي الأمور التي يلبس فيها الحق والباطل، يشبه فيها على الناس بحيث عندما تثور هذه الشبهات تجعل الأمر ليس واضحـًا، فيلتبس عليهم الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور، فلا يكون الحق مستبينـًا لهم أنه حق، ولا يكون أيضـًا الباطل مستبينـًا لهم أنه باطل، فتلتبس عليهم الأمور وتختلط عندهم، ويصبح الأمر بدل أن كان واضحـًا يصبح ملتبسـًا مختلطـًا غير واضح[1]، وكشف الشبهات أي: تعريتها وبيان فسادها وبطلانها بحيث يكون ظهور بطلانها واضحـًا للناس، والشبهة إذا ثارت التبس الأمر على الناس فلم يميزوا بين حق أو باطل، فإذا قيض الله -ﷻ- لهم عالمـًا ناصحـًا فكشف عنهم الشبهة رأوا الحق، فالشيخ -رحمة الله عليه- سمى كتابه (كشف الشبهات)؛ لأنه أزال فيه بتوفيق الله -تبارك وتعالى- ما يثيره أهل الباطل من أمور يلبسون بها على أهل الحق وأهل التوحيد، وبدأ رحمه الله كتابه بالبسملة «**بسم الله الرحمن الرحيم**» تأسيـًا بكتاب الله ﷻ، وتأسيـًا بالنبي الكريم ﷺ في مكاتباته ومراسلاته، والباء في «**بسم الله**» باء الاستعانة، وقوله «**بسم الله**» أي أبدأ بذكر اسم الله -تبارك وتعالى-، أبدأ كتابي هذا -أو أكتب كتابي هذا- مستعينـًا بالله -تبارك وتعالى-، ذاكراً اسمه -جل وعلا-.

قال: «**بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة**».

---

(١) قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «الشبهة هي اشتباه الطريق على السالك بحيث لا يدري أعلى حق هو أم على باطل» «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٨).

«**اعلم**»: هذه كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة المهمة التي تحتاج إلى استدعاء انتباه السامع وشد ذهنه وجمع قلبه، وعنايته بالموضوع الذي يلقى عليه، فيؤتى بها للتنبيه وشد الانتباه ويؤتى بها في الأمور العظام، وفي القرآن الكريم أتت في مواضع عديدة، جلها فيما يتعلق بتوحيد الله ﷻ ومعرفة عظمته وجلاله وكماله وأسمائه وصفاته -ﷻ-، منها قول الله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:١٩]، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهي كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة التي يستدعي المقام شدّ انتباه الناس لهذه الأمور حتى يحسنوا الاستماع ومن ثم يحصل بإذن الله -ﷻ- الانتفاع.

«**اعلم رحمك الله**»: وهذا أيضاً من نصحه، بدأ الكتاب بهذه الدعوة لمطالع هذا الكتاب وقارئه والمستفيد منه، دعا له بالرحمة، والرحمة تارة تذكر مع المغفرة وتارة تذكر مفردة، كما ذكرها الشيخ هنا رحمه الله، فإذا ذكرت مع المغفرة فإن المراد بالمغفرة ستر ما مضى وكان، والمراد بالرحمة التوفيق فيما يستقبله المرء من الأيام والأزمان، وإذا ذكرت الرحمة وحدها هنا جمعت الأمرين، فقوله «**رحمك الله**» أي: بأن يغفر لك ما مضى وهذا من رحمة الله بعبده، وأن يوفقك فيما بقي من حياتك، وإذا أطلقت الرحمة والدعاء بالرحمة يشمل الأمرين.

«**اعلم رحمك الله**»: يشمل غفران ما مضى من رحمة الله بك أن يغفر لك مامضى وما سلف وما كان، ومن رحمة الله -ﷻ- بك أن يوفقك لسديد الأعمال وصالح الأقوال فيما بقي من حياتك.

(أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة) التوحيد: هذه الكلمة مصدر للفعل وحّد يوحّد توحيداً وهو أصلٌ يدل على الإفراد، وتوحيد الله ﷻ هو إفراده -تبارك وتعالى- بخصائصه -تبارك وتعالى- في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته، ليفرد -جل وعلا- بكل ما هو مختص به ﷻ من الأسماء الحسنى والصفات العليا وبربوبيته وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف والتدبير إلى غير ذلك، وأن يفرد -تبارك وتعالى- وحده بالعبادة، فلا يجعل معه شريكاً في شيئ منها، هذا هو التوحيد، توحيد الله ﷻ أن يفرد -جل وعلا- بخصائصه ﷻ، في ألوهيته و ربوبيته وأسمائه وصفاته، ولهذا قال أهل العلم التوحيد ينقسم إلى أقسام ثلاثة[١] توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الألوهية، والشيخ -رحمة الله عليه- عرّف التوحيد هنا؛ بل كثيراً ما يأتي هذا التعريف في مصنفاته ؒ ورسائله ومكاتباته؛ لأنه تعريف مختصر وجامع.

قال: **«اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة»** إفراده بها أن لا يجعل معه فيها

---

(١) فائدة:

قَالَ العَلَّامَةُ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ الله أَبُو زِيد ؒ: «هَذَا التَّقْسِيمُ الاسْتِقْرَائِي لَدَى مُتَقَدِّمِي عُلَمَاءِ السَّلَفِ: أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ مَنْدَه، وَابْنُ جَرِير الطَّبَرِي، وَغَيْرُهُمَا، وَقَرَّرَهُ شَيْخَا الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة وَابْنُ القَيِّمِ، وَقَرَّرَهُ الزبيدِي فِي (تَاج العَرُوس)، وَشَيْخُنَا الشَّنْقِيطِي فِي (أَضْوَاء البَيَان)، وَآخَرِين رَحِمَ الله الجَمِيع.

وَهُوَ اسْتِقْرَاءٌ تَامٌّ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مُطَّرَدٌ لَدَى أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ كَمَا فِي اسْتِقْرَاءِ النُّحَاةِ: كَلَام العَرَبِ إِلَى (اسْم، وَفِعْل، وَحَرْف)، وَالعَرَبُ لَمْ تَفُهْ بِهَذَا وَلَمْ يُعْتَبْ عَلَى النُّحَاةِ فِي ذَلِكَ عَاتِب، وَهَكَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الاسْتِقْرَاء» «التَّحْذِيرُ مِنْ مُخْتَصَرَات الصَّابُونِي فِي التَّفْسِير» (ص٢١)، وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي هَذَا المَوْضُوعِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كِتَابِ شَيْخِنَا عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ المُحْسِنِ البَدْر حَفِظَهُ الله بِعُنْوَان: «القَوْل السَّدِيد فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ تَقْسِيم التَّوْحِيد».

شريك، بأن يخص بها -تبارك وتعالى- وحده، فلا يجعل معه شريك في شيء منها، قال **(اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة)** وهنا يتطلب أيضاً الأمر أيضاً من الموحد أن يعرف العبادة ماهي؟ حتى لا يصرف شيئاً منها لغير الله، وحتى يخص بها الله -جل وعلا-، وإذا كان لا يعرف العبادة ماهي فربما صرف شيئاً منها لغير المستحق لها وهو الله -تبارك وتعالى-، والعبادة: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[1]، وهو التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «العبودية»، وتناقله عنه أهل العلم، وهو من أجمع ما قيل في بيان حد العبادة وتعرفيها.

فالعبادة حق لله عز وجل يجب أن يفرد بها عز وجل، ولم يذكر هنا ما يتعلق بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن هذا التعريف أو هذا التوحيد؛ توحيد الألوهيه متضمن للتوحيدين أي: توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة متضمن للتوحيدين، فلا يكون عبداً لله -تبارك وتعالى- مخلصاً له العبادة إلا من عرفه رباً خالقاً رازقاً مدبراً له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، وإذا قلنا أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات فمعنى ذلك: أنه لا يكون موحداً لله عز وجل في ألوهيته إلا من عرفه رباً وعرف أسماءه وصفاته، وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية، قد يكون الإنسان مقراً بالربوبية بأن

---

(١) «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

الله هو الرب الخالق الرازق المنعم؛ ولكن لا يخلص العبادة لله ولا يفرد الله ﷻ في العبادة، وهذا أمر سيأتي تبيينه وتوضيحه وذكر الأدلة عليه في كلام المصنف -رحمه الله تعالى-.

قال: «**اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده**».

وهذه الحقيقة عظيمة جدا ينبغي العناية بها أن هذا التوحيد الذي هو إفراد الله -ﷻ- بالعبادة هو دين الرسل.

«**دين الرسل**» أي: من أولهم إلي آخرهم، كلهم متفقون عليه مجتمعون على الدعوة إليه، لا خلاف بين نبي وآخر فيه، كلمتهم فيه واحدة، وقولهم فيه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال -ﷻ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال -ﷻ-: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف:٢١].

ومعنى قوله ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ النذر: هم الرسل.

﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: أي كلهم تواردت كلمتهم واتفقت دعوتهم على هذا الأمر: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وكلهم متفقون كلمتهم واحدة، الرسل من أولهم إلي

آخرهم كلمتهم واحدة، ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ على ماذا؟ على أي شيء؟ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، هذه هي دعوة جميع المرسلين الرسل عليهم -صلوات الله وسلامه- كلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة، كلهم دعاة إلي توحيد الله -ﷻ-، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ في «الحديث الصحيح»: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)، فقوله: «**وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**» أي: فعقيدتهم واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في الأصول، الأصول واحدة، أمور التوحيد وأمور العقائد عند الأنبياء واحدة، لا اختلاف بين نبي أو آخر في شيء منها، ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: «العقيدة ليس فيها نسخ، لا في شرائع الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد»، ولا يدخل العقيدة نسخ، النسخ يدخل على الأحكام فقط، فقد يأتي نبي وينسخ شيئًا من الأحكام التي أتى بها النبي الذي قبله، وأيضا قد يأتي النبي بشيء من الأحكام ثم تنسخ في شريعته هو؛ لكن العقيدة لا يدخلها نسخ، لا في شريعة النبي الواحد، ولا في شرائع الأنبياء عموما، أمور ثابتة لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل وكلمة الأنبياء فيها واحدة، وهذا هو معنى قوله -رحمه الله تعالى-: «**وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلي عباده**»، فالله ﷻ أرسل الرسل إلي عباده بهذا الدين، بتوحيده وإخلاص الدين له ﷻ.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، و مسلم (٢٣٦٥).

قال الإمام ابن حجر ؒ:«والعلات بفتح المهملة الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى»«فتح الباري شرح صحيح البخاري»(٦/ ٤٨٩).

[المتن]

قال: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق و نسرا».

[الشرح]

ثم قال رحمه الله: «**فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين**»، نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما جاء هذا المعنى في حديث الشفاعة: «**ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»(1)، وفي القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]، فنوح عليه السلام أول رسول أرسله الله إلي أهل الأرض، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: «**فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين**».

هنا يبين رحمه الله بهذه الإشارة إلي أساس المشكلة عند قوم نوح وأن سبب البلاء والشر الذي وقع فيه هؤلاء هو: الغلو في الصالحين، والغلو في الصالحين تجاوز الحد في حقهم، فيتجاوزون الحد في حق الصالحين من جهة تعظيمهم ورفع أقدارهم إلي أن يضفوا عليه شيئاً من خصائص الله -تبارك وتعالى- وما لا يليق إلا به -سبحانه وتعالى- وما لا يصلح إلا له.

قال: «**لما غلو في الصالحين**» وهذه إشارة منه -رحمه الله تعالى- إلي أساس المشكلة، قد قال عليه الصلاة والسلام: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ**

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِى الدِّينِ»(١)، فالغلو ولاسيما في الصالحين هو أعظم أسباب الفساد والوقوع في الشرك بالله -ﷻ-، ومن المعلوم أن للصالحين مكانة في نفوس الناس ومنزلة في قلوبهم اكتسبوها عبر أيام طويلة عاشوها مع الناس بالاخلاق الفاضلة والآداب الطيبة والمعاملات الحسنة والدعوة إلى الخير، فأصبح لهم في قلوب الناس مودة وأصبح لهم إلى نفوس الناس قرب ومكانة، والشيطان وجد هذا مدخلا على الناس لصرفهم عن دين الله -ﷻ- وعن التوحيد الذي خلقوا لأجله.

وقد جاء في «صحيح البخاري» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «..أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِى كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ»(٢).

فكان من أمره أنه لما مات عدد من الصالحين في قوم نوح وهم خمسة ذكرت أسمائهم في القرآن: وَدّ وسُوَاعً و يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا، لما مات هؤلاء الصالحون وقد كانت لهم في نفوس الناس مكانة علية ومنزلة رفيعة أتى الشيطان إلي أقوامهم بعد وفاتهم ونفوسهم متأثرة بفقدهم فدعاهم إلي أمرين:

١- دعاهم إلي العكوف عند قبورهم أي البقاء الطويل والمكث الطويل عند القبور، وبدأ معهم هذا الأمر بنية أو بقصد تذكر هؤلاء الصالحين، تذكر فضائلهم،

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي (٣٠٥٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٥٥).

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٠).

وتذكر دعوتهم، وتذكر نصائحهم، فدعاهم إلي العكوف، أن يبقى عند قبر الرجل الصالح وقتا طويلا، والقصد في هذا الأمر في بداية الأمر هو أن يذكر، قال لهم: «لا يليق بكم أن يموت وتنسونه تنشغلون بمصالحكم وحاجتكم؛ بل تخصصون أوقاتا تمكثون فيها مكثا طويلا عند قبورهم وتبقون بقاءً طويلا عند قبورهم من أجل ذكر فضائلهم ذكر دعواتهم ذكر نصائحهم ذكر مآثرهم إلي غير ذلك»، هذا الأمر الأول.

٢- والأمر الثاني -دعاهم إليه بعد الأمر الأول- أن يتخذوا لهم تصاويرًا؛ لأنه ربما يشق عليهم في كل مرة أو يتكرر منهم الذهاب للقبور والعكوف عندها، فأرشدهم إلي أمر آخر وهو أن يتخذوا لهم تصاوير تحقق لهم نفس الغرض وهو بقاء ذكر هؤلاء وبقاء الصلة بهؤلاء وعدم نسيانهم، قال: «تتخذون لهم تصاوير وتكون هذه التصاوير قريبة منكم، تكون مع الإنسان في بيته وتكون في تجارته، تكون في طريقه، تذكركم هؤلاء الصالحين».

فأرشدهم إلي هذين الأمرين: العكوف عند قبور الصالحين، واتخاذ التصاوير لهم، وترك هذا الجيل، اكتفى مع هذا الجيل بهذين الأمرين وتركهم إلى أن مات هؤلاء واندرس العلم، فأتى إلي الجيل الذي بعده وهذا يستفاد منه أن الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- طويل النفس في دعوته؛ يعني ممكن يضع الغرس الآن ولا يطلب ثمرته إلا بعد مائة سنة فما عنده مشكلة، يضع الغرس الآن وتكون الثمرة ليس للجيل القادم ولا الجيل الذي بعده ماعنده مشكلة، فعنده طول نفس في دعوته وإضلال الناس عن دين الله -ﷻ-، ولهذا اكتفى مع الجيل الأول بهذين الأمرين،

ثم لما مات هؤلاء ودُرس العلم ونُسي وقلّ في الناس العلماء، جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: «أتدرون لما كان آباؤكم وأجدادكم كانوا يعكفون عند تلك القبور ولماذا كانوا يتخذون لها التصاوير؟، هل تعرفون السبب؟، إن السبب في ذلك أنهم كانوا إذا استغاثوا بها أُغيثوا، وإذا سألوا بها أُعطوا»، فأدخلهم من هذه البوابة على الشرك، ولا يزال الشيطان ماضيًا في الطريقة نفسها لإدخال الناس إلي الشرك من الباب نفسه، مع أن الله تعالى ذكر لنا هذا الأمر في القرآن وبيّنه النبي ﷺ في السنة إلا أنه لا يزال أُناس كثيرون يدخلون إلي الشرك من البوابة نفسها ومن الطريق نفسه، العكوف عند قبور الصالحين واتخاذ التصاوير لهم، وإذا فتشت فيما يقع فيه الناس من شرك يقع فيه الناس في هذا الزمان أو قبل هذا الزمان لو فتشت عن أعظم سبب له تجد أنه من خلال هذين الأمرين: العكوف عند القبور، وهذا ينتظم تشييد القبور وزخرفتها ووضع الستور عليها والأشياء التي تدعوا الناس إلي العكوف عندها والبقاء، واتخاذ التصاوير، ولهذا خصهم النبي -خص هذين الأمرين- بالذكر في أحاديث كثيرة مثل: حديث علي قال ﷺ: **«أَنْ لاَ تَدَعَ تِمْثَالاً إِلاَّ طَمَسْتَهُ وَلاَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلاَّ سَوَّيْتَهُ»**[١] خص هذين الأمرين بالذكر، قال أيضـًا في الحديث الآخر: **«إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٢]، فذكر هذين الأمرين.

قال: **«فأولهم نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»**، **«غلوهم**

---

(١) رواه مسلم (٩٦٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

في الصالحين[١]»: عكوفهم عند قبورهم واتخاذ التصاوير لهم ومن ثم بالتوجه إليهم في السؤال والدعاء وطلب الغوث والإلتجاء، قال: «**لما غلوا في الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر**» هذه الأسماء الخمسة جاءت في موقع البدل من قوله في الصالحين فتكون تقرأ مجرورة «**ودٍ وسواعٍ ويغوث ويعوق ويعوق ونسرٍ**» بدل من قوله في الصالحين، فالصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح هو هؤلاء الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهذه الاسماء الخمسة أسماء رجالٍ صالحين، والطريقة التي سار الناس بسببها إلي عبادة هؤلاء الصالحين من دون الله هي التي شرحتها قبل قليل، قد قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح:٢٣-٢٤]، فهذه الأسماء الخمسة كما جاءت عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح عليه السلام لما ماتوا عكف الناس على قبورهم واتخذوا لهم تصاويرا إلي أن عُبدوا من دون الله -تبارك وتعالى-.

العجيب في الأمر أن هذا أول شرك وجد وهذا مدخله وهذا سببه وبعث أول رسول وهو نوح عليه السلام أول رسول بعث إلي أهل الأرض؛ بعث لتحطيم هذا الشرك وبيان بطلانه ومضى في قومه داعية إلي التوحيد ومحذرا من هذا الشرك، مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح:٥-٦].

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «الصالح هو الذي قام بحق الله، وبحق عباد الله»«شرح كشف الشبهات» (ص١٦).

فمضى فيهم سنوات طوال وعمر مديد يدعوهم وهم مصرون على هذا الشرك، إلى أن أمر الله -ﷻ- نوحا عليه السلام أن يصنع الفلك، وأخذ يصنع الفلك ويمر به قومه ويسخرون منه؛ لأنه يصنعه في الصحراء، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، ثم أذن الله -ﷻ- للأرض فأخرجت الماء، وأذن للسماء فنزل المطر، حتى طغى الماء على الأرض وغطى الجبال ولم ينجوا من الماء إلا من كان في السفينة، وأصبحت السفينة مضرب مثل في الحق ولزومه، مثل ما قال الإمام مالك -رحمة الله عليه- قال: «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق»[1]، فلم ينجو إلا من ركب السفينة، وعم الماء الأرض وغطى الجبال وهلك كل من على وجه الأرض، وقد ذكر في كتب التاريخ أن هذه الأصنام الخمسة مع الطوفان والمياه حملت المياه هذه الأصنام وألقتها في جدة على شاطيء البحر وغطتها الرمال وبقيت مدفونة إلى أن جاء في زمن ما قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام بوقت ليس بطويل عمرو بن لحي، فقد جاء في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: **«وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِى تَأَخَّرْتُ، وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِى سَيَّبَ السَّوَائِبَ»**[2]، وجاء في بعض الروايات أنه أول من غير دين إبراهيم، وذُكر أن لعمرو بن لحي (رئي) من الجن وكان صاحب كهانة فأتاه رئي من الجن وهتف به أن: «عَجِّلِ السَّيْرَ وَالظَّعْنَ مِنْ تِهَامَةَ، بِالسَّعْدِ وَالسَّلَامَةِ، إِئْتِ جُدَّةَ، تَجِدْ فِيهَا أَصْنَامًا مُعَدَّةً، فَأَوْرِدْهَا

---

(١) «ذم الكلام وأهله» (٨٧٢).

(٢) رواه البخاري (١٢١٢)، ومسلم (١٢٧٧).

تِهَامَةَ وَلَا تَهَبْ، ثُمَّ ادْعُ الْعَرَبَ إِلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ»[(١)]، إلى آخر ما سمعه، فذهب إلي جدة وحفر عن تلك الأصنام وجاء بها ودعا إليها العرب فأجابوه، وعبدوا نفس الأصنام: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وأضافوا إليها أيضـاً أصناما كثيرة، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١][(٢)]، فكسر الأصنام، ومن جملة الأصنام التي كسرها عليه الصلاة والسلام هذه الأصنام الخمسة، ولهذا قال الشيخ: «**وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه لما غلو في الصالحين ودًّا وسواعًا ويغوثَ ويعوقَ ونسرًا، وآخر الرسل -محمد ﷺ-، وهو الذي كسّر صور هؤلاء الصالحين**»[(٣)]؛ أي المعبودة على عهد نوح عليه السلام، وهي صور ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليق عظيم له على هذا الموضع يقول: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزول وتنمحي»، هذه الأصنام التي وجدت، متى كُسرت؟ وُجدت قبل زمن أول رسول يُبعث، وبُعث للتحذير منها، ولم تُكسر إلا زمن آخر رسول، ثم قال رحمه الله:

---

(١) انظر: «الأصنام» (ص١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨٠).

(٣) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وهكذا ينبغي ويجب على طلبة العلم والدعاة أن يهتموا بهذا الأمر وأن يجعلوا الدعوة للتوحيد وإنكار الشرك ودحض الشبهات من أولويات دعوتهم فهذا هو الواجب وهذه دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأن كل أمر يهون دون الشرك، فما دام الشرك موجودا فكيف تنكر الأمور الأخرى!» «شرح كشف الشبهات» (ص٢٤).

«فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بُعِثَ محمد ﷺ وكسرها، فالشرك إذا وقع عظيم رفعه وشديد، فإن نوحا مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، أخذ ألف سنة إلا خمسين عامًا ما أجابه إلا قليل، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بعث محمد ﷺ وكسرها فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعُب زواله، كيف أن أصناما عبدت على وقت أول رسول وما كسرها إلا آخرهم»[1] هذا كلام الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله.



(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ٣١).

[المتن]

قال: «**وآخر الرسل محمد ﷺ، وهو الذي كسّر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلي أُناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله؛ ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله ﷻ، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله -تعالى- ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأُناس غيرهم من الصالحين**».

[الشرح]

قال -رحمه الله تعالى-: «**وآخر الرسل محمد ﷺ**»، آخرهم: أي خاتمهم الذي ختم به النبيون، كما قال الله ﷻ ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، **عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ «إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»**[(١)].

«**وآخر الرسل محمد ﷺ، وهو الذي كسّر صور هؤلاء الصالحين.**» أي: يوم فتح مكة، لما فتح مكة ودخلها ﷺ فاتحًا أخذ يحطم الأصنام بيده ويكسرها ﷺ بيده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، فطهّر الله ﷻ ببعثته ﷺ ودعوته ﷺ البيت من الأصنام ومن المشركين ومن أعمال

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

المشركين، فهدى الله ﷻ به من الضلالة، وبصر به من العمى، وفتح به قلوبا عميًا وآذانا صمًّا وقلوبا غلفًا -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: «**وهو الذي كسّر صور هؤلاء الصالحين**»، «**هؤلاء الصالحين**» أي: هؤلاء الخمسة وما أضيف إليها من الأصنام الكثيرة التي كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله ﷻ؛ داخل الكعبة وأيضًا حول الكعبة، وهنا أيضًا ندرك نعمة الله -ﷻ- علينا بأن أكرمنا ببعثة هذا النبي ﷺ، الأصنام كانت داخل البيت؛ داخل بيت الله، انظروا إلى التحول إلي الوثنية والضلال، الأصنام جعلوها بسبب شبهات أهل الباطل وضلالهم وإضلالهم جعلوا الأصنام داخل بيت الله، وجعلوها أيضًا مُحتفَّة ببيت الله، فمَنّ الله ﷻ وأكرمنا ببعثته ﷺ فحطم الأصنام كما أنه حطم الشرك، وأنقذ الله -ﷻ- به من شاء من عباده من الشرك وهداهم إلي صراط الله المستقيم، وينبغي أن يستشعر المسلم عِظَم هذه النعمة ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]، مِنَّة من أعظم المنن وأجلِّها أن بعث فينا -ﷺ- هذا الرسول الأمين -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: «**أرسله الله إلي أُناسٍ**» -وانتبه إلي هذه الفائدة العظيمة- قال: «**أرسله الله إلي أُناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا**» هذه كلها أمور كانوا يفعلونها، الذين بعث فيهم ﷺ شأنهم كما وصف شيخ الإسلام ﵀، كانوا: «**يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا**»، وأيضًا يعرفون بصلة الأرحام

ويعرفون بإكرام الضيف ويعرفون أيضاً بأخلاق فاضلة ربما لا ترى بعضها في بعض المسلمين، واسمع إلى أحد الشعراء الجاهليين المشركين حيث يقول في أبيات له:

وأَغضُّ طَرفي إن بَدَت لي جارتي حتـى يُـواري جارتـي مأواهـا

وهو شاعر جاهلي!

الآن يوجد في بعض المسلمين من يتلصص على بيوت الجيران حتى ينظر إلى جيرانه، فكان عندهم أمور أخلاق وكرم، عندهم عبادة، عندهم ذكر، عندهم حج يحجون ويلبون ويقفون بعرفة ومزدلفة يقومون بهذه الأعمال.

قال: «**أرسله الله إلى أُناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا**»

وهذا الذي قال:

وأَغضُّ طَرفي إن بَدَت لي جارتي حتـى يُـواري جارتـي مأواهـا

هو الذي يقول أيضاً لمعشوقته ومحبوبته:

يـا عَبلُ أينَ مـن المَنيَّةِ مَهْربي إن كانَ ربـي في السَّماءِ قَضاها

فيؤمن بالقضاء، وأن القضاء بيد الله، وأن الله -ﷻ- في السماء، كل هذه يؤمن بها، يؤمن بأن الله في السماء، وأن القضاء -ﷻ- بيده، «إن كان ربي في السماء قضاها»، وعندهم أخلاق، عندهم عبادات، عندهم ذكر لله -ﷻ-، إذاً ما هي مشكلتهم -مادام أن هذه الأمور كلها موجودة-؟، وأيضاً يقرون بأن الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هو الله، ويقرون بأسماء وصفات لله ﷻ يؤمنون بها، ويؤمنون بعلوه على خلقه، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي «يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ

الْيَوْمَ إِلَهًا؟»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتًّا فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟». قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[1]، رب العالمين يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]،كانوا يقرون أن الله في السماء، ويؤمنون بالقضاء، يؤمنون بأن الرب الخالق الرازق، وأيضـًا يعبدونه ويحجون ويصلون ويقفون بالمشاعر، هذه الأمور كلها يقومون بها.

فالمشركين الذين بعث فيهم ﷺ وبعث في قتالهم يقومون بهذه الأمور، ولهذا ننتبه جيدا وأنه يجب على المسلم أن يعرف دين المرسلين ودين المشركين، ومن لم يعرف دين المشركين ربما عمل شيئـًا من أعمالهم، وهو يظنها أنها من دين المرسلين، وهذا الذي وقع فيه عباد القبور وأرباب الباطل في قديم الزمان وحديثه.

قال: «**أرسله الله إلى أُناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا؛ ولكنهم...**» -هنا تعرف المخالفة التي وقع فيها هـؤلاء- «**ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ﷻ، يقولون: نريد منهم التقرب إلي الله -تعالى- ونريد شفاعتهم عند الله**» أي: عندهم عبادة: حج، صدقة، ذكر لله، وأخلاق كالكرم، وصلة أرحام، وعندهم إقرار بأن الرب الخالق الرازق هو الله، وإقرار بالقضاء والقدر، الإيمان بعلو الله على خلقه، أمور موجودة؛ لكن المشكلة التي بعث النبي ﷺ لكشفها وبيان بطلانها وتحذيرهم منها وإنذارهم من مغبتها هي

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

هذه، قال: «**ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده**».

«**نريد منهم التقرب إلى الله**» أي: نريد منهم أن يقربونا من الله؛ لأن منزلتهم عند الله أعظم من منزلتنا، ونحن عندنا تقصير وعندنا خطأ وعندنا خلل عندنا ذنوب، وهؤلاء لهم مكانة عند الله ولهم منزلة ولهم قدر عند الله -سبحانه وتعالى-، فنحن نريد منهم أن يقربونا إلى الله، قال الله عز وجل عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، هذا هو قصدنا، قصدنا من عبادتهم ودعائهم وسؤالهم والتوجه إليهم أن يقربونا إلى الله، هذا معنى قوله: «**يقولون: نريد منهم التقرب إلي الله**».

والأمر الثاني: قال: «**ونريد شفاعتهم عنده**»، مثل ما قال الله عز وجل عن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، قالوا: نحن نريد شفاعتهم عنده؛ أي أن يشفعوا لنا عند الله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا يتجهون إليهم مباشرة: (مدد يا فلان)!، (ادركني)!، (الحقني)!، (اشفع لي)!، (أعطني)!، (إن لم تنقذني من الذي ينقذني)!، (إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي)!، (مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم)! إلي غير ذلك من الكلام، التجاء إلي مخلوقين لله -تبارك وتعالى- بقصد أن يقربوهم إلى الله -تبارك وتعالى-، وبقصد أن يكونوا شفعاء لهم عند الله -سبحانه وتعالى-.

قال: «**مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأُناس غيرهم من الصالحين**»، والشيطان وجد هذا هو المدخل الأبلغ تأثيرا في نفوس الناس، لأن مكانة الأنبياء والصالحين والملائكة مكانتهم في قلوب الناس عظيمة ومنزلتهم علية فدخل من هذا المدخل،

وهو أمر محبب إلى نفوس الناس وهو محبة الصالحين ومكانته، قال: «**مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأُناس غيرهم من الصالحين**»، وفي الشرح يقول الشيخ محمد بن إبراهيم ﵀، يقول: «وأهم شيء معرفة دين المرسلين فيتبع، ومعرفة دين المشركين والشياطين فيجتنب، فإن من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام، وللشيخ -يعني محمد بن عبد الوهاب ﵀- مؤلف في مسائل الجاهلية»[1].



---

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ٣٢).

[المتن]

قال المؤلف ﵀: «فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ يجدد لهم دينهم دين أبيهم إبراهيم، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى، لا يصلح منه شيءٌ لغيرِه لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أنَّ الله الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأراضين السبع ومن فيها، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- بعد أن بدأ بالمقدمة التي مرت معنا في كتابه (كشف الشبهات)؛ والتي أوضح فيها اتفاق النبيين على الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وإخلاص الدين له، وكسر الأصنام وتحطيمها، وكسر صور الصالحين التي يتعلق بها من أشرك بغير الله ﷻ، وأن من أُرسل فيهم هؤلاء الأنبياء أُناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا لكنهم جعلوا بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ﷻ تقربهم بزعمهم إلى الله زُلفى وتكون لهم شفعاء عند الله ﷻ فيقول ﵀: **«فبعث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم»**؛ لأن العرب كانوا على دينه، وكانوا حنفاء على دين أبيهم إبراهيم -عليه صلوات الله وسلامه- إلى أن حصل فيهم التحول من التوحيد إلى الشرك؛ بسبب عَمرو بن لُحَيْ الذي سَيَّبَ السوائب وغيَّر دين إبراهيم.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ

يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»(١) وغَيَّرَ دين إبراهيم، والذي جاء بالأصنام من جدة ونشرها بين العرب ودعاهم إلى عبادتها والاعتقاد فيها، فتحولوا من التوحيد إلى الشرك، فبُعِثَ محمد ﷺ لإعادتهم إلى التوحيد، لإعادتهم إلى الاعتقاد الصحيح الذي هو دين إبراهيم الخليل إمام الحنفاء -عليه صلوات الله وسلامه-.

قال: «**يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم**»، والتّجديد يكون لما انْدرس من أمور الدين ولما غُيِّر وبُدِّلَ منه، بأن يبين لهم الحق التوحيد الخالص والإيمان الصافي ويحذرهم عليه الصلاة والسلام من الشرك بالله عز وجل.

قال: «**ويخبرهم**» أي: يخبر هؤلاء المشركين الذين بُعِثَ فيهم عليه الصلاة والسلام «**أن هذا التقرب والإعتقاد**» أي: الذي يعتقدونه في الأصنام والأنداد وما يصرفونه لها من أنواع التقربات وأنواع العبادات، من النذر والذبح والدعاء والاستغاثة وغير ذلك، قال: «**يُخبرهم أن هذا التقرب والإعتقاد محْضُ حق الله**» أي: خالص و حق الله، ليس لأحد فيه شَرِكة، ولا يستحق أحد منه شيئا؛ لأنه حق الله -تبارك وتعالى- وحده، فبُعِثَ عليه الصلاة والسلام ليبين لهم أن هذه الأمور التي يمارسونها مع الأصنام والأوثان هي حق الله عز وجل، وليس لهذه الأصنام أي أحقية فيها سواء كانت صور صالحين أو غير ذلك؛ لأنها محض حق الله؛ أي: حق خالص لله عز وجل، لا يستحقها أي مخلوق كائناً من كان، لا مَلَك مُقرَّب ولا نبي مرسل ولا وليٌّ من الأولياء ولا صالح من الصالحين فضلاً عن غيرهم، هذه أمور لا يستحقها إلا الخالق العظيم والرب الجليل -تبارك وتعالى-.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٢١)، ومسلم (٩٠١).

«**أن هذا التقرب**» أي: الأعمال التي يقدمونها للأصنام متقربين بها إليها، من أجل أن تقربهم إلى الله ﷻ من ذلكم الذبح والنذر والدعاء والاستغاثة وغير ذلك، «**والاعتقاد**» أي: اعتقادهم في هذه الأصنام أنها وسائط بينهم وبين الله تقربهم إلى الله ﷻ وتدنيهم منه، فهم يعتقدون فيها ذلك؛ ولهذا يدعونها وينذرون لها ويذبحون لها ويصرفون لها أنواعاً من العبادات بهذا الإعتقاد الذي قام في قلوبهم تجاه هذه الأصنام.

قال: «**لا يصلح منه**» -أي التقرب والإعتقاد- شيءٌ لغير الله، لا يصلح شيء منه لغير الله؛ أي: أنه حق الله ﷻ، وهنا أيضاً يُنبَّه إلى أنه لا يشفع لمن يقدم هذه الأعمال التي لا تصلح إلا لله لغيره، لا يشفع له أن يسميها أو يسميها له أشياخه بغير اسمها، كأن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله، ويطلب المدد والعون من غير الله، ويقول: «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»، فهذا لا يشفع له، لا يشفع له صرف حق الله لغيره تحت مسميات أيًّا كانت، كما نبّه العلماء -رحمهم الله- في هذا المقام: (**تغيير الأسماء لا يغير الحقائق والمسميات**)، وعبر التاريخ يمكر أهل الباطل بالناس مكرًا كُبَّارًا من هذا الباب، يغيرون أسماء المحرمات الشرعية والمناهي في الكتاب والسنة، بأسماء أخرى حتى تنفُق عند الناس وعند الجُهال، وهذا كثير جداً كتسمية الربا بالفوائد، وتسمية الرشوة بالإكرامية، وتسمية المخدرات والمسكِرات بالمشروبات الروحية، إلى غير ذلك من الأسماء التي يُمَكِّنُ أصحاب الباطل بطرحها للباطل في نفوس الناس، فالشاهد أن تغيير الأسماء لا يغير الحقائق، وهؤلاء وإن سموا أعمالهم شفاعة أو توسلاً أو نحو ذلك من الأسماء هو في الحقيقة شرك بالله،

اسمه الشرعي؛ واسمه الحقيقي الشرك بالله، ومن يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويصرف أنواعاً من العبادة لغير الله، اسم عمله الشرك، هذا هو اسمه، ولا يتغير عن حقيقته وإن سمي توسلاً أو سمي شفاعةً.

قد قال المشركون قديماً -كما ذكر الله عنهم في القرآن- قال ﷻ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، فهذا القول لا يسوِّغُ لهم هذا الباطل، ولا يزال أهل الضلال والإنحراف في هذا الباب يسمون هذه الأعمال الشركية والممارسات الشركية توسلاً أو شفاعةً أو نحو ذلك من الأسماء.

قال: «**لا يصلح منها شيء لغير الله، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل**» خص بالذكر الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين؛ لأنهم أفضل خلق الله، أفضل عباده، ملائكته المقربون وأنبيائه المرسلون هم أفضل خلق الله ﷻ، وأفضل عباده، فإذا كان هؤلاء الصفوة وهؤلاء العباد المصطفون لا أحقية لهم في العبادة ولا في شيء منها، فإن غيرهم من باب أولى قال الله ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:٧٥]، فهؤلاء الصفوة من عباد الله ﷻ لا يستحقون من العبادة أيّ شيء، فغيرهم من باب أولى وأحرى؛ ولهذا فإن الشيخ -رحمه الله تعالى- عقد في كتابه التوحيد بابين متتاليين:

الأول: بين فيه أن الأنبياء لا يستحقون شيئا من العبادة.

والباب الآخر: بين فيه أن الملائكة لا يستحقون شيئا من العبادة.

باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١]،

والباب الثاني: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

بيّن في الأول: أن الأنبياء ليس لهم في العبادة أي حق، وأورد قول الله ﷻ لنبيه: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وأورد من النصوص والشواهد ما يدل على ذلك، وأورد أيضا في حق الملائكة أن الله ﷻ إذا تكلم بالوحي خرت الملائكة صَعِقة خَضَعاناً لقوله ﷻ، حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم أي قلوب الملائكة، ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ [سبأ:٢٣] فهذا يبين أن الملائكة مع كِبَرِ خَلقِها وشدة قوتها لا تستحق من العبادة أي شيء، وشأنها مع الله ﷻ هو هذا أنها تفزع وتخر صَعِقةً ولا تملك من أمرها وأمر غيرها شيئ، الأمر كله لله ﷻ، وهكذا الشأن في الأنبياء، وإذا كان الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون لا يستحقون من العبادة أي شيء، فإن غيرهم من باب أولى وأحرى، قال: «**لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، فضلا عن غيرهما**».

قال: «**وإلا فهؤلاء المشركون**» أي: الذين بُعِثَ فيهم ﷺ مُقرُّون «**يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده**»، هؤلاء المشركون مُقرُّون أي: مُقرُّون لله ﷻ بالربوبية، مُقرُّون له بذلك، التفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإذا سئلوا من خلقكم؟ من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ من خلق الجبال؟ من خلق الأنهار؟ من الذي بيده أزِمَّة الأمور؟ كل ذلك يقولون: الله، فهم مُقرُّون لله -تبارك وتعالى- بالربوبية، ويشهدون أنه -تبارك وتعالى- رب العالمين، ولا يعتقدون في الأصنام أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت

وتتصرف في هذا الكون، لا يعتقدون ذلك، يعتقدون أن هذا كله بيد الله ﷻ، يقرُّون بذلك، والآيات على ذلك كثيرة وسيأتي بعضها عند المصنِّف -رحمه الله تعالى-.

مُقرُّون «**يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا الله، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن، والأراضين السبع ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره**»، هذا من الأمور التي يعتقدها المشركون الذين بُعِثَ فيهم ﷺ، يعتقدون ذلك كله؛ بل وأيضاً -وهذا نبه عليه المصنِّف قريباً- يعبدون الله: يحجون ويتصدقون ويصلون الأرحام ويطعمون الطعام ويتصفون بأخلاق فاضلة، عندهم مثل هذه الأشياء، ومشكلتهم -كما نبهنا على ذلك - في توحيد العبادة، لا يجعلونه خالصاً لله، نعم يعبدون الله؛ لكن لا يجعلون العبادة خالصة لله -ﷻ-؛ بل يجعلون مع الله الشركاء في العبادة، ولا يجعلون مع الله الشركاء في الربوبية، الربوبية يرون ويعتقدون أن الله هو المتفرد بها، إذا قيل لهم من خلقكم؟ يقولون الله، لا يقولون الله والأصنام، من يرزقكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يحييكم ويميتكم؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام، من الذي يدبر الأمر؟ يقولون: الله، لا يقولون الله والأصنام.

وإذا قيل لهم من تعبدون؟ ومن تلجؤون إليه في دعائكم وسؤالكم، وفي طلبكم؟ لايقولون: الله والأصنام!

وهذا سيأتي دلائله وشواهده من القرآن، أما في توحيد العبادة من تعبدون؟ لا يقولون الله وحده، كما يقولون ذلك إذا قيل: من خلقكم؟ من رزقكم؟ من

يحييكم؟ من يميتكم؟ يقولون الله وحده، لا يقولون: الله والأصنام، فإذا قيل: من تعبدون؟ يقولون الله والأصنام.

ومر معنا الحديث: «**يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟**»، قَالَ أَبِي: سَبْعَةً سِتًّا فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟**»، قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[(١)].

ولو قيل لهذا: كم خالق لك؟ كم رازق لك؟ كم مدبر لأمرك؟ ماذا يقول؟ يقول: واحد، الذي في السماء هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يدبر الأمر؛ لكن العبادة هي التي عندهم فيها خلل، والخلل الذي وقع فيه هؤلاء في باب العبادة من جهة اعتقادهم أن هذه الأصنام وسائط بينهم وبين الله ﷻ تقربهم إلى الله، مثل ما يفعل سواءً بسواء عُبَّاد القبور الذين يعكفون عندها ويذبحون لها وينذرون لها النذور ويبكون عندها ويتذللون ويخشعون ويخضعون، فإذا قيل لهم لماذا هذه الأعمال؟ يقولون: هؤلاء لهم مكانة عند الله ومنزلة عند الله ونريد أن يقربونا إلى الله زلفى، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

قال: «**يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي إلا هو، ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو**»، لاحِظ عبارة الشيخ دقيقة، قال: «**أن الله هو الخالق وحده**»، هكذا يعتقدون أن الله الخالق وحده لا شريك له؛ أي لا شريك له في الخلق، حتى إنهم كانوا يقولون في تلبيتهم في تقرير هذه الحقيقة،

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب، وأحمد (٤/ ٤٤٤)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٥٥)، والبزار (٣٥٨٠)، وإسناده جيد.

كانوا يقولون في حجهم وفي تلبيتهم: «لبَّيك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»[1]؛ أي: أن هذا الذي نعبده معك ونتخذه شريكًا لك هو مملوك لك، أنت تملكه وهو لا يملك، هكذا يعتقدون، يعتقدون أنها مملوكة لله، مخلوقة لله، وأن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر للأمر هو الله وحده -ﷻ- لا شريك له، أيضًا السماوات ومن فيهن، الأرضون ومن فيهن كلهم عبيد لله ﷷ وتحت تصرفه، وقوله: «**كلهم عبيده**» المراد بالعبودية هنا العبودية العامة، عبودية الذل والخضوع لأمر الله ﷷ، وقضائه وقدرته -ﷻ- لهم شاملة، ومشيئته فيهم نافذة، وهم طوع تسخيره وتدبيره، له الأمر -ﷻ- من قبل ومن بعد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكلهم عبيد الله أي: تحت تصرفه وتدبيره، لا خروج لأحد منهم عن تدبير الله ﷷ وتسخيره سبحانه، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

قوله: «**وتحت تصرفه وقهره**» توضيح لقوله: «**كلهم عبيده**» أي: أنهم مماليك له مربوبون مسخَّرون يتصرَّفُ فيهم -ﷻ-كيف يشاء ويحكم -ﷻ- فيهم بما يريد، لا رادَّ لحكمه ولا معقب لقضائه ﷻ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٠٣)، و«البداية والنهاية» (٢/ ٢٣٧).

[المتن]

قال: «**فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ [واستحل دماءهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم] يشهدون بهذا، [فإذا أردت الدليل] فاقرأ قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١]، **وقوله تعالى:** ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]، **وغير ذلك من الآيات**».

[الشرح]

جادة الشيخ رحمه الله هي جادة أهل السنة والجماعة: اتباع الدليل وقُفُو النصوص، ولا يقول ما يقول إلا مستنداً على دليل، ولهذا درج أهل السنة في كتب الاعتقاد وعموم ما يؤلفون ذكر الحكم أو الأمر مضمون إلى دليله من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، خلافاً لما عليه أهل الأهواء وأهل الباطل الذين لا تراهم يعوّلون على كتاب الله ولا على سنة نبيه ﷺ؛ بل يتخذون لأنفسهم مصادر شتى ومنابع مختلفة عنها يأخذون اعتقادهم ويتلقون دينهم، أما أهل السنة فاتخذوا إمامهم كتاب الله وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، فلما ذكر هذه الحقيقة في شأن المشركين أنهم يشهدون أن الخالق وحده الله، الرازق وحده الله، المحي هو الله، المميت هو الله لا

شريك له في شيئ من ذلك، قال: إذا أردت الدليل على أن المشركين يشهدون بهذه الأمور اقرأ هذه الآيات، ليس أمراً جاء به من عنده رحمه الله أو ادعاه، وإنما أمر هو مقرر في كتاب الله -عزوجل-، «**إذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ [واستحل دماءهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم] يشهدون بهذا**»، «**يشهدون بهذا**» الإشارة إلى ما سبق، وهو أنهم يقرون بأن الخالق الرازق المحي المميت المدبر هو الله، هؤلاء الذين يعتقدون هذا الاعتقاد قاتلهم النبي ﷺ، وهنا تعجب غاية العجب إذا علمت أن في أمة محمد ﷺ من يعتقدون أن معنى (لا إله إلا الله): لا خالق إلا الله، وهذا من غاية العجب!، ويثبتونه في كتب تُقرأ وتُحفظ وتروج بين الناس: أن لا إله إلا الله معناها لا خالق إلا الله!، لو كان معناها لا خالق إلا الله لما نشب قتال ولا وُجد خصومة بين النبي ﷺوبين المشركين ولم تُرَق دماء ولم تذهب أرواح، إذا كان معنى لا إله الله إلا الله: لا خالق إلا الله، هل يتردد المشركون في قبول ذلك؟، فهذا من غاية العجب!، وهو أمر يأتي التنبيه عليه لاحقاً.

الشاهد: أن المشركين كانوا يعتقدون أن الخالق الرازق المحي المتصرف في هذا الكون هو الله وحده لا شريك له، والدلائل على ذلك كثيرة، قال: «**إذا أردت الدليل على ذلك فاقرأ قوله تعالى:** ﴿ قُلْ ... ﴾» أي: أيها النبي لهؤلاء المشركين، قل لهم: «﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾»، ماذا سيكون جوابهم؟ «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾» أي: الله وحده هو الذي تفرّد بهذه الأشياء، تفرّد برزقنا من السماء والأرض، تفرد بملك السمع والبصر، تفرّد بإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي،

تفرّد بتدبير الأمور، لا يعتقدون في أصنامهم أنها تفعل بشيء من ذلك أو تقوم بشيء من ذلك، ولهذا قال: «﴿فَسَيَقُولُونَ﴾أي: سيقول لك المشركون عندما تسألهم هذا السؤال: «﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الله وحده، فقل لهم حينئذٍ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟!، مادمتم تعتقدون هذا الاعتقاد وتقرون هذا الإقرار، وتؤمنون هذا الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] معنى الآية كما قال ابن عباس وغيره: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ قال ﵄: «من إيمانهم، إذا قيل لهم: مَن خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون»[1].

﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ أي: معه في العبادة، فقل لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟!؛ أي: ألا تتقون الله!، تعلمون أنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المحيي، وحده المميت، وحده المدبر للأمر، وتتخذون معه شركاء ألا تتقون الله، قال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟!؛ أي: أفلا تتقون الله ﷻ وتطَّرِحُون هذا الشرك الذي تمارسونه، والباطل الذي تقترفون، وتخلصون لله رب العالمين التوحيد فلا تعبدون إلا إياه ولا تسألون إلا إياه، أفلا تتقون؟!.

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون:٨٤] أي: قل أيها النبي لهؤلاء المشركين الذين يتخذون الأنداد قل لهم: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؟ مَن المالك للأرض؟ من المدبر للأرض؟ من الذي سخر الأرض؟، من الذي أوجد الأرض؟، ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ ﴾ أي: من الناس والدواب

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٨٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٢٠٧).

والأشجار والمخلوقات، لمن هذه الأشياء؟ هل هي لهذه الأصنام التي تعبدونها؟ سيقولون: لا، لله، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون:٨٥] هذا جوابهم وهذه عقيدتهم وهذا هو إيمانهم وهذا الذي هو يعتقدونه في قرارة نفوسهم كما أخبرنا بذلك رب العالمين -ﷻ-، وكما أخبرنا من بَعَثَ في هؤلاء محمَّدًا ﷺ رسولاً وبشيرًا ونذيرًا، أخبرنا عنهم -سبحانه- أنهم إذا سئلوا هذه السؤالات يقولون: الله، ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٥]، أين تذكرهم؟! أين تفكرهم في الأمر؟!، أين تدبرهم للحقيقة؟!، لماذا تتخذون الأصنام؟! لو تذكرتم قليلاً وتدبرتم الأمر قليلاً لوجدتم أن هذه الأصنام لا تستحق شيئ من العبادة، الذي يستحق العبادة كلها من تفرد بخلق هذه الأشياء، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢]، ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ أي: شركاء في العبادة، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا خالق لكم غير الله، هذا هو معنى الآية، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: أي: تعلمون أنه لاخالق لكم غير الله.

قال: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٥-٨٧] أي: ألا تتقون الله ﷻ بترك الأنداد والبعد عن اتخاذ الشركاء وأنتم تقرون أن الله ﷻ وحده رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

قال ﷺ: «**وغير ذلك من الآيات**»، قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٩] أي: كي صرفون عن طاعته -ﷻ- وتوحيده مع إيمانكم وإقراركم واعترافكم بأنه المتفرّد بخلق هذه الأشياء وتدبير هذه الكائنات لا شريك له؟!، «**وغير ذلك من الآيات**» أي الآيات الدالة على إيمان المشركين وإقرارهم بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله -ﷻ- وحده.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال رحمه الله: «**إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدْخلهم في التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)، كما كانوا يدعون الله -سبحانه وتعالى- ليلًا ونهارًا، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله عز وجل ليشفعوا لهم، أو يدعو رجلاً صالحا مثل: اللات، أو نبيا مثل: عيسى**».

[الشرح]

قال: «**إذا تحققت**» أي: كان عندك علمًا متحققًا وأمرًا ثابتًا راسخًا «**أنهم مقرون بهذا**» أي: مقرون بربوبية الله، وخلقه للمخلوقات، وإيجاده للكائنات، إذا تحققت من ذلك، وأقول هنا مُنبهًا: ومن الذي لا يتحقق من ذلك وآيات الله تُتْلى بينةً في تقرير هذا الأمر وبيان هذه الحقيقة، قال: «**إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدْخلهم في التوحيد**» أي: هذا الإقرار منهم لله بالربوبية لم يدخلهم في التوحيد، لم يكونوا موحدين بذلك؛ بل وُصِفوا مع وجود هذا الإقرار عندهم بأنهم مشركون، ولا يوصفون بأنهم من أهل التوحيد، مع إقرارهم بأنه وحده الخالق، وحده الرازق، وحده المُحيي المميت، يوصفون بأنهم من أهل الشرك، لأن هذا الإقرار وحده لا يُدخل الإنسان في التوحيد، الإقرار لله بالربوبية في الخلق بالإحياء بالإماتة وحده لا يدخل الإنسان في التوحيد، قال: «**إذا تحققت أنهم مقرون بهذا، وأنه لم يُدْخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ**» والمُراد بـ«**التوحيد الذي دعاهم إليه**

رسول الله ﷺ» هو توحيد الله في العبادة الذي كان عندهم خلل فيه، فكان يدعوهم إلى ذلك، وكان يقول لهم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[١] أي: وحّدوا الله ﷻ في العبادة، اعبدوا الله ولاتعبدوا غيره، اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئـًا، قال: «**وأنه لم يُدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة**» وهذا أمر ينبّه عليه ويؤكّد عليه كثيراً ؒ فالتوحيد الذي جحده المشركون هو توحيد العبادة، ليس التوحيد الذي جحده المشركون توحيد الربوبية؛ بل الشواهد والدلائل كثيرة على أن المشركين مُقرِّين بتوحيد الربوبية، مُعترفين بأن الرب الخالق الرازق المُنعم هو الله -ﷻ-، مع أن بعض المُنظِّرين لعبادة القبور في زماننا هذا وقبله، يقولون: إن قول المشركين عندما يُسألون من الذي خلقكم من الذي رزقكم، من الذي يحييكم؟ قولهم: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، هذا لا يقولونه على وجه الإقرار، وإنما على وجه المجادلة! وأن المشركين في الحقيقة لا يُقرّون بالربوبية، لماذا؟ لأن التوحيد عند هؤلاء القبوريين هو: الإقرار لله بالربوبية وهو معنى لا إله إلا الله!، وإذا ثبت أن المُشركين مُقرِّين أصبح توحيدهم وتوحيد المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ سواء، إقرارهم في الربوبية وأما جانب العبادة فهو مُضَيَّع عندهم وعند أولئك، ولهذا حاول بعض مُنَظِّري هؤلاء أن يحرفوا في معاني هذه الآيات ودلالاتها؛ من أجل أن يوجدوا فرقـًا بينهم وبين أولئك، مع أن الأمر الذي عليه هؤلاء هو الذي

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

عليه أولئك، يقرون لله بالربوبية؛ ولكن جانب العبادة يجعلون مع الله -ﷻ- فيه الشركاء، قال: «**وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**» أي: الاعتقاد في الأولياء، الاعتقاد في من يسمونهم بالسَّادة، الاعتقاد في الأشياخ؛ في الصالحين، فـ«**التوحيد الذي جحدوه**» أي جحده المشركون هو: «**توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**»، مثل أن يقول قائل هؤلاء: «أنا أعتقد في الشيخ فلان، أو أعتقد في الولي الفلاني، أو أعتقد في السيّد الفلاني، أعتقد أنه رجائي وأملي ومنجدي ومنقذي وشفيعي وواسطتي أعتقد ذلك، وبناء على هذا الاعتقاد يوجد التقرُّب، التقرب إليه بالنذور، بالذبائح بالقرابين، بالبكاء، بالعكوف عند قبره، عند ضريحه بالمناجاة بالطلب، بالتوسلات إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي، إن لم تُنقذني»!!، تبدأ هذه الأمور التي تترتب على هذا الاعتقاد، «**الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)**» أي: الاعتقاد في الأولياء، أو في الساده أو في المقبورين أو في الأضرحة أو نحو ذلك، والذي يُبنى عليه أنواع التقربات كما كانوا يدعون الله ليلاً ونهاراً، قوله: «**كما كانوا يدعون الله ليلًا ونهارًا**» أي: المشركين الذين بُعِث فيهم ﷺ «**كانوا يدعون الله ليلًا ونهارًا**» أي: من الأعمال التي يقومون بها أنهم يدعون الله، يسألون الله، يطلبون حاجاتهم من الله -ﷻ-؛ ولكن هل هذا الدعاء يخلصونه لله؟ أم أنهم يدعونه ويدعون معه غيره؟ يسألونه ويسألون معه غيره؟، يلتجئون إليه ويلتجئون معه إلى غيره؟، ما شأنهم في هذا الباب، قال: «**كما كانوا**» أي: المشركون الذي بُعِث فيهم ﷺ: «**يدعون الله ليلًا ونهارًا، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ﷻ، أو يدعو**

رجلاً صالحًا مثل: اللات، أو نبيًا مثل: عيسى»، فهنا المشكل: «**يدعون الله ليلًا ونهارًا**» يتوجهون إلى الله بالدعاء بالسؤال بالطلب بالالتجاء؛ لكنهم لا يُخلصون دعاءهم لله؛ بل يدعون معه إما: ملكًا من الملائكة لأجل صلاحه وقربه من الله، أو رجلاً صالحًا من أجل صلاحه ومكانته، أو نبيًا من الأنبياء، هذا الدعاء الذي يوجد عندهم لهؤلاء سببه الاعتقاد، يعتقد في النبي أو الولي أو الملك، ويعظمه تعظيمًا لا يليق إلا بالله -ﷻ-، ثم يلتجئ إليه في سؤاله وطلبه ودعائه ورجائه ورغبه ورهبه، قال: «**كما كانوا يدعون الله ليلًا ونهارًا**» يدعون الله ليلًا ونهارًا؛ لكنهم لا يُخلصون لله الدعاء، ولهذا نبّه المُصنِّف قال: «**ثم منهم من يدعوا الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله أو يدعوا رجلاً صالحًا مثل اللات**»، اللّات بالتشديد، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم:١٩-٢٠]، اللّات بالتشديد، قيل في التفسير: أنه رجل كان المشركون يعتقدون فيه الصلاح؛ لأنه كان من صنيعه أن يَلُتَّ (أصل) العجين، يلُتّ السويق للحجاج؛ حجاج بيت الله، فكان يعجن العجين ويلت السويق ويصنعه ويهيأه ويقدمه قِرىً وضيافةً للحجاج، نوع من الكرم، فكانوا معجبين بهذا الرجل لكرمه وسخائه وبذله، فلما مات عكفوا على قبره وأخذوا يجعلونه وسيطًا وشفيعًا لهم عند الله لقربه بزعمهم عند الله ﷻ[1].

---

(١) قال الإمام ابن كثير ﷺ: «وكانت (اللات) صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وحكي عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا

قال: «**أو يدعون رجلاً صالحًا مثل: اللّات، أو نبيًا مثل: عيسى ﷺ**» قد قال الله -جل جلاله-: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف:٥-٦].



(اللاتّ) بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلُتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه»«تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٥).



[المتن]

قال: «**وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، **وكما قال تعالى:** ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد:١٤]».

[الشرح]

قال: «**وعرفت**» أيضـاً إضافةً إلى ما سبق، وهذه الأمور التي ينبه عليها الشيخ رحمه الله إذا عرفت كذا وعرفت كذا، وعرفت كذا، هذه لا بد أن تُضبط، ويُحَبَّذ على طالب العلم أن يحفظها، يحفظ هذه المقدمات، إذا عرفت كذا وعرفت كذا وعرفت كذا؛ لأنها أمور نبّه الشيخ أنه لابد أن يتحقق الإنسان منها، ويكون متحققاً بها، ويكون منها على يقين وثبات وعلم بها وبأدلتها؛ لأنها إذا ضُبِطت هذه الأمور ضبطاً تاماً وعُرِفت بدلائلها كانت عمدةً وأساساً لإبطال ما سيأتي من شبهات أهل الشرك والباطل، فهذه أمور ركائز ودعائم وأُسس لابد أن تُعرَف في الكتاب في «كشف الشبهات»، فهذه الشبهات لأجل أن تُكشف وتُبطَل لابد أن تعرف كذا وتعرف كذا وتعرف كذا وتتثبت من كذا وتكون على يقين من كذا، فهذه أمور لابد منها، ولهذا أُأَكِّد أن هذه الأمور لابد أن تضبط ضبطاً جيداً من طالب العلم مع أدلتها، وإذا ضبطت هذه الأمور مع أدلتها، والشيخ لم يستقصِ الأدلة وإنما أشار إلى البعض، فأنت إذا ضبطت هذه الأمور وضبطت أدلتها تجد أنك محتاجاً إليها فيما بعد في كل كشف شبهة لهؤلاء المشركين؛ لأنك تحتاج فيما بعد في كشف

الشبهات أن تقول: أن من الأمور المتقررة في القرآن كذا، ومن الأمور المتقررة كذا، ومن الأمور المتقرره كذا، والدليل كذا، فيصبح الحق واضحا وبيّن وشواهده واضحة، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فإذا ظهرت هذه الأمور واتضحت ما سواها شبهات لا قيمة لها وقد يُكتفى في إبطالها بتقرير هذه القواعد -كما سيظهر لك هذا فيما بعد- قد يكتفى في إبطال الشبهات بتقرير هذه القواعد؛ لأنه سيتبين من تقرير هذه القواعد وإظهارها وإبرازها بأدلتها أن ما سواها قطعاً باطل، ولكن ما وجه بطلانه؟، وكيف يُكشَف؟، تبقى هذه المسألة تفصيلية يتناولها أهل العلم كأن يقول العالم: هذا حديث موضوع لأن في سنده فلان فلا حجة فيه، أو يقول: هذا الحديث ضعيف، أو الذي فهمتموه من هذا الحديث غير مُسَلَّم، ولا يفهم من الحديث كذا، أمور تفصيلية تأتي فيما بعد؛ لكن هذه القواعد هي الأساس في كشف شبهات أهل الباطل، فهذه القواعد لابد أن تُضبط وأن تكون عند طالب العلم أمور راسخة ثابتة بدلائلها وشواهدها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

قال: «**وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى الإخلاص، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]» أي: أن هؤلاء المشركين مع ما كانوا عليه من الإقرار لله بالربوبية وما كانوا عليه من الدعاء؛ دعاء الله وعبادته -لكنهم لا يخلصون لله- مع ذلك قاتلهم النبي ﷺ على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله، فإذا كانت هذه الأمور التي كانوا عليها وأشار إليها الشيخ لم تكن كافيةً ولا منجية لهم؛ بل قاتلهم النبي ﷺ ووصفهم بأنهم كفار وأنهم مشركين -صلوات الله وسلامه عليه-

، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده في آيات كثيرة جداً، دعاهم الى اخلاص العباده لله وحده من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ ﴾: أي المبنية التي بُنيت لأن تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها الله، ﴿لِلَّهِ﴾: أي: بُنِيت لله وحده، يعبد فيها وحده -تبارك وتعالى-، ولا يُجعل معه فيها الشركاء، وقيل ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ ﴾ أي: مواضع السجود، وأعضاء السجود لله، فلا يُصرف شيء من السجود والذل والخضوع إلا لله -تبارك وتعالى-، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، و﴿أَحَدًا ﴾ جاءت نكِرة في سياق النهي فتفيد العموم؛ أي: أيَّ أحدٍ كان، لا تدعوا مع الله أحداً أيّ أحدٍ كان، لا ملكٌ مقرب ولا نبي مُرسَل ولا ولي من الأولياء ولا غيرهم، وكما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:١٤]، ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله، وهذه الآية في سورة الرعد بعد أن ساق -تبارك وتعالى- من أول السورة البراهين على تفرده -تبارك وتعالى- وحدانيته؛ تفرده بخلق السماوات والأرض والجبال وغير ذلك، وسِعة علمه وإحاطة ملكه وغير ذلك مما ذكر -تبارك وتعالى-، ختم ذلك بقوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتفرد بهذه الأشياء وخلق هذه الأشياء وإيجادها هو وحده الذي له دعوة الحق، وهو -تبارك وتعالى- الحق -جل وعلا-، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾، والحق اسم من اسمائه، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢] فالله عز وجل هو الحق، ودعوة الحقِّ لله -جل وعلا- فلا يُدعى إلا الله، ولا يُلجأ إلا إلى الله، ولا يصرف شيئ من العبادة إلا لله، وصرف شيئ من العبادة لغيره شرك بالله عز وجل، وهو أبطل الباطل وأظلم الظلم وأشد الضلال، ﴿لَهُۥ



دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّ﴾ فدعاؤه وصرف الدعاء له، والذل والخضوع له وحده، هذا هو الحق، وهو المستحق لذلك وحده -تبارك وتعالى-، وأما من سواه فلا يستحقون شيئًا من ذلك، قال: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد:١٤][1].

---

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: **فائدة في بيان معنى الرب والإله:**

الله ﷻ في القرآن ذكر الرب في مواضع، وذكر الإله في مواضع. خذ مثلاً سورة الناس، يقول ﷻ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس] فما الفرق بين رب الناس وإله الناس؟ هل هما بمعنى واحد؟ إذًا يكون الكلام مكررًا أو أنهما بمعنيين فلابد من معرفة الفرق بينهما، وكثيرًا ما يأتي ذكر الرب كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٦ -٨٧]، فتكرر لفظ الرب وتكرر لفظ الإله فما معنى كل منهما؟

فالرب معناه المربي لخلقه بنعمه ومغذيهم برزقه تربية جسمية بالأرزاق والطعام، وتربية قلبية روحية بالوحي والعلم النَّافع وإرسال الرسل.

ومن معاني الرب أنه المالك للسماوات والأرض فرب الشي مالكه والمتصرف فيه، ومن معاني الرب المصلح الذي يصلح الأشياء ويدفع عنها ما يفسدها، فالله ﷻ هو الذي يصلح هذا الكون وينظمه على مقتضى إرادته وحكمته ﷻ.

أما الإله فمعناه المعبود من أله يأله بمعنى عبد يُعبَد فإله معناه معبود وليس معناه الرب وإنما معناه المعبود والإلهية هي العبادة والوله هو الحب لأنه ﷻ يحبه عباده المؤمنون ويخافونه ويرجونه ويتقربون إليه.

هذا هو معنى الإله فتبين الفرق بين معنى الرب ومعنى الإله وأنهما ليسا بمعنى واحد ومن قال إنهما بمعنى واحد فقد غلط، والعلماء يقولون إذا ذكرا جميعًا صار الرب له معنى والإله له معنى، وإذا ذكر واحد دخل فيه معنى الرب أما إذا ذكرا جميعًا مثل ما في سورة الناس فإنه يكون للرب معنى وللإله معنى آخر» «شرح كشف الشبهات» (ص٣٦).

[المتن]

قال: «**وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون**».

[الشرح]

يقول الشيخ رحمه الله إذا عرفت كذا وعرفت كذا وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتل هؤلاء المشركين الذي يقرون بهذه الأشياء ويعبدون الله ويدعونه، قاتلهم النبي ﷺ، وقتاله لهم أمرٌ معلوم، في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفي كتب التاريخ قاتلهم، ودارت بينه وبينهم معارك طاحنة وشديدة، وذهبت أرواح كثيرة من المسلمين ومن الكفار لماذا قاتلهم؟، مع أنهم كانوا يقرون أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت الله المدبر للأمر الله، وكانوا يدعون الله، ويذبحون لله وينذرون لله، قال: «**وتحققت أن رسول الله [ﷺ] قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله**»، ما يُجعل مع الله فيها شريك ولا مقدار ذرة، لأجل ذلك قاتلهم، فهم يقرون أن الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، يقرون بذلك ويعبدونه ويدعونه ويسألونه، فالمشرك إذا قيل له هل الله معبود؟، هل الله يُدعى؟ يُسأل؟، هل تدعوه؟ هل تذبح له؟ هل تنذر؟، يقول:

«نعم»؛ لكن لو قلت له: «أنف هذه الأمور عن غير الله»، لابد أن تنفي هذه الأمور عن غير الله، ولا تكون من أهل الإيمان إلا إذا نفيتها عن غير الله، «لا إله...»، لابد من النفي، لا توحيد إلا بالنفي، نفي العبودية عن كل من سوى الله، عندما يُطلب منه نفي هذه الأمور عن غير الله هنا يقف، لا يتردد المشرك في أن الخالق الله الرازق الله المحيي المميت، ولا يتردد أيضاً في أنه معبود وأنه يُدعى و يُسأل ويطلب منه ويُذبح له ويُنذر، هذا أيضاً لا يتردد فيه؛ لكن إذا قيل له هذه الأمور يجب أن تنفيها عن غير الله هنا يقع، ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص:٥]، هُنا الخصومة، ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ ﴾ أجعل المعبودات معبوداً واحداً لا ندعوا إلا الله وحده، لا نسأل إلا الله وحده، لا نذبح إلا لله وحده، لا ننذر إلا لله وحده، هنا الخصومة التي كانت بينهم، ولهذا يقول الشيخ: «**قاتلهم - أي النبي ﷺ ليكون الدعاء كله لله**[1]، **والذبح كله**

---

(١) وللعلامة محمد بن صالح العثيمين ؒ: تفصيل بديع في شرحه لهذه العبارة:

«الدعاء على نوعين:

الأول: دعاء عبادة بأن يتعبد للمدعو طلبا لثوابه وخوفا من عقابه، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج عن الملة، وعليه يقع الوعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [سورة غافر:٦٠].

النوع الثاني: دعاء المسألة وهو دعاء الطلب، أي: طلب الحاجات وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: دعاء الله ﷻ بما لا يقدر عليه إلا هو، وهو عبادة لله تعالى ؛ لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى، واللجوء إليه، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة، فمن دعا غير الله ﷻ بشيء لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر سواء كان المدعو حيا أو ميتا.

القسم الثاني: دعاء الحي بما يقدر عليه مثل يا فلان اسقني فلا شيء فيه.

القسم الثالث: دعاء الميت أو الغائب بمثل هذا فإنه شرك؛ لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفا في الكون فيكون بذلك مشركا»«شرح

=

لله، والنذر كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله» إذا عرفت هذا، وتحققت منه، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام كما سبق إيضاح ذلك، وهذه معاني مهمة جداً ولهذا الشيخ يُبدي ويعيد في هذه الحقائق: «**وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام**» وعرفت أيضـًا: «**وأن قصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يُريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم، عرفت حينئذٍ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرار به المشركون**»، وكأن الشيخ يقول رحمه الله لا يمكن أن تفهم التوحيد إلا بمعرفة هذه الحقائق، فلابد من العلم بهذه الحقائق، وبها تعرف التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون، وهو مدلول كلمة التوحيد لا إله إلا الله، قال: «**وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله**».



كشف الشبهات» (ص٢٣).

[المتن]

قال: «**وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلَكًا أو نبيًّا أو وليًا أو شجرةً أو قبرًا أو جِنّيًّا، لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدّمتُ لك، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيِّد)، فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: (لا إله إلا الله)، والمُراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفار الجُهَّال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله تعالى بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: «قولوا لاإله إلا الله»، قالوا:** ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**وهذا التوحيد**» أي: التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى المشركون من قبوله والإذعان له، «**هو معنى قولك: لا إله إلا الله**»، فالتوحيد هو مدلول (لا إله إلا الله)، و(لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، ولا توحيد إلا بتحقيق هذه الكلمة، و(لا إله إلا الله) قائمة على ركنين: النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل من سِوى الله أيًّا كان، نفيًا عام للعبودية عن كل من سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده، هذا هو التوحيد، ولذلك يجب أن يُعلم أنه لا توحيد إلا بالنفي والإثبات، ولا يكون الموحِّد موحداً إلا بهما، وهما: النفي في أول هذه الكلمة والإثبات في آخرها، النفي في أولها للعبودية عن كل من سوى الله، والإثبات في آخر هذه الكلمة

للعبودية بكل معانيها لله وحده، فمن نفى ولم يُثبت لا يكون مُوحِّداً، ومن أثبتَ ولم ينف لا يكون مُوَحداً، من نفى ولم يُثبت يكون ملحداً، ومن أثبت ولم ينف يكون مشركًا، ولا يكون المرء موحداً إلا إذا نفى وأثبت، إذا جاء بالنفي والإثبات معًا، أرأيتم من قال: «أنا أُقِر بأن الله معبود وأعبده وأدعوه وأسجد له وأركع وأذبح له وأنذر، أعتقد ذلك وأفعل ذلك؛ لكن لا أنفي هذه عن غيره »، هل يكون مُوحِّداً؟ حاشا وكلاّ، لا يكون موحِّداً، لابد في التوحيد من النفي، من لم ينفي العبودية عن غير الله لايكون مُوَحداً، ولو أثبت أن الله معبودا وعبده دون نفي للعبودية عن غيره لايكون موحداً، التوحيد لابد فيه من النفي والإثبات؛ ولهذا يقول الشيخ: «**وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله**» ثم أخذ يشرح معنى الإله، ومن وقعوا فيه أو المنظّرون في عُبّاد القبور حصل منهم عبث؛ محاولة للتغيير في المعاني، فقالوا: «معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، أو لا خالق إلا الله، أو لا رازق ولا مدبر للأمر إلا الله»، يقول الشيخ رحمه الله: «**وهذا التوحيد هو معنى قولك: لا إله إلا الله، فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لـأجل هذه الأمور**»، «**فإن (الإله) عندهم**»، من هم؟ أهل اللسان الذين بُعِث فيهم الرسول ﷺ، أهل اللسان العربي الذين بعث فيهم الرسول ﷺ لما قال لهم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1]، يعرفون معنى (لا إله)، ويعرفون معنى (الإله)، يعرفون معناها جيداً باللسان العربي المبين الذي خوطبوا به، ولو قال لهم: قولوا لا خالق إلا الله تُفلحوا، المسألة تختلف في

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٦٠٢٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٢٨)، والدارقطني في «سننه» (١٨٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨١٧٥)، وانظر: «الإرواء» (٨٣٤).

فهمهم للسان العربي، عن قوله لهم: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»؛ لأنهم يعرفون معنى الإله، (الإله) معناه عندهم -يعني عند أهل اللسان الذي يُقصد بهذه الأشياء- يُقصد بالذل بالخضوع بالدعاء بالرجاء بالانكسار بالتألُّه،

لله دَرُّ الغانيــــات المُدّهـي　　　سَـبَّحْنَ واسْـترجَعْنَ مِـن تَألُّهـي

-أي تعبدي- التألُّه: التعبُّد، والمألوه هو المعبود، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]، أي: عبادتك، فأهل اللسان يعرفون ذلك، ولهذا يقول الشيخ ﷺ: «**فإن (الإله) عندهم** -أي عند أهل اللسان العربي الذين بُعث فيهم ﷺ **هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور**»، هو الذي يُقصد بالذبح والنذر والدعاء والرجاء والسجود والركوع ونحو ذلك من الأعمال لأجل هذه الأمور التي هي طلب الشفاعة والتقرب إلى الله -ﷻ-، قال: «**هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور سواء كان مَلَكًا أو نبيًّا أو وليًّا [أو شجرةً] أو قبرًا أو جِنّيًّا** «والمعنى: أن من دعا مَلَكـًا أو ذبح له أو نذر له، أو شجرة أو نبيـًا أو وليـًا فقد اتخذه إلهًا، ولم يصبح من أهل (لا إله إلا الله)، وليس من أهل التوحيد؛ لأنه لايكون من أهل التوحيد إلا إذا نفى هذه الأشياء عن غير الله -ﷻ-، قال: «**لم يريدوا**»أي: أهل اللسان العربي الذي بعث فيهم ﷺ «**لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده**»، ولو كانوا يريدون بالإله: الخالق، ولو كان معنى الإله في اللسان العربي: الخالق الرازق لكان الأمر مختلفـًا عندما قال لهم ﷺ: «**قولوا لا إله إلا الله تُفلِحوا**»، سيقولون: «لا إله إلا الله»، إذا كان معنى (لا إله إلا الله) أي: لا خالق أو لارازق إلا الله؛ لأنهم هم يعتقدون هذا الأمر، ولايكون منافيًا لشيءٍ يعتقدونه، قال: «**لم يريدوا**

أن (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيِّد)» الشيخ يوضح هذه المعاني من خلال وقائع، معاينة ومشاهدة، لأن المشركين في الأزمنة المتأخرة يطلقون على المعبود الذي يصرفون له الدعاء والذبح والنذر: (السيّد)، وعندما يقال فلان سيِّد أو السَيِّد فلان أصبح مرتبطاً في قلوبهم -بسبب الباطل الذي اكتنفها- أن له حق في الذل؛ حق في الدعاء؛ حق في الخضوع والرجاء؛ حق في الانكسار والخضوع ؛ له حق في هذه الأشياء، سيِّد، فالسيد هذه الكلمة أصبح منصبغًا عند هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة والقباب ونحو ذلك وأن السيِّد له الأحقية؛ بل ارتقى الأمر ببعض هؤلاء إلى حدٍّ لم يبلغه المشركون في زمن الرسول ﷺ؛ اعتقدوا في بعض من يسمونهم بالسيد أو السادة أن عندهم تصرف في الكون!، وهذا أمر ما بلغه المشركون!؛ تدبير؛ وإحياء وإماتة، حتى قال بعض المشاهير من دعاة القبور في زماننا، قال: «من الذي يقول أنه المتفرِّد بالخلق هو الله ؟»! يعني معنى كلامه في قول الله -تَعَالَى-: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤] يفهم من الآية، يقول: «الأولياء عندهم قدرة»!، ويقول: «إن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم؛ ولكنهم لا يفعلون ذلك حتى لا تختلط الأنساب»!، من أجل المصالح وإلاّ يقدرون!! والعياذ بالله، ويقول الله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ يقول: «هذا يدل على أن مع الله خالقين»، هذا ما قاله المشركون، ولو قال هذا القائل هذا الكلام لأبي جهل لأنكر عليه، لأن هذه الأمور متقررة وراسخة وثابتة أن الله -تَعَالَى- متفرد بها والآيات واضحة في هذا المعنى، فبلغ في بعضهم الأمر مبلغـًا لم يبلغه حتى

المشركون الذين بعث فيهم النبي ﷺ، وسيأتي عند الشيخ لاحقاً قوله: «**تباً لمن كان أبو جهل أعلم منه بالتوحيد**».

قال: «**فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده، وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيِّد)**»، و(السيّد) هذه الكلمة أصبحت عند أهل القبور تعني ما أشرتُ إليه أن من يُطلق عليه هذا اللقب له حق في الذُل؛ له حق في الخضوع؛ في الانكسار، حتى إن بعضم إذا وقف عند قبر من يُسمَّى بالسيِّد يخضع خضوعاً لايكون منه في صلاته!، ويبكي بكاءً لا يكون منه عند قيامه بين يدي ربه في الصلاة!، يخضع خضوعا وذلا، وهذا مبني على هذا الاعتقاد في هؤلاء، قال: «**فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد** -أي إلى (لا إله إلا الله)- **وهي: (لا إله إلا الله)**»، قال: «**والمُراد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها**» المراد من هذه الكلمه معناها لا مجرد لفظها مجرّد اللفظ لا يكفي ولا يكون به الإنسان من أهل التوحيد، لابد من تحقيق الشهادة بلا إله إلا الله، وهذا لابد فيه من العلم كما قال الله: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، في «صحيح مسلم» من حديث عثمان -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف:٨٦]، الحق: لا إله إلا الله، ﴿يَعۡلَمُونَ﴾أي: معنى ما شهدوا به، فلابد من العلم بمعناها، «**المُراد من هذه الكلمة معناها لا مُجرد لفظها**»، فمن قال هذه الكلمة وهو لايفهم معناها لا تفيده، ومن قال هذه الكلمة وهو يفهم منها معنى لا تدل عليه لا تفيده كذلك، فلو قال قائلف

---

(١) رواه مسلم (٢٦).

معنى لا إله إلا الله أي: أن الله قادر على الاختراع»، فلايكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله، أو: «لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله»، لا يكون بهذا الفهم من أهل لا إله إلا الله حتى يفهم معناها ومدلولها الذي دلَّت عليه؛ وهو عبادة الله ﷻ وعدم الإشراكِ به، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] هذا هو معنى لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، هذا هو معناها، قال الله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، هذا هو معناها، هذا هو معنى (لا إله إلا الله): أن يُعبد الله ﷻ وحده وأن لا يُتَّخذ معه الشركاء[1].

---

(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «وفي وقتنا هذا وجد من يفسّر لا إله إلا الله بأن معناها هو إفراد الله بالحاكمية وهذا غلط؛ لأن الحاكمية جزء من معنى لا إله إلا الله وليست هي الأصل لمعنى هذه الكلمة العظيمة، بل معناها لا معبود بحق إلا الله بجميع أنواع العبادات ويدخل فيها الحاكمية ولو اقتصر الناس على الحاكمية فقاموا بها دون بقية أنواع العبادة لم يكونوا مسلمين، ولهذا تجد أصحاب هذه الفكرة لا ينهون عن الشرك ولا يهتمون به ويسمونه الشرك الساذج، وإنما الشرك عندهم الشرك في الحاكمية فقط وهو ما يسمونه الشرك السياسي، فلذلك يركزون عليه دون غيره، ويفسرون الشرك بأنه طاعة الحكام الظلمة» «شرح كشف الشبهات» (ص٤٦).

وقَالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ العُثَيْمِين ﵀: «هَذَا قِسْمٌ بَاطِلٌ؛ مُبْتَدَعٌ، فَلَمْ يَكُنْ مِمَّا ذَكَرَه السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَلَوْ كَانَ صَحِيحًا لَقُلْنَا: لَا مُشَاحَّةَ فِي الاصْطِلَاحِ، لَكِنَّهُ غَيْر صَحِيح، لِأَنَّ تَوْحِيدَ الحَاكِمِيَّةِ يَدْخُل ضِمْنَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِاعْتِبَارِه حُكْمًا لله، وَفِي تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ العَبْدَ مُتَعَبِّدٌ بِهِ، وَمَفْرُوضٌ عَلَيْهِ، إِذَنْ لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ نَجْعَلَهُ قِسْمًا بِرَأْسِهِ، لِأَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَى كَوْنِهِ قِسْمًا بِرَأْسِهِ أَشْيَاءَ مُخَالِفَةٍ لِلْشَّرْعِ، وَمِنْهَا التَسَرُّعُ بِتَكْفِيرِ الحُكَّامِ، فَيَقُولُونَ: إِذَا خَالَفَ فِي مَسْأَلَةٍ

قال: «**والكفار الجُهَّال يعلمون أن مُراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه**»، «**الكفار الجُهَّال**» أي: الذين بُعِث فيهم ﷺ كانوا «**يعلمون أن مُراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه**»، والدليل على أنهم كانوا يعلمون أن معنى (لا إله إلا الله): إفراد الله بالتعلق- يعني بالذل بالخضوع بالذبح بالنذر بالرجاء-، والكفر بما يُعبد من دونه، والبراءة منه يقول الشيخ: «**فإنه لما قال لهم**: «قولوا لا إله إلا الله»، **قالوا**: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]» قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تُفلِحوا»، فالجواب؟ ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾؛ بل أخذوا يتواصون على الصبر على عبادة الآلهة: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦]؛ يعني يُدبَّر بكم ويخطط ويُمكر بكم حتى تُحْرَفوا عن هذا الدين فانتبهوا وتواصوا بالصبر على عبادة الآلهة، وأيضًا أخذوا يتفاخرون: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان:٤٢] لولا أن كنا مُتحلِّين بالصبر لحرفنا محمد ﷺ عن هذه الآلهة، كل ذلك قالوه عندما قال لهم: «قولوا لا إله إلا الله تُفلِحوا»، فهموا أن (لا إله إلا الله) إبطال عبادة هذه الأصنام وإخلاص العبادة لله -تبارك وتعالى-؛ ولهذا قال ﷻ في آية أخرى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦]؛ لأن (لا إله إلا الله) تعني ترك الآلهة وإخلاص

وَاحِدَةٍ - قَدْ تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ - يَقُولُونَ هَذَا كَافِرٌ، لِأَنَّهُ أَخَلَّ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِهَذَا وَضَعُوا هَذَا القِسْمَ الرَّابِعَ» «شَرْحُ الكَافِيَةِ الشَّافِيَةِ» (٣/ ٣٤).

العبادة لله -ﷻ-، وأيضاً خذ الدليل على ذلك في قصة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب وقد أوردها الشيخ ؒ في كتابه «التوحيد» في باب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ «أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ».

فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١).

إذاً لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل على ملة عبد المطلب»؛ لأن قول النبي ﷺ: «**قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**» تعني إبطال الأصنام وإبطال عبادة ودعاء غير الله -ﷻ-؛ ولهذا قالوا له: «بل على ملة عبد المطلب».

فهل ملة عبد المطلب إنكار وجود الله؟

وهل ملة عبد المطلب إنكار أن الخالق الرازق المنعم المتصرّف المدبر لهذا الكون هو الله؟

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤).

وهل ملة عبد المطلب، جحد أن الله معبود يُعبد ويُصلّى له ويُرْكع ويُسجد ويُدعى؟

الجواب: ملة عبد المطلب الإقرار بالأشياء المتقدمة واتخاذ الشركاء مع الله في العبادة، في الدعاء، في الذبح في النذر، ولهذا لما قالوا له هنا في هذا المقام: «بل على ملة عبد المطلب» أي: في دعاء الأصنام مع الله والذبح لها والنذر لها والتقرب إليها والمحافظة على هذا الأمر الذي تُنافيه وتبطله (لا إله إلا الله)، ولهذا لما قال له: «**قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، قالوا له: «بل على ملة عبد المطلب»، ومات وهو يقول هو على ملة عبد المطلب، فأبىٰ أن يقول (لا إله إلا الله)، قال: «**فإنه لما قال لهم**: «قولوا لاإله إلا الله [تفلحوا]»، **قالوا**: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥]».

* * * * *

[المتن]

قال: «**فإذا عرفت أن جُهَّال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسيرهذه الكلمة ما عرفه جُهاّل الكفار؛ بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيئٍ من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: «لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله»، فلا خيرفي رَجُلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله)**».

[الشرح]

قال -رحمه الله تعالى-: «**فإذا عرفت أن جُهَّال الكفار يعرفون ذلك**» جُهال الكفار -أي الذين بعث فيهم نبينا ﷺ، «**يعرفون ذلك**» أي: يعرفون معنى (لا إله إلا الله) وأنها تعني: إفراد الله بالتعلُّق، والكفر بما يُعبد من دونه: والبراءة منه «**فالعجب ممن يدَّعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جُهاَّل الكفار**»، ثم هنا أمر يُستفاد من قول الشيخ: «**بل يظن...**»إلخ، من لم يعرف معنى هذه الكلمة حقيقةً معناها الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب ودلت عليه السنة ويُعرف باللسان العربي وقد فهمه الكفار الذين بُعِث فيهم ﷺ، فهو في أحد طريقين:

- قال: «**بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيءٍ من المعاني**»، هذا مسلك بعضهم يظن أن تحقيق (لا إله إلا الله) هو أن يتلفظ بحروف، هذا هو تحقيقها أن يتلفظ بحروفها دون أن يعتقد القلب بشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك، (لا إله إلا الله) كلمة تُقال وتردد؛ لكن لا يعتقد القلب لشيء من المعاني!، هذا مسلك من المسالك.

- المسلك الآخر: قال: «**والحاذق منهم** -أي: الذي يدّعي الحذق والفهم والدراية بالأمور- **يظن أن معناها: «لا يخلق ولا يرزق إلا الله»**».

فمن يجنح عن المعنى الصحيح لـ(لا إله إلا الله) له أحد مسلكين:

١) إما أن يظن أنها كلمة تُقال دون أن يُعتَقَد أو يعتقِد القلب بشيئ من المعاني التي تدل عليها.

٢) والمسلك الآخر: وهو من يدّعي الحذق والفهم من هؤلاء، يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله ولا يدبر الأمر إلا الله.

فيقول الشيخ آسفـًا على حال هؤلاء، يقول: «**فلا خير في رَجُلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله).**»؛ جهال الكفار اعلم منه بـ (لا إله إلا الله) لأن الشيخ وضَّح قريبًا أن جُهال الكفار المشركين الذين بعث فيهم ﷺ كانوا يعرفون معنى هذه الكلمة، ولهذا امتنعوا من قبولها واستكبروا عن النطق بها وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ فيتعجب الشيخ ثم يختم بقوله: «**فلا خير في رَجُلٍ جُهَّال الكفار أعلم منه بمعنى (لا إله إلا الله).**»

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

«إِذَا عَرفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاه، وَعَرفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا؛ أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ:

الْأُولَى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَأَفَادَكَ أَيْضا: الْخَوْفَ الْعَظِيم، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِّسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِكَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى -عليه السلام- مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُم أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

[الشرح]

قال رحمه الله تعالى-: **«إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ»**.

«مَا قُلْتُ لَكَ»: أي: فيما تقدَّم في هذه الرسالة من تمهيداتٍ مهمة وتقديماتٍ عظيمة، بيَّن فيها -رحمه الله تعالى- دين المرسلين، وأنه قائم على توحيد الله ﷻ، إخلاص الدين له، والبراءة من الشرك، وبيَّن فيها حقيقة دين المشركين، وأنَّهم يُقرُّون بأنَّ الخالق الرازق المُنعِم المُتصرِّف في هذا الكون هو الله، وأيضًا يعبدون

الله ﷻ، ويذكرون الله كثيرًا، ويتصفون بصفاتٍ فاضلة؛ كصلة الأرحام وإطعام الطعام وغير ذلك؛ لكنهم لا يُخلِصون لله ﷻ العبادة، فلا يُخلِصون له الدعاء، ولا يُخلِصون له الذبح والنذر؛ بل يجعلون مع الله -ﷻ- في ذلك الأنداد والشركاء، ويزعمون أنَّ اتخاذهم لهذه الأنداد من أجل أن تقربهم إلى الله وأن تكون شافعًا لهم عند الله -ﷻ-، إلى غير ذلك من المُقدِّمات والتمهيدات العظيمة التي بدأ رحمه الله هذه الرساله بها.

فيقول هنا: «إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ»، ومعرفة القلب: هي التي يكون فيها قلب الإنسان حاضرًا واعيًا ضابطًا للأمر، لا أن يكون عند حظ الإنسان من العلوم مجرد السماع دون أن يكون القلب حاضرًا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]؛ ولهذا أكد رحمه الله على هذا الأمر بقوله: «مَعْرِفَةَ قَلْبٍ»؛ أي: تضبط ذلك بقلبك.

«وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِالله ﷻ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]»؛ أي: أنَّ حقيقته اتخاذ الأنداد مع الله، وتسوية غير الله بالله في شيءٍ من خصائصه، وصرف شيءٍ من العبادة لغيره -ﷻ-، من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار، فالشرك هو: اتخاذ ندٍ مع الله ﷻ يُدعَى مع الله؛ يُذبح له؛ يُنذَر له؛ تُصرَف له أنواع العبادة.

«وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا سِوَاه»؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥]؛ كما قال ﷻ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ كما قال

-ﷻ-: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩]، وهو دين الرسل من أولهم إلى آخرهم: وهذا أمرٌ سبق البيان عليه عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

قال: «**وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ فِيهِ مِنْ الْجَهْلِ بِهَذَا**» أيضـًا إذا عرفت هذه الأمور ثم تتأمل في الوقت نفسه حال غالب الناس وكثيرٍ منهم، وأن غالبهم في جهلٍ لهذا الأمر، يجهلونه؛ لا يعرفونه؛ ولا يفهمونه، فإذا عرفت ذلك كله؛ أفادك فائدتين، عرفت دين الأنبياء والمرسلين؛ وعرفت الشرك الذي هو ضاده، وعرفت دين المشركين الذي بُعِثَ فيهم النبي ﷺ، ثم بعد ذلك نظرت إلى واقع كثيرٍ من الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر، لا يعلمون به ولا يعرفونه، إذا عرفت هذه الأمور معرفة جيدة، وألممت بها إلمامًا طيبًا، يقول الشيخ: هذا يفيدك فائدتين.

قال: «**الْأُولَى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ**»، الفائدة الأولى: أن قلبك يفرح بهذا الخير الذي ساقه الله إليك ومَنَّ عليك به؛ مع أنَّ أكثر الناس يجهلونه، وهنا تظهر قيمة هذا الأمر الذي مُنَّ عليك به، لو كان هذا الأمر الذي مُنَّ عليك به أُعطِيَ لكل الناس لكان حقيقًا بك أن تفرح به فرحـًا عظيمـًا فكيف والحال أنَّ هذا الأمر أكثر الناس في جهلٍ عنه وعدم علمٍ به ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ [ص:٢٤]، فإذا فهمت هذا الأمر وعرفته وعرفت دلائله وشواهده؛ ورأيت حال كثيرٍ من الناس في جهلٍ عظيمٍ به وعدم علمٍ به تفرح بفضل الله وبرحمته، وهنا الفرح لا يُذَم ولا يتعارض مع قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]،

هذا فرح بالدين، فرح بنعمة الدين؛ الإيمان؛ التوحيد، ليس فرح أَشَر وبَطَر وتعال؛ وإنما فرح اغتباط بنعمة الله -ﷻ- وسعادةٍ بها.

قال: «**الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ؛ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-:** ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]»، وهذا الفرح يُباشِر القلب عندما يَعِي المسلم ويستحضر هذه الأمور الذي مَهَّد بها الشيخ وقدَّمها، أما من لا يَعِي تلك الأمور لا يُباشِر هذا الفرح قلبه، ولا يُخالِط قلبه؛ لكنَّ من وَعَى هذه الأمور وفهمها ودخلت قلبه وضبطها ثم نظر إلى واقع كثيرٍ من الناس و أكثر الناس وجدهم في جهلٍ بهذا الأمر وعدم علمٍ به يفرح من جهة مَنِّه الله عليه -ﷻ- بأن جعله من هؤلاء الذين هُدُوا للطريق القويم والجادة السَّوِيَّة؛ دين الله -ﷻ- الذي رضيه الله لعباده.

أرأيت لو أنَّ مُجتمَعًا من المجتمعات تعيش أنت فيه سرى فيهم مرضٌ فتاك وأضرَّ بهم ضرراً بالغـًا وأصبح أكثر الناس طريحي الفراش ويُعانون أنواع الآلام والأسقام من ذلك المرض، ونظرت إلى الناس وإذا بأكثر الناس أَلَمَّ بهم هذا المرض وأضرَّ بهم؛ ثم وجدتك في عافية، وجدت أنك عُفيت وسَلِمْت ولم تُصب من هذا المرض بشيء ولم تتلوث منه بشيء فتدرك نعمة الله -ﷻ- عليك، ولهذا يقولون: «بِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ»، ربما لا تشعر بقيمة الصحة التي تتمتع بها؛ لكنك إذا رأيت المرضى في المستشفيات وأنواع المعاناة التي يُعانون بها تُحس بقيمة الصحة، فقد لا تُحس بقيمة النور وأنت كل ليلةٍ تقرأ كتابك في إضاءةٍ جيدة؛ لكن لو طَفِـءَ النور عنك ليلة وأحببت أن تقرأ كتابك كعادتك تُحس حينئذٍ بقيمة النور، ولهذا نبَّه الشيخ على هذا

المعنى بقوله: وعرفتَ حال كثيرٍ من الناس، بعد أن تعرف هذا الخير وهذا الفضل بأدلته وبراهينه؛ تعرف حال أغلب الناس وأنهم في جهلٍ من هذا الأمر؛ فتفرح فرحـًا عظيمـًا بأن الله ﷻ صرف عنك هذه الشرور، وهداك لهذا الخير، وله المَنُّ وله الفضل -ﷻ-، وله الحمد أولًا وآخرًا ظاهرًا وباطنًا، نحمده -سبحانه- حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربنا ويرضى، ونسأله -ﷻ- أن يثبتنا على دينه.

قال: «**وَأَفَادَكَ أَيْضـًا: الْخَوْفَ الْعَظِيم**»، تفرح وفي الوقت نفسه تخاف، «**وَأَفَادَكَ أَيْضـًا**» هذه الفائدة الثانية، «**الْخَوْفَ الْعَظِيم، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ...**»، «**أَفَادَكَ أَيْضـًا: الْخَوْفَ الْعَظِيم**» أي: الخوف على هذا الشيء الثمين الذي فزت به ونِلْتَهُ وأكرمك الله ﷻ بالظَّفَر به وصرت من أهله؛ فأصبحت تُحس أنَّ معك كَنْزٌ هو أثمن كَنْز، فيبدأ مع الفرح الذي يُباشِر قلبك أيضـًا يكون معك خوفٌ على هذا الكَنْز أن يذهب؛ ألَّا يبقى؛ أن يتبدَّل، والخوف من الشرك من المطالب التي دلَّت عليها النصوص، وأرشدت إليها الأدلة، وفي «كتاب التوحيد» للشيخ -رحمه الله- بابٌ عنوانه «الخوف من الشرك»، أورد فيه قول إمام الحنفاء إبراهيم الخليل الذي حطَّم الأصنامَ بيده وكسرها بيده قوله في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]، قال إبراهيم التيميّ رحمه الله: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم ؟!»[(١)].

عن شَهْر بْن حَوْشَبٍ قَالَ: قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٧).

قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟

قَالَكَ «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ**»(١).

فإذا أكرم الله -ﷻ- عبده ومَنَّ عليه بمعرفة التوحيد ومعرفة براهينه ودلائله ومعرفة حال الناس وأكثر الناس وإنصرافهم عنه يُفيده هذا الفرح ويُفيده أيضًا الخوف العظيم، «**الْخَوْفَ الْعَظِيم**»: أي على توحيده وعلى إيمانه أن يذهب؛ أن يتغير؛ أن يتبدل؛ أن يُبتلى -والعياذ بالله- بشبهاتٍ تخدش توحيده، أو تنقص توحيده، وهي كثيرة جداً في الحياة الدنيا، الشبهات كثيرة؛ الصارفة عن التوحيد والصَّادة عنه، وخاصة في زماننا، مع وسائل الانفتاح الكثيرة التي حصلت، مثل وسائل الاتصال ومواقع التواصل، فكَثُرَت الشبهات على الناس؛ مع قلة علمهم بالتوحيد، وقلة فهمهم له، وقلة بصائرهم بدلائله وبراهينه، وجاءتهم شُبَه جارفة، فهنا يُقال بشكلٍ أكبر ما قِيل قديمًا: «ليس العجب ممن هلك كيف هلك؟! ولكنَّ العجب ممن نجا كيف نجا؟!»(٢)، الصوارف كثيرة ولا عاصم منها إلا الله -ﷻ-، ولا مُنجِّيَ منها إلا الله -ﷻ-: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ ﴾[الذاريات: ٥٠-٥١]، فيكون الإنسان خائفًا على توحيده وعلى إيمانه، وإذا وُجِدَ عنده هذا الخوف على توحيده فإنه لا

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٧٢).

يصنع صنيع كثير من الناسالذي عنده من أسهل ما يكون أن يُخاطِر بدينه، فيجعل دينه على خطر، وذلك من خلال عدم مبالاته؛ بالسماع لكل أحد؛ ومشاهدة كل شيء؛ والتنقل في المواقع والقنوات ولا يُبالي، وهذه مُخاطَرة بالدين، قد قيل قديمًا: «إن كنت مخاطرًا بشيء فلا تُخاطِر بدينك»، فدينك أغلى شيء عندك، وأثمن شيء عندك، ومن كان خائفًا على دينه من الذهاب أو التغير أو التبدل لا يُخاطر به، كيف يُخاطر بدينه من عرف قيمته؟! وعرف مكانته وذاق طعمه وحلاوته وفرح به واغتبط، «دخل رجلان على محمد بن سيرين من أهل الأهواء؛ فقالا: يا أبا بكر نحدثك بحديث؟ قال: لا، قالا: فنقرأ عليك آية من كتاب الله؟ قال: لا، قال: تقومان عني وإلا قمت، فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرآ آية؟ قال: إني كرهت أن يقرآ آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي»[1].

أي: تبقى تتردد في نفسي الشبهة إلى أن أموت وما خَرَجَتْ، شبهة واحدة!، وهو الإمام الجليل، ثم ترى الأحْدَاث وصغار الأسنان وقليلي العلم والجهال بدين الله يُخاطرون بدينهم ويسمعون لكل أحد!، ويسمعون لكل ناعق!؛ ولهذا تُبتلَى كثير من القلوب برُكَامٍ من الشبهات؛ ورُكَامٍ من الوساوس والشكوك، والسبب أن صاحبها خاطر بنفسه!، وفتح قلبه لكل أحد يُلقي فيه من الشبهات ما شاء!.

الشاهد: أنَّ مَنْ عرف قيمة الدين والتوحيد وفضل الله -ﷻ- عليه به وهدايته له وانصراف أكثر الناس عنه وجهلهم به يفرح به فرحًا عظيمًا وفي الوقت نفسه يُخاف عليه، ومَنْ كان عنده كَنزٌ ثمين يخاف عليه فإنه يكون في حياته في مُجاهدة

---

(١) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢٤٢)، و الأصبهاني في «الحجة في بيان المحجة» (٥٤٦)، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٠).

ببقاء هذا الكنز وعدم ذهابه، ولا ينبغي للإنسان أن يلتفت إلى الأسباب؛ بل يلتفت قلبه ويعتمد ويتوكل على الله -ﷻ-؛ لأنَّ التثبيت بيد الله، والتوفيق بيد الله، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن؛ فيلجأ إلى الله صادقًا أن يُثبِّت قلبه وألَّا يُزيغه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»؛ كان هذا أكثر دعاء نبينا ﷺ، وجاء في وجاء في «الصحيحين»(١) أن نبينا ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**»، فيلجأ إلى الله -ﷻ-، ويُجاهد نفسه على معرفة الأسباب الصحيحة، وبذل الأسباب الصحيحة؛ كما قال ﷺ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»(٢)؛ كما قال ﷺ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(٣)؛ كما قال -ﷻ-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ كما قال -ﷻ-: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

قال: «**فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الْإِنسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِّسَانِهِ**»، وقد جاء عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ**»(٤)، إذا عرفت ذلك، وعرفت خطورته،

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) رواه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨).

وأنَّه يهوي بالإنسان إلى النار، وربما كلمة قالها الإنسان بلسانه هَوَى بها في النار سبعين خريفـًا -والعياذ بالله-، وأدرك خطورة هذا الأمر؛ يبدأ الخوف يزيد عنده من المُخاطَرة بالدين والمسارعة أو الوقوع في الكلمات التي تخدش في التوحيد أو تُنقصه أو تُناقضه.

قال: «**إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِّسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ**»، «**يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ**»: أي: لا يدري ما تبلُغ به الكلمة، أو أنها لا تصل به إلى هذا المَوْصِل أو هذا الأمر أو هذا القعر من النار أو هذا القَدْر من العقوبة، قال: «**وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلَا يُعْذَرُ بِجَهْلِهِ**»؛ وذلك لكونه مُفرِّطًا؛ مُهمِلاً؛ مُضيِّعـًا؛ غير مُبالٍ بدينه؛ ولا مُهتمٍ به؛ ومُخاطِر؛ ومُعرِض.

قال:»**وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِكَمَا ظَنَّ الْمُشْرِكُونَ**»، أليس المُشركون حالهم قامت على هذا الظن؟! ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ما قالوا نحن عبدناها لتُدخِلنا النار! ولنذوق بها عذاب الله وعقوبته! ولنصلى ناره! ولنحظى بسخطه علينا!؛ ما قالوا ذلـك؟!، قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، نحن مُرادنا بهذه العبادة وبهذا الدعاء وبهذا الإلتجاء للأصنام من أجل أن تُقرِّبنا إلى الله!، قد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون.

«**خُصُوصـًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ، أَنَّهُم أَتَوْهُ قَائِلِينَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهـًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**» [الأعراف:١٣٨]، إذا تذكرت مثل هذا القَصص فإنها تزيد الخوف عندك، إذا تذكرت مثل هذه القَصص

تزيد؛ ولهذا قال الشيخ: «**خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ**»: يعني عرفت واستحضرت وفهمت، «**مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ**» كانوا أهل صلاحٍ وعلم، وكانوا مَضَوْا مع موسى عليه السلام وصبروا على البلوى معه، «**أَنَّهُم أَتَوْهُ قَائِلِينَ**» بعد أن مروا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، مروا على قوم عندهم أصنام وهم عاكفون عليها فنظروا إليهم ومروا بهم فجاءوا إلى موسى عليه السلام يُطالبون: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، كانوا أهل صلاح وأهل علم وعرَّفهم التوحيد وشرحه لهم وبيَّنه لهم ويمشون مع نبي!، ثم مروا بأصنام عليها قوم عاكفون فأعجبهم هذا الأمر!؛ ولهذا طالبوا قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]، مثل هذا حُدثاء الإسلام في قصة حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1]، ولعلك هنا تُدرك أن المرور على عُبّاد الأصنام والأوثان والأضرحة والقباب قد يؤثر على الإنسان الذي عنده شيءٌ من العلم بالتوحيد، وقد يؤثر عليه ويلوث قلبه ويدخل عليه شيئًا من الشبهة، وهكذا الحال فيمن يمر من خلال المواقع الانترنت والقنوات الفضائية على مثل هذه الأعمال والصنائع، وربما زُخرف الأمر وزُيّن وأُظهِرت المحاسن والثمار المُدَّعات فينصرف قلب الإنسان عن التوحيد إلى مثل هذه الأعمال الشركية والعياذ بالله، وكم من إنسان

---

(١) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

حصل له مثل ذلك أو شيء منه بسبب مثل هذه المخاطرة؛ ولهذا يجب على كل إنسان ناصح لنفسه أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن يغلق على نفسه باب خطورة القنوات ومواقع الانترنت على نفسه وعلى أهله وعلى ولده وأن يكون من ذلك على حيطة وحذر، قال: «**فحينئذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ**» إذا استحضرت مثل هذه الأمور «**يَعْظُمُ خَوْفُكَ**» أي: على توحيدك وعلى إيمانك، قال: «**وَحِرْصُكَ**» أي: يعظم حرصك؛ لأنه كلما زاد الخوف على الشيء الثمين زاد الحرص عليه، وكلما رَخُصَت قيمة الشيء الثمين في نفس الإنسان قلَّ حرصه عليه، قال: «**يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ**»، وهنا ينبه الشيخ أنك لا تكتفي بمجرد الخوف؛ بل ينبغي أن يكون لهذا الخوف ثمرة وهي: الحرص، وينبغي أن يكون لهذا الحرص ثمرة وهي: بذل الأسباب في كل ما يخلصك من هذه الأمور وينجيك منها؛ ولهذا أقول: ينبغي عليك أن يكون أحرص ما ينبغي أن تحرص عليه في هذه الدنيا التوحيد، وأَخْوَف ما ينبغي أن تخاف منه في هذه الحياة الدنيا الشرك، فليكن التوحيد أعظم أمر تحرص عليه، وليكن الشرك أعظم أمر تخاف منه؛ لأن صلاحك في دنياك وأخراك في التوحيد، وخسران الإنسان في دنياه وأخراه: الشرك بالله، قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤] أي: في دورهم الثلاثة في الدنيا والقبر ويوم القيامة(١).

---

(١) كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط؛ بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب؟» «الجواب الكافي» (ص٥١).

[المتن]

قال: «**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّه -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيد إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَمَا قَالَ -تَعَالَى-:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام:١١٢]، **وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ**».

[الشرح]

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «**وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيد إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً**»، وهذه مسألة مهمة وعظيمة في هذا الباب ينبغي على طالب العلم وطالب الهدى والحق أن يَعِيَها وأن يفهمها، لم يبعث الله نبياً في هذا التوحيد إلا جعل له أعداءً، ليس جَعْلُ الأعداء للأنبياء من هَوَان الأنبياء عند الله؛ ولكن ليبتليَ أنبياءه ولتعلوَا مقاماتهم عند الله ﷻ وترتفع درجاتهم بصبرهم على دين الله وصبرهم على الدعوة إلى توحيده ومكابدتهم في هذا الأمر، وبذلهم الجهود المتواصلة والتضحيات البالغة والجهد العظيم في نصرة التوحيد وحماية حماه والسعي في نشره، ورد الشرك بما يكون لهم عُلو المرتبة ورفعة الدرجة وعُلُو المنزلة.

الله ﷻ ابتلاهم بتسليط الأعداء عليهم من أجل رفعة درجاتهم عند الله وذلك بالصبر والمصابرة؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

الشيخ رحمه الله ينبه على هذه المسألة العظيمة أنه ما بعث الله نبيـاً بهذا التوحيد إلا

جعل له أعداءً، وكلما كان الإنسان أقرب للأنبياء وأتبع لهم وألزم لطريقهم أصيب من هذه المُعاداة بقريب مما أصيب به الأنبياء، وأعظم الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

قال: «كَمَا قَالَ -تعَالَى-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]»، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ هذا فيه أن ما من نبي بعثه الله إلا وله أعداء، من هم أعداؤه؟ قال رب العالمين: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، قال بعض أهل العلم: «قُدِّم ذكر شياطين الإنس على شياطين الجن في هذه الآية الكريمة؛ لأن شيطان الإنس يأتي بهيئة واضحة بهيئة ظاهرة هيئة الناصح المشفق المُحب للإنسان الخير، مما يكون سببًا لانخداع كثير من الناس»، أليس فرعون قال لقومه وهو الذي يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]؟، أليس قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]؟، حتى إن أحد الوُعاظ ذكر أنه عَلِقَتْ في ذهنه هذه الكلمة: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فقال للناس وهو يعظهم: «لا أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾»، عَلِقَتْ في ذهنه ورودها في القرآن وهي كلمة جميلة ولا يقولها إلا إنسان صالح ناصح؛ لكنه نسيَ وهو يُوردها للناس أنها من قول الطاغية فرعون!، يذكر أنها في القرآن هذه الآية: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، من الذي يقول: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إلا الإنسان الصالح الناصح، ولهذا هذا الواعظ علق في ذهنه ورودها في القرآن فقال

للناس في موعظته لهم: «ما أقول لكم إلا كما قال العبد الصالح!: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾»، فشياطين الإنس يأتون بمثل هذه الهيئة، ولهذا قال الله عن فرعون: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف:٥٤]، يستخف الناس بمثل هذه الكلمات؛ بمثل هذه الألفاظ؛ بمثل هذه الزخرفة -كما سيأتي في تمام الآية- قال: «﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام:١١٢]» هذه بضاعتهم؛ بضاعة مُبطلة في كل زمان وأوان الزخرفة؛ زخرفة الباطل، والزخرفة هي تزيين الشيئ وتنميقه وهي إظهاره بالصورة الجميلة، وزخرفة الباطل: بأن يُظْهَر للناس في صورة الحق وبالصورة الطيبة الجميلة.

قال: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا ﴾ أي: الذي يَغُرُّ الإنسان ويوقعه في الهلكة بسبب ما احْتَفَّ به من تزيين وزخرفة وتنميق وتجميل؛ ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص على الحق وأن يحذر من الباطل وإنْ زخرفه المبطلون.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال: «**وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-:** ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]».

[الشرح]

قال: «**وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ**»، وهذه أيضـًا مسألة ينبه عليها الشيخ ﵀ مهمة، فقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، فليس من الضروري أن تلقى في من يعادي التوحيد أناسًا لا علم عندهم؛ بل ربما تلقى من يعادي التوحيد من هو صاحب علم: إما علم باللغة وأساليبها ودرايـةً وعلمًا بها أو بالبلاغة والفصاحة وما إلى ذلك، أو يكون عنده علوم عصرية وأمور من ظاهر الحياة الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]، أو يكون عنده شيء من العِلْم الذي جاء به المرسلين، كأن يكون عنده علم بالقرآن أو علم ببعض الأحاديث؛ ولكنه ليس من أهلها؛ وإنما حفظها وقرأها ودرسها ليُشبِّه على أهلها، حتى قيل في بعض المستشرقين أنه من شدة حرصه على التلبيس على أهل الإيمان حفظ القرآن! حتى يكون مستحضرًا له ويحاول أن يثير على طريقة أهل الزيغ كما ستأتي الآية عند المصنف: «﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]» ولهذا ينبه الشيخ ﵀ على ذلك يقول: «**وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ**» -مثل ما أشرت إليه- إما: علم اللغة، أو علم أمور ظاهرة من هذه الحياة الدنيا، أو أيضـًا علم بأشياء من الوحي يتعلمُها من أجل أن

يلبس على الناس أو يشكك الناس في دينهم، «**عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ**»، أحد السلف يقول في الحذير من صاحب البدعة يقول: «لَا تُجَالِسْ ذَا بِدْعَةٍ، فَيُمْرِضُ قَلْبَكَ، وَلَا تُجَالِسْ مَفْتُونًا، فَإِنَّهُ مُلَقَّنٌ حُجَّتَهُ»[1].

بمعني أنه يأتي مُحمَّلا بالشبهات العاصفة والشبهات الجارفة، فقد يأتي ومعه شيء من الكتب أو العلوم أو الحُجَج التي يُدلي بها؛ ولكنّ هذه التي يحملها هؤلاء في ميزان التحقيق وعند أهل البصيرة في دين الله والرسوخ حقيقتها: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور:٣٩]؛ ولكنّها عند الجهّال وقليلي العلم قد تُخَلْخِل وتُلَبِّس وتُحَرِف وتُغَيِّر وتُبَدِّل.

قال ﷺ: «**كما قال الله تعالى**: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [غافر:٨٣]»، وهذا هو الشاهد من الآية: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي عندهم علم!، ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، قد يكون عنده علم يُجادل به ويُحَاج ويُخاصِم.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن بطة في «الإبانة» (٣٩١).

[المتن]

قال: «**إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ، وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَابُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِن دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِين قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ** -تعالى-: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧]؛ **وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ،** ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، **وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، **فَجُندُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْس مَعَهُ سِلَاحٌ.**

وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وفِي الْقُرْآنِ مَا يَنقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

[الشرح]

قال رحمه الله: «**إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ**» أي: ما قدّم الشيخ رحمه الله ذكره وتقريره، «**وَعَرَفْتَ أَنَّ**

الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَابُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ»، نعود إلى المثال السابق الذي أشرت إليه قريباً: لو كان بيدك كنز ثمين جدًا وأنت تمشي بهذا الكنز وتعلم أن الطريق الذي تسير فيه وتحمل هذا الكنز فيه أعداء كثيرون، وكل واحد منهم يريد أن ينهبه منك وأن يخطفه منك وأن لا يبقيه في يدك لحظة!، تمشي وأنت مخاطر بها وإلّا تكون شديد الحرص؟، فتوحيد الإنسان أثمن شيء، وأمامه أعداء كثُر يريدون خطف هذا التوحيد منه؛ بل قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وإذا أردت لذلك مثالا مطابقا: فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع وبينك وبينه لحم أو خبز وهو يتأملك ويراك لاتقاومه وهو أقرب منك فأنت تزجره وتصيح عليه وهوي يأبى إلا التحوم عليك والغارة على مابين يديك فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له ولكن معلومه ومراده عندك وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر»(١)، والأعداء الذين يريدون خطف التوحيد من الإنسان منهم: أعداء ظاهرون، وأعداء أخفياء، كما قال بعض السلف: «عدو يراك ولا تراه شديد المؤنة» أي الشيطان، فإذا عرف الإنسان أن هناك أعداء يمكرون به وقاعدون له في طريقه، قال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ**»(٢)، قاعدٌ لهم في طريقه ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن» (ص٢٦٢).

(٢) رواه النسائي (٣١٣٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

قال: «**وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لَابُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ، أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ**»، العدو إذا كان مدجج بالسلاح أخطر من العدو الذي ليس معه سلاح، إذا كان عدوك الذي يريد خطف الإيمان منك والتوحيد صاحب فصاحةٍ وعلمٍ وحُجَج فإن هذا أخطر من الإنسان العادي الذي لا علم عنده ولا حجة، والناس يخافون من العدو المحمل بالسلاح أكثر من خوفهم من العدو الذي لا سلاح معه فهذا مما يزيد الحذر والحيطه، قال: «**أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ**».

ثم قال -رحمه الله تعالى- ناصحًا ومحذرًا قال: «**فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِن دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ**»، هذه نصيحة عظيمة جداً من هذا الإمام -رحمه الله تعالى-: «**أَنْ تَعْلَمَ مِن دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ**»؛ لكن إذا مشيت بدون سلاح فأنت على خطر، لاسيما أن طريقك مليئ بالأعداء، وسلاحك الذي يشير إليه الشيخ هنا: العلم، العلم: قال الله قال رسوله، تعرف التوحيد وأن تفهمه أن تحفظ أدلته وأن تعتني بدراسته، ودَعْكَ ممن يهونون من شأن التوحيد ومن دروس التوحيد، دَعْكَ منهم، أعط من وقتك التوحيد الشيئ الكثير، عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ ﴿سُورَةِ البَقَرَةِ﴾ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[١]، قراءتك للآيتين من ﴿سورة البقرة﴾ ولاسيما الآية الأولى منهما تجديد للإيمان،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨).

استذكارًا له كل ليلة، قراءتك ﴿آية الكرسي﴾ مرات وكرات هذا تجديد للإيمان والتوحيد، فلا يزال المسلم يجدد إيمانه ويجدد توحيده.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت: أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا»(١)، فيحتاج الإنسان إلى تجديد إيمانه والسعي في تحقيق توحيده وتكميله وتقويته، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا الله أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»(٢).

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينصحك أن تكون ذا عناية عظيمة جدًا بأمر التوحيد والفقه فيه، وقد جاء في «الصَّحيحين» مِنْ حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٣)، وقوله ﷺ: «**فِي الدِّينِ**» يشمل الفقه في التوحيد الذي هو الفقه الأكبر والفقه ايضـًا في الأحكام، قال: «**فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِن دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ، تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ**» أي: شياطين الإنس والجن الذين

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٤).

(٢) رواه الحاكم في «مستدركه» (٥)، و الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٠).

ولشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة لطيفة بعنوان: «تجديد الإيمان».

(٣) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

مرّ الإشارة إليهم في الآية، «الَّذين قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ -ﷻ-: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦-١٧]»، وتأمل هنا قول عدو الله الذي ذكره الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، فهو أين يقعد وأين يحرص في قعوده؟ في الصراط المستقيم، ولهذا قيل لابن عباس ﵄: أن اليهود تزعُم أن الشياطين لا توسوس لهم في صلاتهم، لا تأتيهم وساوس في صلاتهم!، فقال ﵁: «وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟!»(١)، فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإذا كان الإنسان ماضيًا على الصراط أو تائبًا مقبلا على الصراط مثل: الكافر يريد أن يسلم أو العاصي يريد أن يتوب؛ يقعد له ليَثْنِيه عن الدخول فيه إن كان يريد الدخول أو ليثنيه عن الاستمرار فيه إن كان من أهله.

قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ... ﴿١٧﴾﴾ وهذا فيه أن مجيئ الشيطان للإنسان ودخوله عليه من كل جهاته، فأنت على خطر من جميع الجهات، وينبغي أن تكون على حذر وحيطة في كل الأوقات، عن عبد الله بن عمر ﵄ قال: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنَ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي،**

---

(١) ذكره الإمام ابن القيم ﵀ في «الوابل الصيب» (ص ٤٠).

وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»(١)، قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ وهذا فيه أن أكثر الناس يكونون صرعى لمكر الشيطان وكيده ووساوسه، ويسلم منهم القليل ممن كتب الله -تبارك وتعالى- لهم السلامة وكتب لهم النجاة، جعلنا جميعًا منهم.

قال: «وَلَكِنْ» واسمع هذه الوصية العظيمة: «وَلَكِنْ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»، «إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ» بقلبك وقالبك صادقًا مع ربك -سبحانه وتعالى- ترجو رحمته وتخاف عذابه وتسلم أمرك إليه وتفوض أمرك إليه وترجو نجاتك وسلامتك منه -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

«إذا أقبلت على الله» -سبحانه وتعالى- صادقًا «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللهِ وَبَيِّنَاتِهِ» جمع لك في هذه الوصية رحمه الله في قوله: «أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ وَأَصْغَيْتَ» جمع لك ما جاء في قوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»(٢)، «أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ» أي مستعينًا به متوكلًا عليه ملتجئًا إليه طالبًا مده وعونه وهدايته وتوفيقه، «وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ» أي: بذلت الأسباب التي هي تعلم العلم الشرعي ودراسة العلم الشرعي والفقه في دين الله وملازمة القرآن والسنة علمًا وتعلمًا تلاوةً واستذكارًا ومدارسةً، «فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ» الخوف والحزن إذا جُمعا فإن: الحزن يتعلق بالشيء

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وابن ماجه (٣٨٧١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

الماضي، والخوف يتعلق بالشيء المستقبل، فأنت إذا كنت على هذا الطريق ماضيًا مستعينًا بالله ﷻ ومقبلًا على حُجَجه وبيِّناته لا تخف ولا تحزن، وهذا هو شأن أهل الإستقامة الذين نُفيَ عنهم الخوف والحزن في آيتين من القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت:٣٠].

قال: «﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]» أي: أن أهل الإقبال على الله وحسن الإلتجاء إليه وملازمة كتابه وسنة نبيه ﷺ لا سبيل للشيطان عليهم، ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء:٦٤-٦٥].

قال: «**وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ**»، «**الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ**» الذي عرف التوحيد ولزمه «**يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ**»، قد كانوا قديمـًا يلقّنون العوام في المساجد التوحيد، ويلتزم إمام المسجد تلقين العوام توحيد الله، يلقنونهم التوحيد بحيث أن الإمام في كثير من الصلوات يسأل، يلتفت إلى أحدهم يقول: «اقرأ الدين»، فيبدأ يقرأ، يلقنونه، وإذا وجدوه غير حافظٍ يُعاوِدونه، كانوا يحفظونهم هذا في الصغر، يحفظونه العوام، فتجد أمور الدين؛ الأصول الثابتة التي جمعها الشيخ -رحمة الله عليه- في كتابٍ سماه: (ثلاثة الأصول)، وكتبها بعدة صِيَغ: صيغة للأطفال وصيغة للعوام وصيغة

لطلبة العلم، حتى إن الصيغة التي كتبها للعوام كتبها باللفظة العامية: «**إذا قيل لك وِشْ ربُّك؟ قل: ربيَ الله**» بهذ الصيغة مكتوبة، ويحفظونها العوام؛ لكنهم يفهمون الدين، والذي حفظه في الصغر يكون في عمره الكبير ضابطًا له.

جَدِّي -رحمة الله عليه- كنت عنده قبل وفاته بأكثر من شهر، فقال: «الطواغيت كثيرون» وهو كبير في فراشه في فراش المرض، قال: «الطواغيت كثيرون -لا كثّرهم الله- ورؤوسهم خمسة: أولهم إبليس -عليه لعنة الله-، وثانيهم كذا وبدأ يعد، قال لي الخامس: نسيته، ذكرني إياه»، قلت له: «من عُبِد من دون اللهِ وهو راضٍ»، قال: «نعم، هذا طاغوت مُدَلْدَل»، طاغوت مدلدل يعني مكشوف، الشيئ المدلدل: مكشوف من جميع الجهات واضح للناس من جميع الجهات، الحفظ هذا الذي في الصغر وتلقينه للعوام وغيرهم يبقى معه حتى وهو كبير، حتى إذا خَرُف وكَبُر تبقى هذه المحفوظات معه دين ثابت، دين ثابت يبقى معه؛ لكن إذا كان مُهمَلا لا يُعلَّم ولا يُلقَّن ولا يُدرَّس تجد قلبه خاويا من هذه الأشياء وفارغا منها، بينما إذا حُفِّظ لها ولُقّن إياها وضبطها فمثل هؤلاء العوام -بإذن الله- يُحفَظُون بحفظ الله -ﷻ- من ضلالات المشركين؛ لأن معه دين يحفظه ويضبطه من صغره، ثابت عنده لا يُساوَم فيه ولا يُنازَع؛ فأي أشياء ثابتة يحفظها ويحفظ شيئ من أدلتها ولا يُنازع فيها، يمشي عليها حياته كلها.

فهنا يقول: «**الْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ**» العوام الذين حفظوا الدين بتوفيق الله ﷻ وضبطوه وأصبح دينًا ثابتًا عندهم لا يُساوَمون عليه، إذا جاءه أحد من علماء المشركين ويُزين له عبادة قبر أو توجهًا إلى

ضريح، يقول له: «هذا من الطواغيت: من عُبد من دون الله وهو راضٍ، العبادة لله»؛ لكن إذا كان جاهلاً ولُبِّسَ عليه ببعض الشبهات حرفته -والعياذ بالله- عن دين الله ﷻ.

قال: «**وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [الصافات:١٧٣]» وهنا ينبغي أن يلاحظ أيضـًا تأييد الله لعبده المؤمن ونَصْره له من كان صادقًا في إيمانه وفي توحيده وفي عقيدته، فإنه يحظى -بإذن الله ﷻ- بتأييد الله له وحِفْظِه له و نصره، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٥١]، فيؤيده الله وينصره ويحفظه، قال: «﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]»؛ لأن وليهم الله، وأعداء الدين وليهم الشيطان، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، ومن كان الله وليه كفاه وأيده ونصره ووقاه.

قال: «**فَجُنْدُ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّنَانِ**»؛ لأن معهم نصر الله وتأييد الله ﷻ وحفظه -سبحانه-.

قال مُحذرًا -رحمه الله تعالى-: «**وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ**»، إذًا العامي إذا حُفِّظ الدين ولو شيئ مختصر مثل: (الأصول الثلاثة) التي كتبها -رحمةُ الله عليه- بلهجة مبسطة وبكلمات مختصرة، إذا حُفّظ وكُرِّرَت معه وأصبحت ثابته عنده معها شيئ من الأدلة -فبإذن الله ﷻ- تكون سبب لحفظه وسلامته، «**وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ**

وَلَيْسِ مَعَهُ سِلَاحٌ» فهذا فيه تحذير من التخلي عن العلم الذي هو السلاح، «**وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**»، ونلاحظ هنا ملاحظة مهمة جدًّا: خصوم الشيخ رحمه الله وأعداؤه يزعمون ويدّعون كثيرًا أنه جاء بدين خامس وبمذهب جديد واخترع إلى آخره، ونحن نلاحظ الشيخ -رحمة الله عليه- في كل كتاباته لم يربط الناس بشيئ اخترعه، ولم يربطهم بشيئ أنشأه؛ وإنما كل ربطه لهم بالكتاب والسنة، الآن لما أكّد على مسألة السلاح وأن الإنسان معه يكون سلاح، رأسًا ربط بالقرآن، ليكن معك سلاح، ما قال: «حافظ على مبادئنا -مثل بعض الطرق-، ولا تضيع كلام أشياخنا، ولا تخرج عن (رسومنا)» إلى آخره هكذا يقول دعاة البدع، ما قال ذلك؛ لأنه ليس عنده شيئ أنشأه هو، أما اولئك الأشياء التي عندهم هم أنشؤوها أو أشياخهم؛ ولهذا وصاياهم ربط برسومهم وطرائقهم وأشياخهم ومبادئهم إلى غير ذلك، فالشيخ هنا لما أوصى بحمل السلاح، لو كان يحمل مبدءًا أو يحمل أمرًا هو أنشأهُ أو اخترعه لقال في مثل هذا الموضع لما أوصى بحمل السلاح أوصى به؛ لكن قال: «**وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا** -لما أوصى بالسلاح- **بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**»، أي: فحافظ على كتاب الله وحافظ على سنتة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه-، ولهذا رأيتَه في هذا الكتاب وفي عامة كتبه لا يذكر شيئًا إلا ويُتْبِعُه بالآية والحديث.

قال: «**فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وفِي الْقُرْآنِ مَا يَنقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا**»، وهذا قاعدة وتأصيل من هذا العالم المبارك: «**لَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي**

الْقُرْآنِ مَا يَنقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا»، ما هناك شبهة تُثار يُناقَض بها التوحيد أو يُشوَّش بها على أهل التوحيد إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها؛ لكن هل كل أحد يستحضر ذلك؟ حتى في الأشياء الواضحة، لا فقد لا يستحضرها الإنسان.

أضرب لكم مثالاً: لقيت بعض الطلبة قديمًا قبل أكثر من عشر سنوات في الجمهوريات الإسلامية؛ إذربيجان والمناطق التي هناك، فكنت معهم في بعض الدروس فذكرت لهم فائدة وقفت عليها في كتاب (الحُجَّة) للتيمي؛ وهي «قيل: إن بعض الملحدة قال يومـًا: أنا أخلق، فقيل: فأرنا خلقك فأخذ لحمـًا فشرحه، ثم جعل بينه روثـًا ثم جعله في كوز وختمه ودفعه إلى من حفظه عنده ثلاثة أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم، وإذا الكوز ملآن دوداً فقال: هذا خلقي، فقال له بعض من حضر: فكم عدده، فلم يدر، فقال: فكم منه ذكور وكم منه إناث. وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء فقال له: الخالق الذي أحصى كل ما خلق عدداً وعرف الذكر والأنثى ورزق ما خلق، وعلم مدة بقائه وعلم نفاد عمره»[1]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] هذا في القرآن، فالخالق يعلم، من لوازم الخلق أن يعلم بمخلوقاته، أما يخلق ولا يعلم ما يمكن!، فأبِنْ لنا ذلك؟ كم عدد مخلوقاتك؟ السؤال الأول، كم عدد الذكور من الإناث؟ كل واحدة من هذه الدود متى تموت؟ كل واحدة من هذه الدود ما هي أرزاقها وأقواتها؟ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾!.

وهذا موضع الشاهد: ذكرت هذه الفائدة في أحد الدروس، فجاءني أحد الطلبة يُعظِّم هذه الفائدة تعظيمـًا ما سمعته! تعظيم شديد، «سبحان الله ما أعظم هذا

---

(١) «الحجة في بيان المحجة» (ص ١٤٣).

الكلام!» قال: «هذا أحد الشيوعيين فعله عندنا في الفصل!» يقول: «ونحن نعرف أنه خطأ؛ لكن ما نعرف هذا الكلام، ما هدينا لهذا، ثم يقول: «ليتني عرفت هذا الكلام حتى أقوله!»، إذًا الحجة موجودة، فقد تكون تحفظ أنت الآية حفظًا متقنًا؛ لكن ما يحضرك الاستدلال بها، ومعرفة دلالتها، لذلك يقول الشيخ: «**فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا فِي الْقُرْآنِ مَا يَنقِضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا**» و الشيخ لا يذكر شيئا إلا بدليله، فقال: «**كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣]» ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي بحُجَّةٍ أو بشبهةٍ أو نحو ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: «فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن: هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه»[1]، وهذا كله في كتاب الله عز وجل قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة أو بشبهة أو نحوِ ذلك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2].

فإذًا القرآن الكريم كفيل بإبطال شبهات المبطلين وأضاليل المضلين، وهذا يقوله الشيخ رحمه الله لك حتى تعتني بالقرآن، ليس المُراد بالعناية بالقرآن: حفظ حروفه

---

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ٣٣٠).

(٢) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلا آيات بعد آيات، وأحكاما بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[الفرقان: ٣٢،٣٣]، ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام» «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٩٢).

فقط؛ بل المراد مع الحفظ الفَهم؛ فَهم معانيه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١]، قال أهل العلم: «لا يكون تَالِيًّا له حق التلاوة إلا بالحفظ والفهم والعمل»، بهذه الأمور الثلاثة.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فمثلا: شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ التزم مع خصومه؛ ومع أعداء التوحيد وأعداء الإيمان أن لا يحتجوا على باطلهم بآية من القرآن إلا ويرد عليهم بالآية نفسها التي احتجوا بها!، وقال: «أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله»[(١)]، أي: غير الآيات الأخرى الكثيرة!؛ لكن التزم التزامًا أن أي مُبطل يحتج بآية على باطله بآية من القرآن أن يرد عليه بالآية نفسها، وأن يبين بطلان ما هو عليه بالآية نفسها.

ومن تطبيقه العملي لهذا الأمر في صغره ﷺ: أنه لقي أحد المتصوفة، وقال ذاك المتصوف: «إن من أسماء الله (هُو)! هذا اسم من أسماء الله»، قال: «دليل ذلك في القرآن قال: «﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]»، فقال ﷺ: «وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا مَا قَالَهُ: لِي مَرَّةً شَخْصٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الغالطين فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قَالَ الْمَعْنَى وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ (هُوَ أَيْ اسْمُ «هُوَ «الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: «هُوَ هُوَ «وَصَنَّفَ ابْنُ عَرَبِيٍّ كِتَابًا فِي «الهو «فَقُلْت لَهُ - وَأَنَا إذْ ذَاكَ صَغِيرٌ جِدًّا - لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ: لَكُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ مَفْصُولَةً تَأْوِيلُ هُوَ وَلَمْ تُكْتَبْ مَوْصُولَةً وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي قَالَهُ هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالِاضْطِرَارِ، وَإِنَّمَا كَثِيرٌ مِنْ غَالِطِي الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ

(١) نفله عنه تلميذه الإمام ابن القيم في كتابه «الروح» (ص٢٠٢).

مِثْلُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»[١]؛ لأن هذا رسمها، (هو): هكذا تُرسَم: ها - واو، قال: «لو كان الأمر كما تقول لرسمت بالواو»، فأبطل قوله بالآية نفسها، وهو ملتزم ﵀ هذا الإلتزام أنه لا يستدل مبطل على باطله بآية من القرآن إلا يُرد عليه بالآية نفسها، فضلاً عن الآيات الأخرى، ثم إنه فيما بعد التزم التزامًا آخر مع المتكلمين أنهم لا يتحجون على باطلهم بحجة عقلية إلا ردّ عليهم باطلهم بالحجة نفسها، والتزم هذا الالتزام؛ لأن العقل الصحيح لا يدل إلا على حق، فإذا قالوا شيئًا يحتجون عليه بالعقل يُبيِّن لهم بالعقل من خلال الاحتجاج نفسه أنه أمرٌ باطل ولا يستقيم.

«قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.»

ثم بعد ذلك دخل -رحمه الله تعالى- في أساس الموضوع بعد أن مهّد بهذه التمهيدات، دخل في أساس الموضوع وهو (**كشف الشبهات**).

وكان في طريقته -رحمه الله تعالى- في كشف الشبهات أن ذكر أولاً إجابة مُجملة في رد كل شبهة، ثم ضرب أمثلة لبعض الشبه التفصيلية وأجاب عنها تفصيلًا، ويكون الكتاب -بإذن الله ﷻ- سلاحًا عظيمًا لطالب العلم في باب الشبهات، ولا يكون هذا سلاحًا لك إلا إذا ضبطت هذه المقدمات التي انتهت ضبطًا مُتقنًا وعرفتها

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٦٠).

وعرفت دلائلها، ثم عرفت الجواب المُجمل، وتضبطه ضبطًا جيدًا، ثم بعد ذلك الأجوبة التفصيلية، وهذه كثيرة جدًا قد لا يتهيأ لك العلم بكل التفاصيل؛ لكنك إذا أخذت أمثلة من التفاصيل وطريقة أهل العلم في الإجابة عليها تُصبِح معك سلاح -بإذن الله ﷻ- تقطع به دابر كل مبطل، جعلكم الله أجمعين من أنصار دينه وحماة التوحيد.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[المتن]

قال: «**وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواب لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا.**

فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجمَلٍ، ومفَصلٍ.

أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منهُ فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- بعد مقدماتٍ تمهيدية عظيمة صدَّر بها كتابه المبارك (**كشف الشبهات**)، بعد تلك المقدمات التي لابد منها في هذا الباب شرع في مقصود الكتاب وهو كشف الشبهات، بأن يذكر الشبهة ويُبيّن ما يكشفها ويُعرِّيها ويُبيّن زيفها ووَهاءَها، وأنها لا تقوم إلا على الباطل، ولا تُفضي إلا إلى الباطل.

ولعلك أيها الأخ الموفق عرفتَ بتلك المقدمات التي بدأ بها الشيخ أنّ الجانب التأصيلي في طالب العلم -أعني فهمه للعقيدة ودلائلها وبراهينها من كتاب الله ﷻ

ووضوح أمرها عنده- هو الأساس الذي لابد منه، وإن لم يكن عند طالب العلم أصول ثابتة وأمور راسخة يقوم عليها دينه وإيمانه وتوحيده فإن الشبهات تُؤثر عليه وتدخل عليه، وربما أثّرت في نفسه؛ ولهذا كان كتاب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله الذي عنوانه (كشف الشبهات).

ولعلك لو كنت تقرأ هذا الكتاب لأول مرة تتوقع أنّ مُصنِّفه من أول ما يبدأ في كتابه يُعدد الشبهات ويجيب عليها، وتظن أنّ هذا الذي سيصادفك في الكتاب من أول وهلة؛ ولكنّ الشيخ -رحمةُ الله تعالى عليه- لحصافة علمه وحُسْن نصحه وتمام بيانه وحسن درايته في هذا الباب العظيم ودخوله في المُعتَرك مع خصوم التوحيد وأعداء العقيدة؛ قرّر لك في بداية الكتاب جملةً من الأصول والقواعد والأسس التي لابد من ضبطها، وكان يُنبّه -رحمةُ الله تعالى عليه- على أنّ هذه الأمور لابد أن تعرفها معرفة قلب، ولعلك تنبهت لنصحه الذي تكرر معك فيما تقدم من كتابه رحمه الله، حيث يقول تارةً: «إذا تحققت من ذلك»، وتارةً يقول: «إذا عرفته معرفة قلبٍ» إلى غير ذلك من أنواع التأكيدات وصيغ العناية والإهتمام التى مرّت معنا في مقدمة هذا الكتاب، كل ذلكم يُؤكِّد أنّ طالب العلم لابد له في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل أن يكون على قدرٍ من الإلمام بأصول الدين وقواعده ودلائله؛ فيبدأ مُؤصِّلًا نفسه بفَهم الحق وضبطه ومعرفة دلائله وحُججه وبراهينه، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرحلةٍ أخرى تتعلق بكشف الشبهة وبيان عَوَارِها، وعندما يدخل طالب العلم دخولًا أوليًا في باب الشبهات والنظر فيها ومحاولة كشفها فإنّه يُضرُّ بنفسه من حيث يشعر أو من حيث لا يشعر!، وليست هذه هي جادّة أهل العلم.

ثم إنّ الشيخ رحمه الله لمّا بدأ بموضوع الكتاب ألا وهو (كشف الشبهات) ودخل في صميم الموضوع؛ بدأ بقوله هنا: «**وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا**» وهذا أيضا من دقّة الشيخ رحمه الله، فالاهتمام كما تلاحظ بـ«القرآن»، والاحتفاء بالقرآن وأدلة القرآن لا بالشبهات.

ولعلك تتصور والموضوع في كشف الشبهات أنه إذا بدأ في صميم الموضوع أن يقول لك: «وأنا أذكر لك بعض الشبهات وأذكر جوابها من القرآن»لم يقل ذلك، وهذا من دقّة علمه وحسن التفاته إلى كتاب الله عز وجل واحتفائه بالأدلة وعنايته بها، ففرقٌ بين العبارتين، فرقٌ بين قوله -رحمة الله تعالى عليه- «**وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا علينا.**» فرقٌ بين هذه العبارة وبين أن يقول القائل: «وأنا أذكر لك شبهاتٍ قالها المشركون في زماننا وأذكر لك أدلة من القرآن تكشف زيفها أو تُبيّن وَهاءَها»، فرقٌ بين العبارتين، والشيخ -رحمة الله تعالى عليه- لمّا ذكر لك هذا البدء بهذا الأسلوب يُنبهك تنبيهًا في غاية الأهمية ألا وهو أن يكون اهتمامك من حيث الضبط والإتقان هو بالأجوبة التي هي من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهذه التي عليك أن تعتني بضبطها وإتقانها والإهتمام بها، أما الشبهة إياك أن تحاول أن تُمكّنها من قلبك؛ لأنها قد تتمكّن من القلب ولا تخرج، فإذا نظرت في الشبهة أو اضطررت إلى النظر في الشبهة لا تجعل قلبك يمتص الشبهة، ولهذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله «وقال لي شيخ الاسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيرادا بعد إيراد: لاتجعل قلبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر

الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا اشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرا للشبهات، أو كما قال»[1]، ومن المعلوم أن الإسفنجة تشرب الماء وتمتصه ويكون الماء واصلًا إلى كل جزء من أجزائها، بينما المرآة تعكس الشيء ولا تمتصه ولا يصل إلى داخلها وإنما تعكسه عكسًا مباشرًا، فقال: اجعل قلبك للشبهة كالمرآة، ولا تجعل قلبك للشبهة كالإسفنجة.

وهذا البدء من الشيخ -رحمة الله عليه- هنا ينبهك إلى أن الاهتمام هو بضبط الأدلة، فأنت الآن وأنت تقرأ ما سيأتي اهتم من حيث الضبط والإتقان والعناية والاهتمام بالأدلة، وليكن نظرك لهذه الشبهات النظر السريع الذي تعرف وجه بطلانه؛ لأنك قد تحتاج يومًا من الأيام بأن تُثار في مجلس تكون أنت حاضره أو في موطن أنت لك شأنٌ فيه أو نحو ذلك فتحتاج إلى هذه الأجوبة.

قال: «**وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه**»، وتقديم الـ(كتاب) هنا من باب تقديم ما حقه التقديم وما حقه العناية والإهتمام، وهذا -كما قدّمت- من حصافة علمه وجميل نصحه وحسن بيانه -رحمه الله وغفر له وأسكنه الجنة-.

قال: «**جوابًا لكلامٍ احتج به المشركون في زماننا**»، الشيخ -رحمة الله عليه- لمّا انتدب -بعون الله ومدِّه وتوفيقه- لنُصرة التوحيد وبيانه تصدى له عباد القبور وأهل الشرك والضلال وأخذوا يصفونه بالصفات ويتهمونه بالاتهامات ويُثيرون حوله الدِّعَايات المُغرضة حتى لا يسمع له أحد، وهذه الطريقة التي صنعها أعداء

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٠).

التوحيد معه هي صنيع أعداء التوحيد وأعداء الأنبياء في قديم الزمان، فكانت طريقتهم إثارة الدِّعَايات والاتهامات وإلقاء الكلام جُزافًا.

نبينا ﷺ أفضل عباد الله أُتُّهِمَ بأنه ساحر وبأنه كاهن وبأنه شاعر وبأنه مجنون، وكان الغرض من إثارة هذه الاتهامات حتى ينفضَّ الناس عنه ولا يسمعوا إلى كلامه، فالشيخ -رحمة الله عليه- في زمانه بُلِي بأعداء كانوا يُشككون في دعوته ويُثيرون شبهات حول أدلة التوحيد التي يُبرزها ويُبيّنها ويدعو إليها -رحمة الله عليه-، وكان حصيلة دخوله هذا المُعترَك والخصومة مع أعداء التوحيد والمناقشات والردود أن أعطاك هذه العُصَارة والخُلاصة العظيمة التي هي أعظم سلاحٍ لطالب العلم في باب كشف الشبهات وتعرية الباطل؛ وذلك لأن الشبهات التي أجاب عنها الشيخ -رحمة الله عليه- بالأجوبة المُسدّدة في هذا الكتاب المبارك هي أبرز الشبهات التي أُثيرت ولاتزال تُثار من أهل البدع والأهواء.

وأريد أن أنبهك على أمرٍ ألا وهو أنك إذا ضبطت أجوبة الشيخ -رحمة الله عليه- الآتية، سواء منها الجواب المجمل وهو الأهم والأعظم، ثم الأجوبة التفصيلية، فإنه -بإذن الله ﷻ- سيكون ما بعد هذه الشبهات أمرها أيسر، وسيكون في الأجوبة التي تمر عليك تقعيدًا لك في رد كل شبهة -بإذن الله ﷻ-، أقول ذلك استدعاءً لاهتمامك بأجوبة الشيخ رحمه الله المُسدّدة الآتية في هذا الكتاب المبارك.

قال رحمه الله: «**فنقول: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين: مُجْمَلٍ، ومفَصلٍ**»، جواب أهل الباطل: أي فيما يُيرونه من شبهاتٍ على التوحيد والدعوة إليه والتحذير من الشرك والخرافة والباطل؛ من طريقين: طريقٍ مجمل، وطريقٍ مفصل.

ويعني ﷺ بالجواب المُجمَل: ذكر تقعيدٍ عام وتأصيلٍ كليّ يفيدك في الجواب على أي شبهة تُثار ضد التوحيد، هذا هو الجواب المجمل؛ ولهذا أكّد الشيخ ﷺ تأكيدًا قويًّا على ضبط الجواب المجمل والعناية به وحسن فهمه؛ لأنه بمثابة التأصيل العام والتقعيد الكليّ الذي إذا ضبطته فإنك -بإذن الله ﷻ- تستطيع أن تُجيب به على أي شبهةٍ يُثيرها مُشرك.

بدأ بالجواب المجمل وأكّد على الاهتمام به لقوله: «**فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها**»، لمن عقلها، فمن عقل هذه الإجابة المُجملَة التي تصلُح جوابًا لكل شبهةٍ تُثار ضد التوحيد فهي الفائدة الكبيرة والعظيمة بالنسبة له.

قال: «**وذلك قوله تعالى:** ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]»، سيأتي تقرير الشيخ للجواب في ضوء هذه الآية؛ لكن أُبيّنُ أولًا شيئًا من معاني هذه الآية المباركة ودلالاتها، قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ قَسَمَ -ﷻ- دلالات آي الكتاب؛ آي القرآن إلى قسمين، قَسَمَ الأدلة السمعيّة إلى قسمين: مُحكَم، ومُتشابِه.

فأخبر ﷻ أن كتابه القرآن الكريم ﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾، والمراد بالإحكام هنا: الوضوح؛ وضوح الدلالة وظهورها وبيانها وعدم خفائها،﴿ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ أي: بيِّنات واضحات جليّات دلالاتها ظاهرات، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ وأم الشيء أصله الذي عليه يُبنى وإليه يُرجع وعليه يُعوَّل، قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: الآيات

المحكمات هنّ أم الكتاب، أي: هنّ الأصل وهنّ المَرجِع وعليهنّ المُعوَّل، قال: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والآيات المحكمات واجبنا نحوها أن نؤمن بها وأنها من عند الله ﷻ وأن نفهمها ونَعِيَ دلالاتها وأن نعمل بها، هذا واجبنا نحوها.

قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾، ﴿وَأُخَرُ﴾ أي: من آيات القرآن شأنها أنها متشابهة، والتشابه المراد به: خفاء المعنى وعدم ظهوره لكل أحد، هذا هو المراد بالتشابه هنا، أي: أن المعنى فيها ليس ظاهرًا بيّنًا؛ بل فيه شيء من الخفاء وعدم الظهور، ولهذا فإنّ المتشابه -تشابه المعنى- من آيات الكتاب لا يظهر معناه واضحًا إلا للراسخين في العلم الذين طريقتهم ومن رسوخهم في العلم ردّوا متشابه آي القرآن إلى مُحكمِه، لهذا قال الله -تبارك وتعالى- في تمام الآية: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

والمراد بقوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ على قول لأهل العلم وهو على قراءة الوصل في الآية: أي لا يعلم معناه وتفسيره إلا الله والراسخون في العلم؛ أي: أنّ الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه لرسوخهم في العلم، ولهذا جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: «أنا ممن يعلم تأويله»[1] أي: تأويل المتشابه، وعليه فإنّ قوله: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ التشابه هنا في المعنى، وهو ليس تشابهًا مُطلقًا كُليًّا بحيث لا أحد يفهمه؛ حاشا أن يكون كلام الله -سبحانه وتعالى- فيه طلاسم

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٢٠٣).

لا تُفهم وأمور لا يُدرى ما هي؛ بل المتشابه هنا هو التشابه النسبي وليس المُطلَق في المعنى.

أما إذا أُريدَ بالتشابه من حيث الحقيقة وهذا في قول في تفسير الآية من حيث الحقيقة والكيفية فهو تشابه كليّ لا يعلمه إلا الله، في كيفيات الأمور المُغيَّبة لا يعلمها إلا الله -تبارك وتعالى-، وهنا يلزم الوقف في القراءة، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تقف هنا، إذا كان المراد بالتشابه: التشابه من حيث الحقيقة والكيفية فهذا أمرٌ لا يعلمها إلا الله.

أما من حيث المعنى؛ معاني القرآن فإن الآيات المتشابهات يعلم الراسخون في العلم معانيها، وقد قال مُجاهد رحمه الله: «عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاث عَرْضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقِفه عند كل آية منه وأسألُه عنها»[(١)].

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ الآيات المتشابهات ماهو واجبنا نحوها نحن طلاب العلم؟ ما وجابنا نحو الآيات المتشابهات؟ وقد عرفنا قريبًا الواجب نحو الآيات المُحكَمات.

الآيات المتشابهات يجب علينا نحوها أمران:

الأمر الأول: أن نؤمن أنها من عند الله، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، نؤمن أنها من عند الله وأنها كلامه وتنزيله -تبارك وتعالى-.

والأمر الثاني: أن نتّبع المُحكَم من آي القرآن الكريم ونرد إليه ما تشابه علينا من

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٥٠).

آي القرآن، نتّبع المُحكَم ونرد إليه ما تشابه علينا من آي القرآن، فتكون الطريقة نحو الآيات المتشابهات:

أولًا: أن نؤمن بها وأنها من عند الله وأنها تنزيله وكلامه، نؤمن بذلك.

والأمر الثاني: أن نردّ ما تشابه علينا من آي القرآن إلى المحكم، لأن الله قال عن الآيات المحكمات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأم الشيء أصله الذي إليه يُرجع وعليه يُعوَّل، فنرد ما تشابه من آي القرآن علينا إلى المحكم من آي القرآن، وبهذا يكون الاهتداء، وهذه طريقة أهل الحق وأهل العلم مع الآيات المتشابهات، إذا تشابهت على الإنسان آيةٌ في كتاب الله ﷻ رأسًا يُعيدها إلى الآية المُحكمة، رأسًا يُعيدها إلى الآية المُحكمة والنصوص المُحكَمة التي ظاهرٌ دلالتها وظاهرٌ الحُكم منها ومتقرِّرٌ واضحٌ بيّن، فإذا تشابه عند الإنسان شيءٌ من الآيات أعاده للمحكم وحينئذٍ يتبيّن الأمر.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا في رد المتشابه إلى المُحكَم فيزول الالتباس ويذهب الاشتباه ويتضح الأمر، وأضرب على ذلك مثالًا من خلال قصةٍ حصلت من أحد رؤوس المعتزلة وكبارهم، قال ابن قتيبة رحمه الله: «حدثنا قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة فأقوم بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلته ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣]،قلت له: وما في البيت أصغر مني أرأيت إن قال لك: قد قلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر؟

قال: فما استطاع أن يرد علي»[1]، إلى هذا الحد عندما يُطرح مثل هذا الكلام على عوام الناس وجُهّالهم تُؤثِّر فيهم، مثل إثارة هذا المعنى في مثل هذه الآية التي يشتبه معناها على كثير من الناس، ولمّا كان المعنى مشتبهًا على كثيرٍ من الناس ولم يُوفّقوا لردها إلى المحكم من آي القرآن تجد أن هذه الآية أبرز ما يحتج به الخوارج والمعتزلة في عقيدتهم، والسبب إتباع المتشابه وترك المحكم، فكان في المجلس شابٌ اسمه أنس وهو أصغر من في المجلس فقال وأجرى الله ﷻ الجواب المُسدد على لسانه، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] وقد شئتُ أن أغفر له، فماذا تقول؟»، لاحظتم الجواب، رد هذه الآية المتشابه معناها إلى الآية المحكمة، قال: «فإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]» ﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني دون الشرك، ﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ لأن الله ﷻ جعل كل أمرٍ دون الشرك تحت مشيئته، قال: «وإن قال لك: وأنا قلت في القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦،٤٨] وقد شئتُ أن أغفر له، فماذا تقول؟» فبُهِت! ولم يجد جوابًا!، وفي هذه الآية التي هي مَثار الشبهة عند القوم وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣] هي في ﴿سورة النساء﴾ ومسبوقةٌ وملحوقةٌ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، جاء في ﴿سورة النساء﴾ قبل هذه الآية

---

(١) «تأويل مختلف الحديث» (ص٨٣).

بآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وجاء بعدها بآيات في ﴿سورة النساء﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦]، ويأتي هؤلاء الخوارج والمعتزلة إلى هذه الآية في أثناء السورة ويتركون ما قبلها وما بعدها من الآي المحكم الذي يوضح معناها مما يدل على أنهم أصحاب أهواء، وإلا لو كان صاحب حق لمرّ في طريقه وهو يقرأ ﴿سورة النساء﴾ قبل أن يصل إلى هذه الآية إلى آية مُحكمة في الباب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، وإذا فرغ من قراءة هذه الآية التى ثارت عنده الشبهة فيها سيأتي بعدها بآيات ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦]، أليس واضحًا بيّنًا قوله: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا ﴾ داخلٌ تحت قوله ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أو ليس واضحًا؟ واضح؛ لأنه دون الشرك وما دون الشرك جعله رب العالمين تحت المشيئة، فلماذا نجزم نحن في أمرٍ جعله الله رب العالمين تحت المشيئة نجزم جزمًا أنه ليس تحت المشيئة وأنه لابد من الخلود؟!.

وبهذا يتضح لك أنّ ما تشابه على الإنسان من الآيات أو من الأحاديث مثل حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»**[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩).

هذا الحديث ترده إلى المحكم من القرآن الكريم يتضح لك الأمر ويستبين.

فإذن طريقة أهل العلم هي: رد ما تشابه من النصوص إلى المحكم منها فيزول الإشتباه.

وطريقة أهل الزيغ اتباع المتشابه وترك المحكم، يتركون المحكم ولا يلتفتون إليه ولا يُعوِّلون عليه ويتبعون المتشابه.

قال: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، ثم ذكر -ﷻ- منهجين للناس، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: انحراف، الزيغ هو الإنحراف والعدول عن الجَادَّة السويّة والسَّنن القويم، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، ﴿مِنْهُ﴾ أي: القرآن، ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: من آيات القرآن، فيتَّبعون الآيات المتشابهات، لماذا؟، ما السبب؟، لأجل ماذا؟، قال: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: طلباً لإثارة الفتنة على الناس في دينهم وعقائدهم وإيمانهم وتوحيدهم، تشكيكاً وإثارةً للشبهات والشكوك تلبيساً على الناس، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: فتنة الناس في دينهم وإيمانهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: تأويل القرآن بصرفه عن معناه ومقصود القرآن ومراده إلى أهوائهم وعقائدهم وآرائهم وتصوراتهم، ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: صرفه عن ظاهره إلى ما يريدونه وما تقرر عندهم بسبب الأهواء؛ ولهذا قالوا عن أهل البدع والأهواء أنهم أولاً يعتقدون ثم يستدلون، وعندما يعتقد أولاً ثم يستدل ثانياً يبدأ بهذه الطريقة يبتغي تأويل القرآن، بحيث يكون موافقاً لما يهوى، وموافقاً لما يعتقد بالبحث عن

مُستكرَه التأويلات وغريب اللغات ووَحْشِيِّ اللغات؛ حتى يجعل آيات القرآن أو يُطوِّع آيات القرآن لتكون دالةً على ما يعتقد، هذه طريقة أهل الزيغ.

قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران:٧]، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾، ما المراد بتأويله هنا ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾؟، ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ هنا على ما سبق تحتمل أحد أمرين:

- ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ أي: معناه، وهذا إذا قُصِد بالمتشابه -فيما تقدم- أي من حيث المعني، وعليه فإنه يجوز الوصل، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ لأن الراسخين في العلم يعلمون معناه، قد نقلت لكم كلام ابن عباس رضي الله عنهما تُرجمان القرآن وحَبْر الأمة في هذا الأمر.

- ويحتمل أن ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ المراد به: حقيقة ما يؤول إليه، حقيقته وما يؤول إليه، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله.

إذا أُريد بالمتشابه: الحقيقة والكُنْه والكيفية، فهذا أمرٌ لا يعلمه إلا الله.

والتأويل: تارةً يُراد به التفسير، وتارةً يُراد به حقيقة الشيء وما يؤول إليه.

قال: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ على القول الأول: لا يعلم معناه -أي معنى المتشابه- إلا الله والرسخون في العلم، أي: الراسخون في العلم يعلمون معناه.

وطريقة الراسخين في العلم تجاه المتشابه أنهم يؤمنون به أنه من عند الله، ويردونه إلى المُحكَم، على خلاف طريقة أهل الزيغ، قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾، كله حق، وكله من الله، وليس في القرآن

تناقض ولا اضطراب، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، ولا يستقيم الأمر للإنسان في هذا الباب إلا إذا كان على هذا النهج، يَرُد المتشابه من آيِّ القرآن إلى المُحكَم.

أما إذا كان بمعزلٍ عن آيات القرآن ودلالاته، ويجتز من النصوص أشياء يُشبِّه بها على الناس؛ فهذه طريقة أهل الزيغ، مثل طريقة الجهمية الذين يقولون أن الله في كل مكان، يقرؤون مستدلين على قولهم «إن الله في كل مكان»، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

والإمام ابن القيم -رحمه الله- يقول:

يَا قَوْمَنَا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَا ... أَلْفًا تَدُلُّ عَلَيْهِ بَلْ أَلْفَان

يعني الآيات التي في القرآن والأحاديث التي بالسنة التي تدل على علو الله ليست مئة ولا مئات ولا ألف؛ بل بالآلاف، تُتْركُ هذه الآيات الواضحات البيِّنات المُحكَمات والأحاديث الواضحات ثم يأتي إلى جزء من آية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ويحتج به على أن الله في كل مكان، هل هذه طريقة أهل العلم؟، حاشا والله.

ولهذا الإمام أحمد رحمه الله لما أراد أن يردَّ عليهم، قال: «بدأ الله الخبر بالعلم وختم الخبر بالعلم»، يعني هذا السياق في العلم؛ لكنَّ القوم لا يقرؤون النصوص كاملة؛ بل يجتزؤون من وسط النصوص آية، أو من وسط الآية جزء آية، ولعله ظهر لكم مثالان على ذلك، إما أن يجتزأ من وسط الآية جزء آية، أو يجتزأ من الآيات آية مع أن السياق بتمامه يُوضح المعنى ويُبيِّنه.

فإذاً طريقة أهل الرسوخ وأهل العلم رد المتشابه إلى المُحكَم.

فموضوع توحيد العبادة مثلا، الشيخ يُنبهك هنا -كما سيأتي في كلامه رحمه الله أنه يجب أن يكون راسخًا في قلبك ثابتًا عندك أن العبادة حق لله، وأن الله خلقك لتوحيده؛ لتُفرِده بالعبادة، واحفظ على هذا الأصل جزءً من أو طرفًا من الأدلة، وهذا أمرٌ مُحكَم، العبادة حقٌ لله، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]،

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٢٢]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الأحقاف:٥]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦]، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تجعل الأمر مُحكَمًا بيِّنًا ظاهراً عندك أن العبادة حقٌ لله، ليس لله -تبارك وتعالى- شريكٌ فيها، فإذا رسخ الأمر وضبطه بأدلته، إذا جاءك إنسان بآيةٍ أو بحديثٍ يُريد من خلاله أن يُقرر لك أنه يَسُوغ أن يُدعَى غيرُ الله، فهذا الآن يُنازعك في أصلٍ راسخ، ويأتيك بأمرٍ قد يكون مشتبهًا عليك ولا يكون مشتبها على أهل العلم؛ لكن إذا ضبطت هذا الأصل المُحكَم وأتقنته فإذا أثار عندك شيئًا من هذه الشبهات أعدته إلى المُحكَم، وإذا لم يكن عندك جوابٌ حاضر تفصيلي على الآية المُعيَّنة التي ذكرها أو الحديث المُعيَّن الذي ذكره

تكتفي بجوابه المُجمَل وإعادته إلى المُحكم، وتقول له: «أما جوابك التفصيلي على شبهتك هذه فتجده عند أهل العلم الراسخين، أما أنا لا أقبل كلامك، وأعتقد تمامـًا أن كلامك باطل، وأنك على ضلال، وهذا هو المُحكَم من آيات القرآن تدل على بطلان هذا الأمر الذي أنت عليه»، فرددت ما تشابه عليك وعليه أو ما تشابه عليه وواضحٌ لك ولكن لا تعرف عليه جوابـًا تفصيليـًا رددته إلى المُحكَم.

فإذاً الجواب المُجمَل أن يكون راسخـًا عندك في هذا الباب، الأمر المُحكَم في أمور الاعتقاد بأدلته، فإذا ما أُثيرت شبهة رددت المتشابه إلى المُحكَم، وبهذا يكون الجواب الإجمالي على تفاصيلٍ فيه يأتي تقريرها عند الشيخ -رحمه الله تعالى-.

لما أورد ﵀ الآية قال بعدها: «**وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ»**»، انتبه هنا -رعاك الله- إلى قول نبينا ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(١)، وهذا آية من آيات النبوة، أنه سيوجد في أمته ﷺ أقوامٌ شأنهم اتباع المتشابه، وفي الوقت نفسه نصح ﷺ وهو الناصح الأمين -صلوات الله وسلامه عليه- في الطريقة التي ينبغي أن يكون عليه الإنسان نحو هؤلاء، قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ**» يعني: إذا ابتليتم بمن هذا شأنهم، «**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»: سماهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾، بهذا سماهم الله، قال: «**فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ**» أي: في هذه الآية، قال: «**فَاحْذَرُوهُمْ**» أي: إيَّاكم وإيَّاهم، اجتنبوهم، ابتعدوا عنهم، هنا قال: «**فَاحْذَرُوهُمْ**» أي: ابتعدوا عنهم، احذروا من

---

(١) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

الإصغاء إليهم، والركون إلى شبهاتهم، واستماع زخرفاتهم للقول وتزيين العبارات وتنميق الكلمات، احذروهم.

وإن لم يعمل المسلم بهذه النصيحة التي نصح بها النبي ﷺ يورِّط نفسه، قال: «**فَاحْذَرُوهُمْ**» أي: كونوا منهم على حذر.

ومراد الشيخ -رحمه الله ﷺ- بذكر الحديث بعد الآية أن ينبهك -يا طالب العلم- لتكون على حذر من أهل الشبهات.

والآن في زماننا وقد عاينتُ من هذا الصنف كثيراً من الشباب ومن تلوثت بعضهم ببعض الأفكار السيئة والشبهات المُردِيَة، والسبب عدم عملهم بهذه النصيحة النبوية: «**فَاحْذَرُوهُمْ**»، تجد الشاب خلو من العلم ثم من باب ما يُسمى حب الإطلاع والفضول يبدأ يدخل على ما يقوله الجهمية وما يقوله الرافضة وما يقوله المتصوِّفة، يقول: «أريد أن أرى ماذا عندهم»، ويدخل في المواقع، ويدخل في القنوات، ويدخل ثم يُفاجأ بعد فترة من الزمان وإذا عقله وفكره مُلوَّث، ويَوَد أن يتخلص من تلك الشبهات فلم يستطع؛ بل بعضهم يكون لا علم عنده ويأتي عند بعض كبار هؤلاء المُبطِلَة وهو بزعمه يريد أن يناقشه ويناظره ويبطل ما عليه من باطل!، ثم يُفاجأ أنه خرج وقد ابتُلِيَ ببعض الشبهات التي استقرت في قلبه، ومتى يتخلص منها؟!، فهذه نصيحة مهمة وعظيمة يجب أن تكون عند طالب العلم الذي يريد حفظ إيمانه ودينه، قال: «**إذا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**» أي: كونوا منهم على حذر.

وكأني بالشيخ -رحمه الله تعالى- يريد أن يُؤكد عليك ألا تحتفي بالشبهات،

احتفاؤك بالقرآن؛ بالآيات؛ بالأدلة؛ بالحجج؛ بالبراهين؛ بكلام أهل العلم الراسخين، والشبهة إذا عرضت لك دون طلبٍ منك لها وبحثٍ عنها فردَّها إن كنت ذا علمٍ تفصيلي بجوابٍ تفصيلي، وإن كنت لست على علمٍ تفصيلي فردَّها بالجواب المُحكَم وبالجواب المُجمَل مباشرةً ولا تقف مع تفاصيل صاحب الشبهة.

قال: «**مثال ذلك**»، قوله: «**مثال ذلك**» الإشارة في «ذلك» إلى الجواب المجمل، «**مثال ذلك**»: أي مثال الإجابة المُجملَة لبعض شبهات المشركين، قال: «**إذا قال لك بعض المشركين** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]»، يقولون لك: «لا تؤمنون بالأولياء، بمكانة الأولياء؟، هذه آية في كتاب الله ﷻ، فيها ثناء الله على أوليائه، وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا يدل على مكانة الأولياء، أنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا مكانة الأولياء، ولا ما خصَّ الله ﷻ به أولياءه من الفضائل، ويريدون أن يصلوا بك من خلال هذه الآية إلى تعظيم الأولياء تعظيماً لا يليق إلا برب الأولياء -سبحانه جلّ وعلا-، فيبدأ من خلال هذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، وربما استشهد كثيرٌ منهم بقصص يختلقونها، «نحن نعرف السيد فلان، والولي الفلاني عنده قدرة على التأثير، وعنده كذا، وعنده كذا، وشاهدنا، وعايَنَّا، وجربنا... إلى آخره، فأنتم لا تعرفون قدر الأولياء، ولا تعرفون مكانة الأولياء، ولا تعرفون منزلة الأولياء، وجاهم عند الله، والأولياء من شأنهم ومن شأنهم»، وهكذا يُثير هؤلاء هذه الشبهة.

فقال: «**إذا قال لك بعض المشركين** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]»، أمر آخر أيضـًا: «**أو أنّ الشفاعة حق**»، يقول لك: «هل تنكر الشفاعة؟، النبي ﷺ في الحديث الصحيح قال: «**وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**»[1]، كيف تنكرونها؟!، الشفاعة حق وثابتة، والأدلة عليها كثيرة، والنبي ﷺ الشافِع المُشفَّع، والأدلة في القرآن وفي السنة على ثبوتها كثيرة، هل تنكرون الشفاعة؟، لا تؤمنون بها؟»، وإذا أيضـًا قال لك أو قال لك: «أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله»، الله ﷻ قال عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾[آل عمران:٤٥]، وقال عن موسى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب:٦٩]، ونبينا ﷺ خاتم النبيين جاهه عند الله أعظم جاه، ومنزلته أعظم منزلة، ألا تؤمنون بذلك؟، وهذه الآيات واضحة تدل على ذلك، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[الأحزاب:٦٩]، ألا تؤمنون بجاه الأنبياء وأن لهم جاه عند الله؟!.

«**أو ذكر لك كلامـًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله**»، وهم عندما يذكرون كلامـًا للنبي ﷺ، يعني عندما يذكرون أحاديث النبي ﷺ تارةً يذكرون أحاديث تكون صحيحة، وتارةً يذكرون أحاديث تكون ضعيفة أو موضوعة، وإذا ذكر لك حديثـًا صحيحـًا أو حديثـًا لا تعرف صحته من ضعفه وشبَّهَ عليك الأمر مثل أن يقول لك: «وأنت لا تعرف»، ولأول مرةٍ تسمع لو قال لك: «النبي ﷺ قال: (توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم)!»، وأنت أول مرة تسمع بهذا، وهو يريد أن يصل من خلال هذا الحديث معك إلى أن يُشبِّه عليك بجواز طلب

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

الشفاعة من الأنبياء وطلب الإلتجاء إلى الأنبياء في أن يشفعوا عند الله، وأن يَتوجَّه إليهم متذللاً طالباً راجياً، «يا رسول الله اشفع لي»!، «يا رسول الله خذ بيدي»!، «يا رسول الله أدركني»!

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ونحو ذلك، فيأتي لك بأحاديث إما صحيحة: «**أُعطِيت الشفاعة**»، أو أحاديث غير صحيحة لا أصل لها، فإذا أعطالك مثل هذه الأشياء وأنت لا تعرف جواباً تفصيلياً على هذه الأشياء التي ذكر لك، الحديث لا تدري أهو صحيح أو ضعيف، ما هو بيان أهل العلم، ما معناه عند أهل العلم، والآية أيضاً ما تعرف معناها، ما تستذكر تفسيرها، ما وقفت على تفسيرها، كيف تجيب؟، رأساً تُعيد المتشابه إلى المُحكَم، يُفترض أن تكون ضابطا للتوحيد بأدلته، فإذا أتاك بشبهة تُناقض التوحيد وتصادم أصل الإيمان تردها بالمُحكَم.

فكيف تردها بالمُحكَم؟، تابع الجواب.

يقول الشيخ: «**وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك**»، انتبه لهذه النقطة، «**وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكر لك**»، وهذا يحصُل لكثير من الطلبة عندما يُبتلى برأس من رؤوس أهل البدع يُثير له كلاما، ما يدري ماذا يقول!، يأتي له بآيات ويأتي له بأحاديث، وما يدري [أيش يقول]، وربما بعضهم التبس عليهم الأمر وقال: «والله صحيح كلامك!، كلام واضح!، كيف العلماء ما ردُّوا!، هذا فعلا كلام..!!»، بعضهم عوام أهل السنة يصل بهم الأمر إلى مثل هذا المَوْصِل، وهو يَنُمُّ عن جهله هو، وعدم علمه، وعدم وجود أصول راسخة ثابتة عنده يعيد إليها

مثل هذه الأمور المتشابهة، إذاً كيف تجيب وأنت لا تفهم هذه الأشياء التفصيلية التى ذكر لك؟، إن كان آية لا تعرف تفسيرها وعناها عند أهل العلم الراسخين، وإن كان حديثًا لا تدري هل هو صحيح أو ضعيف، ولا تدري معناه ولا دلالته، ماذا تصنع؟، رأسًا تجيبه بالنقاط التي ذكرها الشيخ.

وهنا أنبهك -والشيخ يذكر لك الجواب المُجمل- أن تتابع مع الشيخ بدقة أجوبته؛ لأن هي عبارة عن نقاط، تقريبًا أربع نقاط ذكرها الشيخ ﷺ، لابد أن تتابعها بدقة وتضبطها ضبطًا دقيقًا حتى يتسنَّى لك من خلالها إبطال كل شبهة يعرضها مَنْ يُناقض التوحيد بإثارته لشبهته، وهي سهلة وميسرة:

قال: «**فجاوبه بقولك: إنّ الله ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المُحكَم ويتَّبعون المُتشابَه**»، نبهك الشيخ على الآية والأصل الذي ذكره الله -ﷻ- فيها والمنهج الذي ينبغي أن يكون عليه صاحب الحق، وأنت إذا بدأت بهذه البداية وبهذه الآية وضَّحْت لخصمك ومن أمامك أن آيات القرآن أخبر ربنا أنها على قسمين: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾[آل عمران:٧]، وأنت بعد قليل ستذكر له الآيات المُحكمات الواضحات البيِّنات في هذا الباب، ستذكرها له، بحيث تقطع عليه الطريق؛ لكن تبدأ بالآية، تقول له: «إن ربنا -ﷻ- ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المُحكَم ويتَّبعون المُتشابَه»، أقرأ عليه الآية، وقل: «الله ﷻ ذكر في القرآن أن الآيات منها ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾، وأنّ أهل الحق يُعيدون المتشابه إلى المحكم، وأهل الزيغ يتَّبعون المتشابه، وأنت الآن تأتينا بأشياء متشابهة تريد أن تقرر الشرك وعبادة غير

الله -ﷺ-، مع أن القرآن إنما أُنزل لأجل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾[النحل:١-٢]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥]، القرآن والرُّسل والكتب كلها أُنزلت لأجل أن نعبد الله وأن نُخلِص العبادة لله، فكيف تأتيني بآية مُتشابهة وتطالبني أن أتَّبع المتشابه، وأترك هذا المُحكَم الذي أُنزل القرآن لأجله، وهو واضح في آيات القرآن ودلالاته، فهذه النقطة الأولى التي تبدأ بها معه بأن تذكر الآية الكريمة التي ذكر الشيخ وأن الله ذكر في كتابه أنّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المُحكَم ويتَّبعون المُتشابَه.

ثم تنتقل له إلى نقطة ثانية في الجواب على شبهته: وهي في قوله ؒ: «**وما ذكرته لك**» أي: ياطالب العلم، «**من أن المشركين يقرُّون بالربوبية وأنه كفَّرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]»، يُشير إلى الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨] قال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس:١٨]، فآيات القرآن فيها تقرير أن المشركين الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ يُقرُّون بالربوبية وأن الرب الخالق الرازق النافع الضار المُعطِي المانع إلى آخره هو الله لا شريك له، يُقرُّون بذلك، وقد مر معنا سياق الشيخ -رحمة الله عليه- لجملة من الآيات الدالة على ذلك، وأيضـًا آيات القرآن دلت على أنّهم

يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وليس الأولياء فقط، ففي الآية التي ذكر ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، ويثير الآية يريد أن يطلب التعلُّق بالأولياء، فأنت تقول: «الله ﷻ ذكر أن المشركين في آيات كثيرة يقرون بأنه الرب الخالق الرازق المُنعِم، وفي الوقت نفسه ذكر -ﷻ- عنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء، وأيضًا ذكر أنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فأيش الفرق بين الذي تقول أنت وتطالبني به وبين ما ذمَّ الله ﷻ المشركين عليه في آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم؟!، هذا شيء مُحكَم واضح في القرآن، وهذا هو الذي بُعث النبي ﷺ لأجل إنكاره وإبطاله على المُشركين، فأيش الفرق بين ما تُحدثني عنه الآن وأنت تريد أن تصل إليه من خلال ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] وبين ما بُعث النبي ﷺ لإبطاله على المُشركين، فالمشركون أخبر الله عنهم أنهم يُقرُّون بأن الله الخالق الرازق المُنعِم المُتصرِّف المُدبِّر إلى آخره، وأيضًا أخبر عنهم أنهم أنهم يتعلقون بالملائكة والأنبياء والأولياء ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وأنت الآن عندما تقول لي: «هل تنكرون الشفاعة؟»، الله ﷻ ذكر عن المشركين هذا الأمر وذمّهم عليهم، وأنت تطالبنا أن نتوجه إلى الأولياء ونعلِّق قلوبنا بهم ونجعل التجاءنا إلى الأولياء بأمرٍ أنكره الله -ﷻ- على المشركين؟!، فإذن هذه نقطة ثانية في الجواب، تقول له: **«هذا أمر مُحكَم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغير معناه»**.

فقوله ﵀: **«هذا أمر مُحكَم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغير معناه»**، فالأمر المُحكَم

البيِّن، هو بيان الله لحال المشركين وذمّهم على تلك الحال وتحذيرهم من تلك الحال، فكيف تطالبني بعمل أنما أُنزل القرآن وبُعث الأنبياء لأجل إبطاله وهدمه؟!، والنبي ﷺ إنما قاتل المشركين لأجله، فكيف تُطالبني بأمر وتسوق لي هذه الأدلة وتقول لي أنها تدل على جواز الالتجاء إليهم أو طلب الشفاعة منهم أو التعلُّق بهم أو نحو ذلك من معان؟!.

فعندنا آيات مُحكَمة كثيرة واضحة بيِّنة في القرآن الكريم تدل على هذا الأمر الذي ذكره الشيخ رحمه الله، قال: «**هذا أمر مُحكَم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغير معناه**»، أنت هكذا تقول له، بعد أن تذكر له هذا الأمر وتسوق بعض الأدلة عليه، والأدلة على ذلك مرت قريبـاً عند الشيخ رحمه الله، تقول: «**هذا أمر مُحكَم بيِّن لا يقدر أحد أن يُغيّر معناه**»، فأنت الآن أعدته إلى المُحكَم.

أيضـاً تذكر له نقطة ثالثة تتعلق بالشيء الذي أثاره، الشيء المُعيَّن أو الشبهة المُعيَّنة التي أثارها: تقول: «**وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه**»، لا أعرف معناه، أيش مقصودك لأعرف معناه؟، أي: لا أعرف له جوابـاً تفصيليـاً، إن كانت آية ما يحضرني تفسيرها، أو لم أقف على تفسيرها، أو ما أطلعت على تفسير الآية؛ لكن لها معنى حق صحيح لا يناقض هذا المحكم يعرفه أهل العلم فتقول له: هذا الذي احتججت به من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه والمراد بعدم معرفة معناه أي بما يستدل به الآن هذا المشرك أو المُلَبِّس يستدل به على الشرك وأنت عندك يقين راسخ في قلبك أخذته من الآيات المحكمات أن الآية لا تدل على هذا الأمر الذي احتج عليها به عندك يقين بذلك.

لكن الجواب التفصيلي ليس عندك لأنه ليس عندك رسوخ في العلم ولا عندك معرفه تفصيليه فتقول له بإجابة مجملة: وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولا تلام في كونك ليس عندك أجوبة تفصيلية على كل ما يذكر أو يحتج به المحتج على باطله.

هذا أمر يكون لأهل الرسوخ وأهل التتبع وأهل الدراية والبصيرة والاستقراء للنصوص والأدلة وهذا لا يتسنى لكل أحد. وهذا يبين لك قيمة الجواب المحكم وشدة احتياج كل طالب علم إليه.

النقطة الرابعة في جوابك له أن تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ.

أقطع أنا بذلك أنا عندي يقين وجزم أن كلام الله لا يتناقض.

وهذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، لو كانت دليلاً كما يزعمه هؤلاء الزاعمون أنه يجوز أن نقول: مدد ياشيخ فلان الحقني ياشيخ فلان أدركني ياشيخ فلان لأصبح الكلام في القرآن متناقضا والعياذ بالله، لأن الله ﷻ يقول في الآيات المحكمة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، ويقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ويقول: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

فالآيات كثيرة جداً تحذر من دعاء غير الله أياً كان ومهما كان.

فهل قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[يونس:٦٢] تدل على جواز التعلق بالأولياء والالتجاء إليهم والطلب منهم ؟هل تدل على ذلك ؟

إن قيل: نعم؛ أصبح في القرآن آيات متناقضة وآيات تدعو إلى عدم التعلق بغير الله وعدم الالتجاء إلى غير الله وآيات تدعو إلى الالتجاء إلى غير الله والتوكل على غير الله ودعاء غير الله كما يزعم هؤلاء.

فأنت تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأنت عندما تقول له هذه الكلمة تريد أن تبين له أنك على يقين أن ما احتج به من آية أو حديث لا يدل على جواز التعلق بغير الله ولو كنت لست على علم بجواب تفصيلي على الآية والحديث يكفيك أنت أن تخبره هذا الإخبار وأن تبين له هذا الأمر.

قال: «**ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله**» وحاشاه ﷺ أن يأتي بكلام يناقض كلام رب العالمين ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾.

فهذه أربعة نقاط ذكرها الشيخ رحمه الله في الجواب.

النقطة الأولى: مستفادة من الآية التي ذكرها: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[آل عمران:٧] فتقول للمخالف: إن طريقة أهل الزيغ الذين ذمهم الله أنهم يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ثم تمهد له بهذا التمهيد.

وتقول له: انتبه أنا أحذرك الله ﷻ قال في آية عظيمة جداً في ﴿سورة آل عمران﴾: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

[آل عمران: ٧]» احذر أن تكون من هؤلاء الذين حذرنا الله منهم لا تتبع المتشابه لا تترك المحكم وتذهب تتبع المتشابه.

ربما أنت إذا قلت له هذا الكلام وكان فيه شيء من الخوف ربما تحرك فيه شيء من الخوف وقال لك: فما المحكم في هذا الباب؟

فتبدأ تنتقل للخطوة الثانية التي يذكرها لك الشيخ وهي أن تقول له:

ما قرره الشيخ سابقا عندما بين دين المرسلين ودين المشركين، فأنت تبين له دين المرسلين ودين المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ وأنهم كانوا يعتقدون أن الله الخالق الرازق المنعم المتصرف وأنهم أيضا كانوا يتعلقون بالملائكة وبالأنبياءوبالأولياءوأيضا يقولون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ويقولون ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ تذكر له هذه التأصيلات التي سبقت أن مرت.

فالشيخ رحمه الله يعيدك إلى التأصيل السابق لكي تضبطه وتبدأ بعرضه معع المخالف خطوة خطوة حسب ما مرعليك حتى تبين له الأصول الثابته الراسخة عندك.

بعد ذلك تنتقل للنقطة الثالثة تقول له: وما ذكرته لي من آية أو من حديث أنا لا أعرف معناه أو جوابه التفصيلي، وما عندي جواب لكن الذي ذكرته، وتطالب أن نفعله مستدلاً على الآية به أو الحديث بهمُصَادم لهذه الآيات المحكمات

فما هي الطريقة التي أرشدنا ربنا إليها ويجب أن نكون عليها؟

هل نتبع المتشابه الذي تُريده أو الآيات المحكمات التي ذُكرت لك، وبُينت لك؟

ثم تذكر له أمراً رابعـًا تقول له: لكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبي

ﷺ لا يخالف كلام الله ﷻ منبها إياه أن هناك أجوبة تفصيلية على هذا الذي أثرته لكنك ستجدها عند أهل العلم الراسخين، لكن حدُّنا الآن أن نكف عن هذا الأمر ونحقق التوحيد الذي خُلقنا لأجله وأن ندع هذه الأمور المشتبهه علينا وأن نعمل بالأشياء المحكمة الواضحة التي ذكرت لك وينتهي حديثك وإياه عند هذا الحد تقول: أتريد أجوبة تفصيلية؟ انتهينا هذا حدي معك، وإذا كنت تريد أجوبة تفصيلة فلنرجه لأهل العلم المعتبرين.

قال الشيخ رحمه الله مؤكداً على ما مضى قال: (**وهذا جواب جيد سديد**).

أي: هذا الجواب الذي عرضته لك وأبنته لك هذا جواب جيد سديد ولكن مع ما قدم الشيخ وبين قال: (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى)، ولهذا هذه الكلمات القليلة التي مرت معك في أسطر أو في صفحات قلائل يؤكد لك الشيخ أنه ليس كل أحد يفهمها ولكن لا يفهمها إلا من وفقه الله ولهذا الجأ إلى الله ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ هذه الكلمات التأصيلات القوية المتينة إن لم يوفقك الله ﷻ لضبطها قد تبتلى في يوم من الأيام بمن يثير عليك هذه الشبهات، والله المستعان.

فإذا كتب لله لك التوفيق وأمدك بالعون هديت إلى صراطه المستقيمولهذا ما أجمل بيان الشيخ رحمة الله عليه وهو يقول لك هنا (ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى) فالجأ إلى الله ﷻ واسأله بصدق وإلحاح أن يوفقك ولا تستهن به ولا تقول هذه والله أشياء معروفة واضحة وبينة «**فلا تستهن به**» لأن هذه أشياء عظيمة وأصول مهمة وهذه أساس ما خلقت لأجله ووجدت لتحقيقه وأساس ما

أوجدت للانتصار له والذب عنه والحماية له هذا هو الأساس وأكثر الناس ظلوا عنه وانحرفوا عنه.

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ فلا تستهن بهذا الأمر ولهذا ما سبق أعده مرات وكرات واسأل الله ﷻ أن يوفقك لضبطه لفهمه لإتقانه وراجعه مراجعة تلو الأخرى.

قال ﵀: (**إلا من وفقه الله تعالى فلا تستهن به فإنه**) أي: هذا الأمر الذي ذكرته لك منزلته كمنزلة الدفع بالتي هي أحسنالآن لما أقول لك مذكرا لك بالآية الكريمة ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ لما تأتي للناحية التطبيقية العملية للدفع بالتي هي أحسن أين حظك من الآية ؟ ولما تأتي في معترك الناس والاحتكاك بهمثم تحتاج إلى الدفع بالتي هي أحسن فماذا يكون؟

لأن بعض الناس في أدنى احتكاك بينه وبين شخص من الأشخاص ينفعل ويغضب وقد يكون حافظا للآية والله ﷻ قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾.

فالدفع بالتي هي أحسن في الناحية النظرية وأنت تدرس سهل، فأي أحد يخاصمه شخص ما لا يتخاصم معه، بل يكلمه بهدوء، ولكن لما تأتي الناحية التطبيقية فكثير من الناس لا يُلقى هذا الأمر ولا يُوفق له ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾.

وكأن الشيخ رحمة الله عليه ينبه إلى أنه ينبغي الصبر للطلبوالصبر لضبط هذه الأمور، والإتقان لها، وحسن ضبطها وسؤال الله ﷻ التوفيق، وأن يكون المرء من

أهل هذا الحظ العظيم والخير الكبير وهو ضبط هذه الأصول، حتى تكون سلاحـًا للمسلم وهي أعظم سلاح.

وهذا الذي ذكره الشيخ في هذه الصفحات أعظم ما يحتاج إليه كل مسلم هذه المقدمات التي بدأها الشيخ خاصة في زماننا هذا والناس ابتلوا ابتلاءات كثيرة بشبهات أهل الضلال فهذه الأشياء التي سبق وقررها الشيخ لا تستهن بها، فهذه وصية الشيخ لا تستهن بها ولا تقل هذه أشياء هينة معروفة لا داعي لضبطها وتكرارها.

ولتكن سلاحـًا معك وزاداً مستمسكـًا به محافظا عليه فهذا أعظم ما يكون وأعظم أمر ينبغي أن تعتني به فلا تستهن بها فإنه كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَأَمَّا الجوَابُ المُفَصَّلُ:

فَإِنَّ أَعْداءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضاتٌ كَثيرةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ؛ مِنْهَا قَولُهُم: نَحْنُ لا نُشْرِكُ بِاللهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لا يَخْلُقُ وَلا يَرْزُقُ وَلا يَنْفعُ ولا يَضُرُّ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلا ضرًّا، فَضْلاً عن عَبْدِ القَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ؛ وَلَكِنْ أَنا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُم جاهٌ عِنْدَ اللهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ بِهِمْ.

فَجَاوِبْهُ بِما تَقَدَّمَ؛ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُم لا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، واقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ».

[الشرح]

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-: (**وَأَمَّا الجوَابُ المُفَصَّلُ**)؛ عرفنا أنَّ الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- استهلَّ هٰذا الكتاب النافع بمقدمة بيَّن فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين، وما كانوا يدعون إليه من التوحيد والإخلاص لله، ونبْذ الشركِ والتحذير من حالِ أهله، ودعوة الناس إلى كلمةٍ سواءٍ قائمةٍ علىٰ كلمةِ التَّوحيد (لاَ إِلٰه إلاَّ الله).

وبيَّن أيضًا -رحمه الله- حقيقة دين المشركين وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والأولياء والشركاء والوسطاء، زاعمين أن تلك الأنداد تقربهم إلى الله -تبارك وتعالى- زُلْفَىٰ، ويعتقدون أن تلك الأنداد لا تَخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ولا تُعطي ولا

تمنع؛ بل ذلك كله بيد الله؛ لكنهم اتخذوها وسطاء وشفعاء بينهم، وبيَّن الله -ﷻ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، لم يقولوا ما نعبدهم إلا لأنَّا نعتقد أنهم يملكون نفعًا وعطاءً ودفعًا ورفعًا وحياةً وموتًا ونشورًا، لم يقولوا ذلك؛ بل هم يُقرون أن تلك الأنداد لا تملك من ذلك من شيئا، وأنَّ المالك لذلك كله هو الله -ﷻ-.

فبدأ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- كتابه **(كشف الشبهات)** بمقدمة قرر فيها حقيقة دين الأنبياء والمرسلين وما كانوا يدعون إليه من التوحيد، وبيَّن أيضًا فيها حقيقة دين المشركين، وما كانوا عليه من اتخاذ الأنداد والوسطاء والشفعاء والأولياء، يصرفون لهم من العبادة والذل والخضوع ما لا يُصرف إلا لله -ﷻ-، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وهذا هو أساس ضلال المشركين؛ ثم على هذا الضلال بنوا كثيرًا من الشبهات التي ضلوا، وأضلوا بها كثيرًا عن سواء السبيل.

ولا تزال شبهات هٰؤلاء متكررة عبر التاريخ وبامتداد الزمان؛ فترىٰ الشبهة التي قيلت في قديم الزمان تعاد من المشركين عَبَدة غير الله -ﷻ-؛ ولهذا قال الله -ﷻ-: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ فما عند أولٰئك.. عند هٰؤلاء، وما عند هٰؤلاء من الأعمال عند أولٰئك، وما عند هٰؤلاء من الشبهات عند أولئك، اللهم إلاَّ أنَّ العبارة أحيانًا تتغير، أما الحقيقة والمضمون فواحد.

ثم بعد أن بيَّن -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- في هذه المقدمة هاتين الحقيقتين: حقيقة دين الأنبياء وحقيقة دين المشركين؛ بدأ يُبين -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- كيف أنَّ المشرك يحاول

أن يجمع لنفسه ما ينصر به دينه الباطل وضلاله المبين، وأنَّ مثل هذه الشبهات ينبغي أن يكون كل مسلم علىٰ حيطةٍ وحذرمنها، يحذر منها في نفسه ويُحذِّر منها من يُخشى عليه أن يتضرر بتلك الشبهات؛ فبدأ -رَحِمَهُ اللهُ- بموضوع الكتاب والإجابة علىٰ الشبهات أو كشفها وبيان زيفها ووهائها، وقرَّر أنَّ كشف شبهات هؤلاء من طريقين:

طريق مُجمل؛ وهو ما سماه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- **(الجوَابُ المُجمَلُ)**أي: الجواب الصالح لكشف كل شبهة أيًّا كانت في العقيدة أو في العبادة أو في أي باب من أبواب الدين؛ فهي بمثابة القاعدة الكُلية في باب كشف الشبهات، صالحة لأن يَرُد بها المسلم كل شبهة تُثار.

فالجواب المجمل؛ أي: الجواب الذي لا يَختصُّ بكشف شبهة معينة؛ بل هو جواب لكل الشبهات.

وأيضًا نبَّه -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- في مضامين كتابه إلىٰ ضرورة التدرج في هٰذا الباب خلافًا لما عليه بعض الناس من خطإٍ في هٰذا الباب وعدم الإتيان للأمور من أبوابها؛ فمن الخطأ بمكان أن يدخل الإنسان غمار الشبهات بدون قاعدة.

ومما يُقعَّد لطالب العلم في هذا الباب:

أولاً: معرفة حقيقة دين الأنبياء بالأدلة والبراهين، ثم يعرف حقيقة دين المشركين بالأدلة والبراهين؛ وعندما نقول بالأدلة والبراهين؛ أي: من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ثم بعد ذلك ينتقل إلىٰ المرحلة الأخرىٰ وهي معرفة الجواب المجمل الصالح لكشف كل شبهة يثيرها مشرك أو مبتدع، ثم بعد ذٰلك يدخل في الأجوبة التفصيلية؛

والأجوبة التفصيلية هي التي تختص بالإجابة عن الشبهات تفصيلاً، وما من شك أن المشركين لهم شبهات كثيرة؛ فمعرفة الإجابة التفصيلية عن تلك الشبهات تأتي مرحلةً ثالثةً في هذا الباب، كما هو التدرج الواضح في تقرير هذا الأمر وتثبيت هذا المنهج في هذا الكتاب المبارك؛ كتاب: (كشف الشبهات)؛ ولهذا بدأ هنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- بقوله: (**وَأَمَّا الجوَابُ المُفَصَّلُ**).

ولَمَّا كانت الشبهات -شبهات المشركين- التي يثيرونها لتقرير باطنهم لا خطام لها ولا زمام، وهي متعددة ومتنوعة، وكثيرة وليست بقليلة، لمَّا كانت كذلك؛ أراد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- أن يُبين لطالب العلم طريقة الإجابة على شبهات هؤلاء بذكر أبرز وأهم ما عندهم من شبهات، ومن ثَمَّ الإجابة عليها بإجابة مختصرة كافية وافية بالمقصود؛ فإذا عرف طالب العلم طريقة كشف الشبهات والمنهج العلمي الرصين في بيان زيفها؛ أصبح الأمر بعد ذلك عليه يسيراً بتيسير الله -ﷻ- ؛ ولهذا أؤكد أننا ينبغي أن نراعي هذه المنهجية الدقيقة المتينة التي قررها -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- في كتابه (**كشف الشبهات**) لبيان المسلك الصحيح الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم في هذا الباب.

قال: (**وَأَمَّا الجوَابُ المُفَصَّلُ: فَإِنَّ أَعْداءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضاتٌ كَثيرةٌ عَلى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِها النَّاسَ عَنْهُ**).

(**عَنْهُ**)؛ أي: عن دين المرسلين؛ إذا كان الأمر كذلك فإنَّ أول ما ينبغي أن يُعنىٰ به طالب الحق في هٰذا الباب أن يعرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة، فإذا عرف دين المرسلين معرفة صحيحة بالأدلة فإن ما سواه باطل، وكل شبهة تُثار

لتقرير خلافه فهي باطلة، وهٰذه قاعدة في ردِّ كلِّ باطل؛ أن يعرف دين المرسلين؛ أما من كان لا يعرف دين المرسلين أو معرفته بدينهم فيها ضعف؛ فإنه يُخترق بشبهات أهل الباطل.

قال: (**لَهُمُ اعْتِرَاضاتٌ كَثيرةٌ عَلى دِينِ الرُّسُل يَصُدُّونَ بِها النَّاسَ عَنْهُ**).

هٰذه الشبهات لو أمعنا الناظر فيها لوجدناها لا تخرج إلا من هو: إما سيئُ فهمٍ أو سيئُ قصدٍ أو شخص جامع بين السوءين؛ أما مع سلامة الفهم وسلامة القصد فإن مثل هذه الشبهات لا تثار بإذن الله -تبارك وتعالى-.

بدأ بعد ذٰلك -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- يذكر أمثلة تفصيلية لشبهات هٰؤلاء، بدأها -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- بثلاث شبهات صدَّر بها الكلام على الأجوبة التفصيلية لشبهات هؤلاء، ونبَّه في خاتمتها أن هذه الشبهات الثلاث هي أكبر ما عندهم، ونبه أيضًا طالب العلم أنك إذا عرفت هذه الشبهات واتضح لك كشفها وفهمتها فهمًا جيدًا؛ فما بعدها أيسر منها، وهذا تنبيه من الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- إلىٰ الاهتمام بالأمر؛ فأكثر ما عند هؤلاء القوم من الشبهات، هذه الشبهات الثلاثة التفصيلية التي يبدأ بها -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- كشفه لشبهات هٰؤلاء تفصيلاً.

بدأ بالأولى منها؛ قال: (**مِنْهَا قَولُهُم: نَحْنُ لا نُشْرِكُ بِاللهِ**) يتبرَّؤون ويتنصَّلون من الشرك، وهذه حال صاحب كلِّ باطل؛ ليس هناك صاحب باطل يقول عن نفسه أنا صاحب باطل، أو يقول أنا صاحب بدعة، أو يقول أنا صاحب إلحاد أو أنا صاحب شرك؛ بل:

وكل يَدَّعي وَصْلا بِلَيْلى   وَلَيْلى لا تُقِرُّ لَهُمْ بِذاكا

فكل يدَّعي أنَّ ما عنده هو الحق؛ فليس هناك صاحب باطل يقول إنني صاحب باطل أو داعية ضلال؛ فرعون كان يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ما قال: «وما أهديكم إلا سبيل الضلال»، وهو أكبر دعاة الضلال. إبليس ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ما قال: «من المضلين»؛ قال: ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، وهكذا صاحب كل باطل يدعي لنفسه أنه داعية حق وينفي عن نفسه أنه من أهل الباطل؛ ولهذا لاحظ كيف يبدأ هؤلاء بنفي ذلك عنهم؛ قالوا: (**نَحْنُ لا نُشْرِكُ بِاللهِ**) تراه متلطخًا بالشرك، متلوثًا به، صريعـًا لشُبهاته؛ ثم يقول: لا أنا لست من أهل الشرك.

يقولون: (**نَحْنُ لا نُشْرِكُ بِاللهِ؛ بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لا يَخْلُقُ وَلا يَرْزُقُ وَلا يَنْفعُ ولا يَضُرُّ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعـًا وَلا ضرّاً، فَضْلاً عن عَبْدِ القَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ**)، عبد القادر -أي: الجيلاني- وهو من علماء المسلمين ومن الأئمة المصلحين- كان معروفًا بحسن السيرة وحسن العقيدة؛ لكنَّ كثيرًا من أتباعه والمنتسبين إليه انحرفوا انحرافًا مبينًا، وضلوا ضلالاً كبيرًا، واتخذوا عبد القادر وليًّا من دون الله، يُنزلون به من الحاجات والرغبات والطلبات ما لا يُنزل إلا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، ونسبوا إليه كذبًا وزورًا أنه يدعو إلىٰ ذٰلك وأنه يرضى بذٰلك ويرغب بذٰلك، وحاكوا حول ذٰلك كثيرًا من الأكاذيب والقصص والتجارب المُدَّعات، و أنواعا من المنامات والخوارق التي أضلوا بها كثيرًا من الناس عن سواء السبيل؛ فأصبح يُدعىٰ من دون الله ويُذبح له من دون الله، ويُتقرَّبُ إليه بأنواع من التقربات التي لا تكون إلا إلىٰ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- والعياذ بالله.

فيقولون نحن نعتقد (**أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلا ضرًّا، فَضْلاً عن عَبْدِ القَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ**)، (**فَضْلاً عن عَبْدِ القَادِرِ**)؛ أي: فضلاً عن من دون النبي ﷺ من الصالحين والأولياء، أو أيضًا من الطالحين الذين لا يُعرفون بصلاح أو استقامة ممن اتُّخِذُوا أندادًا من دون الله.

قال: (**وَلكِنْ أَنا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُم جاهٌ عِنْدَ اللهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ بِهِمْ**)؛ أي: أعتقد أن هؤلاء أهل صلاح وأهل مكانة عند الله -تبارك وتعالى-؛ ولهٰذا لا أطلب من الله مباشرة؛ وإنما أطلب منَ الله -تبارك وتعالى- بواسطة هٰؤلاء، فأتخذهم شفعاء لي عند الله -تبارك وتعالى-، وهٰذا عين ما ذكره الله -تبارك وتعالى- عن المشركين الأُوَل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وسطاءٌ لنا عند الله؛ فإذا قال لك هذا الكلام، وانتبه لتبيين الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- أن هٰذه أكبر ما عندهم من الشبهات، نحن ما نشرك ونحن نعتقد أنَّ الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله، ونعتقد أنَّ النبي ﷺ وعموم الأولياء والصالحين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا؛ ولكننا ندعوهم ونستغيث بهم ونلتجئ إليهم ونطلب منهم المدد والعون والعافية والشفاء وغير ذلك؛ لأن لهم جاهًا عند الله -تبارك وتعالى- ومكانة عليَّة عنده؛ فنحن نطلب من الله بهم -أي: بواسطة هٰؤلاء- فنجعلهم بيننا وبين الله -تبارك وتعالى- شفعاء ووسطاء؛ فكيف تجيبه إذا ذكر لك هذه الشبهة؟

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-: **(فَجَاوِبْهُ بِما تَقَدَّمَ)**؛ أي: بما تقدم معك في هذا الكتاب من تقرير لحقيقة دين المشركين، واقرأ عليه الآيات التي قررت حقيقة دين المشركين، وأن المشركين لا يعتقدون في الأصنام المتخذة من دون الله أنها تنفع وتضر وتمنع وتخفض وترفع؛ بل يعتقدون أن ذٰلك كله بيد الله -ﷻ-، ومرَّ معنا آيات عديدة ساقها المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-؛ مثل قول الله -ﷻ- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ماذا يقول المشركون إذا سُئِلوا هذه السؤالات؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: سيقولون هذه الأمور كلها بيد الله -ﷻ-، لا يقولون إنها بيد الأصنام.

وإذا سُئِلَ المشركون الأُوَل لِمَ تعبدون هؤلاء وأنتم تعتقدون أنها لا تنفع ولا تعطِي؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ؛ فتقول لهم: ما الفرق بين حقيقة دين المشركين التي بيَّنها الله -ﷻ- في القرآن، وبين هذا الأمر ؟ وضِّحوا لي الفرق، بعد أن تُبين لهم أنَّ هذا الذي ذكره هو نفس الكلام الذي قرَّره الله -ﷻ- في كتابه عن المشركين الأُوَل، واقرأ عليهم الآيات التي تبين حقيقة دين المشركين.

قال: **(فَجَاوِبْهُ بِما تَقَدَّمَ وَهُوَ: أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ)** عرفتَ أنت ما المراد بقوله: **(مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ)**؛ أي: مِن أنَّ الخالق الرزق المنعم المدبر هو الله، وأنَّ الأنبياء والأولياء لا يملكون نفعًا ولا دفعًا ولا عطاءً ولا منعًا ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا.

(وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُم لا تُدَبِّرُ شَيْئًا؛ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الجاهَ وَالشَّفَاعَةَ)؛ أي: المشركون الأُوَل إنما أرادوا بتلك الأصنام الجاه والشفاعة.

(واقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللهُ في كِتَابِهِ وَوَضِّحَهُ)، وضِّحه له؛ يعني اقرأ عليه الآيات التي قرر الله -ﷻ- فيها حقيقة دين المشركين ووضح له هذه الآيات حتىٰ يعرف معناها، ثم قل له: ما الفرق بين هذا الذي تقول وبين الذي كان عليه هؤلاء الذين بيَّن الله -ﷻ- حقيقة دينهم في القرآن الكريم؟! هنا تنتهي الشبهة الأولى بجوابها.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: هَؤُلاءِ الآياتُ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا لله، وَأَنَّهُم مَا أَرَادُوا مِمَّن قَصَدُوا إِلاَّ الشَّفَاعَةَ؛ وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ؛ فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ **الآية. [الإسراء:٥٧].**

وَيَدْعُونَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ **[المائدة ٧٥:٧٦].**

وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ **[سبأ: ٤٠، ٤١].**

وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ **[المائدة:١١٦].**

فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللَّه كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ولم يُفَرِّق بَيْنَهُم».

[الشرح]

ثمَّ بعد ذٰلك انتقل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- إلىٰ ذكر الشبهة الثانية والجواب عليه؛ لكن قبل ذٰلك فيما يتعلق بالشبهة الأولىٰ والجواب عليها أريد أن تنتبه إلىٰ أن قول الشيخ -رحمه الله- في تمام جوابه على الشبهة الأولى: (**واقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ**) أراد -رحمه الله- أن تقرأ عليه نوعين من الآيات:

النوع الأول: الآيات التي تُقرِّر أن المشركين يُقرون بأنَّ الخالق الرازق المنعم المعطي المحيي المميت هو الله لا شريك له، وهي كثيرة، وأنهم لا يعتقدوا فيمن اتخذوهم من دون الله أولياء شيئًا من ذلك، فهم لا يعتقدون في الأنداد أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وتعطي وتمنع، لا يعتقدون فيها ذٰلك، فاقرأ عليه الآيات التي تبين هذا الأمر.

النوع الثاني من الآيات: أن تقرأ عليه الآيات التي تبين أن عبادة المشركين للأصنام والأوثان واتخاذهم للأنداد؛ إنما هو من أجل أن تقربهم إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، فتقرأ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، تقرأ عليه الآيات في هذا الموضوع، والآيات التي تقرر أن العبادة حق لله -تبارك وتعالى- ليس مع الله فيها شريك كائنًا من كان.

بعد ذٰلك ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- الشبهة الثانية؛ قال: (**فَإِنْ قَالَ: هَؤلاءِ الآياتِ**

نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ)، متىٰ يقول لك من اتخذ مع الله الشركاء هذه الكلمة؟ (**هَؤلاءِ الآياتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ**) تسمعها منه إذا تلوت عليه الآيات؛ ولهذا من لا يعتني بالآيات وتلاوتها في مقام الجواب علىٰ المشركين لم يصبح مؤهلاً لدعوتهم وكشف شبهاتهم؛ لأن أساس كشف شبهات المشركين تلاوة آي القرآن الكريم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥]؛ فإذا تُليت عليه هذه الآيات سيقول لك -في الغالب-: هذه الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، أي: هذه الآيات التي تتلوها عليَّ نزلت فيمن يعبد الأصنام، نزلت فيمن يدعو اللات والعزىٰ ومناة، ومن يعبد أحجارا وصخورا، (**كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟**) وهذه طريقة عند هؤلاء للتشنيع علىٰ أهل الحق وإثارة الشوشرة علىٰ أصحاب الحق؛ (**كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟**) نحن لم ندعُ اللات -يقولون- ولا العزى ولا مناة ولا غيرها من الأصنام، نحن دعونا الأنبياء ودعونا الأولياء ودعونا من لهم مكانة عند الله -ﷻ- فكيف تقرؤون علينا الآيات التي أخبر الله -ﷻ- بها حال من يعبدون الأصنام؟! فهٰذه الآيات لا علاقة بها بموضوعنا وبأمرنا لا من قريب ولا من بعيد، لأنها تتعلق بقوم كانوا فبانوا، نزلت في أقوام يعبدون الأصنام وحاربهم النبي ﷺ وانتهىٰ أمرهم، أما نحن مالنا ولهٰؤلاء وما أبعد حالنا عن حال هٰؤلاء؟ نحن ندعو

الأنبياء وندعو الأولياء وندعو الصالحين ممن لهم المكانة العليَّة عند الله -ﷻ- فكيف تتلون في حقنا آيات إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام؟

هكذا سيقول، فكيف يُجاب عن هذه الشبهة؟ أحبُّ أن أنبهك أنَّ الشيخ -رَحمة اللهُ عليه- عندما يبين لك مثل هذه الشبهات والأجوبة عنها، بيَّنها بعد أن دخل معتركًا طويلاً مع خصوم كُثر مشافهة ومكاتبة وجاهد في الله جهادًا عظيمًا في تقرير التوحيد ونصرته وإبطال الشرك وبيان زيفه؛ فنفع الله -ﷻ- بما كتب نفعًا عظيمًا، ولهٰذا يعطيك عُصارة عن خبرة وتجربة واسعة جدًا في هٰذا الباب العظيم، وإذا خضت هٰذا الغمار نفعًا لعباد الله -ﷻ- سترىٰ أنه أحسن في صنيعه أيما إحسان -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-.

قال: (**فَجاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ**) لازلنا باقين مع الأساس الذي يُبنىٰ عليه الموضوع (**فَجاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ**) بما تقدم في صدر الكتاب من تقرير لحقيقة دين الأنبياء، وحقيقة دين المشركين، وأنَّ الأنبياء دعاة لله -ﷻ- وإخلاص التوحيد له، وأنَّ المشركين دعاة لاتخاذ الأنداد والأولياء من دون الله -ﷻ-، وتذكر له أنَّ المشركين الأُوَل كانوا يقرون بالربوبية ويقرون أنَّ الله هو الخالق الرازق النافع الضار المعطي المانع، وأنَّ هذه الأصنام التي اتخذوها من دون الله لم يتخذوها إلا لغرض أن تقربهم إلىٰ الله؛ لأنها بزعمهم لها مكانة عند الله -ﷻ-، فهم اتخذوها من أجلِّ أن تقربهم إلىٰ الله -ﷻ- زلفىٰ.

(**فَإِنَّهُ إِذا أَقَرَّ أَنَّ الكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّها لله، وَأَنَّهُم مَا أَرَادُوا مما قَصَدُوا إِلاَّ الشَّفَاعَةَ؛ وَلَكِنْ أَرادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ**)؛ يعني: إذا كان يُقرُّ

لك بأن المشركين الأول يقرون بالربوبية، وأنَّ الربوبية أمرها لله وحده وليست بيد الأصنام والأوثان شيئًا من ذلك، ولكنه أراد أن يفرق بين فعله وهو دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين وبين فعل أولٰئك الذين يتخذون الأصنام الأحجار من دون الله، فماذا تصنع معه حينئذ؟ إذا أراد أن يفرق بين الآيات التي تلوتها عليه وبين صنيعه بأن الآيات التي تلوتها عليه إنما هي مُنصبة في حق من دعا صنمًا من حجر أو شجر أو نحو ذلك، وأنها لا تشمل من دعا نبيًا أو دعا وليًا، يقول الشيخ: إذا أراد ذلك (**فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ**) ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١]؛ منهم من يعبد الأصنام، منهم من يعبد الشمس، منهم من يعبد القمر، منهم من يعبد الأحجار والأشجار، (**وَمِنْهُمْ مَن يَدْعُو الأَوْلياءَ**) القرآن دلَّ علىٰ ذٰلك، قل له: القرآن دلَّ على أن المشركين الذين كانوا خصومًا للأنبياء والمرسلين؛ منهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الأولياء، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد غير ذٰلك، وقل له: عندي آيات من القرآن الكريم تدلَّ علىٰ ذٰلك، وأنَّ المشركين الذين ذمَّ الله باطلهم وضلالهم في القرآن ليسوا فقط من كان يعبد الأحجار والأصنام؛ بل منهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الأنبياء، ومنهم من عبد الأولياء، ومنهم من عبد الملائكة، هكذا قل له؛ فإذا قال لك: أعطن الآيات، هاتِ الآيات التي تدل على أن المشركين منهم من كان يعبد الأنبياء وأن منهم من يعبد الأولياء، وأن منهم من يعبد الملائكة، هات الآيات التي تدل على ذلك، اقرأ عليه الآيات.

قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ-: (وَمِنْهُمْ مَن يَدْعُو الأَوْلياءَ الَّذِينَ قالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ الآية.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ ما هي حال المدعوين هٰؤلاء؟ فتأمل في حال المدعوين من دون الله: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾ ما هي حالهم؟ أصنام؟ أحجار؟ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ هٰؤلاء أولياء لله من أرفع وأعظم أولياء الله ﴿يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾.

بل عندهم أساس الولاية التي عليه تُبنىٰ وهو أن يكون مُحبًا لله -ﷻ- متقربًا إليه وحده، راجيًا رحمته، خائفًا من عذابه، وهذه أركان التعبد القلبية الثلاثة؛ فهؤلاء عباد لله من أولياء الله المقربين وكانوا يُدعوْن من دون الله، وقد قيل في معنىٰ هذه الآية: إنها نزلت في نفر من الإنس كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم هٰؤلاء الجن وصلحت حالهم مع الله، واستمر أولٰئك علىٰ عبادتهم لهم من دون الله، وقيل: إنها كانت نزلت فيمن يدعو العُزير وعيسىٰ من دون الله -ﷻ-.

فإذن هذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ ﴾ نزلت فيمن يعبد وليًا من الأولياء أو نبيًا من الأنبياء؛ على قولين: إما أنه في الأولياء أو في الأنبياء، وهي على كلا القولين حجة على أولٰئك القائلين أن أولٰئك إنما كانوا يعبدون الأحجار والأصنام.

(وَيَدْعُونَ عيسىٰ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ) أيضًا؛ قل لهم: من المشركين من كان يدعو

الأنبياء والأولياء، عيسىٰ نبي وأمه وليَّة من أولياء الله، ليست من الأنبياء، الأنبياء ليسوا إلا رجالاً، فهي من أولياء الله، أمه من أولياء الله، وعيسى نبي من أنبياء الله ومن الرسل المقرَّبين، عُبد من دون الله، وأمه عُبدت من دون الله، هو نبي وأمه ولية، وعُبدا من دون الله -ﷻ- ؛ إذن المشركين الأُوَل لم تكن عبادتهم مختصة بعبادة الأصنام، فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، والآيات جمعت لك الأمرين، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ الآية.

هٰذا السياق الآن إنكار علىٰ من عبد صنمًا من الأصنام؟ أم هو إنكار علىٰ من عبد نبيًا من الأنبياء أو وليًا من الأولياء؟ هٰذا السياق إنكار علىٰ من عبد نبيًا من الأنبياء ووليًا من الأولياء، عيسىٰ عليه السلام نبي وأمه وليّة من الأولياء وعُبدا من دون الله -ﷻ- وأنكر الله -ﷻ- ذٰلك على من فعله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ولو قرأت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ربما قال لك هذه نزلت في من عبد صنمًا، قل له: اقرأ ما قبلها، فيمن عبد عيسىٰ وأمه.

قال: (وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١])

هٰذه الآية تدل علىٰ أنَّ مِنَ الناس مَنْ عبد الملائكة من دون الله -ﷻ-، ولهٰذا الملائكة تتبرأ يوم القيامة من هؤلاء وأنهم لا يرضون بذلك.

(وَقَوْلَهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦])

إذن هٰذه الآيات تدل دلالة واضحة علىٰ أن المشركين الأول الذين ذمَّ الله شركهم في القرآن الكريم، منهم من يعبد الصنم، ومنهم من يعبد النبي، ومنهم من يعبد الولي، ومنهم من يعبد الملَك، ومنهم من يعبد غير ذٰلك؛ فيكون بذٰلك اتضح جواب هٰذه الشبهة؛ عندما يقول: هٰذه الآيات إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام، نحن فقط اتخذنا الأنبياء والأولياء وسطاء لنا عند الله -ﷻ-، ففرْق بيننا وبين هؤلاء، ففي مثل هذه الحال تقرأ عليه هذه الآيات.

قال الشيخ: (**فَقُلْ لَهُ: عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ولم يُفَرِّق بَيْنَهُم**) نبينا ﷺ لم يفرق بين كُفر من عبد صنم وكُفر من عبد نبيًا أو وليًا؛ بل كُفر هؤلاء باب واحد كله شركٌ بالله -ﷻ- واتخاذ للأنداد والأولياء والوسطاء يصرفون لهم من العبادة ما لا يُصرف إلا لله -ﷻ-.

[المتن]

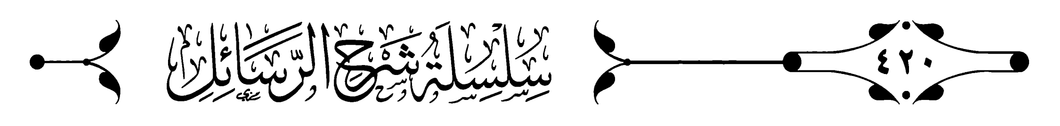
قال المؤلف ﷺ: «**فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ، وَالصَّالِحُون لَيْسَ لَهُمْ مِن الأَمْرِ شَيْءٌ؛ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُم أَرْجُو من اللهِ شَفَاعَتَهُم؛ فَالجَوابُ: أَنَّ هَذا قَوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بِسَواءٍ، واقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعالى:** ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمر: ٣]، **وَقَوْلَهُ تَعالى:** ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وَاعْلَمْ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِيَ أَكْبَرُ ما عِنْدَهُمْ، فَإِذا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَها فِي كِتَابِهِ وَفَهِمْتَها فَهْمًا جَيِّدًا فَما بَعْدَها أَيْسَرُ مِنْها».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ- هنا شبهة هؤلاء الثالثة.

قال: (**فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ**)؛ إن قال الكفار؛ أي: الكفار الذين نزل فيهم القرآن، ونزلت فيهم الآيات، قد مرَّ معنا شيءٌ منها، وتكون أنت أيضًا قد تلوت شيئًا منها، فإذا قال لك: (**الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ**) يريدون من هؤلاء؛ أي: يقصدونهم راجين منهم طالبين منهم حظوظًا وحاجات دينية ودنيوية، (**وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ**)؛ بمعنى: أنه يريد أن يقول لك: أنا مجرد اتخذت هؤلاء وسائط، أنا لا أريد منهم ابتداءً؛ وإنما أريد منهم شفاعة وواسطة عند الله، فأنا أريد من الله؛ لكن هؤلاء جعلتهم بيني وبين الله واسطة من أجل أن يقربوني إلىٰ الله؛ لأني مذنب ومقصر وهم لهم مكانة عليّة عند الله



-ﷻ- ومنزلة رفيعة عنده، فأنا لا أريد منهم مباشرة ولا أطلب منهم مباشرة؛ لأنهم لا يملكون من ذلك شيئًا؛ لكنني أريد أن يكونوا واسطة بيني وبين الله -ﷻ-.

(**فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمُ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ المُدَبِّرُ لاَ أُرِيدُ إِلاَّ مِنْهُ، وَالصَّالِحُون لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ وَلَكِنْ أَقْصِدُهُم أَرْجُو من اللهِ شَفَاعَتَهُم**) فهذا الكلام الذي يقوله هو الآن، هل تجد بينه وبين عمل المشركين الأول فرقًا؟ المشركون يقولون: نحن لا نريد إلا من الله -ﷻ- وهذه لا تنفع ولا تعطي ولا ترفع ولا تملك، والآيات مرت معنا -غير مرة- دالَّة علىٰ ذلك، إذن لماذا تدعونهم وتطلبون منهم؟ قالوا: من أجل أن يقربونا إلىٰ الله -ﷻ- ويكونون وسطاء بيننا وبينه -سبحانه-، ولهذا قال الشيخ: (**فَالجَوابُ: أَنَّ هَذا قَوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بسَواءٍ**)؛ أي: شبرًا شبرًا، ذراعًا ذراعًا، هذا نفس العمل الذي عمله الكفار الأُوَل وهذا نفس قول الكفار الأول، حتىٰ إنهم عندما يُسألون يجيبون بذلك؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ما قالوا: ما نعبدهم إلا لكوننا نعتقد فيهم أنه ينفعونا أو يدفعونا أو يرفعون أو غير ذلك، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

قال: (**فَالجَوابُ: أَنَّ هَذا قَوْلُ الكُفَّارِ سَواءً بسَواءٍ، واقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعالىٰ:** ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى﴾ **[الزُّمر: ٣]، وأيضًا قَوْلَهُ تعالىٰ:** ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾) الآية من أولها: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وسائط بيننا وبين الله -ﷻ-، اقرأ عليه مثل هذه الآيات.

وبهٰذا يكون الشيخ قد أجاب باختصار عن أكبر الشبهات هٰؤلاء، ولا تزال هٰذه الشبهات هي أكبر ما عند القوم وتتكرر منهم عند أي انتقاد يكون منهم علىٰ ما هم عليه من شرك وضلال وباطل.

قال -رحمه الله-: (**وَاعْلَمْ: أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلاثَ هِيَ أَكْبَرُ ما عِنْدَهُمْ**)؛ أي: أكبر ما يحتج به هٰؤلاء هٰذه الشبه الثلاث.

وتأكيدًا لما سبق، فإن الشيخ -رحمة الله عليه- عندما يقول لك: إن هٰذه أكبر ما عندهم؛ يقوله عن بصيرة وعلم بحال هؤلاء، ودخل معهم معتركًا طويلاً في حياة مديدة في الجهاد والنصح بدين الله -تبارك وتعالى-، فهذه أكبر ما عندهم، فأكبر الشبهات التي واجهت الشيخ -رحمه الله- وواجهت أيضًا المصلحين دعاة التوحيد والحق أكبر الشبهات التي يثيرها هٰؤلاء هي هٰذه الشبهات الثلاث.

قال: (**فَإذا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَها في كِتَابِهِ وَفَهِمْتَها فَهْمًا جَيِّدًا فَما بَعْدَها أَيْسَرُ مِنْها**) إذا كان أكبر ما عند القوم أطيح به بهذه السهولة واليسر من خلال كلام الله وكلام رسوله ﷺ وفهم القرآن والسنة؛ فما بعدها من شبهات القوم أيسر من ذلك.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلِيهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ.

فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تقرُّ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ للَّهِ؟، فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ للَّهِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ.

فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً للَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نعمْ، وَالدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللَّهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]، وَأَطَعْتَ اللَّهَ وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ وَيَقُولَ: نَعَمْ.

وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَاللَّاتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالِالْتِجَاءِ وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؛ وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ، وَالْتَجَئُوا إِلَيْهِمْ لِلْجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا».

[الشرح]

هذه شبهة يطرحها المُشبِّه الذي ابتُلِيَ بغير عبادة الله -ﷻ- من حجر أو شجر أو ولي أو غير ذلك، وسبق أن ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى- ثلاث شُبهٍ، ذكر أنها أكبر ما عند القوم من الشبهات التي يطرحونها مخاصمةً منهم للتوحيد ومعاندةً منهم للحق، والشبه الثلاثة التي بدأ ؒ بذكرها والإجابة عنها تتلخص في:

الشبهة الأولى: هي حصرهم أو ادعاؤهم أو زعمهم انتفاء الشرك مع إقرار توحيد الربوبية، الشبهة الأولى: زعمهم انتفاء الشرك مع الإقرار بتوحيد الربوبية، وسبق أن أجاب الشيخ ؒ عن هذه الشبهة ووجّه ؒ أن يُتلى عليهم من آي القرآن ما يكشف ذلك ويزيله، وسبق أيضا البيان أن الآيات التي تتلى عليه في هذا الباب نوعان من الآيات:

أولا: الآيات التي تُبيّن أنّ المشركين كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، وأن هذا التوحيد وحده والإقرار به لا يكفي ولا يُنجي، لا يكفي في حصول التوحيد، ولا ينجي من عذاب الله -ﷻ- يوم القيامة.

والنوع الثاني: من الآيات التي تتلى عليهم هي الآيات التي تقرر توحيد العبادة وإخلاص الدّين لله -ﷻ-.

والشبهة الثانية: حصرهم الشرك في عبادة الأصنام، عندما يُخاصَمون أو يُنتقدون في عبادتهم لغير الله -ﷻ- يزعم بعضهم أن الشرك محصور في عبادة الأصنام، وسبق أيضا جواب الشيخ على ذلك، ومن أجوبته على ذلك أن تتلوا عليهم آيات التي تقرّر أنّ المشركين الأُوَل منهم من عبد الأصنام ومنهم من عبد الملائكة ومنهم من عبد الأنبياء ومنهم من عبد الأولياء ومنهم من عبد غير ذلك.

والشبهة الثالثة: زعمهم أن الكفار الأُوَل كانوا يريدون ممّن يدعونهم وأنه لا يريد منهم إلا الشفاعة، ومضى أيضًا الجواب على هذه الشبهة وأن هذا هو عين فعل المشركين، فإنهم كانوا يتخذون الأنداد والوسطاء لا يريدون منهم إلا الشفاعة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

فهذا ملخص ما مرّ معنا من شبهات ثلاث وأجوبة الشيخ ؒ عن ذلك مختصرا.

ثم ذكر هذه الشبهة لهم وأجاب عنها من وجهين: أجاب عنها أوّلاً: بجواب وافٍ كافٍ في الإقناع وإقامة الحجة، ثم بعد ذلك ذكر جوابا آخر عن هذه الشبهة وهو جواب قوي، وهذه أيضا من طريقة الشيخ ؒ في هذا الكتاب، من طريقته -رحمه الله تعالى- في هذا الكتاب أنه يجيب على الشبهة بما هو كافٍ في كشفها وبيان زيفها ووهائها، ثم يعيد الكرّة بجواب آخر، وهو يشير بهذا إلى أن شُبه القوم يمكن كشف زيفها من وجوه كثيرة، فيكون ذكره للوجه أو الوجهين أو الثلاثة في

هذا المختصر تنبيهًا منه رحمه الله أن كشف مثل هذه الشبهات يكون من وجوه عديدة وبأجوبة متنوعة سديدة.

قال رحمه الله: «**فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، وَهَذَا الإِلْتِجَاءُ إِليهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ**»، هذه الشبهة، إذا قال أنا لا أعبد إلا الله، معنى «**لا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ**» أي: أن عبادتي كلها لله خالصة، لا أجعل معه شريكًا في شيءٍ منها، هذا زعمٌ يزعمه، ودعوى يدّعيها، والدعوى لابد أن يُقَام عليها البيّنة، فمن يدّعي أنّه لا يعبد إلا الله فإنه يجب عليه أن يكون كذلك حقًّا وصدقًا، وقول القائل: لا إله إلا الله هذه معاهدةٌ وعهدٌ وميثاقٌ، أن يُوَحِّد الله -تبارك وتعالى- في العبادة وأن يُخلص لله -تبارك وتعالى- الدين، لا أعبد إلا الله؛ أي: أخلص الدين كلّه لله ولا أجعل مع الله شريكًا في شيء من ذلك، وهذا هو معنى لا اله إلا الله؛ لكن بعض من يقول هذه الكلمة لا إله إلا الله أو أيضا يقولها: بهذا اللفظ الذي ساقه الشيخ عنهم: «أنا لا أعبد إلا الله»، يقولها ولا يعرف حقيقة معناها، فبعضهم يقول: لا إله إلا الله، وهو لا يعرف ما نفته هذه الكلمة ولا يعرف ما أثبتته، لا يعرف الشرك الذي نفته هذه الكلمة، ولا يعرف أيضا الإخلاص والتوحيد الذي أثبتته هذه الكلمة؛ ولهذا بعضهم يقول: «لا إله إلا الله» ويُثبت ما نفت وينفي ما أثبتت مناقضًا لهذه الكلمة ومُراغمًا لما دلت عليه من التوحيد والبراءة من الشرك والخُلُوص منه، فإذن قول القائل من هؤلاء: «أنا لا أعبد إلا الله» هذه دعوى لا تكفي بحد ذاتها حتى يقيم عليها برهانًا من حاله وواقع أمره بأن يقيم وجهه لله -تبارك وتعالى- مخلصًا، فلا يجعل مع الله -تبارك وتعالى- شريكًا في شيءٍ من العبادة.

ومن يقول: لا أعبد إلا الله يُفْترض لكي يكون صادقًا في دعواه: أن يكون على

علم بحقيقة العبادة التي قال عن نفسه أنه لا يصرفها لغير الله، «لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئًا من العبادة لغير الله -ﷻ-، فإذا كان من يقول: «لا أعبد إلا الله» يصرف شيئًا من العبادة لغير الله؛ فيكون بحثك معه وكشفك لخطئه بالطريقة التي ستأتي عند المصنف ؒ في جوابه لهذه الشبهة: ألا وهو أن تبحث معه في حقيقة العبادة، وأن تعرّفه بحقيقتها؛ ليتضح له أن في أفعاله ما هو مناقض لقوله ودعواه بسبب عدم فهمه لحقيقة العبادة التي ادعى بقوله أنه لا يصرف شيئًا منها لغير الله -ﷻ-، يقول: «أنا لا أعبد إلا الله» أي: لا أصرف شيئا من العبادة إلا لله -ﷻ-، هذا الكلام توحيد، «لا أعبد إلا الله» لا أصرف شيئًا من العبادة إلا لله هذا توحيد؛ لكنها من هؤلاء دعوى لا يصدقها واقع حال هؤلاء؛ و لهذا أنظر ماذا يقول بعد قوله أنا لا أعبد إلا الله: «**وَهَذَا الْإِلْتِجَاءُ إِلِيهِمْ، وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ**»، إذن هو يلتجئ لغير الله ويدعو غير الله، ويُخرج الإلتجاء لغير الله ودعاء غير الله -ﷻ- يخرجه من مفهوم العبادة، ويزعم أنه ليس داخلا في العبادة.

فمثل هذه الشبهة إذا طرحها أحد هؤلاء كيف يكون جوابك له وكشفك لشبهته؟، يقول الشيخ -رحمه الله تعالى-: «**فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تقِرُّ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ للهِ؟**»، تقر بذلك؟ ماذا سيقول؟

هو بين أحد جوابين:

إما أن يقول: نعم، أنا أقرّ بإخلاص العبادة لله -ﷻ-، وللكلام معه حينئذ مجال.

أو أن يقول: لا، أنا لا أقر بإخلاص العبادة لله -ﷻ-، وأنه يجوز أن يُصرَف شيءٌ

من العبادة لغيره -ﷻ-، فهذا أيضا للكلام معه مجال آخر: وهو أن عدم إقراره لإخلاص العبادة لله نقض لقوله: «أنا لا أعبد إلا الله».

فيقول: إذا قال نعم، إذا قلت له أنت تقرّ أن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله فإذا قال: نعم، أي: نعم أنا أقر بأن الله افترض عليّ إخلاص العبادة له ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ و يقول ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ و معنى الخالص الصافي النقي، و معنى إخلاص العبادة لله أن يفرد وحده ﷻ بالعبادة فلا يُجعل معه شريك في شيء منها ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ هذا هو معنى الإخلاص في العبادة أن تُجعل العبادة كلها لله، و الخالص هو الصافي النقي فتكون العبادة من العابد صافية نقية لم يرد بها و لا بشيء منها إلا الله ﷻ فتبدأ معه الحديث بقولك: هل تقر بأن الله افترض عليك إخلاص العبادة لله ؟ و يمكن أن تتلو عليه بعض الآيات السابقة، أو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ تقر بذلك ؟ أن العبادة حق لله و أنها يجب أن تخلص له ﷻ و أن لا يصرف شيء منها لغيره، تقر بذلك ؟ فإذا قال لك: نعم، فتنتقل معه لبيان حقيقة العبادة، ونلاحظ هنا أن الشيخ ؒ يقرر طريقة بديعة جدا في مناقشة الخصم و إلزامه إلزامات قوية لا مفر له منها، فهنا أتى الشيخ ؒ في جوابه للخصم من شيء يقر به، فإذا قال لك: نعم؛ معناه فيه قاعدة يقر بها الخصم و تكون منطلق لك في مناقشته، وهذا الذي طرحه الشيخ لا يمكن للخصم أن يرفضه أو ينفيه، فعندما تقول له: هل تقر أن العبادة يجب أن تخلص لله و أن الله افترض علينا إخلاصها له؟ و تقرأ عليه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فما يقول

لك: أنا لا أقر بذلك، بل في الغالب ـ و الله تعالى أعلم ـ أنه سيقول: نعم أنا أقر، فإذن أصبح بينك و بينه أمر يقر به فتنطلق من خلاله لإقامة الحجة عليه و إزالة الشبهة عنه، فقل له: بيّن لي هذا الذي فرضه الله عليك، وهو إخلاص العبادة لله و هو حقه عليك، فطالبه أن يبيّن لك هذه العبادة التي هو يقر بأن الله افترض عليه أن يخلصها له سبحانه، قل له: إن عرفت العبادة و بيّنت لي حقيقتها فمعرفتك بها و بحقيقتها هو الذي في ضوئه يمكن أن نعرف إمكانية الإخلاص من عدمه لأن فاقد الشيء لا يعطيه و كيف يتحقق منه أن يخلص لله و هو لا يعرف هذا الشيء الذي سوف يخلصه أو يجعله خالصا لله فإذن تبحث معه حينئذ في حقيقة العبادة.

قال: فقل له بيّن لي هذا الذي فرضه الله عليك و هو إخلاص العبادة لله، و هو حقه عليك.

فرضه الله عليك و هو إخلاص العبادة، هذا دليله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

و قوله رحمه الله: «**وهو حقه عليك**» دليله: حديث معاذ رضي الله عنه: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»[١]، و منه سمى رحمه الله تعالى كتابه «التوحيد الذي هو حق الله على العبيد».

قال رحمه الله: «**فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها**»، لو قلت له بيّن لي العبادة، عرّف العبادة، ما هي العبادة ؟ ستجد أنه لا يعرف العبادة، إمّا أن يعرفها تعريفا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

خاطئا أو أن يعرفها تعريفا ناقصا أو أنه سوف يخرج في تعريفه لها ما هو داخل في حقيقتها مثل ما هو واضح في كلامه كلام الخصم، أنا لا أعبد إلا الله و الإلتجاء ليس عبادة فسترى فيه خللا في هذا الجانب و هو فهم معنى العبادة، فما هي الطريقة التي تناقشه فيها من أجل إلزامه لأنه قال لك أنا ألتجأ إلى غير الله، أدعو غير الله و هذا الالتجاء و هذا الدعاء ليس عبادة، فأنت من خلال هذا عرفت أن مفهوم العبادة عنده فيه خلل،

فتبدأ تبحث معه بهذه الطريقة، يقول الشيخ ﵀: «**فإنه لا يعرف العبادة و لا أنواعها فبيّن له بقولك قال الله تعالى:** ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾».

أتى الشيخ بهذه الآية لأنها دليل صريح واضح بيّن أن الدعاء عبادة، لأن الخصم يرى أن دعاءه ليس بعبادة، فأنت تأتي بآيات صريحة في أن الدعاء عبادة، وهذه الآية واضحة أن الدعاء عبادة من جهة أمر الله ﷻ به و دلالة الآية على حبه لأهل الدعاء المخلصين له و رضاه عنهم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ فمفهوم الآية أن من يدعو الله مخلصا له ﷻ يحبه الله ﷻ لأنه يقوم بطاعة عظيمة و في الحديث: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ**»[1] و في الحديث الآخر: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[2] فالله ﷻ يحب الدعاء و يحب عباده الداعين، «**الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ**

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٨٦).

جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ: مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ»[١]، و لك أيضا أن تتلو عليه آيات أخرى في الباب مثل قول الله ﷻ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ سمى الله عز و جل الدعاء عبادة، وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»[٢].

أيضا قول الله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾، فسمى تبارك و الدعاء عبادة، و الأدلة على هذا المعنى كثيرة، فأنت أورد له الآيات و كلما جمعت له أكبر قدر من الآيات فهذا فيه شفاء بإذن الله ﷻ، و لهذا تحرص على أن تأتي له بعدد من الآيات التي تقرر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ و قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ سمى ﷻ صرف الدعاء لغيره شركا أيضا في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

(٢) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٠٨٦).

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ و قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾، فآيات كثيرة في هذا المعنى اقرأ عليه ما يتيسّر لك من الآيات التي تحفظها في هذا الباب.

ولا أنسى قصةً مرّت عليَّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادًّا يديه يدعو، ثُمَّ ازداد في اجتهاده بالدّعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثّر فيَّ خشوعه، ثُمَّ رفع صوته قليلا في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللا: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثًا مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أوَّلا بسؤاله عَنْ صحته و عَنْ بلده و عَنْ أولاده و عَنْ سفره و عَنْ أمور عديدة، ثُمَّ لما اطمأنَّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أَهَمِّيَة الدُّعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنَّه كان يدعو، ثُمَّ التفتَ إليَّ وكأنَّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبكي يريد مِنَ الرَّسول عليه الصلاة والسلام أنْ يكشفها عنه ويجلِّيها، ثُمَّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبيِّن فيه أنَّ الدُّعاء حقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، وأنَّ هذه المسألة بُيِّنتْ في القرآن بيانـاً واضحـاً لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء].

وقوله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُنَّة وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة مِنْ أدعية النَّبِيِّ ﷺ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»[1].

وكان إذا خرج ﷺ من بيته قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»[2].

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلاً فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ»[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٣) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

وذكرت له نماذج واضحة لا لُبس فيها يفهمها العاميُّ فضلًا عَنْ غيره، أَنْهَيتُ وهو يسمع بكلِّ إصغاءٍ وإنصاتٍ، فأحببتُ أنْ أطمئنَّ هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحتُ عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليَّ آيات وأحاديث؟!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا ـ سمى لي بلده ـ ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درسـًا أيضـًا عُرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتابا من الكتب الَّتِي حوله تعرض عليه كذلك، ثُمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد الَّتِي هي واضحة حُجبت وغُيِّبت عنه، و حُذِّر أيضا من فهمها بقواعد باطلة.

فيقول الشيخ رحمه الله: «**فبينها له بقولك: قال الله تعالى:** ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [**الأعراف: ٥٥**]، **فإذا أعلمته بهذا**»، أي: إذا بينت له و فهمته و وضحت له أن الدعاء عبادة و أنه حق لله و تلوت عليه من الآيات ما تقيم عليه بها الحجة و واحدة من هذه الآيات كافية في ذلك مثل ما قرر الشيخ رحمه الله اكتفى بآية واحدة، فإذا أعلمته بهذا «**فقل له: هل علمت هذا عبادة الله ؟**» أي: الدعاء عبادة لله، و يجب إخلاصها له و أن لا يجعل معه شريك فيها، «**فلا بد أن يقول: نعم**»، لابد أن يقول: نعم، وإن قال لك: لا، في هذا المقام فقوله: لا في هذا المقام مصادمة صريحة لكلام الله ﷻ و للآيات البينات و الحجج الواضحات، «**فلا بد أن يقول: نعم. والدعاء**

مخ العبادة» أي: خالصها، كما قال نبينا ﷺ **«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»**[1]، أي: خالص العبادة و لبها، **«فقل له: إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره ؟ فلابد أن يقول: نعم»**، فلو قلت له مثلا: لو أقررت أن السجود عبادة و سجدت لله و أقمت السجود لله و حصل منك السجود في الليل و النهار، لكنك سجدت أيضا لغير الله، ماذا يكون عملك هذا ؟ فإذا أقررت أن الدعاء عبادة و أن العبادة حق خالص لله و دعوت الله ليلا و نهارا ثم دعوت مع الله غيره تكون بذلك جعلت مع الله شريكا، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ أي: لا تجعلوا مع الله شريكا، **«إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره ؟ فلابد أن يقول: نعم»** فلابد أن يقول: نعم،، هذا الآن تعريف للعبادة و استدلال على هذا التعريف بالقرآن بذكر فرد من أفرادها فلابد أن يقول نعم، ولك حينئذ أن تتلو عليه بعض الآيات التي تنهى عن الشرك: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ما دمت تقر أن الدعاء عبادة و أنها حق لله فلا تجعل إلاهين، لا تتخذ معبودين، الله ﷻ تدعوه أيضا نبيا أو وليّا أو غير ذلك تدعوه مع الله ﷻ ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: معبود واحد، يجب أن يصرف له وحده ﷻ العبادة بجميع أنواعها.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله تعريف للعبادة آخر بذكر فرد من أفرادها و هو النحر، و النحر

(١) رواه أبـو داود (١٤٧٩)، والترمـذي (٢٩٦٩)، وابـن ماجـه (٣٨٢٨)، وصححـه الألبـاني في «صحيـح ابـن ماجـه» (٣٠٨٦).

عبادة و قربى لله كما يدل على ذلك الآية التي ذكر و أيضا قول الله ﷻ ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قال رحمه الله: «**فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ٢]، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة ؟ فلا بد أن يقول: نعم**»، فاقرأ عليه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ إقرأ عليه ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقل له لو اشتريت إليك ذبيحة و جئت و قلت باسم الله و ذبحتها متقربا بها إلى الله و أكلت منها و تصدقت، هذا العمل عبادة أو ليس عبادة ؟ و الله أمرك به فقال ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ أي: لربك، و ضم ذكر النحر إلى الصلاة، فكما أنه لا تجوز أن تصلي إلا لله لا تسجد و لا تركع إلا له فكذلك لا يجوز أن تذبح أو تنحر إلا له ﷻ، و النحر أعظم العبادات المالية [1]، قال فإذا عملت بقول الله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ و أطعت الله و نحرت له هل هذه عبادة ؟ فلابد أن يقول: نعم، فقل له: فإن نحرت إلى مخلوق نبي أو جني أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟ لابد أن يقر و يقول: نعم، إن لم يقل: نعم، فقد ناقض هذه الآيات البينات، أيضا العبادات الأخرى، ونضرب بمثال ثالث إضافة إلى ما ذكر الشيخ و هي عبادة الالتجاء، لأن السائل أو المخالف يقول و هذا الإلتجاء إليهم و دعاؤهم ليس عبادة، الالتجاء: هو طلب عون من الله، واللجوء إلى الله عبادة يطلب فيها عونه ﷻ، وهو فرار إلى الله تعالى، و هذه عبادة، ثبت في «الصحيحين»

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ النَّحْرُ وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ» «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣٢).

من حديث البراء بن عازب ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَن ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مُتَّ وَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلاَمِكَ**»، قال: فَرَدَدْتُهُنَّ لأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: آمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: «**لاَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**».

فـهذا توحيد لا ملجأ إلا إلى الله أي: أنه ليس هناك من يُلجأ إليه و يُعتمد عليه و يتوكل إليه و يفوض الأمر إليه إلا الله، فقوله لا ملجأ و لا منجا منك إلا إليك هذا توحيد، وضده ما هو ؟

هذا الذي يقوله القائل و اللجوء ليس عبادة هذا مناقضة لقول النبي ﷺ المتكرر كل ليلة عندما يأوي إلى فراشه: «**لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ**» و إذا كان يلتجؤ إلى النبي ﷺ لك أن تقول له هذا الذي تلتجؤ إليه كل ليلة إذا أوى إلى فراشه يقول «**لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ**» يخلص اللجوء إلى الله، فكيف تجعل من يخلص لجوءه إلى الله ندا لله تلجأ إليه؟! فاللجوء عبادة ولا يجوز أن يصرف إلا لله ﷻ، و لهذا ينبغي أن تلاحظ في مثل هذه الأجوبة أن تكون مرتبطا بالقرآن و الحديث التي تكشف ضلال هؤلاء و تبيّن زيف شبهاتهم، فهذا الجواب الذي مضى مقنع و كاف في إزالة الشبهة لكن أعاد الكرة بجواب آخر مسدّد في كشفها،

وهو ينبّه طالب العلم أن كشف الشبهات متيسّر و متهيؤٌ لمن ارتبط بالقرآن من خلال وجوه كثيرة و أجوبة عديدة.

قال ﷺ:«**وقل له أيضا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بد أن يقول: نعم**».

قل له: المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة و الصالحين و اللات و غير ذلك ؟ فلابد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا ؛ فماذا تفعل ؟ يقول الشيخ: لابد أن يقول: نعم، إن قال لك: لا؛ لم يكونوا يعبدون الملائكة و الأنبياء و الصالحين فتقرأ عليه الآيات التي ذكرها الشيخ ﷺ قريبا وتقرر أن المشركين الأول منهم من كان يعبد الملائكة و منهم من كان يعبد الأنبياء و منهم من كان يعبد الصالحين، فيقول الشيخ قل له: «**هل كانوا يعبدون الملائكة و الصالحين و اللات و غير ذلك ؟ لابد أن يقول نعم**»، فقل له حينئذ: «**وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح، والالتجاء ونحو ذلك ؟**» هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء و الذبح و الإلتجاء و نحو ذلك ؟ «**وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره**»، افرض أنك قلت له هل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء و الذبح و الالتجاء و نحو ذلك وقال لا لم تكن عبادتهم في الدعاء ماذا تصنع ؟ تقرأ عليه الآيات التي تدل دلالة واضحة صريحة أن عبادتهم لهم كانت في الدعاء و كانت أيضا في الذبح و كانت أيضا في الالتجاء، مثل ما مر معنا: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذه الآيات صريحة أن من ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الدعاء، ومن ضمن العبادات التي كانوا يصرفونها لغير الله الذبح، فكانوا يذبحون لله و يذبحون لغير الله ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ فكانوا يذبحون لله و يذبحون أيضا لغير الله و لهذا قال ﷺ «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»[1] فتقرأ عليه الآيات التي تدل أن هؤلاء كانوا يعبدون غير الله بالدعاء و يعبدون غير الله بالذبح و يعبدون غير الله بالإلتجاء، يقول الشيخ فقل له: «**هل كانت عبادتهم إياهم إلا بالدعاء و الذبح و الالتجاء و نحو ذلك؟**» فهو رحمه الله بين لك أن الخصم إما أن يقول لك: نعم أو يقول: لا، فإن قال: نعم؛ خصمته بذلك و كشفت باطله، و إن قال: لا؛ فإنك تقرأ عليه من الآيات ما أشرت إلى بعضها.

قال رحمه الله: «**وإلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره**» أي: المشركون الأُول مقرون أنهم عبيده، لأن العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته و عبودية لألوهيته، فقوله أنهم مقرون أنهم عبيده أي: لربوبية الله بمعنى أنه ربهم خالقهم رازقهم محييهم مميتهم، والمتصرف فيهم، مقرون بذلك، أي: مماليك له، بل يقرون أن من يعبدونهم من دون الله أيضا مماليك لله و عبيد له مثل ما في تلبيتهم (لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه و ما ملك)، تملكه أي: مملوك لك تحت قهرك و تصرفك و تدبيرك، فيقرون أنهم عبيد لله و تحت قهر الله و يقرون أن من يدعونهم من دون الله أيضا كذلك عبيد لله و تحت قهره جل جلاله، والعبودية هنا للربوبية

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨).

و ليس المراد بها العبودية الألوهية في مثل قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ و إنما المراد بعبيده هنا في مثل قوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ أي: ذليلا خاضعا لله.

قال ﵀: «**وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجؤوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا**».

هذا الإقرار هو توحيد الربوبية الذي كان يقر به المشركون لكنه لا يكفي و لا ينجي: لا يكفي في كون العبد موحدًا، و لا ينجي، أي: من النار و عذاب الله ﷻ، فهو لا يكفي ليكون به العبد موحدا و لا ينجي أيضا من عذاب الله ﷻ يوم القيامة، «**و إلا فهم مقرون أنهم عبيده و تحت قهره و أن الله هو الذي يدبر الأمر و لكن دعوهم و إلتجؤوا إليهم للجاه و الشفاعة، ولكن دعوهم**» أي: المشركون الأُول، «**و إلتجؤوا إليهم**»، دعوا هذه الأصنام و لتجؤوا إليها من أجل ماذا «**للجاه و الشفاعة و هذا ظاهر جدا**» من حالهم، فإذن ما الفرق بين حال هذا الذي يقول أنا لا أعبد إلا الله و هذا الالتجاء إليهم و دعاؤهم ليس بعبادة ما الفرق بين حاله و بين حال المشركين الأُول، فإذن بهذين الجوابين انكشفت هذه الشبهة و زال و ظهر عوارها.

* * * * *

[المتن]

قال رحمه الله تعالى: «**فإن قال أتنكر شفاعةَ رسولِ الله ﷺ وتتبرأُ منها ؟**

فقل: لا أُنكرها ولا أتبرأ منها. بل هو ﷺ الشافع المشفع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]**، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى:** ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]**، ولا يُشفع في أحدٍ إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى:** ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]**، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[آل عمران: ٨٥].

فإذا كانت الشفاعة كلُها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد؛ تبين لك: أن الشفاعة كلَها لله، وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفّعه في، وأمثال هذا».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله تعالى شبهه أخرى لهؤلاء: «**فإن قال: أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتتبرأ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو الشافع المشفّع، وأرجوا شفاعته**».

هذه الان شبهه أخرى للقوم، وأريد التنبيه قبل الدخول في هذه الشبهه والجواب عليها إلى أمرين:

الأمر الأول: الشيخ ﷀ يذكر لك هذه الشبهات بعد المقدمات التي نفعك الله ﷻ بها، على افتراض أن تُطرح عليك أو يطرح عليك قريب منها لكن لا يلزم أن يطرح عليك كل واحد من هؤلاء المبتلين بهذا الباطل مثل هذه الشبهات.

فكثير منهم يكون دخل في الباطل وليس في ذهنه عندما دخل هذا الباطل إلا شبهة أو شبهتين أدخلته في الباطل، وبعضهم ممتلئ بالشبهات ولهذا من يقع في هذا الباطل بعضهم عنده شبهه وبعضهم بعض الشبهات فأدخلته في الباطل فإذا كشفتها عنه زال عنه الاشتباه بإذن الله، وبعضهم قد يكون ممتلئا بالشبهات الكثيرة فمثل هذا ربما يستمر معك في المناقشة الوقت الطويل إلى أن ينقطع، أما بعض هؤلاء فبعض الأجوبة مما مر كاف بإذن الله إلى الحصول على الاقتناع والرجوع الى الحق و الهدى.

لكن طالب العلم يحتاج أن يكون مسلحا بهذا العلم الرصين والكلام المتين في أي حال من الأحوال فيكون عنده نفس في كشف شبهات القوم، وإذا ضبطت هذا الكتاب ضبطا متقنا تستطيع بإذن الله أن تجيب على جُل الشبهات التي يطرحها هؤلاء القوم لأنها إما أن يكون وضعها مجرد اختلاف العبارة وطريقة الطرح، أو أشياء من هذا القبيل، فالشيخ يذكر لك هذه الأنواع ويجيب عليها لتكون سلاحا لك، ولا يلزم من ذلك أن كل من تلقاه ممن يقع في هذا الشرك أن يكون على معرفة بهذه الشبهات.

وبعضهم قد يكون معاندا ومكابرا يعرف أن الذي عندك هو الحق لكنه لا يقبله

منك، إما خشيه ضياع رئاسة أو ضياع جاه أو ضياع أشياء من هذا القبيل، ولا يلزم من ذلك أن يكون الأمر مشتبها عليه.

الامر الثاني مما انبه إليه هو: ارتباط الشيخ ﵀ الواضح بالقرآن الكريم وبكتاب الله ﷿ وبسنة النبي ﵊ ولهذا تراه في كشف الشبهات كلما أقدم على كشف شبهة يذكر الآيات القرآنية، آية أو آيتان فهي كافية في إزالة الشبهة وهذا من علاج الأمراض التي قد تكون في بعض الناس فشفاؤها بالقرآن، والله ﷿ وصف القرآن بأنه شفاء، شفاء لكل الأمراض، وأعظم الأمراض الشرك، ولهذا يحتاج هؤلاء إلى الاستشفاء بالقرآن الكريم، فتقرأ عليهم اآيات وتبين لهم معانيها، وتوضح تفسيرها، ولعل الله ﷻ يجعل فيها شفاء لأمراض هؤلاء.

قال ﵀: (**فإن قال: أتنكر شفاعة النبي ﷺ وتتبرأ منها؟**) وهذه طريقه معروفه عند هؤلاء أنهم يحاولون إظهار الشناعة على أهل التوحيد والتشنيع عليهم فيأتي في مثل هذا المقام ويقول: أنت تنكر شفاعة النبي ﵊ ! أو ربما قال لك: أنت تنكر جاهه ومكانته عند الله! أو ربما قال لك: أنت تنكر فضل الأولياء! ومكانة الأولياء عند الله، ومنزلة الأولياء عند الله!

ربما يقول لك هذا الكلام فبماذا تجيبه؟ قال ﵀: «**فقل: لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته**» معنى تتبرأ منها: تقول إنني ابرأ من كون النبي ﷺ شفيعا.

ولا ينكر الشفاعة إلا ضُلال الخلقولا ينكر أن النبي ﵊ إلا الكفار من اليهود والنصارى أو ضُلال الفرق المبطله من أهل البدع والضلال.

قل: لا أنكرها وإذا تريد أن أقرأ عليك من الآيات والأحاديث التي تقرر كونه ﷺ شفيعا قرأت عليك مما تعرفه وما لا تعرفه تريد أن أذكر لك من الآيات التي تثبت أنه ﷺ أعطي الشفاعة ؟ وأنه الشافع المشفع هذا أمر لا ينكره من يعرف القرآن والسنة ولا يتبرأ منه من يعرف القرآن والسنة وحاشا أن ننكر ذلك.

والمخالفون فعلهم هذا نوع من المغالطة لإظهار الشناعة على أهل الحق، فهو عندما يقول لك تنكر الشفاعة؟ يقولها لأن مفهومه للشفاعة خاطئ. ولما رآك لا تفهم الشفاعة على فهمه أظهر الشناعة بقوله تنكر الشفاعة!

ما الذي يفهمه هو من الشفاعة ؟ يفهم من الشفاعة المعنى الذي أنكره الله على المشركين ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨].

الذي يفهمه من الشفاعة هو هذا المعنى اتخاذ الأنداد من الأنبياء أو الأولياء أو الملائكة ودعاؤهم وسؤالهم وإذا قيل له لماذا ؟ يقول: هؤلاء شفعاء لنا عند الله وسطاء لنا عند الله يقربونا الى الله ﷻ.

فلما كان مفهومه للشفاعة مغلوطا قال هذه المقاله قال: (**تنكر الشفاعة وتتبرأ منها**) فقل له: أنا لا أنكر الشفاعة ولا أتبرأ منها بل الشفاعة ثابتة وحق وأثبتها الله ﷻ في القرآن وأثبتها النبي ﷺ في السنة وهو ﷺ أعطي الشفاعة وهو أعظم شافع ﷺ وهو الشافع المشفّع صلوات الله وسلامه عليه فلا أنكر ذلك وله الشفاعة العظمى يوم القيامة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] وله شفاعات

اختص بها يشفع لأهل الجنه في أن يدخلوا الجنه وله شفاعات يشاركه فيها الانبياء والملائكة والصالحين لا انكر ذلك.

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ) هذا للتكثير. ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[النجم:٢٦] فالشفاعة ثابتة لا أنكرها ولا أتبرأ منها «**بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته**»وأرجو: أي: من الله ﷻ، لأن شفاعته ﷺ لمن يشفع له بإذن الله وبيد الله وهي ملك لله ﷻ. «**وأرجوا شفاعته**»: أي أسال الله ﷻ أن يجعله شفيعا لي يوم القيامة.

فبهذه الكلمتين «**لا أنكرها، ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته**» تكون قد أزلت ما أراده من الشناعة على صاحب الحق، ولو قال لك: تنكر جاهه ﷺ؟، فتقول له: أبرأ الى الله أن انكر جاهه من ذا الذي ينكر هذا؟! فإذا كان الله ﷻ قال عن موسى ﵇: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩] وقال عن عيسى ﵇: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:٤٥] ونبينا ﵊ جاهه عند الله اعظم جاه ومكانته عند الله أعظم مكانة ومنزلته عند الله أعظم منزلة.

من الذي ينكر مكانه وجاهه ومنزلته؟!، «**ولكن الشفاعة كلها لله**». - انظر الى التوحيد - ما معنى الشفاعة كلها لله؟ أي: ملك لله، الشفاعة كلها لله ملك لله.

نبينا ﵊ لما قال في الحديث: «(وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»[1] من الذي أعطاه إياها ؟ مالكها رب العالمين ﷻ.

«**أعطيت الشفاعة**»: يعني أعطاني الله ﷻ الشفاعة.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»(١)

فقوله ﵀: «**ولكن الشفاعة كلها لله**» ضع عليها رقم واحد لأنه سيأتي أجوبه متسلسلة مترابطة بمجموعها هي تعري شبهه هؤلاء، وكل واحدة مبنية على ما قبلها.

«**ولكن الشفاعة كلها لله**» أمر أول تبينه له الشفاعة كلها لله كلها أيا كانت ولمن كانت لله سبحانه تعالى ومعنى لله أي: ملك له كما قال تعالى﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] وباتفاق المفسرين من أهل الحق والبصيرة بكتاب الله اللام لام الملك لله الشفاعة جميعا أي: ملك لله مثل قوله تعالى﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: هو المالك ﷻ لما في السموات والأرض فكل ما في السموات والأرض ملكه. فلله الشفاعة جميعا أي: الشفاعة كلها ملك لله هذا واحد، الدليل ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] هذه الآية وردت في سياق قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ الآن المقام إبطال ما عليه المشركين من اتخاذ الشفعاء والأنداد ففي هذا السياق قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] أي: الشفاعة كلها ملك لله ﷻ قال الله ﷻ ذلك في إبطال دعوى

---

(١) رواه مسلم (١٩٩).

المشركين في اتخاذ الأنداد مع الله زاعمين أنهم شفعاء لهم عند الله فأبطل الله ذلك عليهم بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

فمن اتخذ ندا مع الله تعالى يدعوه ويلتجئ إليه أيا كان هذا الند ثم قال: أنا أريد بذلك أن يكون شفيعا لي عند الله، فاقرأ عليه قول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]: أي: الشفاعة كلها ملك لله **هذا الأمر الأول.**

الأمر الثاني قل له: «**ولا تكون إلا من بعد إذن الله**»أي: لا يمكن لأحد كائنا من كان أن يشفع عند الله ابتداءً لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي ولا غيرهم ؛ بل لا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له ولهذا نبينا ﷺ كما في «الصحيحين»، قال النبي ﷺ: «فَأَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهُ»[1]. فهل يشفع ابتداءً ؟ لا؛ ليس لأحد أن يشفع عند الله حتى أكرم الشفعاء وأعظمهم نبينا ﷺ لا يشفع عند الله إلا من بعد إذن الله.

قال رحمه الله: «**ولا تكون إلا من بعد إذن الله، كما قال** ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]» هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: «**ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه**»؛ بعد أن يأذن الله فيه: أي في هذا المشفوع له؛ والمراد أن يرضى الله عنه أن يرضى الله عن المشفوع له قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

إذا مر علينا أمور ثلاثة في الشفاعة:

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

الشفاعة ملك لله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]

ولا أحد يشفع عند الله إلا إذا أذن الله له: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] الأمر الثالث: أنه لا أحد يُشفع له عند الله إلا إذا ﷺ رضاه ﷻ عن المشفوع له ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وجمع الله ﷻ بين الإذن والرضا في قوله تعالى ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦] يأذن الله: أي للشافع ويرضى: أي عن المشفوع له.

الأمر الرابع: قال رحمه الله: «**وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى:** ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]»: الصحابة رضي الله عنهم كانوا يدركون هذه الحقيقة في باب الشفاعة وأن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالها كل أحد. ولهذا جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»(١)، لأن التوحيد أساس لابد منه ليكون العبد بذلك مؤهلا لأن يشفع له الشفعاء يوم القيامة ومن يأتي يوم القيامة مشركا متخذاً الأنداد والشركاء بأي اسم كان، وبأي صفه كانت ليس أهلا لأن يشفع له، لأن الله لم يرض قوله ولا عمله.

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

والأدلة دلت ان الله ﷻ **«لا يرضى إلا عن اهل التوحيد والدليل:** ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]».

كذلك قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

واعتبر في هذا الباب من قصة ابراهيم الخليل عليه السلام في «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِى فَيَقُولُ أَبُوهُ فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبِّ، إِنَّكَ وَعَدْتَنِى أَنْ لاَ تُخْزِيَنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَىُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِى الأَبْعَدِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّى حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ»[1]. فالشاهد أن الله ﷻ لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فكيف تطلب الشفاعة بفعل ما يناقضها ويضادها؟

قال رحمه الله: **«وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد، كما قال تعالى:** ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]».

قال رحمه الله: **«فإذا كانت الشفاعة كلها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد»**.

هذا تلخيص لما سبق يقول الشيخ: فإذا كانت الشفاعة كلها لله: **هذا واحد** ولا تكون إلا من بعد إذنه: **اثنين**، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه **هذا الثالث والرابع** ولا يأذن الله إلا لأهل التوحيد.

(١) رواه البخاري (٣٣٥٠).

النتيجة: «**تبين لك أن الشفاعة كلها لله فأطلبها منه**»: فلا يلجؤ في طلبها إلا من الله وبهذا يظهر فساد شبهة الخصم.

فهذا حال الموحد تقول له: (واطلبها منه فأقول) وهذا من دقة بيان الشيخ ﵀ لأنه يبين حال الموحد الذي يمشي على المنهج الصحيح والنهج السديد في باب الشفاعة أنا لا أنكر الشفاعة ثم تبين له حقيقة الشفاعة ثم تبين له حالك يا من وفقك الله في هذا الباب بعيدا عن ضلال اولئك تقول: «**فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا**»: أما من لم يفهم هذه النقاط المبينه في القرآن والسنة فيقول: (يا رسول الله اشفع لي) فيكون قد طلبها من غير المالك والمالك هو الله ﷻ وهي ملك لله والنبي ﷺ لا يشفع لأحد إلا إذا اذن الله له ولا يشفع إلا لمن رضي الله قوله والله لا يرضى إلا عن أهل التوحيد فالذي يريد الشفاعة يطلبها من المالك ولهذا يقول: (**فأطلبها منه فأقول**)، لم يقل له: (تبين لك أن الشفاعة كلها لله فاطلبها منه) وإنما قال (تبين لك ان الشفاعة كلها لله فأطلبها منه) ؛ أي هذا حال الموحد الذي يفهم هذه الحقيقة فإن فهمت هذه الحقيقة واستقرت في قلبك كنت من أهل التوحيدز

«**فأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفعه في، وأمثال هذا**»:أي: أمثال ذلك من العبارات التي تصدر من أهل التوحيد الذين لا يلجؤون إلا الى لله ﷻولا يدعون إلا الله تعالى ولا يطلبون إلا من الله ﷻ.

[المتن:]

قال المؤلف ﵀: «فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ؟

فَالْجَوابُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشفِّعَ نبِيّه فِيْكَ فَأَطِعْهُ في قَوْلِه: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾.

وَأَيْضاً فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيها غَيْرُ النَّبِي ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ المَلائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلِياءَ يَشْفَعُونَ، أتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُها مِنْهُمْ؟ فَإِنْ قُلْتَ هَذا رَجَعْتَ إِلى عِبَادةِ الصَّالِحينَ الَّتي ذَكَرها اللهُ في كِتابِهِ. وَإِنْ قُلْتَ: لاَ، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

[الشرح]

هنا ذكر الشيخ ﵀ شبهة أخرى من الشبه التي يتعلق بها من يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويلتجئ إلى غير الله، وذكر ﵀ هذه الشبهة بعد شبهة أخرى، قبل هذه الشبهة تتعلق بالباب نفسه (باب الشفاعة)، حيث ذكر قول هؤلاء عن الموحد، قولهم: (أَتُنْكِرُ الشَّفَاعَةَ وَتَتبرأُ مِنْها؟)، وأجاب ﵀ عن ذلك بأن أهل الإيمان والتوحيد ليسوا منكرين للشفاعة؛ بل هم مؤمنون بها، وأن شفاعة النبي -عليه الصلاة والسلام- حق، وشفاعة الملائكة حق، وشفاعة الصالحين حق، كل ذلك يؤمنون به؛

لكن دلت دلائل الكتاب والسنة على أمور بيّنها رحمه الله هي تُعد ركائز في باب الشفاعة لا بد من ضبطها:

الأولى: أن الشفاعة ملك لله، **والثانية**: أنها لا تكون إلا بإذن الله، **والثالثة**: لا تكون إلا برضا الله عن المشفوع عنه، **والرابعة**: أنه -جل وعلا- لا يرضى إلا عن أهل التوحيد: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فلما ذكر ذلك، انتقل إلى ذكر شبهة أخرى، قال: (فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ؟)، النبي ﷺ أُعطي الشفاعة وهذا حق كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: «وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»(١) ومعنى أُعطيْت الشفاعة أي: أعطاني الله الشفاعة؛ لأن الشفاعة ملك لله ولا سبيل لأحد أن يشفع عند الله، إلا إذا أذن له المالك سبحانه وتعالى؛ قال: «أُعطيْتُ الشفاعة» أي: أعطاني الله الشفاعة، ويوم القيامة يقول الله له: «**يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهُ**»(٢)، فهو -عليه الصلاة والسلام- أعطي الشفاعة وهو الشافع المشفع -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) يعني هذا شيء أعطاه الله -سبحانه وتعالى- لنبيه ﷺ وأنا أطلب مما أعطاه الله، «أطلبه» أي: أطلب النبي عليه الصلاة والسلام، والطلب هنا أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام شفيعا له يوم القيامة وهذا عبادة والتجاء، والالتجاء لا يكون إلا لله والشفاعة ملكه -سبحانه وتعالى-؛ فقوله (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) أي: أطلب النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الطلب منه

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٣).

ﷺ والتوجه إليه والالتجاء إليه في هذا الباب عبادة هي حق لله -ﷻ-، قال: (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) فبم يُجاب؟ قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فالجواب: (أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أعطاه الشفاعة، قال ﷺ: «أُعطِيْتُ الشفاعة» (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عما عبرت عنه بقولك (أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) نهاك عن هذا في آيٍ كثيرة، نهى فيها -ﷻ- عن دعاء غير الله وسؤال غير الله والالتجاء إلى غير الله، ومن شفع له النبي ﷺ يوم القيامة فاز فوزاً عظيماً ونجا من عذاب الله وفاز بدخول الجنان، والفوز العظيم والنجاة من النار ودخول الجنة كل ذلكم بيد الله، فلا يُطلب إلا من الله -ﷻ-، فقوله (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) هذا باطل ومناقض للتوحيد، ومناقض للإخلاص الذي أُمر أن يكون عليه العبد ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء:٥٦] ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الأحقاف:٥] والآيات في هذا الباب كثيرة؛ فقوله (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) فهذا مخالَفَة ومناقَضَة للتوحيد.

قال: (وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا) أي: عن هذا التوجه والطلب والالتجاء إلى غير الله -ﷻ- فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ و﴿أَحَدًا﴾ جاءت نكرة في سياق النهي فأفادت العموم أي: أيَّ أحد كان، لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولا ولياً من الأولياء، لا تدعو مع الله أحداً؛ بل ليكن دعاؤك وتوجهك والتجاؤك إلى الله -ﷻ- وإذا كنت تريد شفاعته ﷺ وترجو أن تكون ممن يشفع لهم ﷺ فتفوز فوزاً عظيماً فاطلبها من الله المالك، قل مخلصاً موحداً ملتجئاً إلى الله: «اللهم شفِّع فيّ نبيك» أو «اللهم اجعل نبيك شفيعاً لي» أو «اجعلني ممن يشفع لهم نبيك ﷺ» أو نحو

هذه العبارات التي يكون فيها الالتجاء إلى الله -ﷻ- ولا تُنال شفاعة النبي ﷺ إلا بالإخلاص، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[1]، وقول هذا القائل (وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ) هذا مناقضة للإخلاص الذي تُنال به الشفاعة[2].

قال: (﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَ نبيَّهُ فِيْكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾).

(إِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ) لعل المراد -كما قال الشيخ محمد بن ابراهيم -رحمه الله- «إذا كنت ترجو الله أن يشفع نبيه فيك»، ترجوه أو تطمع أن يكون ﷺ شفيعـًا فيك أي: يوم القيامة فأطعه، إذا كنت ترجو الله أو تطمع من الله -ﷻ- أن يكون النبي ﷺ شفيعـًا لك يوم القيامة فأطعه في قوله ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، الذي أعطى النبي ﷺ الشفاعة هو الذي قال لك في القرآن ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فإذا كنت تريد أن يكون النبي ﷺ شفيعـًا لك يوم القيامة فلا تدعو مع الله أحداً؛ لأن الله نهاك عن ذلك وحرمه عليك وتوعد فاعله بأشد الوعيد وأشد العقاب فلا تدعو مع الله أحداً؛ بل أخلص الدعاء لله، وفي هذا الباب باب الشفاعة أخلص أيضـًا الدعاء لله، قل «اللهم»

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «طلب الشفاعة إنما هو من الله، وأنت تأخذ بالأسباب، تتقي الله، تؤمن به، توحده سبحانه، تترك الإشراك به، تجتهد في ترك المعاصي، ومع هذا تقول: اللهم شفع في نبيك، اللهم شفع في عبادك الصالحين، اللهم شفع في أفراطي، ومع هذا كله مع الطاعة والاستقامة لا تدا بنفسك وعملك، ولا تأمن، ولا تمن على الله، ولا تعجب بعملك..»«شرح كشف الشبهات» (ص٦٣).

لا تقل «يا نبي الله» ولا تقل «يا ملائكة الله» ولا تقل «يا أولياء الله» ولا تقل «يا ولي فلان» أو «يا شيخ فلان»؛ إنما قل: «يا الله»، «اللهم»، «يا رب اجعلني ممن يشفع لهم نبيك وملائكتك» أو نحو ذلك، ولا تتوجه لغير الله -ﷻ- بسؤال أو طلب لأن هذا مخالفة صريحة لما نهاك الله عنه بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، هذا جواب من الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- على هذه الشبهة وهو كاف في كشفها.

ثم زاد -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- جواباً آخر، قال: (وَأَيْضاً) أي: أيضاً في الجواب على هذه الشبهة نفسها يقالك (فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيها غَيْرُ النَّبي ﷺ) أي: دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن غير النبي ﷺ أُعطي الشفاعة، مثل الملائكة ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وأيضاً الأفراط يشفعون، وفَرَط الإنسان من يموت من ولده صغيراً فيسبقه إلى الدار الآخرة، يشفع لوالديه، الأفراط يشفعون. قال: (فَصَحَّ أَنَّ المَلائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلياءَ يَشْفَعُونَ)، من كان مؤمناً تقياً من أولياء الله -ﷻ- فإنه يشفع يوم القيامة، قال: (فَصَحَّ أَنَّ المَلائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلياءَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُها مِنْهُمْ؟) إذا قلت له هذه الكلمة هو بين أمرين:

إما أن يقول: لا، لا أطلبها منهم، مع أنهم أُعطوا الشفاعة لا أطلبها منهم؛ بل أطلبها من الله، فحينئذ ناقض نفسه وظهر فساد مذهبه من خلال كلامه وتناقضه.

وإما أن يقول: بل أطلبها منهم أي: من الملائكة ومن الأفراط ومن الأولياء، ويكون بهذا دخل في الشرك من أوسع أبوابه والعياذ بالله.

قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذا رَجَعْتَ إِلى عِبَادةِ الصَّالِحينَ الَّتِي ذَكَرها اللهُ في كِتابِهِ) يعني إن قلت أنا أطلبها منهم أي: أطلبها من الملائكة والأولياء ومن الأفراط، ألتجئ إلى هؤلاء كلهم في طلبها، رجعت إلى عبادة الصالحين وشرك الأولين شبراً شبراً، ذراعـًا ذراعـًا، التي ذكرها الله -ﷻ- في كتابه، أي في مثل قوله ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] يعبدون من دون الله أي: يلتجئون إلى غير الله ممن لا يملك لهم ضراً ولا نفعـًا؛ فالولي ومن فوقه ومن دونه لا يملك لأحد ضراً ولا نفعـًا ولا موتـًا ولا حياةً ولا نشوراً ولا جنةً ولا ناراً ولا سعادة ولا شقاءً لا يملك ذلك، لأن ذلك كله ملك الله -ﷻ-؛ فمن طلبها من الأولياء ومن الملائكة طلبها ممن لا يملك ذلك، وجعل من لا يملك ذلك شريكـًا للمالك، فرجع إلى عبادة الصالحين التي كان عليها المشركون الأُوَل، قال: (فَإِنْ قُلْتَ هَذا) أي: إن قلت أنا أطلبها منهم (رَجَعْتَ إِلى عِبَادةِ الصَّالِحينَ الَّتِي ذَكَرها اللهُ في كِتابِهِ وَإِنْ قُلْتَ: لاَ، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ).

وأيضـًا مما يجاب به على هذه الشبهة والأجوبة كثيرة قول النبي ﷺ لفاطمة بنته ﵂: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[١].

ويجاب عنها أيضـًا بقول النبي ﷺ للرجل الذي قال: «يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة»، فعن رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الْأَسْلَمِيّ، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).



اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «**سَلْ**» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ**» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[١].

أي لله، إذا كنت تريد مرافقتي للجنة أكثر من السجود لله، وعندما يسجد لله يطلب من؟ عندما يضع جبهته لله ساجداً وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فالذي يريد مرافقة النبي ﷺ في الجنة عليه أن يكثر من السجود لله ﷻ أي تسجد له متذللاً له خاضعـاً داعيـاً طالبـاً منه -سبحانه وتعالى-، أرشده ﷺ إلى الطريق.

* * * * *

(١) رواه مسلم (٤٨٩).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: أَنَا لا أُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً حاشَا وَكلاً، وَلَكِنَّ الالْتِجَاءَ إلى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ. فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُهُ؛ فَمَا هذا الَّذِي حَرَّمَه اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي.

فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ؟ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللَّهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ، وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ ولا تَعْرِفُهُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُحَرِّمُهُ وَلا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟».

[الشرح]

ثم ذكر الله تعالى هذه الشبهة لهؤلاء (فَإِنْ قَالَ :أَنَا لا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) يعني نفى عن نفسه الوقوع في الشرك كله، (لا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) هذه نكرة تفيد العموم في قوله (شَيْئًا)؛ فإذا نفى عن نفسه الشرك (قَالَ :أَنَا لا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا) أبرأُ من الشرك ومن أن أكون من أهل الشرك أو أكون من المشركين (لا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا حاشَا وَكلاً) حاشا أن أكون من أهل الشرك وكلا، أي: لست منهم ولا على طريقتهم، (وَلَكِنَّ الالْتِجَاءَ إِلى الصَّالِحينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ) لا أعُدّ هذا شركًا، أنا لا أشرك وأرى أن الشرك محرم، حرمه الله وأن الله يعاقب عليه يوم القيامة أشد العقوبة، مُقر بذلك وأنا لست من أهل الشرك (وَلَكِنَّ الالْتِجَاءَ إِلى الصَّالِحينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ) الالتجاء أي: اللجوء إليهم طلبًا وتذللاً وطمعًا ورجاءً ورغبة، يلجأ إليهم في نوائبه وفي حاجاته؛ بل بلغ الحال ببعض هؤلاء في باب الالتجاء أنه عند الشدائد والكربات،

لا يلجأ إلا إلى غير الله، ممن تعود الالتجاء إليهم في رخائه وسرّائه، فصار الحال عنده سواء في الشدة والرخاء والسراء والضراء، لا يلجأ إلا إلى غير الله، وبعضهم يلجأ إلى الله ويلجأ أيضـًا إلى غير الله، وقد كان المشركون الأول في مثل هذه الحال لا يلجؤون إلا إلى الله، فإن قال (وَلَكِنَّ الالْتِجَاءَ إِلى الصَّالِحينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ)، الآن أخرج هو من الشرك ما هو داخل فيه، وما هو نوع من أنواعه فكيف تعالج هذه المشكلة؟ يقول لك: الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك؟ سواء قال لك الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك أو قال لك الدعاء ليس بشرك أو قال لك الذبح ليس بشرك أو أخرج لك نوع من أنواع الشرك من الشرك، فكيف تكون المعالجة لذلك؟ قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-: (فَقُلْ لَهُ :إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنا وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لا يَغْفِرُهُ) حرّم الشرك أعظم من تحريم الزنا لأنه أشد المحرمات، ولهذا في القرآن والسنة في باب النواهي يُقدَّم الأشد تحريمـًا على ما دونه في الحرمة كما في قوله -ﷻ-: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢] ثم بعدها بآيات قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢] كما في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]؛ ففي باب النواهي في القرآن يُقدّم الأشد والأخطر، وهكذا في السنة: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»[(١)] بدأ بالشرك ثم ذكر بقية المحرمات ومنها رمي المحصنات؛ أيضـًا في باب الأوامر يُبدأ بالأمر بالتوحيد، فالتوحيد أعظم شيء أمر الله به والشرك أعظم شيء نهى الله -ﷻ- عنه فهو أشد،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

أشد حرمة من الزنا ومن القتل ومن عموم المحرمات ولهذا قال الله -ﷻ-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣] وقال: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف ٥: ٦] وهذا أمر ربما بعض العوام أو الجهال لا يدركه أو لا يستشعره، ولهذا يُذكر أن أحد أهل العلم أراد أن يمتحن فهم الناس للتوحيد ومكانته، فذكر لهم حال رجل اعتدى على بيت وانتهك عرض امرأة في البيت، ومارس معها الفاحشة ووصف لهم هذه الحال فضجّ من حوله مستنكرين، في يوم آخر ذكر لهم حال رجل بنى بيتاً وأراد أن يسكنه فقيل له: لكي تُحفظ وتوقى في بيتك اذبح لك شاة أو دجاجة للجن أو شيئاً من هذا القبيل من أعمال أهل الشرك في التقرب إلى غير الله، فما رأى عليهم استنكاراً؛ فبعض الناس ربما يجهل ذلك وربما بعضهم لا يستشعر ذلك، يعني يتغيّظ لرؤية فاحشة لزنا وتغيظه في محله؛ ولكن لا يتغيّظ لحصول الشرك الذي هو أعظم العدوان وأظلم الظلم وأكبر الإجرام.

قال: (وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لا يَغْفِرُهُ) أي: كما قال -سبحانه-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] أي: من مات على ذلك، أي: على الشرك فلا مطمع له في مغفرة الله، كما قال -ﷻ- في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾[فاطر:٣٦] يقول له الشيخ: (إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مِن تَحْرِيمِ الزِّنا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لا يَغْفِرُهُ فَمَا هذا الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ؟) ما هو الشرك

الذي حرمه الله؟ عرّفه لي، بيّن لي حقيقته (فَمَا هذا الَّذِي حَرّمه اللهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي) لماذا قال الشيخ -رحمه الله- (فَإِنَّهُ لا يَدْرِي)؟ وقالها قبل أن يَسمَع الجواب؛ لأن قوله المسبق: أنا لا أشرك بالله، والالتجاء لغير الله ليس بشرك، هذا يدل دلالة واضحة أنه لا يدري ما هو الشرك، ولهذا قال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-: (فإنه لا يدري) لأنه لو كان يدري ويعرف حقيقة الشرك لما قال تلك المقالة، ولهذا إذا قلت له عرّف لي الشرك سترى أنه إما لا يجيب بشيء، يعني سيقول لك هذه العبارة بلفظها «لا أدري» أو «لا أعرف»، أو يجيب بأجوبة خاطئة من جنس جوابه الأول؛ قال: (فَإِنَّهُ لا يَدْرِي) يعني لا يدري، ستكتشف أنه لا يعرف الجواب، قال (فَإِنَّهُ لا يَدْرِي) أي: لا يدري ما هو الشرك، وقد قيل قديما «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي»[1] الذي لا يدري ما هو الشرك كيف يتقيه؟ ولهذا قوله السابق هو فرع عن عدم معرفته بالشرك وبحقيقة الشرك، قال: «فَإِنَّهُ لا يَدْرِي).

قال: (فَقُلْ لَهُ :كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ؟) لاحظ أنك من أجل أن تقول له هذه الكلمة (كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ؟) ربما قبلها تمر ببعض المحاورات معه، حسب حال الرجل؛ لأنه إما أنه سيقول لك «لا أدري» مباشرة أو «لا أعرف» أو أنه سيبدأ يخوض في تعريفات خاطئة للشرك، فماذا ستصنع؟ تبين له الخطأ في كل مرة يُعرّف الشرك تُبين له الخطأ وتستدل له، في بيانك الخطأ تستدل مبينـًا خطأه بالدليل إلى أن يصل إلى حال لا يستطيع أن يُعرّف الشرك؛ فحينئذ تقول له هذه الكلمة: (كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لا

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ٣١٦).

تَعْرِفُهُ؟)، (كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ) الذي حرّمه الله وأخبر أنه لا يغفره وأنت لا تعرفه في ضوء الدلائل من الكتاب والسنة، وعندما تتكلم في تعريفه تتكلم بفكر قاصر وفهم سيء ضعيف، ليس قائماً على دلائل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فـ(كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لا تَعْرِفُهُ).

(كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ، وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ ولا تَعْرِفُهُ؟) هذه مشكلة أهل الضلال، حرّم الله عليهم الشرك؛ فقاموا وأتوا بالعبادة ولم يسألوا ولم يعرفوا، ولهذا ترى كثير من هؤلاء إذا سمع آيات الشرك ينفر منها ويرى نفسه ليس من أهلها، ليس من أهل هذه الخصال؛ لكن لما كان لا يعرف الشرك وحقيقته وقع فيه، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «إِنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، إِذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْجَاهِلِيَّةَ»(١)، وأعظم الجاهلية الشرك بالله -تبارك وتعالى-، لهذا من لا يعرف الشرك يقع فيه، لهذا قيل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فلابد من معرفة الشرك من أجل أن يُحْذر ويُتقى، والله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] إذا استبانت سبيل المجرمين كان الناس منها على حذر، أما إذا لم تستبن ربما وقع الناس في سبيلهم من حيث لا يشعرونو لا يدرون.

قال: (وَلاَ تَسْأَل عَنْهُ ولا تَعْرِفُهُ)، قل مثل هذا أيضاً في حال كثير من الناس في المحرمات الأخرى، حرّم الله عز وجل الربا وباع كثير من الناس واشترى ولم يسأل

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١)، و«الفوائد» (ص ١٠٩).

ولم يعرف الربا، وحرم الله ﷻ أكل مال اليتيم فأكل ولم يسأل، وحرم أموراً عديدة فتعامل بها ولم يسأل.

قال: (كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لا يَغْفِرُهُ، وَلاَ تَسْأَلُ عَنْهُ ولا تَعْرِفُهُ؟ أَتظُنُّ أَنَّ اللهَ يُحَرِّمُهُ وَلا يُبَيِّنُهُ لَنا؟) هذا الكلام عظيم جداً: (أَتظُنُّ أَنَّ اللهَ يُحَرِّمُهُ وَلا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أي: يترك أمر بيانه لعقول الناس والآراء والأفهام، يتركه دون بيان؟ حاشا وكلا، فالله ﷻ أمرنا بالتوحيد وبيّنه ونهانا عن الشرك وبيّنه، بينه في كتابه في آي كثيرة من القرآن، اقرأ في بيان الشرك قول الله -ﷻ-: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، هذا بيان للشرك، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لأن دعاء غير الله شرك، أيضـاً اقرأ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف:٥،٦]، واقرأ أيضـاً قول الله -ﷻ- ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ دعاء غير الله هذا شرك، أيضـاً اقرأ قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام١٦٢: ١٦٣] فمن جعل شيئـاً من ذلك لغير الله اتخذه شريكـاً مع الله، والشرك هو تسوية غير الله بالله، في شيء من خصائصه أو حقوقه -ﷻ-، والعبادة حق لله وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فمن سوّى غير الله بالله

في هذا الحق أعني العبادة، فقد اتخذه شريكـًا مع الله، من دعا غير الله أو التجأ إلى غير الله أو استعاذ بغير الله أو توكل على غير الله أو نذر لغير الله أو ذبح لغير الله فقد أشرك بالله واتخذ الأنداد والشركاء مع الله -ﷻ-.

قال: (أَتظُنُّ أَنَّ اللهَ يُحَرِّمُهُ وَلا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟) أيضا هذه الكلمة تحتها من التوجيه والبيان أن بيان الشرك ومعرفة حده يُرجع فيه إلى الكتاب والسنة، كذلك بيان التوحيد وبيان المحرمات يُرجع فيها لمعرفة حدودها إلى كتاب الله وسنة نبيه ﵊؛ فإن الله -ﷻ- لا يحرم عليه أمراً ويتركه دون أن يبينه.

عَنْ سَلْمَانَ الفارسي ﵁ قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ «لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ بعد أن ذكر هذا الحديث: «وَمُحَالٌ مَعَ تَعْلِيمِهِمْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي الدِّينِ - وَإِنْ دَقَّتْ - أَنْ يَتْرُكَ تَعْلِيمَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي رَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي مَعْرِفَتُهُ غَايَةُ الْمَعَارِفِ وَعِبَادَتُهُ أَشْرَفُ الْمَقَاصِدِ وَالْوُصُولُ إلَيْهِ غَايَةُ الْمَطَالِبِ»(٢).

فمحال هذا، توحيد رب العالمين أعظم شيء في الدين، فمحال أن يكون علّم الأمة كل شيء الآداب والأخلاق والتعاملات ودقائق الأمور بيّنها مفصلة صلوات

(١) رواه مسلم (٢٦٢).

(٢) «الفتوى الحموية الكبرى» (ص١٧٨)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ٧).

الله وسلامه عليه ثم يترك التوحيد الذي هو أعظم شيء في الدين دون بيان، هذا محال، فالتوحيد بُيِّن في الكتاب والسنة أتم بيان وأيضًا الشرك بُيِّن وعُرفت حقيقته في الكتاب والسنة أتم بيان، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبادَةُ الأَصْنَام، وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ.

فَقُلْ لَهُ: ما مَعْنَى عِبادَة الأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَخْشَابَ والأَحْجَارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآنُ.

وإِنْ قالَ: هو من قَصَدَ خَشَبةً، أَوْ حَجراً، أَوْ بَنِيَّةً على قَبْرٍ أَوْ غَيْرِه، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنا إِلى اللهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَّا اللهُ بِبَرَكَتِهِ ويُعْطِينا بِبَرَكَتِهِ.

فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ والأبنية الَّذي عَلى القُبُورِ وَغَيْرِها، فَهَذا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُم هَذَا هُوَ عِبادَةُ الأَصْنَامِ، وهو المطْلُوبُ.

ويُقال له أَيْضاً: قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبادَةُ الأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مخصُوصٌ بِهَذا، وَأَنَّ الاعْتِمَادَ عَلى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لا يَدْخُلُ في ذَلِكَ؟

فَهَذا يَرُدُّهُ ما ذَكَرَ اللهُ في كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ على الملائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوِ الصَّالِحِينَ. فَلابُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبادَةِ اللهِ أَحداً من الصَّالِحِينَ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ.

وَسِرُّ المَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إذا قالَ: أَنَا لا أُشْرِكُ بِاللهِ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ؟ فَسِّرْهُ لِي.

فَإِنْ قالَ: هُوَ عِبادَةُ الأَصْنَامِ.

فَقُلْ: ومَا عِبادَةُ الأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فإِنْ قَالَ: أَنا لا أَعْبُدُ إلاَّ اللَّه وحده.

فَقُلْ: ما مَعْنَى عِبادَةِ اللَّهِ وحده ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ فَسَّرَها بِمَا بَيَّنه القرآن فَهُوَ المَطْلُوبُ.

وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئاً وَهُوَ لا يَعْرِفُهُ؟

وَإِنْ فَسَّرَه بِغَيْرِ مَعْنَاهَ بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ في مَعْنَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبادَةِ الأَوْثانِ؛ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَه في هذا الزَّمَانِ بِعَيْنِه، وَأَنَّ عِبادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيَصِيحُونَ فيه كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُم حَيْثُ قَالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- هذه الشبهة الأخرى لهؤلاء، قال: (فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ) الشيخ رَحِمَهُ اللهُ وهو يعدد هذه الشبهات لهم قد سمعها أو سمع كثيراً منها من هؤلاء وناقشهم فيها وأقام عليهم -رَحِمَهُ اللهُ- الحجة، وحال هؤلاء كالغريق، يُقال أن الغريق يتمسك بكل شيء حتى بالقشة، يتمسك بما لا متمسك به ويتعلق بما لا مُتعلق به، وإنما محاولة للنجاة من الغرق أو التخلص من الأمر الذي هو فيه، وهذه حال هؤلاء، يتخبطون في باب الاحتجاج ويتمسكون بأشياء واضحة تماماً أنها ليست بمُتمسّك.

واقرأ في هذا المعنى قول الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ﴾الآية.

[العنكبوت:٤١] وهذا بيان لحال المشرك ومن اتخذه نداً مع الله؛ فمَثَل المُشرك مثل العنكبوت، ومثل من اتخذه نداً مع الله -تبارك وَتَعَالى- كمثل بيت العنكبوت، وبيت العنكبوت -كما لا يخفى- لا يقِ حراً ولا برداً ولا يقِ من عدو ولا يقِ من مطر، وهو بيت واه، متهالك ضعيف، أوهى البيوت، فمثل الذي يتعلق بغير الله التجاءً ورجاءً وطمعـًا مثل العنكبوت اتخذت بيتـًا، ثم إن من حكمة الله -ﷻ- أن العنكبوت وبيتها موجودة في كل مكان، حتى الأماكن التي تُقصد ليُعبد أهلها أو تُعبد من دون الله، فيها بيت العنكبوت وتوجد العنكبوت، لهذا أقول لو أنه هؤلاء الذين يذهبون إلى تلك الأماكن يلتفتون إلى الأركان والزوايا يرون العنكبوت التي تصف حالهم وحال من تعلقوا بهم ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾؛ فالمشرك المتعلق بغير الله -ﷻ- يتخبط ويتعلق بكل شيء في تقرير باطله، صاحب الحق إذا أراد أن يستدل تجده يحسب للاستدلال ألف حساب وينتبه ويراعي، إذا أراد أن يذكر حديثـًا يتأكد، أما الذي يتعلق بغير الله، ما عنده مشكلة تسمع منه ولا يبالي، تسمع منه أن يقول لك: النبي ﷺ قال: «القبور ترياق المجربين» أو يقول النبي ﷺ قال: «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه»، وقالوا ذلك، لهذا الإمام ابن القيم رحمه الله لما بيّن ضعف هذا الحديث، أنه موضوع ومكذوب عن النبي عليه السلام؛ قال: «وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام وضعها المشركون وراجت على أشباههم من الجهال الضلال»[1]، ولهذا لا يبال هؤلاء بأن يضعوا حديثـًا أو

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢١٥).

يستدلوا بموضوع مكذوب عن رسول الله أو يلفقوا منامًا أو خبراً أو قصة أو تجربة أو غير ذلك من الأشياء التي يوردونها مستدلين بها في تقرير هذا الباطل.

قال: (فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عِبادَةُ الأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، فَقُلْ لَهُ: ما مَعْنَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ؟ أَتظُنُّ أَنَّهُمْ) أي: الذين كانوا يعبدون الأصنام (يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَخْشَابَ والأحجارَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاها؟) هل تعتقد ذلك؟ (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآن) يعني القرآن دلَّ في مواضع عديدة وذكر بعضها الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- فيما سبق أن المشركين لم يكونوا يعتقدون في الأصنام ذلك، أي: أنها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، لا يعتقدون فيها ذلك؛ بل يقولون الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله -ﷻ-، قل له (فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآن).

(وَإِنْ قالَ) في بيان حقيقة عبادة الأصنام (إنْ قالَ: هو من قصد خَشَبةً، أَوْ حَجَراً، أَوْ بُنْيَةً على قَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ ويَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنا إِلى اللهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ اللهُ عَنَّا بِبَرَكَتِهِ ويُعْطِينا بِبَرَكَتِهِ) إن قال لك ذلك، وهذا هو فعلاً الذي كان يفعله المشركون الأول، كانوا يقصدون الخشبة أو الحجر أو البناء الذي على القبر أو غيره، يدعون ذلك ويعكفون عنده ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، (وَيَدْفَعُ اللهُ عَنَّا بِبَرَكَتِهِ أو يُعْطِينا بِبَرَكَتِهِ) إن قال لك ذلك (فَقُلْ له: صَدَقْتَ) هذا عمل المشركين الذي أنكره الله عليهم في القرآن وذمهم عليه أشد الذم وتوعّدهم عليه أشد الوعيد، (فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ والأبنية الَّتي عَلى القُبُورِ وَغَيْرِها، فَهَذا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُم هَذَا هُوَ عِبادَةُ الأَصْنَامِ، وهو

المطْلُوب) إذا أجاب بهذا الجواب فإنه يكون بذلك أقر أن فعلهم -أي عند القبور- هو فعل عُبَّاد الأصنام عند الأصنام وهو المطلوب.

قال ويقال له أيضـًا: (قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ) هذا جواب آخر غير الجواب الأول، إذا قال: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ)، قل: (هَلْ مُـرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مخصُوصٌ بِهَذا) أي: لا يكون شركـًا إلا إذا كان توجهـًا لصنم؟ لا يكون شركـًا إذا توجه إلى مَلَك، إلى كوكب، إلى نبي، إلى ولي، هذا لا يكون من الشرك؟ يعني الشرك محصور في عبادة الأصنام؟ (هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مخصُوصٌ بِهَذا) أي: لا يتجاوزه ولا يتعداه؟ (وَأَنَّ الاعْتِمَادَ عَلى الصَّالِحِينَ وَدُعَاءَهُمْ لا يَدْخُلُ في ذَلِكَ؟ فَهَذا يَرُدُّهُ ما ذَكَرَ اللهُ في كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ على الملائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوِ الصَّالِحينَ)، وسبق أن ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- الآيات الدالة في ذلك.

(فَلابُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَداً مِن الصَّالِحِينَ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ).

ولاحظ أن الشيخ -رحمه الله- في كشفه للشبهات، وهذا نبهت عليه وسأؤكد عليه في كشفه للشبهات، مرتبط كليـًا بالقرآن والسنة، ودائمـًا يكشف الشبه بالآيات والقرآن، بكلام الله.

قال: (فَلابُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَداً مِن الصَّالِحِينَ فهذا هُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ في القُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ) أي: أنه يتبين أن من عبد صنمـًا أو عبد وليـًا أو عبد ملكـًا أو عبد نبيـًا كل ذلك شركٌ بالله وهذا فيه بيان لبطلان قوله: (الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ).

وبهذا يكون الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- كشف هذه الشبهة وبيّن بطلانها من وجهين.

ثم قال ملخصاً ما سبق: (وَسِرُّ المَسْأَلَةِ) أي: حاصل الأجوبة المتقدمة وخلاصتها (أَنَّهُ إِذا قالَ: أَنَا لا أُشْرِكُ بِاللهِ، فَقُلْ لَهُ:وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ؟ فَسِّرْهُ لِي) إن قال لك: أنا لا أشرك بالله قل له: فسر لي الشرك.

(فَإِنْ قالَ: هُوَ عِبادَةُ الأَصْنَامِ. فَقُلْ له: ومَا عِبَادَةُ الأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي) فسر لي عبادة الأصنام؛ إن قال لك عبادة الأصنام أن يُعتقد في الأصنام أنها تخلق وترزق، قل له: لم يكن المشركون الأول يعتقدون في الأصنام ذلك، هذا أمر يكذّبه القرآن، وإن قال: عبادة الأصنام هو جعلها واسطة بين العابد وبين الله تقربه إلى الله زلفى، يرجو بركتها، فقل له: هذا هو نفس الممارسة التي يمارسها من يعبد الأولياء والصالحين.

(فَسِّرْهَا لِي. فإِنْ قَال: أَنا لا أَعْبُدُ إِلاَّ اللهَ وحده، فَقُلْ: ما مَعْنَى عِبَادَةِ اللهِ وحده لا شريك له؟ فَسِّرْهَا لِي) فهذه ثلاثة أمور قد يقولها وتطلب منه تفسيرها، وأخطاء هؤلاء وانحرافاتهم مبنية على جهلهم بهذه الحقائق، لا يعرف حقيقة الشرك ولا يعرف حقيقة عبادة الأصنام ولا يعرف أيضاً حقيقة إخلاص العبادة لله -ﷻ-.

قال الشيخ ؒ: (فَإِنْ فَسَّرَها بِمَا بَيَّنه القرآن فَهُوَ المَطْلُوبُ) يعني هذه الأشياء بما بينه القرآن فهو مطلوب، وماذا تصنع حينئذٍ؟ إذا فسرها لك بما بينه القرآن ؟ توضح له أن الحال التي يمارسها تخالف القرآن وتخالف الآيات التي استدل بها من القرآن الكريم.

(وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ) يعني لم يعرف هذه الأشياء (فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهُ؟) وفاقد الشيء لا يعطيه.

وَإِنْ فَسَّرَ ذلك بِغَيْرِ مَعْنَاهَ بَيَّنْتَه لَهُ) تلخّص لك أن الخصم إذا قلت»فسره لي« أي: فسر لي الشرك أو فسر لي العبادة أو فسر لي معنى (لا أعبد إلا الله)، لا يخلو من ثلاث حالات كما بين لك الشيخ، لا يخلو في تفسيره لها من ثلاث حالات:

إما أن يفسرها بتفسير صحيح مطابق للقرآن، هذا هو المطلوب، فإن فسرها تفسيراً صحيحاً مطابقاً للقرآن حينئذ تُبيّن له أن الحال التي يمارسها تناقض ذلك.

الحالة الثانية: أن يفسر ذلك بغير معناها، يعني يفسرها بمعنى آخر، فماذا عليك في هذه الحال؟ قال: بَيّنتَ له الآيات الواضحات في معنى الشرك وعبادة الأوثان.

والحالة الثالثة: أن يقول لك: لا أدري أو لا أعلم أو لا أعرف؛ فأيضاً تبين له وتُعرفه حقيقة ذلك من خلال الآيات الواضحات.

قال ﵀:(وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لاَ يَعْرِفُهُ؟ وَإِنْ فَسَّرَ ذلك بِغَيْرِ مَعْنَاهَ بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ في مَعْنَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبادَةِ الأَوْثانِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَ في هذا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا).

الخصوم ينكرون على أهل التوحيد من جهات عديدة: مثلا يقولون ينكرون الشفاعة أو ينتقصون الأولياء، أو يقولون لا يعرفون مكانة الصالحين أو جاههم عند الله أو غير ذلك من أنواع الكلام الذي يقصدون به التشنيع على أهل الحق.

قال: (وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا وَيصِيحُونَ فيها

كَما صَاحَ إِخْوَانُهُم حَيْثُ قَالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]) المشركون الأُول لما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾؛ بل بلغ حالهم إلى ما ذكره الله ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦] وأيضاً يتفاخرون يقولون: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٢] أي: لولا أننا كنا مُتحلين بالصبر وإلا كاد ليضلنا عن الآلهة.

قال: يصيحون علينا كما صاح الأولون في إنكار التوحيد ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ هذا إنكار للتوحيد. وأيضاً هؤلاء لما يتعلقون بغير الله من الأولياء والصالحين وغيرهم ويُنكَر عليهم فيصيحون، هذا إنكار للتوحيد ومنافحة ومدافعة عن الشرك بالله -سبحانه وتعالى-.

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «**فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله، ونحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره ابن الله، والجواب: أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل قال الله تعالى:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص(١،٢)]، **والأحد: الذي لا نظير له الصمد: المقصود في الحوائج، فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورةثم قال تعالى:** ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]، **فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد أول السورةوقال الله تعالى:** ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، **ففرق بين النوعين وجعل كلاً منهما كفرًا مستقلاً وقال الله تعالى:** ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

ففرق بين الكفرين والدليل على هذا أيضًا أن الذين كفروا بدعاء اللاّت مع كونه رجلاً صالحاًلم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك، وكذلك العلماء أيضًا وجميع المذاهب الأربعة، يذكرون في باب حكم المرتد أن المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرقون بين النوعين، وهذا في غاية الوضوح، وإن قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، **فقل: هذا هو الحق ولكن**

لا يُعبدون، ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين».

[الشرح]

ثم ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله هذه الشبهة التي يثيرها المشبِّه والمراد بالمشبه: أي الذي يثير الشبهات التي يناقض بها التوحيد، ويخالف فيها أو بها الحق والهدى قال: «**فإن قال: إنهم لا يكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله**» إن قال -أي المشبِّه- الذي يبرر لأعماله الشركية وأفعاله الكفرية، ويقرر أن ما يعمله من الشرك لا تتنزل عليه آي القرآن التي نزلت في ذم المشركين بجمله شرك المشركين وتكفير الله -تبارك وتعالى- لهم لأنهم ادعوا لله الولد وأن الملائكة بنات الله، وأن الله -تبارك وتعالى- إنما كفرهم بذلك، ولهذا ربما يقول بعضهم أنهم -أي المشركون الأُوَل-لم يكفروا بدعاء الملائكة والأنبياء، أي: لم يكن كفرهم وشركهم لكونهم دعوا الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله و«**إنما**» هذه من أدوات الحصر، وقوله: «**إنما كفروا لما قالوا الملائكة بنات الله**»، حصر بكلامه هذا الكفر في هذا الجانب وحده، وهو أن الذي يكفر إنما هو من يدعي لله الولدأو يقول الملائكة بنات الله، أو عزير ابن الله، أو المسيح ابن الله، قال: «**وإنما كفروا -أي المشركون الأُوَل- لما قالوا الملائكة بنات الله**» أي: أن هذا هو الأمر الذي كفروا به،ونحن لم نقل ذلك قال: «**ونحن لم نقل أن عبد القادر**

ولا غيره ابن لله»، قال: «**لم نقل أن عبد القادر**» لأنهم يعبدون عبد القادر الذي هو الجيلاني فيعبدونه من دون الله، ويذبحون له وينذرون ويستغيثون به، وإليه يلتجؤون بالملمات والحاجات والنوازل والطلبات، فيقول: «**نحن لم نقل أن عبد القادر ولا غيره**» أي: من الأولياء والصالحين ومن ندعوهم من دون الله لم نقل أنهم أبناء الله، فإذن يعني مرادهم بذلك أن الآيات التي نزلت في ذم المشركين، وتقبيح أفعالهم وصنائعهم لا تتنزل علينا، لأن المشركين يقولون بأن الملائكة بنات الله، ونحن لا نقول ذلك فيمن ندعوهم أو نسألهم، فهذه شبهة ربما أثارها بعض المشبِّهة من هؤلاء؛ فما الجواب؟ قال -رحمه الله-: «**فالجواب**» وأجاب عن هذه الشبهة بأربعة بأربعةِ أجوبة مسددة، كل واحد منها كافٍ في كشف هذه الشبهة وبيان بطلانها:

الجواب الأول: قال: «**أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل**» أي: هذا في حد ذاته كفر مستقل، والكفر أنواع، وأفراد الكفر كثيرة، ومن قال إن لله ولدًا سواء الملائكة أو عزيرًا أو عيسى أو غير هؤلاء، هذا في حد ذاته كفر بالله قال: «**نسبة الولد إلى الله كفر مستقل، قال الله تعالى:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [**الإخلاص: ١، ٢**]**، والأحد الذي لا نظير له**» الأحد أي: المُتوحد بصفات الجمال ونعوت الكمال، فليس له شبيه ولا مثال، «**والصمد: المقصود في الحوائج**» أي: الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها وطلباتها، فتفزع إليه وتبتهل إليه وتلتجئ إليه «**فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد آخر السورة**»، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]ثم قال -أي الله جلّ وعلا-: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، «**فمن جحد هذا فقد كفر**

ولو لم يجحد أول السورة» إذن من جحد أول السورة أن الله أحد صمد فهذا كفر مستقل، ومن جحد آخر السورة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا كفر مستقل، وهذا فيه نقض لدعوى هؤلاء أن الكفر إنما في ادعاء الولد ونسبة الولد إلى الله والقول بأن الملائكة بنات الله، فالشيخ يقول: من جحد أول السورة الأحد الصمد، وأثبت آخرها لم يلد ولم يولد، يكون بذلك كافرًا مع أنه لم ينسب الولد إلى الله -تبارك وتعالى-؛ فهذا تقرير منه -رحمه الله- في رد هذه الشبهة ببيان أن نسبة الولد إلى الله -تبارك وتعالى- هذا بحد ذاته كفر مستقل، وما جاء في أول السورة أيضًا كفر مستقل.

-**الجواب الثاني على هذه الشبهة**؛ قال رحمه الله: «**وقال الله تعالى:** ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ **[المؤمنون: ٩١]**»، ذكر الله -عزّ وجل- شيئين نفاهما ونزه نفسه عنهما -جلّ وعز- قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ومن ادعى لله الولد فقد كفر ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ومن ادعى أن مع الله إلهًا آخر فقد كفر، وهذا فيه إبطال لدعوى هذا المدعي بأن الكفر إنما هو في ادعاء الولد، لأن الله ذكر شيئين أو نوعين فرق بينهما، قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، «**ففرق بين النوعين، وجعل كلا منهما كفرا مستقلا**» فرّق بين النوعين فرق بين ادعاء الولد أن الله اتخذ ولدًا وبين ادعاء أن الله معه إلهًا آخر فهذان الكفران أو أمران فرق الله -تبارك وتعالى- بينهما، وهذا فيه بيان لبطلان دعوى من ادعى أن الكفر إنما هو في ادعاء اتخاذ الله -جلّ وعلا- الولد«**وقال تعالى:** ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ **[الأنعام: ١٠]، ففرق بين كفرين»** قال رحمه الله: «**ففرق بين**

الكفرين» فرق بين نسبة الولد إلى الله -جلّ وعلا-، وأيضًا ادعاء أن مع الله -جلّ وعلا- شريكًا، فإذن الوجه الأول الذي ذكره الشيخ -رحمه الله- وقرره هو بيان أن ادعاء الولد هذا كفر مستقل للوجه الثاني: أن الله -عزّ وجلّ- في عدد من آي القرآن فرق بين الأمرين اتخاذ الشركاء مع الله يُدعَون ويستغاث بهم ويذبح لهم وينذر لهم، وبين نسبة الولد إلى الله -تبارك وتعالى-، ومثل على ذلك بآيتين، الأولى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] ففرق فيها بين الأمرين، والثانية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾، هذا نوع من الكفر ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٠]

هذا نوع آخر من الكفر، فرق الله -عزّ وجل- بينه وبين النوع الأول، فهذا الجواب الثاني على هذه الشبهة.

-الجواب الثالث؛ قال -رحمه الله-: «**والدليل على هذا أيضًا أن الذين كفروا بدعاء اللاّت مع كونه رجلاً صالحًا لم يجعلوه ابن الله**» فالله -جلّ وعلا- كفّر الذين دعوا اللات وغيره مع الله، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم:١٩-٢٢]، فهؤلاء الذين عبدوا اللات من دون الله، واللاّت رجلٌ كان معروفًا بالبذل والإحسان والصدقة، كان يلتُّ العجين للحجاج، ويحرص على إكرامهم واستضافتهم والإحسان إليهم، فلما مات صنعوا له حجرًا، وقيل نفس الحجر الذي كان يلتُّ عليه السويق عبدوه من دون الله، فقول القائل: «إنما كفر أولئك بكونهم نسبوا الولد إلى الله وقالوا الملائكة بنات الله»، هل هؤلاء الذين كفّرهم الله -عزّ وجل- بعبادة

اللات هل ادعوا أن اللاّت ابن لله؟ أبدًا ما قالوا ذلك، لكن كفّرهم الله لأنهم عبدوه مع الله، وصرفوا له ما لا يُصرف إلا لله -ﷻ- فهذا وجه ثالث للجواب على هذه الشبهة، قال: «أن الذين كفروا بدعاء اللاّت مع كونه رجلاً صالحًا لم يجعلوه ابنًا لله والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك -أي ابنًا أو أبناء لله-»

-**الوجه الرابع** في الجواب على هذه الشبهة:

قال رحمه الله: «**وكذلك العلماء أيضًا، وجميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب: (حكم المرتد) أن المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد**».

يعني مما يرتد به من كان مسلمًا ادعاء أن الولد لله، وإن أشرك بالله فهو مرتد، فيفرقون بين النوعين، يعني من ادعى لله الولد ارتد بذلك، ومن أشرك مع الله غيره ارتد بذلك، ومن أعطى غير الله من خصائص الله -عزّ وجل- في ربوبيته أوأسمائه وصفاته ارتد بذلك، ومن سب الله أو دينه أو نبيه عليه الصلاة والسلام ارتد بذلك، يذكرون أمورًا كثيرة يرتد بها الإنسان وينتقض بها إسلامه، ولم يحصروها في نسبة الولد أو دعوى اتخاذ الله الولد، فلم يحصروها في ذلك، فهذه وجوه أربعة ذكرها -رحمه الله تعالى- في إبطال هذه الشبهة، قال: «**وهذا في غاية الوضوح**» أي: أن وضوحه وضوحًا بيّنًا في إبطال هذه الشبهة، وكشف زيفها.

قال رحمه الله: «**وإن قال**» -وهذا أمر آخر- انتهى الجواب على الشبهة الأولى.

«**وإن قال:** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» أي: إذا تلا هذه الآية مستدلاً بتلاوته لها على أن الآية تدل على أن للأولياء مكانة عند الله ومنزلة، وهذا كافٍ في تسويغ اللجوء إليهم، والالتجاء إليهم ودعائهم لمكانتهم

العظيمة عند الله ومنزلتهم العلية، وربما أيضًا قالوا: أتنكرون فضل الأولياء ومكانة الأولياء وقدر الأولياء وجاه الأولياء؟! فهذه الآية مما يستدلون بها ويتلونها في تقرير الشرك والعياذ بالله، وأَعْظِم به من إثم؛ أن يتلى كلام الله -جلّ وعلا- ليقرر به الشرك، أن يتلى كلام الله -ﷻ- ليستدل به على الشرك الذي هو أظلم الظلم وأكبر الموبقات.

قال رحمه الله: «**فقل هذا هو الحق**» فالمسلم لا يُنكر فضل الأولياء ومكانة الأولياء، هذا حق، وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، نفى سبحانه عنهم الخوف والحزن، وإذا جُمِع بين الخوف والحزن في موضع واحد، كان تعلق الحزن في الأشياء الماضية والخوف في الأمور المستقبلة، يعني لا تحزن أو لا حُزن عليهم فيما فارقوه ولا خوف عليهم مما هم ملاقوه.

«قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٣]»، ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله استدلالاً بهذه الآية الكريمة: «فَكُلُّ مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا»[١] أي: أن ولاية الله -عزّ وجل- إنما تنال بالإيمان والتقوى، والإيمان والتقوى إذا جُمِع بينهما فإن المراد بالإيمان: فعل الأوامر والطاعات والقيام بالعبادات، والتقوى اجتناب النواهي والمحرمات، فالإيمان يتناول التوحيد والإقرار بأمور الإيمان، وأيضًا يتناول فعل الطاعات، والتقوى تتناول اجتناب النواهي والمحرمات، فدلت

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٢٤).

الآية أن أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى، الذين يطيعون الله بفعل أوامره ويتقون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم -ﷻ-.

ولما كان عند القوم انحراف في هذا الباب وشَطَطٌ فيه، أصبحت الولاية تطلق على من لا يُعرَف لا بإيمان ولا بتقوى، تطلق على من يضيع الأوامر ويرتكب المحرمات، ويُدَّعَى فيه أنه من أولياء الله، وكل هذا الباطل -أعني ترك الأوامر وفعل المحرمات- أُطلِق على أصحابه أنهم أولياء لله، زعمًا أن هذا الترك هو من كراماتهم! وهذا من أعجب العجب، يمارسون فعل المحرم وترك الطاعة تحت باب الكرامة؛ وهذا قد يعجب له من يسمعه، لكن مثلاً -والأمثلة على ذلك في واقعهم كثيرة- مثلاً في باب ترك العبادة، يقولون: الولي مكانته وكرامته عند الله ألاّ يطوف بالبيت بل البيت هو الذي يطوف به!، وهذا مقرر في كثير من كتب هؤلاء، حتى كتب لأناس معاصرين، هنا الكعبة هي التي تطوف به، كرامته ومكانته عند الله الكعبة هي التي تطوف به، ولا يطوف بالبيت، سيد الأولياء وسيّد ولد آدم طاف مرات وكرات بالبيت ذليلاً خاضعًا لله -ﷻ- منكسرًا لجنابه؛ يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وهؤلاء يقولون الولي مقامه أكبر من أن يطوف بالبيت، بل البيت هو الذي يطوف به، ولهذا في أحد كتب الفقه المشهورة عُقدت مسألة في كتاب الصلاة مبنية على هذه الخرافة، قالوا إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلي الناس ؟ قال لأهل العلم في هذه المسألة قولان:

القول الأول: يصلون إلى مكانها الأصلي ولأن متابعة الكعبة إلى أين ذهبت هذا أمر غير مستطاع، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والقول الثاني: قال يلزمهم أن يبحثوا عنها أين ذهبت، إن كانت في أفريقيا فالصلاة إلى أفريقيا، وإن كانت في الهند فالصلاة إلى الهند وهكذا يتابعونها في كل فرض، قولان قال في المسألة، هذا مبني على خرافة هؤلاء وضلالهم فيما يعتقدونهم في الأولياء، فلاحظ أن ترك الطاعة والذل لله -ﷻ- أُدخل تحت نوع من الكرامة للولي، وأيضًا ما يدّعونه للأولياء أنهم يصلون إلى مرحلة تسقط عنهم التكاليف، ويتلون في ذلك قول الله -تعالى-: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] يعني إذا وصل إلى درجة اليقين، واليقين يفسرونه في مراتب السلوك عندهم، إذا وصلوها توقفوا لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي لله طاعة لأنه من أولياء الله، وفي باب ترك النواهي أيضًا يمارسون النواهي والمعاصي والمحرمات باسم الولاية، ومن ذلكم الزنا والفواحش، يمارسونها باسم الولاية، وقرأت عن هؤلاء في كتب الأخبار القديمة وسمعته من بعض الناس في زماننا هذا، موجود في بعض المناطق يقولون أن المُريد -التلميذ الذي عند الشيخ- المُدّعى فيه الولاية، ليلة زواجه يأتي بزوجته إلى الولي، ويطلب من الشيخ أن يخلو بها وأن يفتض بكارتها بنفسه، من أجل البركة والنسل فتدخل عند الشيخ ويزني بها الزنا الذي حرمه الله -ﷻ- ويفتض بكارتها ثم تخرج من عنده، ثم يرتمي هذا التلميذ على قدمي الشيخ يقبلها، يشكره على هذا الإحسان العظيم!، لأنه زنا بزوجته وافتض بكارتها، انتهاك الأعراض وأكل لأموال الناس بالباطل، تحت اسم الكرامة والولاية وترك

للطاعات والعبادات وفعل للفجور والمنكرات وكل ذلك يدخلونه تحت كرامة الأولياء، وأن هؤلاء أولياء الله.

فإذا جاء بهذه الآية سواء قصد بالأولياء هؤلاء المجرمين أو قصد بالأولياء الصالحين، سواء قصد هؤلاء أو هؤلاء وتلا الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، تقول له أولياء الله المقصودون

بهذه الآية لا من يعنيهم هؤلاء من المُبطِلة، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما أخبر الله، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ كما نعتهم الله - سبحانه وتعالى - بذلك ووصفهم، قل له: نعم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هذا حق نُقِر بذلك لكن لا يُعبدون، يعني مهما علت مكانة الشخص في الدين والعبادة والتقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - هذا ليس مبررًا أن يجعل ندًا لله وقد أنكر النبي عليه الصلاة والسلام ماهو دون ذلك، أنكر ألفاظًا لم تُقصد حقائقها، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1].

قال رحمه الله: «**ولكن لا يُعبدون**» لأن العبادة حق لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦]، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالعبادة حق لله - جل وعلا - لا شريك له فيها لا مَلَك مقرب ولا نبي مرسل.

قال رحمه الله: «**ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله**» نحن لا ننكر مكانة الأولياء، ولا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، و حسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٣٩).

ننكر فضل الأولياء ولا ننكر أيضًا كرامات الأولياء، لكن ننكر عبادتهم مع الله، أن يُجعل الولي ند لله يذبح له كما يذبح لله، وينذر له كما ينذر لله، ويدعى ويستغاث به كما يدعى الله ويستغاث به، قال: «**ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله وإشراكهم معه** -أي جعلهم شركاء مع الله ﷻ- **وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم**» فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم، وهنا يشير -رحمه الله تعالى- إلى الوسطية التي عليها أهل السنة في الأولياء بين الغلو والجفاء، الغلو طَرَفٌ سلكه من رفع الأولياء فوق منازلهم، فأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله -ﷻ-، والجفاء فيمن أنكر مقام الأولياء وقدر الأولياء وحق الأولياء وفضل الأولياء، وجفا في حق الأولياء، والوسط قَوامٌ بين ذلك، ولهذا قرر -رحمه الله- الوسطية بقوله: «**نحن لا ننكر إلا عبادتهم**» لأن عبادتهم غلو، واتخاذهم شركاء مع الله غلو في الأولياء، «**وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم**»، حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم تركه جفاء، فعقيدة أهل السنة في هذا الباب وسط بين الغلو والجفاء، الغلو ممن رفع الأولياء فوق أقدارهم ومنازلهم، وأعطاهم من الخصائص والحقوق ما ليس إلا لله، والجفاء من جحد فضائلهم ومكانتهم ومنزلتهم.

قال رحمه الله: «**ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين**»، لاحظنا الوسطية عند أهل السنة في الأولياء، أيضًا الوسطية عند أهل السنة في كرامات الأولياء، كرامات الأولياء الناس فيها أقسامٌ ثلاثة:

قسم غلوا في الكرامة، غلوًا شنيعًا وأشرت إلى شيء من نماذج الغلو في كرامات الأولياء حيث عدّ بعضهم من كرامات الأولياء ترك طاعة الله وفعل ما حرم الله، هذا غلو.

وقسم جفا في باب الكرامة فجحدها، وأنكرها مثل المعتزلة جحدوا كرامات الأولياء وأنكروها، وهذا جفاء والحق قوام بين ذلك، أن نثبت للأولياء الكرامة بدون غلو ولا جفاء[١].

قال: «**ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات، ودين الله وسط بين طرفين**» طرف الغلو وطرف الجفاء وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

«**وهدى بين ضلالتين**» أي: ضلالة من غلا وضلالة من جفا.

«**وحق بين باطلين**» أي: باطل المُفرِطين والمُفرّطين، وبهذه يكون -رحمه الله- ذكر هذه الشبهة وأجاب عليها.

---

(١) قال شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: «ألقيت محاضرة قبل قرابة خمسة عشرة سنة بعنوان: كرامات الأولياء بين الغلو والجفاء، وذكرت فيها نماذج كثيرة من إسفاف الطُرُقِية والمُبطلة في هذا الباب، وما يزعمون أنه من كرامات الأولياء، ركام من الأباطيل وأنواع الأضاليل كلها أدخلوها وزجوا بها في باب كرامات الأولياء، حتى فعل الفواحش كما أشرت، وهذا يذكرونه في كتب الكرامات، أشياء من أسوء ما يكون وأشنع ما يكون وأقبح ما يكون، ونقلت نقول كثيرة من كتبهم موثقة».

[المتن]:

قال المؤلف رحمه الله: «فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه فاعلم أن شرك الأوّلين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين أحدهما أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]، **وقال تعالى:** ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام:٤٠-٤١]، **وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨]، **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، **فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله -تعالى- ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون سادتهم، فتبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأوّلين، ولكن أين من يَفْهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا والله المستعان.**

الأمر الثاني: أن الأولين يدعون مع الله أناسًا مُقرّبين عند الله، إما

أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أُناسًا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، والذي يَعتقد في الصالح أو الذي لا يَعصي مثل الخشب والحجر، أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به».

[الشرح]:

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «**فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا، الاعتقاد هو الشرك، الذي نزل فيه القرآن، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين**».

قوله رحمه الله الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد -يسمونه الاعتقاد- يعني الاعتقاد في الأولياء والاعتقاد في من لهم جاه أو مكانة أو نحو ذلك، ويقولون إن المتقرِّب إلى الولي بالنذر أو الذبح أو نحو ذلك، كلما قوي اعتقاده فيه نفعًا ودفعًا ونحو ذلك، حصُل له مطلوبه، ولهذا يبررون من لم يحصل مقصوده بدعاء الولي يقول هذا من ضعف اعتقادك في الولي!، وأن لو كان اعتقادك فيه كما ينبغي وكما يليق بمقام الولي لحصلت مقصودك، فيُسمّون هذا التعلق بالأولياء الاعتقاد، يسمونه الاعتقاد وحقيقته الشرك بالله عز وجل، وصرف العبادة والذل والخضوع والرجاء والانكسار لغيره -سبحانه وتعالى-

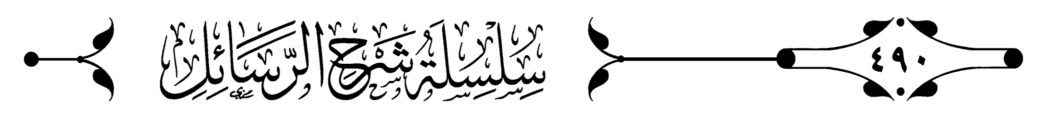
«**فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا الاعتقاد هو الشرك الذي نزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أن شرك الأولين أخف من**

شرك أهل زماننا بأمرين»، شرك الأولين أي: المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ شرك هؤلاء أخف من شرك هؤلاء بأمرين، ويعني ذلك أن شرك الآخرين أغلظ من شرك أولائك بأمرين؛ «**أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء**» يعني في السعة واليسر والراحة والأمن والطمأنينة والصحة والعافية، في مثل هذه الحال يشركون يتخذون مع الله الشركاء من الملائكة والأنبياء والأصنام والأحجار وغير ذلك، «**وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء**»، يعني حال الشدة والكربات والدواهي العِظام التي تنزل بهم ينسون ما يشركون، ولا تأتي في أذهانهم أصلاً ينسونهم، بل لا يكون منهم إلا الإخلاص، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فشرك الأولين في الرخاء دون الشدة، لأن الشدّة حالهم فيها هو حال الإخلاص كما قال الله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: لا يدعون معه آلهة أخرى ولا يتعلقون بغيره ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ يعني دعاؤهم له خالصًا صافيًا لا يدعون معه غيره، وإذا نجوا نجاهم إلى البر يعودون إلى الشرك ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ قال: «**كما قال تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴾ [**الإسراء: ٦٧**]» فقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ يعني الشدة وعاينتم الغرق والموت ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يعني يذهب عنكم وعن أفكاركم وعن عقولكم من تدعون إلا إياه ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، هذا يفيد أنهم في حال الرخاء يدعون الله ويدعون غيره، لكنهم في حال الشدة والكربات

يذهب عنهم كل من كانوا يدعونه من دون الله، ويخلصون الدعاء لله -سبحانه وتعالى-: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، هذا ذكره الله -سبحانه وتعالى- بعد ذكره لمنه على عباده بنعمة الفلك، قال: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾، المراد هنا المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، يعني عدتم إلى الشرك والتعلق بغير الله واتخاذ الأنداد والشركاء، ﴿أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾، فانظر بيان الله -سبحانه وتعالى- لبطلان ما عليه هؤلاء وفساد عقائد هؤلاء بالتعلق بغير الله، قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ يعني الآن أنتم نجوتم من الشدة التي عاينتموها في البحر ولجأتم إلى الله -سبحانه وتعالى- مخلصين فنجاكم إلى البر، ثم لما وصلتم إلى البر عدتم إلى الشرك، تنادون غير الله وتستغيثون بغير الله وتصرفون العبادة لغير الله، ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ هذه العودة منكم إلى الشرك هل أمنتم أن يخسف بكم جانب البر مثل ما عاينتم موتًا في البحر، ألا تخشون أن يأتيكم الموت وأنتم في البر؟ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ هذا نوع من العقوبة التي يُتوقع أن تنزل ولا عاصم منها إلا الله -سبحانه- كما أنهم لا عاصم لهم من الغرق إلا الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أو -هذا أمر آخر في البر أيضًا- ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ حاصبًا أي: ريحا شديدة تحمل الحصباء، فتهلككم

وأنتم في البر، هذان نوعان من الهلاك وأنواع الهلاك التي تكون على الناس في البر كثيرة جدًا ولكن هذان نوعان.

ثم أمرٌ آخر ثالث: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:٦٩] هل تأمنون أن يعيدكم تارة أخرى في البحر لحاجة من الحاجات ومقصد من المقاصد في يومٍ من الأيام القادمة ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء:٦٩]، فأنتم في حاجة إلى الله -ﷻ- في الشدة والرخاء، الشاهد أن المشركين الأُوَل كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، أما المشركون في الأزمنة المتأخرة يشركون في الحالين في الرخاء و الشدة، يشركون في الرخاء والشدة، ويتعلقون بالأولياء في الرخاء والشدة وإذا عاينوا الغرق في وسط البحر يهتف كل من هؤلاء بشيخه، الحقني يا فلان أدركني يا فلان، ولو كان معهم أبو جهل لخطّأهم وقال لهم هذا وقت إخلاص هذا وقت شدة ما فيه إلا إخلاص ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، ففي الفلك أيضًا يستغيثون: يا شيخ فلان، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، لأنه غُرس في نفوسهم من وقت مبكر التعلق بالأولياء، حتى في مثل هذه الحالات وحكُوا لهم مسبقًا قصصًا وحكايات أن الولي إذا هتفت به وأنت في البحر خلصك من الشدة، ويروون في ذلك كرامات ولهذا في أحد كتب هؤلاء المشهورة في الكرامات، كتابًا مطبوع باسم «كرامات الأولياء» وعدّد نماذج كثيرة من كرامات الأولياء، قال في إحدى الكرامات في ترجمة رجل يقول: سيدنا -هكذا يقول: الشيخ علي- قال كان من كراماته أنه إذا جاءه رجل غريب عن



البلدة، ومعه حماره قال له امسك لي رأسها حتى أفعل بها؛ يقول له الولي! يقول امسكلي رأسها حتى أفعل بها، فإن أمسك رأسها ليفعل بها أصبح الغريب في حرج أمام الناس يمسك الحماره لهذا يفعل بها، وإن امتنع، الحماره تتسمر في مكانها ما تمشي! هذا الآن مذكور في كرامات الأولياء، قالوا: إن الشيخ علي فعل ذلك، انظر الآن للكرامة التي تغرس في نفوس أولئك الشرك في الرخاء والشدة؛ قال إن الشيخ علي لما فعل بالحمارة، ما فعل بها من أجل الفاحشة! قالوا لا، في سفينة في البحر مخروقة فهو رَتَق فتق السفينة، لما فعل بالحمارة رتق الفتق الذي في السفينة، ونجا الناس الذين في السفينة من الغرق! الله أكبر يكبرون، ثم إذا ركبوا في السفينة يهتفون به حتى يفعل بحمارة أخرى فتُرتَق السفينة وينجون من الغرق! مهازل ومصائب وكوارث وجناية على عقول العوام والجهال، فهذه جناية من أعظم الجنايات، ثم يمشي العوام والجهال في شرك عظيم وفي ضلال مبين بمثل هذه الحكايات الملفّقة والقصص التي يروج به الباطل، فمثل هذه القصة وأمثالها هي التي تجعل هؤلاء يشركون في الرخاء وفي الشدة، ولهذا مما قرأت أن شيخًا كان في سفينة، وعاينت السفينة الغرق -قرأتها في إحدى حواشي الكتب- لشيخًا في سفينة وعاين في السفينة الغرق، فأصبح كلٌ يهتف بشيخه، أدركني يا فلان، الحقني يا فلان، ما وجد منهم واحد يقول يا الله! فمدّ يديه ورفعها؛ قال يا الله يا رب أَغْرِق أغْرِق! ما على السفينة من يعبدك! لأن ليس على ظهر السفينة من يعبدك كلهم يعبدون غيرك ويلتجؤون إلى غيرك، فإذن هذا شرك أغلظ من شرك المشركين، ومثل هؤلاء -كما قدّمت- لو كان معهم في السفينة أبو لهب أو أبو جهل أو غيرهم من أساطين الكفر، لأنكروا

عليهم، قالوا لا هذا وقت إخلاص! ما فيه إلا الإخلاص، خلّوا هؤلاء إذا خرجنا إلى البر أما الآن لا، أخلصوا، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فإذن هذا يدل على أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك أولئك من هذه الناحية، والشيخ -رحمه الله- أورد جملة من الآيات تقرر ذلك بدأها بهذه الآية من ﴿سورة الإسراء﴾ ثم قال رحمه الله: «**وقوله:** ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ ﴾ **[الأنعام: ٤٠]**».

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ يعني أنكم أيها المشركون في مثل هذه الحالات لا تدعون إلا إياه ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ أي: وحده دون شريك،﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١] ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ يعني في الشدائد ينسى المشرك الأنداد والشركاء ويخلص لله -تبارك وتعالى- أما المتأخرين ففي الشدائد (لا ينسون ما يشركون) بل بهم يتعلقون وإليهم يلتجؤون وعليهم يتوكلون.

قال رحمه الله: «**وقال تعالى:** ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ **[الزمر:٨]**».

أي: هذا وصفٌ لحال المشرك، أي: أنه في حال ضرائه لا يدعو ولا يلجأ إلا إلى الله -تبارك وتعالى- قال إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وأورد قول الله -تعالى-: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وأيضًا قول الله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، هذه كلها تقرر أن المشركين الأول

كانوا يشركون في الرخاء دون الشِّدة بخلاف هؤلاء فإنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة.

قال ﵀: «**فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله -تعالى- ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له، وينسون ساداتهم فبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين**»، الفرق بين شرك المتأخرين وشرك الأولين الذي يشير إليه الشيخ ﵀ أن أولئك كانوا يشركون في الرخاء دون الشدة، وهؤلاء يشركون في الشدة والرخاء، وما من شكٍّ أن من يشرك في الشدة والرخاء أغلظ ممن يشرك في الرخاء دون الشدة، ولكن انظر ألم الشيخ ﵀ وأسفه: «**ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا، أين هو والله المستعان**» فالشيخ ﵀ يأسف لحالٍ يراها ويقرر لذلك نُصحًا للناس ومعذرة إلى الله -ﷻ- و بمثل هذا النصح العظيم هدى الله خلقًا، وأخرجهم الله -ﷻ- من الظلمات إلى النور ببركات هذه الدعوة الناصحة الصالحة لكتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال ﵀: «**الأمر الثاني: أن الأولين** -يعني المشركين الأولين- **يدعون مع الله أناسًا مُقرّبين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة، أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية**»، هذا شركهم وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم -يعني في كتب الأخبار وفي كتب التراجم- هم أنفسهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة، مثل الذي يفعل بالحمارة هذا يعدّونه من كراماته ومن موجبات التعلق به من دون الله، واتخاذ

قبره وثنًا يُعبد من دون الله، ولهذا يذكرون في تراجم من يتعلقون بهم أشياء عندما تقرأها أنت صاحب الحق الذي منّ الله عليك بالهداية تعرف أن هذا مُضِل، يعني يذكرون عن شخص قبره الآن من أكبر القبور التي تُعبَد وتُقصد ويذبح لها وينذر، يذكرون أنه ما كان يشهد للصلاة في الجماعة، وذكروا أيضًا في ترجمته أنه دخل مرة واحدة للمسجد وبال فيه، ويذكرون أشياء في ترجمته وأخبار ولما مات عملوا له قبة وضريحا! بالآلاف المؤلّفة يقصدون قبره، متعلقين وداعين وذابحين وإلى آخر ذلك، وكانوا يلقبونه أبو اللِّثامين السطوحي، أبو اللثامين قالوا أنه جلس تقريبًا اثنا عشر سنة فوق سطح البيت ما نزل أبدًا، بقي فوق السطح متلثما هذه كل المدة، وقالوا: كان مُتلثّما لحكمة، وهي أنه لو كشف وجهه لأحرق وجهه أو نور وجهه من يراه، ومثل الأمور هذه بدأ العوام يأتون قبره وضريحه زرافات ووحدانا، حتى إن أحد الكبار ألّف كتابًا في مناقبه؛ قال: ولم أُخرج هذا الكتاب حتى أتيت قبره واستأذنته وأذن لي أن أطبع الكتاب! أشياء يعني مؤلمة ومؤسفة، والمسلم يحمد الله على العافية، فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولولا منة الله علينا بهذه الهداية وهذا التوحيد وهذه الكتب التي نقرأها ونتعلمها، لكان الأمر آخر لكن هذا فضل الله -ﷻ-.

«الأمر الثاني: أن الأولياء يدعون مع الله أناسًا مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أحجارًا أو أشجارًا مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم» انتبه لقوله: (**هم الذين يحكون عنهم**) يعني ليس خصومهم الذين يحكون عنهم، ولكن

هم الذين يحكون عنهم أمورًا هي من الفجور والزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك يحكونها عنهم في كتبهم هُم، كتب الكرامات كتب الأولياء يحكون عنهم الزنا يحكون عنهم فعل الفواحش، يحكون عنهم تتبع المُردان، يحكون عنهم فعل المحرمات ترك الصلاة ترك الطواف كل هذه يذكرونها في كتب الكرامات وفي مناقب الأولياء، فانتبه لقوله -رحمه الله تعالى-: «**الذين يحكون عنهم**» ما قال نحكي أو يُحكى، قال (**يحكون**) أي: هؤلاء الذين يتعلقون بهم ويعتقدون فيهم، يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك، وكل هذه الأشياء التي تسمعها الزنا السرقة ترك الصلاة وأعمال أخرى منكرة أكثر من ذلك، كلها تذكر في مناقب الأولياء! وتذكر في كرامات الأولياء عند القوم، «**وغير ذلك**».

قال رحمه الله: «**والذي يعتقد في الصالح أو الذي لا يعصي مثل شجرة أو حجر أهون ممّن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويُشهد به**» وكل من الأمرين شرك، لكن هذا أهون من هذا، وإلا كله شرك، وكله موجب للنار وسخط الجبار، لكن هذا أهون من ذلك، والنفوس لها شيء من التعلق أو النفوس لها شيء من المحبة للصالحين والمعرفة لأقدار الصالحين، فربما أن الإنسان من هذا الباب مع سوء فهم وقلة علم وبصيرة، ربما عظّم الصالحين تعظيمًا لا يليق إلا بالله، لكن أن يعظم هؤلاء الفسقة الفجرة أهل الفواحش أهل المنكرات، ويُصرف لهم من الحقوق والخصائص ما ليس إلا لله -تبارك وتعالى- فهذا لا شك أن مثل هذا العمل أغلظ من شرك المشركين الأول، كل من الشِّركيْن غليظ، لكن هذا أغلظ من هذا، فإذن هذان أمران يتبين من خلالهما أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المتقدمين.

وأمر ثالث: وهو أن المتقدمين شركهم في الألوهية، أما الربوبية وخصائص الربوبية لا يعطونها للأصنام ومن يعبدونهم لا يقولون عنها إنها تخلق، ولا يقولون ترزق، ولا يقولون تحيي ولا تميت ولا تدبر الأمر، لا يقولون ذلك، ولا يعطونها خصائص الله في أسمائه -تبارك وتعالى- وصفاته، والمشركون المتأخرون كما أنهم يشركون في الألوهية أيضًا يشركون في الربوبية، ويعتقدون في الولي من التصرف والتدبير ما ليس إلا لله -تبارك وتعالى-، ولهذا أحد كبار المضلين المخرفين في عصرنا، سمعته في شريط له يقول الولي يخلق، من قال لكم أن الذي لا يخلق إلا الله، قال: الولي يخلق، قال والقرآن دلّ على ذلك! قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، قال: هذا دليل على أنه فيه خالقين مع الله، وقال: أن الولي يستطيع أن يخلق الجنين في رحم الأم، يستطيع ذلك ولكنهم لا يفعلون ذلك من أجل أن لا تختلط الأنساب، فقط لهذا وإلا فهم يستطيعون، ويذكرون في أحد كتب هؤلاء أن أحد الأولياء المزعومين كان متزوجًا من امرأة وصفوها بأنها شريفة، وتزوج عليها امرأة فلاحة فقيرة، فغضبت الشريفة ليش ياخذ عليها فلاحة وهي لها مكانة وشريفة، فغضبت وطلبت الانفصال منه، وكانت حاملاً منه في الشهر السادس، قال لها إذا ما تتركين هذه المطالبة سوف أنقل الجنين من رحمك إلى رحم الزوجة الجديدة! فأبت قالوا فنقل الجنين يعني أمر الجنين أن ينتقل من رحمها إلى رحم الزوجة الجديدة وولدت الزوجة الجديدة بعد ثلاث شهور، ولدت الزوجة الجديدة الفلاّحة بعد ثلاث شهور، هذه كلها أبو جهل لو سمعها ينكرها، أبو جهل لو سمع هذا الكلام قال هذا منكر، ربما يقول لهم: كبرت كلمة تخرج من أفواهكم، هذا كلام منكر

ما يقال، قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فهذا من الأمور التي تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ، وهذا الجاهل ما فهم الآية ولا فهم معنى دلالة هذا الاسم ﴿الْخَالِقِينَ﴾ وإلا لو كان يعرف معناه ويفهم دلالته لما قال هذا القول المنكر، القول الذي لم يصل إليه المشركون الأول، لأنهم ما كانوا يعتقدون مثل هذه العقائد في الأصنام والأوثان والأولياء ومن يدعونهم من دون الله.

وأمر رابع وهو: أن المشركين الأُوَل كانوا يفهمون معنى لا إله إلا الله وأنها تعني إخلاص العبادة لله، ولما قال لهم النبي ﷺ (قولوا لا إله الا الله تفلحوا) قالوا ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، والمشركون المتأخرون لم يفهموا لا إله إلا الله، وإذا قيل لهم ما معنى لا إله إلا الله فسّروها في الربوبية فقط، قالوا معناها لا خالق إلا الله، أو لا رازق إلا الله أو لا مانع ولا معطي إلا الله فهذه وجوه أربعة تدل على أن شرك المتأخرين أغلظ.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله:

«إِذَا تحققْتَ أَنَّ الَّذين قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللّه ﷺ أَصَحُّ عُقُولاً، وَأَخَفُّ شِرْكاً مِنْ هَؤُلاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَها على ما ذَكَرْنا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجوابِها، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذين نَزَلَ فِيهِم القُرْآنُ لا يَشْهَدونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ، ويُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللّه ﷺ، وَيُنْكِرونَ البَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ القُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْراً، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ، وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي وَنَصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلونَنا مِثْلَ أُولَئِكَ؟

فَالجَوَابُ: أَن لا خِلافَ بَيْنَ العُلَماءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذا صَدَّقَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ في شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ في شَيْءٍ، أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ في الإِسلامِ. وَكَذلِكَ إِذا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوحيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحيدِ وَالصَّلاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذا كُلِّهِ وَجَحَدَ وجوب الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وجوب الحَجِّ.

وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ في زَمَنِ النَّبي ﷺ لِلحَجِّ أَنْزَلَ اللّهُ تعالى في حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وَمَنْ أَقَرَّ بِهذا كُلِّهِ وَجَحَدَ بالبَعْث كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ وَحلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ،كما قالَ تَعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا
﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ **الآية [النساء ١٥٠:١٥١]**.

فَإِذَا كَانَ اللهُ تعالى قَدْ صَرَّحَ في كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقّاً زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أرسل إِلَيْنَا».

[الشرح]

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ﷺ: (إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَصَحُّ عُقُولاً، وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلاءِ، فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلاءِ شُبْهَة يُورِدُونَها على ما ذَكَرْنا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا)، لمّا ذكر – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى – ما سبق مما يتبين به أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك الأوّلين، وأن الأولين كانوا أصح عقولا من هؤلاء لسلامة لُغتهم ومعرفتهم بدلالات الخطاب ومعاني الكلام، لما قرّر ذلك وذكره -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- ونبّه أيضا على أن شرك الأوّلين أخفّ من شرك المتأخرين من وجوهٍ سبق بيانها عنده -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-، لما ذكر ذلك قال: (اعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَها على ما ذَكَرْنا) أي: يثيرونها، (على ما ذَكَرْنا) أنّ ما عندهم شرك بالله -ﷻ، وأن عملهم أغلظ من شرك الأولين، وكما قدّمت مرّ معنا عنده -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- وجهان في تقرير ذلك.

يقول: (لِهَؤُلاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَها على ما ذَكَرْنا وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا) انظر إلى دقة العبارة، لم يقل -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-: فأصغ سمعك لها، أي: للشبهة، لأن الشبهة لا يُحفل بها ولا يُهتم بها، وإنما يُحفل ويُهتم بالأجوبة

السديدة والنقد المفيد المستمد من كتاب الله وسنة نبيه، هذا الذي ينبغي أن يُرعيه المسلم اهتمامه، أما الذي يفتح قلبه للشبهات ويُصغي لها ويُقبل عليها ويُحاول استيعابها فهذا ربما استقرت الشبهة في قلبه ولم تخرج، وربما تجلجلت في صدره إلى أن يموت، ولهذا لا ينبغي لمسلم أن يحفل بشبهة أو أن يُعنى بها أو أن يُصغي لها، ولهذا تكلم السلف -رحمهم الله- قديما في بيان خطورة من أصغى لصاحب شبهة؛ فصاحب الشبهة لا يُصغ له والشبهة لا يصغ لها ولهذا قال:(فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا) اقرأ الشبهة وليكن اهتمامك وعنايتك وضبطك بالجواب، قال: (فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوابِهَا)، ثم ذكر الشبهة قال: (وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِم القُرْآنُ) يعني المشركين الأول الذين نزل القرآن في ذمهم والتشنيع عليهم وبيان كفرهم وشركهم بالله (لا يَشْهَدونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)، لم يقبلوا الشهادة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات٣٥: ٣٦]، لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذّبون الرسول ﷺ، يكذّبونه ويكذّبون بما جاء به ويدّعون بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو غير ذلك، (وَيُنْكِرونَ البَعْثَ)، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن:٧] ينكرون أنهم مبعوثون ليوم عظيم، (وَيُكَذِّبُونَ القُرْآنَ وَيَجْعَلُونَهُ سِحْراً)، قال ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر٢٤: ٢٥]، يقولون: (وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) أي: ننطق بالشهادة ونتلفظ بها، نقول لا إله إلا الله، (وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ) أيضا نشهد بأن محمدا رسول الله ﷺ (وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ) نؤمن بأن القرآن من الله ﷻ، وأنه وحي وأنه منزل على محمد ﷺ، لا نقول أنه كتاب سحر كما قال الكفار الأُوَل،

(وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ) نؤمن ونعتقد أننا مبعوثون، (وَنُصَلِّي وَنَصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلونَنا مِثْلَ أُولَئِكَ؟) ونحن عندنا هذه الأعمال وبيننا وبينهم هذه الفروق، وكأنهم يريدون أن يقولوا إن وجود الشرك الذي كان عليه الأولين عندنا ونفعله ونمارسه هذا لا يؤثّر في انتقاض الدّين وانهدامه مادام أن عندنا هذه الأشياء، وهي ليست عندهم، هذا حاصل تقريرهم لهذه الشبهة: مادام أن هذه الأشياء موجودة، فكوننا نلجأ إلى غير الله، نذبح لغير الله، نستغيث بغير الله نصرف العبادة لغير الله هذا لا يؤثر طالما أننا نشهد بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ونؤمن بالقرآن ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم، هذه لا تؤثر! وهذه فروقات بيننا وبين أولئك تمنع من أن نُلحق بهم أو نُعَدّ أمثالا ونظراء لهم!

هذا حاصل الشبهة والشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- طلب الإصغاء لجوابها ولم يذكر جوابا عليها واحدا؛ بل ذكر تسعة أجوبة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- كل واحد منها كاف لكشفها وتعريتها، فذكر أوّلا الجواب الأول (فَالجَوَابُ: أَنَّ لا خِلافَ بَيْنَ العُلَماءِ كُلِّهِمْ، أَنَّ الرَّجُلَ إِذا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ في شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ في شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ في الإِسلامِ) يقول هذه محل اتفاق بين أهل العلم، أنه إذا صدّقه في شيء وكذّبه في شيء كافر باتفاق أهل العلم، حتى وإن صلّى وإن صام وإن حجّ وإن صدّق بالبعث، إذا كذّب النبي -عليه الصلاة والسلام- في شيء فهو كافرٌ باتفاق أهل العلم.

قال: (وَكَذَلِكَ إِذا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ) هذا كافرٌ باتفاق أهل العلم، من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض أو يؤمن ببعض ما جاء به الرسول -عليه الصلاة والسلام- ويكفر ببعض هذا باتفاق أهل العلم يكون كافرًا فكيف بمن جحد التوحيد وردّ

التوحيد الذي هو أعظم شيء أتى به الرسول -عليه السلام-؟! قال ممثلا: (كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة) هذا ما حكمه؟ من أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أيضا اعكس الأمر: من أقرّ بوجوب الصلاة وصلى وجحد التوحيد؟ هذا كافر باتفاق أهل العلم وذاك كافر باتفاقهم، (أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ) أي: بالتوحيد والصلاة والزكاة (وَجَحَدَ وجوب الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وجوب الحَجِّ) وذكر هنا -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- مباني الإسلام الخمسة: بُني الإسلام على خمسة شهادة أن لا إله إلا الله وهذا التوحيد، وأن محمد رسول الله ﷺ وهذا الإيمان بالرسالة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، فمن أقر ببعض هذه المباني وكفر ببعض ولو بواحد منها فإنه باتفاق أهل العلم يكون كافرا بالله ﷻ، فتكذيبه بواحد من هذه الأشياء نقض لتصديقه لألوف من الأشياء الباقية، تكذيبه لواحد من هذه الأشياء يُعد نقضا لألوف من الأمور التي يأتي بها من أمور الإسلام لأنّ التكذيب بشيء مما جاء به الله في كتابه -سبحانه- وما جاء في سنّة النبي ﷺ هذا يُعدّ ناقضا للإيمان.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-: «إذا صار جحد فرع من فروع الدين كفرا، فكيف بجحد الأصل وهو التوحيد؟! فبو قدر - وهو لا يكون - أن هذه الفروع كلها - من الصلاة وما بعدها - ليست معصية ولا عظيمة، لكان جحد التوحيد كفرا برأسه، فكيف وهو الأصل»[1].

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى-: (وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أُنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِي ﷺ لِلحَجِّ)

---

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص ١١٩).

أتوا بأمور الإسلام ولم ينقادوا للحج (أَنْزَلَ اللهُ تعالى في حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)

(وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذا كُلِّهِ) أي: أقر بمباني الإسلام كلها (وَجَحَدَ البَعْثَ) أي: جحد بعث الناس وقيامهم لرب العالمين (كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ،كما قالَ تَعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾) فسمّاهم الله -تبارك وَتَعالى- كفارا مع إيمانهم ببعض ما جاء به الرسول -ﷺ-، ومثله قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] لكونهم اتخذوا الأنداد مع الله -سبحانه وتعالى- فإذا وُجد الأمر الناقل من الملة والناقض للإسلام فمع وجوده لا يُنتفع بالأعمال وإن كثرت والطاعات وإن تعددت.

قال رحمه الله: (فَإِذَا كَانَ اللهُ تعالى قَدْ صَرَّحَ في كِتَابِهِ: أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقّـاً زَالَتْ هَذِهِ الشُّبَه) لأن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقا فكيف بمن لم يؤمن بالتوحيد ولم يرضه؟!

قال: (وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الأَحْسَاءِ في كِتَابِهِ الَّذِي أرْسَلَه إِلَيْنَا)، كان بعض خصومه يراسلونه معترضين على ما يدعو إليه من التوحيد وما يُحذر منه من الشرك والتنديد، وما يبينه من الحال السيئة التي عليها الناس بالتعلق بغير الله -سبحانه وتعالى- وصرف العبادة له؛ فكان بعضهم يراسله، معاندينه مخاصمين للحق الذي يدعو إليه.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقالُ أيضا: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ في كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاةِ فهو كَافِرٌ حَلالُ الدَّمِ وَالمَالِ بالإجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إلاَّ البَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كلِّه، لا يُجحدُ هذا ولا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا.

فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلاةِ، وَالزَّكاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لا يَكْفُرُ؟ سُبحانَ اللهِ، ما أَعْجَبَ هذا الجَهْلَ».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- هذا الجواب لثاني على الشبهة وبيّن من خلاله مكانة التوحيد وأنه أعظم شيء أمر الله -تبارك وتعالى- به، وقرّر -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى- إذا كان باتفاق أهل العلم من يجحد الصلاة ويجحد الصيام ويجحد غير ذلك من فرائض الإسلام يكفر اتفاقًا فكيف بمن يجحد أعظم شيء في الدين وهو توحيد الله -تبارك وتعالى-. قال: (إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ في كُلِّ شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاةِ فهو كَافِرٌ حَلالُ الدَّمِ وَالمَالِ بالإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إلاَّ البَعْثَ) أي: أنه يكون بذلك كافرًا، (وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كلِّه) أي: أيضا يكون كافرًا باتفاق أهل العلم، (لا يُجحدُ هذا) أي: لا يجحده أحد ولا ينكره أحد، (ولا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا) أي: في

الآيات التي ساقها مقررة كفر من جحد شيئا من ذلك أو من فرق بين أمور الإيمان فآمن ببعضها وكفر ببعضها.

قال: (فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَعْظَمُ مِن الصَّلاةِ، وَالزَّكاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحجِّ) ولهذا يأتي مقدَّما في النصوص ومنها النص الذي ذكرته قريبا (مباني الإسلام) بُدئ بأعظم المباني وهو التوحيد، وفي الأوامر في كتاب الله يُبدأ به وفي النواهي يُبدأ بالنهي عن ضده، فهو أعظم شيء أمر الله -ﷻ- عباده به، فكيف يكون من جحد الصلاة مع إيمانه بباقي أمور الإسلام كافرًا، ومن جحد الصيام مع إيمانه بباقي أمور الإسلام يكون كافرًا، ومن يجحد التوحيد مع إقراره بتلك الأمور لا يكون كافرًا؟!

قال: (فَكَيْف إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ ما جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؟ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لا يَكْفُرُ؟ سُبحانَ اللهِ، ما أَعْجَبَ هذا الجَهْلَ)، يقول الشيخ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -(سُبحانَ اللهِ، ما أَعْجَبَ هذا الجَهْلَ).

ولإلزام الخصم بمثل هذا لك أن تسأله عندما يطرح مثل هذا، ولو تريثت قليلا ثم فاجأته بسؤال قلت له: ما رأيك برجل يعرف الصلاة ويعرف ما جاء في مكانتها وفضلها؛ ولكن يجحد أنها واجبة ويُنكر ذلك، ماذا تقول فيه؟ تجد أنه سيقرر أنه كافر؛ تقول له وإن صام؟ وإن حج؟ وإن وإن، سيقول: كافر لأنه جحد هذه الفريضة المعلومة من الدين بالضرورة، والتي لها من الدلائل الشيء الكثير؛ فقل له: التوحيد أعظم من الصلاة ودلائله أكثر، ومكانته أعلى وشانه أرفع؛ فكيف

يكون كافرًا بجحد الصلاة، ولا يكون كافرًا بجحد التوحيد؛ بل كما قال أهل العلم: التوحيد وحده قد يكفي الإنسان في إسلام العبد ودخوله الجنة؛ مثل لو أن شخصا تكلم بكلمة التوحيد وشهد بها وأقر ثم قُبضت روحه قبل أن يقوم بشيء من أعمال الإسلام تكفيه وتنجّيه من عذاب الله ويكون من أهل الجنة، فالتوحيد وحده يكفي وهذه الأمور وحدها لا تكفي إلا إذا وُجد التوحيد معها؛ فكيف يُعدّ جحد التوحيد ليس بناقض وجحد هذه الفرائض ناقضا للإسلام؟!

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «**وَيُقَالُ أَيْضاً لهَؤلاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِي ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ، وَيُؤَذِّنُونَ ويُصَلُّونَ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقولون: أَنَّ مُسَيلِمَةَ نَبِيٌّ.**

قُلْنا: هَذا هُوَ المَطْلُوبُ إِذا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلاً في رُتْبَةِ النَّبِي ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهادتانِ وَلا الصَّلاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيّاً أَوْ نَبِيّاً في رتَبَةِ جَبّارِ السَّماوات وَالأَرْضِ؟ سُبحانَ اللّه، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩]».

[الشرح]

ثم ذكر - رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى - هذا الجواب الثالث على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا لهَؤلاءِ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِي ﷺ) أي: بنو حنيفة أسلموا مع النبي ﷺ؛ لكن الصحابة قاتلوهم واستباحوا دماءهم وأموالهم، (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُويُؤَذِّنُون، وَيُصَلُّونَ) وهذه أشياء كانوا هؤلاء قد ذكروها سابقا في الشبهة، قالوا كيف تسوّون بين يجحد القرآن ويُكذب بالنبي ﷺ ويشهد أن لا إله إلا الله ويصلّي ويصوم وبين أولئك المشركين فيقول - رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى -: (وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُه وَرَسُولُهُ، وَيُؤَذِّنُون، وَيُصَلُّونَ)؛ لكن ما هي المشكلة عندهم؟ (فَإِنْ قَالَ) يعني يقول لك الخصم (إِنَّهُمْ يَقولون: أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ) يعني مع فعلهم لهذه الأشياء يدعون أن مسيلمة نبيا، مع أنهم يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة، ويشهدون أن

لا إله إلا الله ويصلون ويصومون؛ لكنهم يشهدون أن مسيلمة نبي؛ فيقول هؤلاء كفروا لأنهم يشهدون أن مسيلمة نبي، يقول الشيخ- رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - (قُلْنا: هَذا هُوَ المَطْلُوبُ) يعني في الجواب على هذه الشبهة؛ (إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلاً فِي رُتْبَةِ النَّبِي ﷺ كَفَرَ وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهادتانِ وَلا الصَّلاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ أَوْ صَحَابِيًّا أَوْ نَبِيًّا فِي رتبَةِ جَبَّارِ السَّماوات وَالأَرْضِ؟)، إذا كان من رفع شخصا إلى رتبة النبوة يكفر بإقرار هؤلاء الخصوم فكيف بمن يرفع شخصا إلى رتبة الألوهية؟! أليس الأمر أعظم؟ ولهذا أيضا بتقرير هذا الرد ممكن أن تقول للخصم عندما قال هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم؛ فيمكن أن تقول للخصم: ما رأيك في شخص يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويُصلي ويصوم ويدّعي لشخص من الأشخاص أنه نبي، ما رأيك فيه؟ يدعي أنه نبي، ماذا سيقول لك؟ قطعا سيقول لك هذا يكفر، حتى وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وصلى وصام، إذا يشهد لشخص أنه نبيّ هذا يكفر؛ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده؛ فقل له إذا كان يكفر لرفعه لرجل إلى رتبة النبوة مع أنه يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلي ويصوم فكيف لا يكفر من يرفع رجلا -أيا كان مقامه -إلى رتبة الجبار-ﷻ-؛ فيعطيه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا لله -ﷻ-.

قال: (فكيف بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ) شمسان وكذلك يوسف وسيأتي قريبا أيضا تاج، هذه أسماء أشخاص كانوا في زمان الشيخ يُعظَّمون ويُتقرب إليهم وتُصرف لهم النذور، ولهذا ذكر الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- محمد بن إبراهيم في

سؤال له عن هؤلاء، قال: «أما تاج فهو من أهل الخرج تُصرف إليه النذور ويُدعى ويُعتقد فيه النفع والضر، وأما شمسان فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنه لا يبعد عن العارض -وهي منطقة- وله أولاد يُعتقد فيهم، وأما يوسف فقد كان على قبره وثن يُعتقد فيه؛ فهؤلاء شمسان ويوسف وتاج أشخاص كانوا يُعتقد فيهم، تقدم لهم القرابين والنذور ويُلتجأ إليهم؛ فكيف من رفع هؤلاء الأشخاص إلى رتبة الألوهية وأعطاهم من الحقوق ما ليس إلا لله -تَبَارَكَ وَتَعَالى- لا يكون كافرًا لكونه يُصلي ويصوم ويشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟! ومن ادعى في شخص انه نبيّ يكون كافرًا وإن شهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإن صلى وصام»[1].

قال الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- (سُبحانَ الله، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾) وهذا عمى في القلوب وضلال من أشد ما يكون لأنهم يدركون أن من يرفع شخصا إلى درجة النبوة يكفر وإن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإن صلى وصام ولا يقرون بأن من رُفع إلى درجة الألوهية يكفر لكونه يشهد بهذه الأمور.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) «فتاوى ورسائل محمد بن ابراهيم آل الشيخ» (١/ ١١٧).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقَالُ أَيْضاً: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه بالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عليٍّ رضي الله عنه، وَتعَلَّمُوا العِلْمَ مِن الصَّحابةِ، وَلَكِنِ اعْتَقَدُوا في عَلِيٍّ مِثلَ الاعْتِقَادِ في يُوسُفَ وشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحابةَ يُكفِّرونَ المُسْلِمينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الاعْتِقَادَ في تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لا يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادَ في عَلِيٍّ بنِ أبي طالِبٍ يُكَفِّرُ؟».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الجواب الرابع على تلك الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضاً:الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عليٍّ رضي الله عنه) كانوا حوله ويعظمونه ويظهرون محبته وتوليه، (وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِن الصَّحَابةِ) كانوا يعيشون بين الصحابة وما عرفوه من أمور الإسلام عرفوه من طريق الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-، لكنهم وقعوا في غلو شنيع فاعتقدوا في علي رضي الله عنه ورفعوه إلى مقام الألوهية، قال (وَلَكِنِ اعْتَقَدُوا في عَلِيٍّ مِثلَ الاعْتِقَادِ في يُوسُفَ وشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا) يعني اعتقدوا في علي اعتقادات مثل اعتقادات من اعتقد في شمسان أو في تاج أو يوسف أو غيرهم من الذين كان من يتعلق بغير الله يعتقد بهم ويصرف لهم ما لا يصرف إلا الله تبارك وتعالى.

قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابةَ يُكفِّرونَ المُسْلِمِينَ؟)، وهذه كلمة كثيرا ما قالها أهل الضلال في حق الشيخ -رَحِمَهُ اللهُ-

ومن كانوا على نهجه في الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، يقولون أنه يكفر المسلمين، وتبرأ من ذلك في كتابات ورسائل عديدة، وبين كذب هذه الدعوة وأنه لا يكفر مسلما وإنما يكفر من كفره الله ورسوله ومن كان كافرًا بدلالة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وحاشاه وغيره من أئمة العلم والفضل أن يكفروا مسلما؛ بل هو -رَحِمَهُ اللهُ- وغيره من أئمة العلم من أشد الناس نهيا عن التكفير، قال (فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ على قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكفِّرونَ المُسْلِمِينَ؟ أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الاعْتِقَادَ في تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لا يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادَ في عَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ يُكَفِّرُ؟)، فهذه أمثلة يسوقها -رَحِمَهُ اللهُ- وشواهد من الكتاب ومن السنة ومن أفعال الصحابة رضي الله عنهم يبيّن من خلالها فساد هذه الشبهة ووهائها.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

[المتن]

قال المؤلف ﵀:«وَيُقَالُ أَيْضاً: بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ الَّذينَ مَلَكوا المَغْرِبَ وَمِصْرَ في زَمَنِ بَني العَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّٰهِ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلامَ، وَيُصَلُّونَ الجُمُعَةَ وَالجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالفَةَ الشَّرِيعةِ في أَشْيَاءَ دُون ما نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ العُلَماءُ على كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ، وَغزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا ما بِأَيْدِيهِم مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ».

[الشرح]

وها الجواب الخامس لهذه الشبهة، قال:(وَيُقَالُ أَيْضـاً: بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ الَّذينَ مَلَكوا المَغْرِبَ وَمِصْرَ في زَمَنِ بَني العَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّٰهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّٰهِ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلامَ، وَيُصَلُّونَ الجُمُعَةَ وَالجَمَاعَةَ فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالفَةَ الشَّرِيعةِ في أَشْيَاءَ دُون ما نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ العُلَماءُ على كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ)، بنو عبيد القدّاح هؤلاء تسلّطوا على المغرب ومصر مدّة من الزمن وكانت المساجد قائمة والأذان يُرفع وتقام الصلاة وتقام الجُمَع؛ ولكنهم عظموا هؤلاء الحكام من بني عبيد ويدعون أنهم من الفاطميين، وهذه دعوة كاذبة بينها أهل العلم وأنها نسبة كاذبة لا صحة لها، فأتباع هؤلاء عظموهم واعتقدوا فيهم اعتقادات لا تليق إلا بالله ﷻ، فاتفق أهل العلم على كفرهم وقتالهم، وأنّ بلادهم بلاد حرب مع أن بلادهم فيها إقام الجمعة والجماعة والصّلاة، قال: (وَغَزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا ما بِأَيْدِيهِم مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ) أي: ولم

يجعلوا الشهادتين والصلاة والزكاة والجمعة والجماعة فرقا مؤثرا عندهم أو مانعا من الحكم عليهم بالكفر وقتالهم واعتبار بلدهم بلاد حرب، لم يعتبروا ذلك مانعًا من ذلك.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقَالُ أَيضاً: إِذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلاَّ لأَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالقُرْآنِ وَإِنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَما مَعْنى البابِ الَّذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ المُرْتَدّ وَهُوَ المُسْلِمُ يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلامِهِ ثُمَّ ذَكَرُوا أنواع كَثِيرةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْها يُكَفِّرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذكروا أَشْيَاءَ يَسِيرةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَها مِثْل كَلِمةٍ يَذْكُرُها بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كلمةٍ يَذْكُرُها على وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- هذا الجواب السادس على هذه الشبهة، قال: (وَيُقَالُ أَيْضـاً: إِذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلاَّ لأَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالقُرْآنِ وَإِنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) يعني كما يدعيه صاحب هذه الشبهة ويثير لها، (إِذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلاَّ لأَنَّهُم جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالقُرْآنِ وَإِنْكَارِ البَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ) وغير ذلك من الأمور التي ذكروها في الشبهة، يقول الشيخ في الجواب: (فَما مَعْنى البابِ الَّذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ المُرْتَدّ) ما معنى هذا الباب؟ وفي كل المذاهب يوجد هذا الباب (باب حكم المرتد)، وتحت هذا الباب تُذكر الأمور التي تحصل بها الردة عن الإسلام ويحصل بها انتقاض الإسلام، وتجد من يذكر هذه الأمور التي يحصل بها الردة تجدهم بين مطوّل ومختصر، منهم من يذكر أشياء كثيرة وتفاصيل دقيقة ومنهم من يذكر ما هو دون

ذلك، لكنهم جميعا متفقين على أن المرء يرتد عن دينه بفعل هذه الأمور التي تكون بها الردة عن الإسلام سواء حصل منه أمرا واحدا ينقض الإسلام أو أكثر من واحد، ولهذا يقول الشيخ: (فَما مَعْنى البابِ الَّذِي ذَكَرَه العُلَمَاءُ في كُلِّ مَذْهَبٍ: بَابُ حُكْمِ المُرْتَدّ)(١)، إذا كنتم تقولون أن الكفار الأُول لم يُكفروا إلا لأنهم جمعوا بين هذه الأشياء يشركون ويكذبون وينكرون القرآن وينكرون البعث ويكذبون بالنبي ﷺ ولهذا كُفّروا، إذن ما معنى باب حكم المرتد؟ الموجود في كتب الفقه عموما؟ قال: (وَهُوَ المُسْلِمُ الذي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلامِهِ) هذا تعريف للمرتدّ، (ثُمَّ ذَكَرُوا أَنواعا كَثِيرةً) أي: تحصل بها الردة، (ثُمَّ ذَكَرُوا) أي: أئمة الفقه، علماء الفقه من كل المذاهب، (ذَكَرُوا أَنواعا كَثِيرةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْها يُكَفِّرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَروا أَشْيَاءَ يَسِيرةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَها مِثْلَ كَلِمةٍ يَذْكُرُها بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كلمةٍ يَذْكُرُها على وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ). عُدّت ناقضا للإسلام وموجبا للردة عن الإسلام، فإذن ما معنى ذلك؟ وما معنى هذا الكتاب الذي في جميع كتب الفقه باختلاف المذاهب، هذا أيضا جواب آخر على هذه الشبهة.

---

(١) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز ﷺ: «ولهذا عقد العلماء من كل مذهب باب حكم المرتد، قالوا: باب حكم المرتد، ثم فسروه فقالوا: المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، يهني هو الذ يأتي بناقض من نواقض الإسلام، فيكفر بذلك وإن قال: لا إله إلا الله، فلو كان يقول: لا إله إلا الله، ويصلي ويصوم ولكن يقول: الزنا حلال من شاء زنى فلا بأس، كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن الخمر حلال ؛ كفر عند جميع أهل العلم، أو قال: إن عقوق الوالدين حلال؛ كفر عند جميع أهل العلم»«شرح كشف الشبهات» (ص١١٤).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَيُقَالُ أَيْضاً: الَّذين قَالَ اللهُ فِيهِم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أَمَا سَمِعْتَ اللهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ في زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُون مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ معه، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُوحِّدُون.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تعالى فِيهِم ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فَهَؤُلاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكٍ قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهم قَالُوهَا عَلى وَجْهِ المَزْحِ.

فَتَأَمَّلْ هذه الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُم: تُكَفِّرُونَ من المُسْلمينَ؛ أُناساً يَشْهَدُون أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّه، وَيُصَلُّون، وَيَصُومُونَ، ويحجُّون، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوابَها فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ ما في هَذِهِ الأَوْراقِ».

[الشرح]

قال: (وَيُقَالُ أَيْضًا) أي: في الجواب على هذه الشبهة وهو الجواب السابع (الَّذِين قَالَ اللهُ فِيهِم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾) تأمل الآية ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ إسلامهم أي: شهادتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان هذا هو الإسلام الذي كانوا عليه، فأثبت الله -جل جلاله- لهم إسلاما وكفرا بعده سببه أنهم قالوا كلمة الكفر ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ

إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ فإذن من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويصلي ويصوم ثم يحصل منه أمرا ينقض الإسلام، أيبقى على إسلامه مع وجود الناقض؟! أتفيده الشهادة وتفيده الصلاة ويفيده الصيام مع وجود الناقض؟! حاشا، قال ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، قال: (أَمَا سَمِعْتَ اللهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ؛ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ معه، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُوحِّدُون) من أين للشيخ -رَحِمَهُ اللهُ- أنهم يصلون معه ويزكون معه ويحجون معه ويوحدون معه؟ لأنه أثبت لهم إسلامهم، قال ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أثبت الله لهم إسلامهم وأثبت لهم كفرهم بعد هذا الإسلام، ما معنى أسلموا؟ أي: شهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، أتوا بأمور الإسلام؛ لكن لما قالوا كلمة الكفر انتقض هذا الإسلام، فكيف يقول هؤلاء تجعلوننا مثل أولئك أي: مثل المشركين مع أننا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة، فهذه الآية فيها كشف لهذه الشبهة.

قال: (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قالَ اللهُ تعالى فِيهِم ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾) كفروا بعد إيمانهم بكلمة الكفر التي قالوها: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء!»[1]، ولما قال لهم في ذلك قالوا إنما كنا نخوض ونلعب، يعني ما قصدنا حقيقة الأمر وإنما كنا نُذهب عن أنفسنا عناء الطريق ومشقة السفر فمن

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٢٩).

باب المداعبة والمزاح قلنا هذه الكلمة، فنزل قول الله ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وكان بعضهم يمسك بخطام الناقة ويعتذر للنبي ﷺ ولا يلتفت عليه النبي ﷺ ولا يزيد على هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فكان هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله ويصومون ويصلون وجاهدوا مع النبي ﷺ ونزلت فيهم هذه الآية ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

قال: (فَهَؤلاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تبُوكٍ قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُم قَالُوهَا على وَجْهِ المَزْحِ) قالوا في حق فضلاء الصحابة: «ما رأينا أجبن من قرائنا هؤلاء ولا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء»، قالوا هذه الكلمة فنزلت هذه الآية ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ والشيخ يقول: (قَالُوا كلمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُم قَالُوهَا عَلى وَجْهِ المَزْحِ) فكفروا مع أنهم يصلون ويصومون ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويجاهدون مع النبي ﷺ وكفروا بذلك.

فمن كان يصلي ويصوم ويشهد أن لا إله إلا الله ويجعل مع الله شريكا ندا يصرف له من الحقوق ما ليس إلا لله ألا ينتقض إسلامه؟ قد قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، قال: (فَتَأَمَّلْ هذِهِ الشُّبْهَةَ وَهِيَ قَوْلُهُم: تُكَفِّرُونَ من المُسْلمينَ؛ أُناساً يَشْهَدُونَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَها فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ ما في هَذِهِ الأَوْراقِ) أي: أنّ هذه الأجوبة السبعة التي ذكرها -رَحِمَهُ اللهُ- عظيمة الشأن عليّة القدر كبيرة الفائدة وصفها -رَحِمَهُ اللهُ- أنها أنفع ما في هذا الكتاب.

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً: ما حَكى اللهُ تعالى عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلامِهِم وَعِلْمِهِم وَصَلاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَقَول أُنَاسٌ مِن الصَّحَابةِ: اجْعَلْ لَنَا يا رسول الله ذَاتَ أَنْواطٍ كما لهم ذات أنواط) فَحَلفَ رسول الله ﷺ أَنَّ هَذا مثل قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لموسى﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾».

[الشرح]

ثم ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- أيضا جوابين إتماما لما سبق وإضافة إلى سبق، مع أن ما سبق كل جواب من الأجوبة التي ذكرها كاف -رَحِمَهُ اللهُ- في كشف هذه الشبهة؛ لكن لما كانت تُذكر وتكرر وتعاد وتُبدى وأثرت في أناس كثيرين حرص -رَحِمَهُ اللهُ- على أن يجيب عليها بأجوبة عديدة، ولهذا نلاحظ أن هذه الشبهة هي الشبهة التي أجاب عنها بأجوبة كثيرة، وبقية الشبه إما يجيب عنها بجواب واحد أو جوابين أو ثلاثة، أما هذه الشبهة فأجاب عنها بقرابة التسعة أجوبة، هذه السبعة التي مضت وهذين الجوابين هنا، وهذه كلها أجوبة منه -رَحِمَهُ اللهُ- على تلك الشبهة.

قال: (وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضـاً: ما حَكى اللهُ ﷻ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلامِهِم وَعِلْمِهِم وَصَلاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾) هؤلاء أناس كانوا على علم وعلى شيء من الصلاح وإلى جنب النبي موسى عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل ثم طالبوه هذه المطالبة قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، (وَقَول أُنَاسٌ مِن الصَّحَابةِ: اجْعَلْ لَنَا يا

رسول الله ذَاتَ أَنْواطٍ كما لهم ذات أنواط) فَحَلفَ رسول الله ﷺ أَنَّ هَذا مثل قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾)(١).

* * * * *

(١) عن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَرَجَ إِلَى خَيْبَرَ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي (٢١٨٠)، وابن حبان (٦٧٠٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٩١)، وأحمد في «مسنده» (٢١٨٩٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٨٠).

[المتن]

قال المؤلف ﵀: «وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِها عِنْدَ هَذِهِ القِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قالوا للنَّبِيِّ ﷺ اجعل لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا، وَلاَ خِلافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لا خِلاَفَ أَنَّ الذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ واتَّخَذُوا ذاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لكَفَرُوا، وَهَذا هُوَ المَطْلُوبُ».

[الشرح]

قال ﵀: (وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِها عِنْدَ هَذِهِ القِصَّةِ) أي: عندما نحتج عليهم بهذه القصة يثيرون شبهة وهي أنهم يقولون: (إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قالوا للنَّبِيِّ ﷺ اجعل لنا ذَاتَ أنواط لَمْ يَكْفُرُوا بذلك) وحاصل هذه الشبهة: إذن لماذا تكفروننا وتستدلون على تكفيرنا بهذه الآية وبهذا الحديث مع أن هؤلاء لم يكفروا بذلك؟ أي: كيف تحتجون بهاتين القصتين على الحكم علينا بالكفر، قال: (فَالجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا) طلبوا، قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ هم طلبوا ولم يفعلوا، (وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ، لَمْ يَفْعَلُوا) قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، طلبوا من النبي ﵊ ذلك لما رأوا للمشركين سدرة يعكفون عندها ويعلقون عليها أسلحتهم تبركا قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط وكانوا

حدثاء عهد بإسلام، فقال ﷺ:«قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهـًا كما لهم آلهة» فيقول الشيخ -رحمه الله- أن الذين مع موسى عليه السلام لم يفعلوا والذين مع النبي -رحمه الله- لم يفعلوا (وَلاَ خِلافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَكَذَلِكَ لا خِلاَفَ أَنَّ الذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ واتَّخَذُوا ذاتَ أَنْواطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لكَفَرُوا، وَهَذا هُوَ المَطْلُوبُ)، والشيخ -رحمه الله- طالما نهاهم عن الشرك وحذرهم منه وذكر لهم الدلائل على بطلان ما هم عليهم وبين لهم حق الله وذكر لهم الآيات والحجج والبراهين من كتاب الله وسنة نبيه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعلى آله وسَلَّمَ- ومع ذلك يعاندون ويخاصمون.

❃ ❃ ❃ ❃ ❃

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «وَلَكِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ المُسْلمَ -بَلِ العَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجُهَّالِ: التَّوْحِيدُ فَهِمْنَاهُ؛ أَنَّ هذا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكَايِدِ الشَّيْطَانِ.

وَتُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ إذا تَكَلَّمَ بِكَلامٍ كُفْرٍ وَهُوَ لا يَدْرِي فَنُبِّهَ عَلى ذَلِكَ وَتَابَ مِن ساعَتِهِ أَنَّه لا يُكفَّرُ؛ كَما فَعَلَ بَنُو إِسْرائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وَتُفِيدُ أَيْضاً: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُكفَّرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلامُ تَغْلِيظاً شَدِيداً، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم».

[الشرح]

ثم ذكر رحمه الله فوائد تستفاد من هذه القصة يستفيدها المسلم وينتفع بها، قال (وَلَكِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ المُسْلمَ -بَلِ العَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْواعٍ مِنَ الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها) وهذا يدخل في باب الخوف من الشرك؛ بل عقد -رحمه الله- في كتابه التوحيد باب نافعـاً عنوانه «الخوف من الشرك» وبدأه بقول الله تعالى ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ ونقل عن إبراهيم التيميّ رحمه الله: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم ؟!»[1].

قال: (وَلَكِنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تُفِيدُ: أَنَّ المُسْلمَ -بَلِ العَالِمَ- قَدْ يَقَعُ فِي أَنْواعٍ مِنَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٧).

الشِّرْكِ لا يَدْرِي عَنْها) ولهذا أيضا جاء في الاستعاذة وثبتت عن النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ نَعْلَمُ**»[١]، فرق بين من يخاف من الشرك على نفسه وعلى ولده ويدعو الله ﷻ أن ينجيه منه وبين من هو متلبس بالشرك متلطخ به ويدعي أنه بريء منه، قال: (فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ) هذه القصة تفيد التعلم والتحرز من جهة ماذا؟ إذا كان هؤلاء أصحابا لموسى من أولي العزم من الرسل يمشون معه ويتعلمون ويرونه ويتفقهون على يديه ثم فجأة يقولون: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾، وأيضا من هم مع النبي ﷺ ومتجهين إلى القتال في سبيل الله ونصرة لدينه ومعهم السلاح ويمرون بسدرة ويقولون: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فيقول ﷺ (الله أكبر! إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ)، فإذن هذا يفيد التحرز، إذا كان هؤلاء قالوا هذه الكلمة وهم كانوا يمشون جنبا إلى جنب مع النبي ﷺ في قتال وفي جهاد في سبيل الله، فهذا يفيد التعلم والتحرز، التعلم أي: للتوحيد وأيضا معرفة ضده وهو الشرك، والتحرز من الوقوع في الشرك بالله أي: الاحتياط والبعد والمجانبة للشرك ووسائله وأسبابه.

(فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ والتَّحَرُّزَ وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجَاهِلِ: التَّوْحِيدُ فَهِمْنَاهُ؛ أَنَّ هذا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكَائِدِ الشَّيْطَانِ) هذا من أكبر الجهل ومكائد الشيطان، بعض الناس لا يفهم التوحيد وإذا أُريد تعليمه التوحيد قال التوحيد نعرفه، لا يخفى علينا التوحيد، من يجهل التوحيد؟ التوحيد فهمناه! ولا يقبل أن يسمع درسا أو كلمة في التوحيد،

(١) رواه أحمد (١٩٦٠٦)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦).



أو بعضهم يقول التوحيد لا يحتاج أن يُدرس مرات وكرات وأن تصرف في دراسته أوقات، ممكن في دقائق ننتهي منه، ما يحتاج الأمر إلى ذلك.

فهذه القصة تفيد التعلم للتوحيد ومدارسته والاحتراز منه، وتفيد أن كلمة «التوحيد فهمناه» التي قد يقولها البعض هذه كما قال الشيخ لا تصدر إلا من جهل وهي من مكائد الشيطان، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «هذه الكلمة قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنه أو كتب نحوه، سئموا وأرادوا القراءة في كتب أخرى». «سئموا» أي: ملّوا من القراءة، أصابهم السآمة والملل من القراءة في التوحيد وأرادوا ان يقرؤوا في كتب أخرى.

فقالوا هذه الكلمة: خلاص التوحيد فهمناه لا نحتاج إلى دراسة توحيد.

ثم قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «هذه الكلمة صدرت من بعض الطلبة وقيل إنها من المراسلين -أي الذين يراسلون الشيخ- فنقم عليه المصنف في هذا القول»[1]: يعني كان يراسلهم بالتوحيد ويذكر لهم شواهد وأدلة فكتب إليه بعضهم لا ترسل لنا التوحيد فهمناه التوحيد مفهوم عرفناه ما نحتاج أن تكتب لنا شيئا في التوحيد، فيقول أن هذه القصة تفيد أهمية التعلم للتوحيد ودراسته وأهمية التحرز من الشرك مهما كان الإنسان في المكانة وأن الاستهانة بدراسة التوحيد هذه من أسباب الجهل وهي مكائد الشيطان.

قال: (وَتُفِيدُ أَيْضـاً:أَنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ) المجتهد بإسلامه وعبادته (إذا تَكَلَّمَ بِكَلامٍ كُفْرٍ وَهُوَ لا يَدْرِي) خرجت منه كلام الكفر وهو لا يدري (فَنُبِّهَ عَلى ذَلِكَ

---

(١) «شرح كتاب كشف الشبهات» (ص١٣٧).

وَتَابَ مِن ساعَتِهِ أَنَّه لا يَكْفُرُ؛كَما فَعَلَ بَنُو إِسْرائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رسول الله ﷺ»

أي: أن موسى عليه السلام لم يكفرهم بذلك وأن النبي ﷺ لم يكفرهم بذلك لأنه قالها وهو لا يدري ثم نُبه من ساعته وانتبه وتاب إلى الله ورجع عن كلامه، هذا لا يكفر لكن شخص تنبهه وتأتي له بالآية والحديث والنصوص والأدلة والحجج والبراهين ويصر على أعمال الشرك والكفر بالله عز وجل.

هذه كلها فوائد مستنبطة من القصة، قال (وَتُفِيدُ أَيْضـاً:أَنَّهُ لَوْ لَـمْ يكفّر فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلامُ تَغْلِيظـاً شَدِيداً، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ) يعني لو لم يكفّر لقوله هذه الكلمة الكفرية كونها صدرت عنه وهو لا يدري لا يعني ذلك بأنه يترك؛ بل يغلظ عليه في الكلام ويشدد عليه في القول مثل ما غلّظ موسى عليه السلام وشدد القول على أولئك وكما غلّظ نبينا عليه الصلاة والسلام أيضا القول على الذين قالوا اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال (وَتُفِيدُ أَيْضـاً:أَنَّهُ لَوْ لَـمْ يكفّر فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلامُ تَغْلِيظـاً شَدِيداً، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ) أي: معهم، الذين قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

ويكون بهذا الشيخ -رحمه الله- أجاب عن الشبهة من وجوه كثيرة مسددة موفقة نافعة جدا لطالب العلم، وأيضا ذكر جواب هذا الاعتراض الذي قد يورده البعض على جواب الشيخ الأخير -رحمه الله- وغفر له وجزاه خير الجزاء.

❃ ❃ ❃ ❃ ❃

[المتن]

قال المؤلف ﷺ:«وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: «أقتلته بعد ما قالَ لا إله إلا الله؟»، وكذلك قولُه: «أمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله».

وأحاديثاً أُخَر، وأحاديثَ أخر في الْكفِّ عمن قالها.

ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالَها -أنَّ من قال لا إله إلا الله- لا يُكَفَّر، ولا يُقْتَلْ ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء المشركين الجُهال: معلومٌ أنَّ رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله. وأنَّ أصحاب رسولِ الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويصلون، ويدّعون الإسلام. وكذلك الذين حرقّهم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

وهؤلاء الجهلة، وهؤلاء الجهلة مُقِرّونَ أنَّ من أنكر البعث كَفَرْ وقُتل ولو قال لا إله إلا الله، وأنَّ من جحد شيئاً من أركان الإسلام كَفَرْ وقُتل ولو قالها، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئا من الفروعِ؟ وتنفعه إِذا جحد التوحيد الذي هو أصل دينِ الرسلِ ورأسُه؟.

ولكنَّ أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديثفأما حديث أسامة، فإنّه قَتَلَ رجلاً ادّعى الإسلام بسبب أنّه ظنَّ أنّه ما ادّعاه إلا خوفاً على دمه وماله.

والرجل إذا أظهر الإسلام، وَجَبَ الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف

ذلك. وأنزل الله في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] أي: فتثبوا.

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتَّثبُت، فإنْ تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل؛ لقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤] ولو كان لا يُقتل إذا قالها لم يكن للتَّثبُتِ معنًا. وكذلك الحديث الآخر وأمثاله، معناه ما ذكرناه: أنَّ من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكفُّ عنه إلى أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أنَّ رسول الله ﷺ الذي قال: «أقتلتَهُ بعدَ ما قال لا إله إلا الله ؟»، وقال: «أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله». هو الذي قال في الخوارجِ: «أينما لقيتُموهم فاقتُلوهُم، لئن أدركْتُهم لأقتُلنهم قتلَ عادٍ»، مع كونهم من أكثر الناس عبادةً، وتهليلاً، حتى إنَّ الصحابة أو يَحْقِرون صلاتهم عندهم، وهم تعلَّموا الْعِلْمَ من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة، ولا ادّعاء الإسلامِ لمّا ظَهر منهم مخالَفة الشريعة.

وكذلك ما ذكرنَاه من قتالِ اليهود، وقتالِ الصحابة بني حنيفة. وكذلك أراد ﷺ أنْ يغزو بني المصطلق لمّا أخبره رجل أنْهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وكان الرجل كاذباً عليهم. فكلُّ هذه يدل أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجّوا بها ما ذكرناه».

[الشرح]

ذكر المصنِّف -رحمه الله تعالى- هنا شبهةً أخرى لمن يتعلقون بغير الله -ﷻ- دعاءً، ورجاءً، وذلاً، ورغبًا، ورهبًا. وسبق أنْ ذكر لهم ﷫ شبهةً وجّه إلى الإصغاء إلى جوابها، وأجاب عنها من تسعة أوجه، وهي؛ أنَّ هؤلاء يقولون: إنَّ الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ويُنْكِرُون البعث، ويُكَذِّبونَ بالقرآن، أمّا نحن فنشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله إلى آخره. وأجاب ﷫ عن هذه الشبهة من وجوه تسعة، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في نقض هذه الشبهة، وهنا قال: ولهم شبهة أخرى، يقولون: إنَّ النبي ﷺ أنْكَرَ على أسامة ﭬ قتل من قال لا إله إلا الله، وقال: «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؟»(١).

فما الفرق بين هذه الشبهة والتي قبلها؟.

فالفرق بين هاتين الشبهتين من جهتين:

الجهة الأولى: هي استدلالهم على ما سبق بكلام النبي ﵊ تشبيهًا على الناس وتلبيسًا، استدلالهم على ذلك بأحاديث النبي ﷺ، وأنَّ ثمة أحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ فيها الأمر بالكف عمن قال لا إله إلا الله، أو شهد أنْ لا إله إلا الله، ووظفوا هذه الأحاديث على مذهبهم الفاسد واعتقادهم الباطل.

والجهة الثانية: أنَّهم قالوا إنَّ النصوص دلت على أنَّ مَنْ شهد أنْ لا إله إلا الله فهو حرام الدم والمال، فأشاروا إلى هذه الأحاديث تقريرًا لهذا المعنى، وأنَّ مَنْ

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

ينطق بالشهادتين حَرُمَ دمه وماله، فكيف يقال بأنَّه يَكفُر وأنَّه يُقاتل إذا تعلَّق بغير الله، ولجأ إلى غير الله، ودعا غير الله؟، فهذا محصل مراد هؤلاء بهذه الشبهة، وهذا هو الفرق بينها وبين الشبهة التي قبلها.

وجواب الشيخ رحمه الله عن هذه الشبهة أيضًا كان من جهتين؛ **الجهة الأولى**: ذِكره رحمه الله للنصوص الدالة على أنَّ مَنْ قال: لا إله إلا الله، وشهد بها وأتى بما يناقضها يَكْفُر.

وأعاد ذكر بعض الأدلة التي سبق أنْ ذكرها في الوجه، أو في الجواب على الشبهة السابقة أعادها ملخصة هنا.

والوجه الثاني: في نقضه رحمه الله لهذه الشبهة، بيانه لخطأ هؤلاء في فهمهم لهذا الحديث، ونظائره من أحاديث رسول الله ﷺ الواردة في هذا الباب.

قال رحمه الله: «**وللمشركين شبهة أخرى يقولون: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: (لا إله إلا الله). وكذلك قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها**».

يقولون إنَّ النبي ﷺ أنكر على أسامة، أي: ابن زيد قَتْلَ من قال لا إله إلا الله، أنكر عليه قَتْلَ مَنْ قال لا إله إلا الله، وقال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، وكذلك قوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله»[1].

«**وأحاديث أُخَر في الكفِّ عمَنْ قال لا إله إلا الله**»: ومراد هؤلاء بالشبهة واضح، وهو أنَّ هذه الأحاديث ونظائرها دلَّت على أنَّ مَنْ قال لا إله إلا الله عُصِمَ دمه

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

وماله، أو حَرُمَ دمه وماله، فكيف تستجيزون أن يُكفّر وأن يُقاتل مع أنه يقول هذه الكلمة وينطق بها؟.

قال رحمه الله: «**ومراد هؤلاء الجهلة أنَّ من قال لا إله إلا الله لا يُكفَّر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل**» أي: مِنْ استدلالهم بهذه الأحاديث أنَّ من قال لا إله إلا الله لا يُكفّر ولا يُقتل ولو فعل ما فعل: أي من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، ولو فعل ما فعل من الأمور الناقضة للا إله إلا الله، فاستدلالهم بهذا الحديث يفيد أنَّهم يرون أنَّ قائل لا إله إلا الله يَحْرُمُ دمه وماله ولا يُكفر وإنْ قال ما قال، أو إنْ فعل ما فعل، وإنْ قال ما قال مِنْ المكفرات الناقلة مِنَ الملة، أو فعل ما فعل مِنْ نواقض الإسلام فإنَّه لا يَكْفُر ولا يُقتل، هذا فهمهم لهذه الأحاديث، وحاشا أنْ يكون مراد النبي ﷺ بهذه الأحاديث هذا المعنى الذي فهمه هؤلاء، وسيأتي بيان الشيخ رحمه الله في ختام جوابه على هذه الشبهة ذِكْرُ معنى هذا الحديث ونظائره من أحاديث الرسول ﷺ الواردة في الباب.

قال رحمه الله في الجواب عن هذه الشبهة: «**فيقال لهؤلاء المشركين الجهال**»: المشركين؛ لكونهم صرفوا حق الله لغيره، وأخذوا يدافعون عن صرف هذا الحق الذي هو لله -تبارك وتعالى-، يدافعون عن صرفهم لغيره -سبحانه وتعالى- ممن لا يملك لهم نفعًا ولا دفعًا ولا يملك لهم موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وجهال؛ لأنَّ هذا هو أعظم الجهل، الجهل بالتوحيد، الذي هو أعظم المقاصد، وأجلُّ الغايات وأرفعها.

قال رحمه الله: «**فيقال لهؤلاء المشركين الجهال، معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم، وهم يقولون: لا إله إلا الله، قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون: لا إله إلا**

الله»، اليهود كانوا في المدينة مع النبي ﷺ، ويُسمع منهم الشهادتان، ويشهدون الصلاة في المساجد، ويعملون أعمال أهل الإسلام، ومن المعلوم أنَّ المنافق هو من يُظهر الإسلام ويبطن النفاق، ومعنى يُظهر الإسلام: يشهد أنَّ لا إله إلا الله، ويشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ويقيم الصلاة، ويؤدي العبادات الظاهرة، ومن المعلوم أنَّ النبي ﷺ قاتل اليهود وسباهم، ليس مرة واحدة، ولا في موطن واحد، بل؛ مراتٍ، وفي مواطن، ومتى قاتلهم؟ عندما ظهر منهم ما يكشف عن نفاقهم، ويدل على سوء طويّاتهم، وأنَّهم ليسوا مع أهل الإيمان قلبًا وقالبًا، فعندما يظهر منهم ما يدل على ذلك، ويُبَيّنُ حالهم قاتلهم ﷺ، وكان قِتالَهُ للمنافقين، وسبيُهُ لأموالهم ونسائهم، كان في عدة مواطن، كما دلَّ على ذلك القرآن، وكما دلَّ على ذلك السنة وسيرة النبي ﷺ، ومن ذلكم ما جاء في ﴿سورة الحشر﴾ في قتال النبي ﷺ لهؤلاء.

فالشاهد أنَّ النبي ﷺ صحَّ عنْه قتال المنافقين مع أنَّهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويشهدون الصلاة، ومع ذلكم قاتلهم، وهؤلاء يقولون نحن نشهد أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ونصلي، ونصوم، فلا يحل قتالنا، يعني: طالما أنَّ هذه الأمور نفعلها، أو تُفعل، فمَنْ يفعلُها لا يحلُّ قتاله، معنى كلامهم؛ بأي وجه من الوجوه، أليس كذلك؟

ومعنى كلامهم أنَّه لا يحلُّ تكفير، وقتال مَنْ جاء بهذه الأمور بأيّ وجه من الوجوه، هذا هو المراد باستدلالهم.

ولهذا قال الشيخ رحمه الله في تقريض مراد هؤلاء، قال: «**وإنْ فعل ما فعل**» أي: من أنواع النَّواقض للإسلام.

قال: «**وأنَّ أصحاب الرسول ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام**»، أي: ومعلوم أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وهم يشهدون أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويصلّون، ويدّعون الإسلام، قاتلهم رضي الله عنهم، وسبق أنْ ذكر رحمه الله هذا الدليل، وذكر أيضًا اعتراض هؤلاء على هذا الدليل.

قال: «**وكذلك الذين حرّقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع أنهم كانوا من أصحابه، وكانوا يصلون معه، ويشهدون أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله**»، لكن لما وُجد فيهم ما ينقض الشهادتين ويبطل الأعمال قتلهم علي رضي الله عنه شرَّ قِتله، وذلك عندما غلو في علي -رضي الله عنه- وعظموه تعظيما لا يليق بالمخلوق، ورفعوه بهذا التعظيم إلى رتبة الإلهية، رفعوه بهذا التعظيم إلى رتبة الإلهية، فأجج عليٌّ ناره وألقاهم في النار وقتلهم هذه القتلة، ولم ينكر عليه الصحابة قتلهم، وإنما أنكر عليه بعض الصحابة التحريق بالنار، أي؛ أنكروا عليه طريقة القتل، لكن لم ينكروا عليه قتله لهم، فهؤلاء كانوا يشهدون أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله، وهم كانوا مع عليّ -رضي الله عنه- ومن أصحابه، ويدعون أنهم من شيعته، ومن أعوانه، ولكن لما غلوا فيه هذا الغلو، ورفعوه إلى مقام الإلهية، قتلهم -رضي الله عنه- هذه القتلة، قال: «**وهؤلاء الجهال مُقِرُّونَ أنَّ من أنكر البعث كفر وقُتِل ولو قال لا إله إلا الله**»، وهذا وجه في نقض شبهة هؤلاء، يؤْتىَ لهم من النَّواقض ما يقِرُّون به ويسلّمون، ويُحْتَجُ

عليهم بذلك، فيقال لهم مثلا: ماذا تقولون فيمن ينكر البعث؟ يقول: ليس هناك بعث ولا جنة ولا حساب ولا نار ما رأيكم فيه؟ ما قولكم فيه؟ ما رأيكم بمن ينكر اليوم الآخر؟ ويقول ليس هناك يوم آخر، ينكر هذا الركن من أركان الإيمان، ما رأيكم فيمن ينكر النبوات؟ ويزعم أنه لا نبي وليس هناك نبوات يجحد ذلك، ما رأيكم فيمن ينكر وجود الملائكة؟ يقول ليس هناك ملائكة مع أنهم ذُكِروا في القرآن وذُكِروا في السنة، ما رأيكم فيمن ينكر ذلك؟ فسيقولون: يكفر، وإنْ شهد أنْ لا إله إلا الله؟ وإنْ شهد أنْ لا إله إلا الله يكفر، وهذه من أركان الإيمان: الملائكة، والكتب، والأنبياء والرسل، والبعث، لكنها ليست أعظم من الإيمان بالله، الذي هو أصل أصول الإيمان وإليه ترجع هذه الأصول، كما قال الله -ﷻ-: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]. فهذه الأصول ترجع إلى هذا الأصل الذي هو أصل أصول الإيمان، وفي باب الكفر قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] فهي ترجع إليها، فكيف يقال في حق مَنْ أنكر هذه الأصول أو شيءٍ منها أنه يكفر وإنْ قال لا إله إلا الله؟ ولا يكفر مَنْ جحد أصل الأصول وهو توحيد الله ﷻ وإخلاص الدين له؟!

قال: «**وهؤلاء الجهلة مقرون أن منكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأنَّ من جحد شيئا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها**» فهؤلاء يُقِرُّون أيضًا أنَّ من يجحد شيئا مِنْ أركان الإسلام ومبانيه، مثل: لا يقر بوجوب الصلاة، ولا يقر بوجوب الصيام؛ فيما لو قال قائل: الصيام ليس واجبا، أو الحج ليس واجبا، وجحد ذلك ماذا يقولون هؤلاء فيه؟ يقولون: هو كافر وإنْ قال لا إله إلا الله.

قال ﵀: «**فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعا من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟**» أي: كيف لا تنفعه لا إله إلا الله ونُطْقُهُ بها إذا جحد شيئا من الفروع، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟، كيف لا تنفعه عندما يجحد تلك الأصول البعث واليوم الآخر والأنبياء أو يجحد شيئًا من أركان الإسلام، وتكون نافعة له عندما يجحد أصل الدين وهو توحيد الله -ﷻ- وإخلاص الدين له، فهذا واضح تمام الوضوح في كشف هذه الشبهة وإظهار بطلانها.

قال ﵀: «**ولكنَّ أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث**»، هنا انتقل -رحمه الله تعالى- إلى الوجه الثاني في رد هذه الشبهة، وبيان المعاني الصحيحة لهذه الأحاديث التي استدلوا بها، وردّ المعنى الباطل الذي فهمه هؤلاء من هذه الأحاديث، وأنَّ استدلالهم بهذه الأحاديث استدلالاً بها فيما لا تدل عليه وفيما ليس مرادًا منها.

قال ﵀: «**فأما حديث أسامة، فإنه قتل رجلا ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفا على دمه وماله**» أي: إلا خوفًا على دمه وماله، الذي حصل مِنْ أسامة ﵁ أنَّه لما لقي هذا الرجل، وتمكن منه وأراد أنْ يجهز عليه بسيفه، قال الرجل: أشهد أنْ لا إله إلا الله، نطق بالشهادتين في هذه الحالة، فظنَّ أسامة -﵁- أنَّه إنما قالها تعوذًا، ظنَّ أنَّه إنما قالها أيْ في هذه اللحظات تعوذا أي ليحمي نفسه من القتل وليقي نفسه من القتل، لا عن اعتقاد ولا عن رغبه فظنَّ ذلك فقتله، قتله لأنه -﵁- وأرضاه ظنَّ وحسب أنَّ هذا الرجل إنما قالها تعوذا من القتل وليقي نفسه بذلك مِنْ القتل، قتل رجلا ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه

إلا خوفًا على دمه وماله، ما ادعاه إلا خوفًا على دمه وماله، أي: لا عن رغبة، ولا عن صدق، في هذه الشهادة مع الله -ﷻ-، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» يعني هذا المراد لا يظهر لأحد إلا إذا اطَّلع على ما في قلب الإنسان، الإرادة مكانها القلب والنية مكانها القلب، ونحن لنا الظاهر والله -ﷻ- يتولى السرائر، فالرجل أعلن الإسلام، ادعى الإسلام، نطق بالشهادتين أصبحت عاصمة له، فيبقى على أصل العصمة بنطقه بالشهادتين إلا إذا ظهر لنا منه ماذا؟ ما ينقضها، أمَّا إذا قالها عصمته حتى يقول لا إله إلا الله، إذا قالها عصمته، عصمته وحرم دمه وماله، إذا شَهِدْ وادّعى الإسلام أصبح بذلك معصومًا، معصوم الدم والمال، إلا إذا ظهر بعدُ ما ينقض ذلك، لكن بمجرد إعلان الإسلام والنطق بالشهادتين ليس لنا إلا الظاهر والله -ﷻ- يتولى السرائر.

وأسامة -رضي الله عنه- قتله لما ادعى الإسلام بناء على ظن منه رضي الله عنه وأرضاه أنه إنما قالها تعوذًا، فبناءً على هذا الظن قتله، فقال له النبي ﷺ: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟».

قال رحمه الله: «**والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكفُّ عنه ومِنْ إظهار الإسلام النطق بالشهادتين، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكفُّ عنه، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، حتى يتبين منه ما يخالف ذلك**»، معنى قوله: «**ما يخالف ذلك**» أي: أنْ يأتي بناقض، بجحد شيء مِنْ أركان الإيمان، أو جحد شيء من مباني الإسلام، أو الوقوع في أعظم المكفرات، وهو جحد ما يتعلق بحق الله -ﷻ- على عباده الذي هو أصل الدين ورأسه وأساسه، قال: «**وأنزل**

الله تعالى في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، أي: فتثبتوا» أيْ: أنزل الله ﷻ في ذلك أيْ: في هذه الواقعة وفي هذا الأمر أنزل هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء:٩٤] ومعنى تبينوا أي: تثبتوا، والمراد تثبتوا فيمن أردتم قتله وقتاله، حتى لا يكون قتل ولا قتال لمن هو من أهل الإسلام، ومن هو مظهر للإسلام ولم يتبين منه خلاف ذلك، «**فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإنْ تبين منه بعدُ أو بعدَ ذلك ما يخالف الإسلام قُتِلْ**»، ما الدليل؟ قال: «**لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]**»، هذا هو الدليل، أنه إن تبين منه ما يخالف الإسلام وينقض الإسلام قُتِل، والدليل على ذلك قوله ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]، وجه الاستدلال؛ قال: «**ولو كان لا يُقْتَلْ إذا قالها لم يكن للتثبت معنى**» لم يكن للتثبت والتبين معنى، ما معنى فتثبتوا؟ إنْ كان لا يُقتل مَنْ قال لا إله إلا الله، لا يُقتل أو لا يُقاتل مَنْ قال لا إله إلا الله.

قال ؒ: «**وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه أنَّ مَنْ أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلى أنْ يتبين منه ما يناقض ذلك**» أي: فإنْ تبين منه ما يناقض ذلك كإنكار البعث، وإنكار الملائكة، وإنكار النُّبُوات، وجحد أصل الأصول وأعظمها على الإطلاق وهو توحيد الله، وإنكار شيء من مباني الإسلام أو نحو ذلك من المكفرات فهذا لا يَكَفُّ عنه ولا يكون داخلاً في هذه الأحاديث.

ولهذا جاء في بعض ألفاظ هذا الحديث قال: «أُمِرْتُ أن أقاتل النَّاس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

قال: «**والدليل على هذا**»، أي: الدليل على أنَّ هذا الذي قرره -رحمه الله تعالى- هو مراد النبي -ﷺ- خلافًا للمعنى الخاطئ، والاستدلال الباطل الذي قرره هؤلاء الجهال، قال: «**والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، وقال: «أُمِرْتُ أَنْ أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» هو الذي قال في الخوارج: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[١].

والخوارج أليسوا يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله؟ أليسوا يصلون؟ أليسوا يصومون؟ أليسوا يقرؤون القرآن ويجتهدون في العبادة؟، بل؛ قال النبي ﷺ للصحابة: «يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ»[٢]، فهم يشهدون أنَّ لا إله إلا الله وأنَّ محمدا رسول الله، ويصلون، ويجتهدون في العبادة، ومع ذلك قال ﷺ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»، وقال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[٣]، لأقتلنَّهم شرَّ قِتْلَه، مع أنَّهم يأتون بهذه الأشياء، يأتون بالشهادتين، ويصلون، إلخ..

فماذا يقول هؤلاء في مثل هذه الأحاديث؟ وسبق أن قالوا: أنَّ الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويصلي ويصوم لا يُقْتَلْ؟

قال رحمه الله: «**مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً**»، تهليلاً: أي تكرارًا لكلمة

---

(١) رواه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

التوحيد -لا إله إلا الله-، «**حتى إنَّ الصحابة يَحْقِرونَ صلاتهم صلاتهم عندهم**»، يَحْقِرون صلاتهم عندهم، أي: عند الخوارج؛ لأنَّ عندهم اجتهاد في الصلاة، واجتهاد في العبادة، «**وهم تعلموا العلم من الصحابة**»، أي: الخوارج من أين حفظوا القرآن؟ ومن أين عرفوا الصلاة؟ ومن أين عرفوا الصيام؟ بل الدِّين من أين عرفوه؟ ما عرفوه إلا من طريق الصحابة، أخذوا الدِّين وتلقوه عن الصحابة، ولازموا أصحاب النبي ﷺ وجالسوهم، وتلقوا عنهم العلم والدِّين، ثم انحرفوا والعياذ بالله هذا الانحراف الشنيع، «**فلم تنفعهم لا إله إلا الله**»، يعني: انظر إلى حال هؤلاء، وأعدادهم ليست بالقليلة، يسر الله لهم لُقيا الصحابة، وشاهدوا ذلك الجيل العظيم المبارك -خير القرون-، ورأوا ما هم عليه من الحال العظيمة من العبادة، والجد، والاجتهاد، والنصح لدين الله، والعبادة، وأخذوا عنهم الدين، حفظوا القرآن من طريقهم، وحفظوا السنن من طريقهم، وتعلموا العبادة من طريقهم، ثمَّ انحرفوا بعد ذلك هذا الانحراف، حتى قال النبي ﷺ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»، وقال: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»، وهم يحفظون القرآن، ويقرؤونه، ويصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال: «**وهم تعلموا العلم من الصحابة، فلم تنفعهم لا إله إلا الله، ولا كثرت العبادة، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، لما ظهر منهم مخالفة الشريعة**»، أي: لما ظهر منهم ذلك، أَمَرَ النبي ﷺ، أو عندما يَظْهَرُ منهم ذلك أمر النبي ﷺ أنْ يُقتلوا قتل عاد، أي: أنْ يُقتلوا أينما وجدوا شرَّ قِتْلَة، فماذا يقول هؤلاء

في مثل هذا الحديث؟، وشبهتهم نذكرها وهي قولهم: الذي يشهد أن لا إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، ويصلي، ويصوم، لا يَحِلُّ أنْ يُقْتَلْ!

قال: «**وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة**»، فماذا يقول أيضًا هؤلاء في هذه النصوص؟ والذين قُتلوا هنا وقوتلوا يشهدون أنَّ لا إله إلا الله، ويُصلّون، ويَدَّعون الإسلام.

قال: «**وكذلك أراد ﷺ أن يغزو بني المصطلق، وأمر بالغزو لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة**»، فإذا كان ﷺ أراد أن يغزو هؤلاء لكونهم منعوا الزكاة، فكيف بمن جحد التوحيد؟ وامتنع من قبول التوحيد، وأتى بما يَنْقُضُ التوحيد، الذي لا تنفع الزكاة ولا الصلاة ولا أي طاعة إلا مع وجوده، فإذا انتفى التوحيد لم يُنتَفع بمثل هذه الأعمال؛ لأنَّه لها كالأساس للبنيان، وكالأصول للأشجار، «**حتى أنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. وكان الرجل كاذبًا عليهم**»، كاذبًا عليهم، أي: في زعمه أنَّهم منعوا الزكاة، فهَمَّ النبي ﷺ أن يغزوهم، لكن أنزل الله عليه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦] أي: تثبتوا.

قال: «**فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه**».

* * * * *

[المتن]

قال المؤلف ﵀: «ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي ﷺ؛ أنَّ النَّاس يوم القيامة يستغيثون بآدمٍ، ثُمَّ بنوحٍ، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلُّهم يعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، قالوا: هذا يدل على أن الاستغاثة بغيرِ الله ليست شركاً.

فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإنَّ الاستغاثة بالمخلوقِ على ما يقدر عليه لا ننكرها؛ كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥]، وكما يستغيث الإنسان بأصحابِه في الحرب، وغيرِها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق.

ونحن أنْكَرْنا استغاثَة العبادة التي يفعلونها عند قُبورِ الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله.

إذا ثبَتَ ذلك: فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أنْ يدعوَ الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف.

وهذا جائزٌ في الدنيا والآخرة؛ أنْ تأتي عند رجل صالح، حيّ يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: ادعُ الله لي، كما كان أصحاب رسولِ الله ﷺ يسألونَه في حياته، وأمّا بعد مماته، فحاشا وكلاَّ أنهّم سألوه ذلك عند قبرِه، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبرِه، فكيف بدعائه نفسِه؟».

[الشرح]

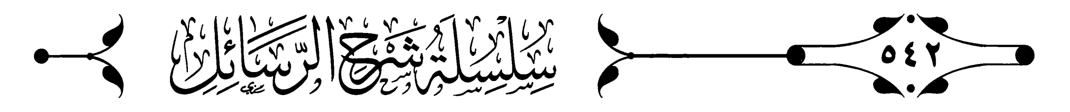
ثم ذكر ﷺ هذه الشبهة لهؤلاء، قال: «**ولهم شبهة أخرى، وهي ما ذكر النبي ﷺ أنَّ الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون حتى ينتهوا إلى رسول الله -ﷺ**».

قالوا: فهذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شركًا، هذا يدل أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا.

وحديث الشفاعة المشار إليه هنا، هذا ثابتٌ في «الصحيحين» وغيرهما عن غير واحد من أصحاب النبي ﷺ، والشفاعة حقٌّ، ومضى قول الشيخ ﷺ: عن الشفاعة «**لا أُنْكِرُها**»، وهو هنا ﷺ يَذْكُرُ استدلالهم على هذا الأمر بحديث النبي ﷺ، وحملهم له على الباطل، ونقول: حاشا أنْ يكون في حديث رسول الله ﷺ، أو في شيء من كلامه -صلوات الله وسلامه عليه- ما يدل على جواز الشرك، والاستغاثةِ بغير الله، والتعلق بالمخلوقين رجاءً، ورغبًا، وطمعًا، حاشا أن يكون في كلامه شيء من ذلك، بل؛ حياته كلها ﷺ أمضاها في نقض ذلك، وإبطاله، فحاشا أن يكون في شيء من كلامه ﷺ شيء من ذلك، ومن استدلَّ بشيء من حديثه -صلوات الله وسلامه عليه- على تقرير مثل هذا الأمر، وكما قيل في المثل: «**أَحَشَفًا وَسُوءَ كِيلَةٍ؟!**»[1]، فجمع بين تقرير باطل، واستدلالٍ على هذا الباطل بكلام الرسول ﷺ وحاشاة.

---

(١) «الكِيلَة: فِعْلَة من الكَيْل وهي تدلّ على الهيئة والحالة نحو الرِّكْبة والْجِلْسَة ؟ والحَشَفُ: أَرْدَأ التمر أي أتجمَعُ حشَفًا وسوء كيل يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين» «مجمع =



قال: «**فقالوا: هذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شركًا**»، ونقول: بل هي عين الشرك، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] أي: أي أحد كائنًا من كان، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩] فالاستغاثة عبادة، وصرْف هذه العبادة لغير الله -تبارك وتعالى- شِرْكٌ بالله، وهذا المعنى الذي ذكروه؛ وهو طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أنْ يشفعوا لهم عند الله هذا ليس عباده، كما أنَّ طلب الناس في حياتهم من الأنبياء ومن الصالحين الأحياء أنْ يدعو لهم الله -جل وعلا- في حاجاتهم الدينية والدنيوية ليس عبادة، لكن؛ القوم أرادوا أن يُسَووا بين مفترقين.

«**فهذا يدل على أنَّ الاستغاثة بغير الله ليست شركًا**»: ولاحِظْ الخلْط الواضح عند هؤلاء في تقريرهم للباطل من جهة، واستشهادهم عليه واستدلالهم عليه بحديث رسول الله ﷺ من جهة أخرى.

وهنا؛ يُتَنَبّه للفرق بين أمرين؛ بين الاستغاثة الشركية وهي: الاستغاثة بالغائب، أو الميت، أو الحي الحاضر الذي لا يقدر.

استغاثة بالغائب، مثل: أنْ يكون رجل في سفينة، ويعاين الموت، ويعاين الْغَرَقْ، ثم يهتف بشيخ أو نحوه، يهتف باسمه: «أنقذني يا فلان!»، «ألحقني يا فلان!»، وهو

الأمثال» (١/ ٢٠٧).

حي حاضر، وهذا في البحر، وهذا بعيد عنه في البر، «أنقذني» أو «أغثني»، فهذا شرْك لأنها استغاثة شركِيّة؛ لأنه التجاءٌ، واعتصامٌ، وعوذٌ بغير الله.

ومثله كذلك الاستغاثة بالميت، مثل: أنْ يكون الإنسان أصابه ضُرّ، أو نزلت به نازلة، فيهتف بأحد الأموات، «أدركني يا فلان!»، «إلحقني يا فلان!»، «أنا عائذ بك يا فلان!»، أو «ملتجئ إليك يا فلان!»، فهذه أيضا استغاثة شركِيّة.

أو كذلك أنْ يستغيث بحيٍّ حاضرٍ أمامه في أمر لا يقدر عليه إلا الله -ﷻ-، مثل: أنْ يطلب منه شفاءَ مرضٍ نزَلَ به، لا من طريق الأسباب المعروفة (كأن يَذْكُرَ له دواء معينا)، وإنما يطلب منه أن يشفي مرضه، فيقول: «أنا مريض فاشفني! «، فيطلب منه أن يشفي مرضه، لا أن يطلب منه دواء لذلك المرض وأسباب وعلاجات، وإنما يقول: «أرجوك أن تشفيني» أو «أنا لائذ بك أن تشفيني»، وهو أمامه حي، فهذا شرْك، أو كذلك أن يطلب منه أن يُدْخِلَهُ الجنة، أو يُنَجِيَه من النار، أو أن يهدي قلبه، أو أن يُثَبِّتهُ على الدين، يقول: «أرجوك أن تثبتني على الدين»، وهو أمامه حي حاضر، فهذا شرك بالله ﷻ، ناقل عن الملة.

فإذًا الاستغاثة الشركية هي: الاستغاثة بالغائب، وبالميت، وبالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه، وبالحي الحاضر فيما لا يقدر عليه، هذه استغاثة شركية.

أمّا طلب المخلوق من المخلوق في شيء يقدر عليه، مثل: أن يعاونه على عدوٍّ هاجمه أو أراد إيذاءه ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ١٥]، هنا؛ هذا الصنيع ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص: ١٥]،لم يفعل شركًا لأن الاستغاثة هنا ليست استغاثةً بغائب، ولا بميت، ولا أيضا بحي فيما

لا يقدر عليه، بل؛ هي استغاثة وطلب من حي حاضر، يسمع كلامه، ويرى حاله في أمر يقدر عليه المخلوق.

قال ﵀: «**فالجواب أن نقول: سبحان مَنْ طبع على قلوب أعدائه**»، كلمة «**سبحان**» تأتي للتنزيه، تنزيه الله -ﷻ-، والمقام هنا مقام تنزيه، يُنَزَّه الله -ﷻ- عما يشركون، ويُنَزَّه عن تسويتهم للمخلوقين به سبحانه في حقوقه من الدعاء، والرجاء، والذل، والطمع، والرَّغَب، والرَّهَب.

قال: «**فإنَّ الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]**»، فيقول الشيخ ﵀: «**لا ننكرها**»، وهذا الذي لا يُنْكَرْ، ما ضابطه؟ استغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه. ثلاثة أمور: استغاثة بالحي، الحاضر، فيما يقدر عليه. إن كان ميتًا، أو كان غائبًا، أو كان حاضرًا لا يقدر، هذا كلُّه باب آخر غير هذا الباب، وهنا: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، كان موسى ﵇ أمامه واقفًا، والله -ﷻ- أيضًا أعطى موسى ﵇ قوةً في بدنه،، فهو حي وحاضر وفي أمر يقدر عليه، واستغاثه، قال: «ساعدني»، «أغثني»، «أعني»، هذا جائز، وليس من الشرك، وليس بابًا من أبواب الشرك.

قال: «**وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب**»، هذا لا بأس به عند ملاقاة الأعداء. فيقول القائل لأخيه أو صاحبه: «إلحقني»، «أعني»، «ساعدني»، كل هذا لا بأس به، كما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء التي يقدر عليها المخلوق، مثل: شخص جاء للبحر، أو في مكان يسبح، وبدأ يغرق، وحوله

ناس، وقال: «إلحقوني»، «أغيثوني»، «أدركوني».. هل هذا نوع من الشرك؟ الجواب: لا؛ هذا ليس شركا؛ لأنه ينادي حاضرين أحياء في أمر يقدر عليه المخلوق، فهذا من الأمور المباحة الجائزة.

قال: «**ونحن أنكرنا استغاثة العبادة**»، ضع خطًا عند هذه الكلمة قال: «ونحن أنكرنا استغاثة العبادة»، أي: هذا الذي أنكرناه، -وانتبه لهذه الكلمة فإنها عظيمة جدا- استغاثة العبادة: أنْ يقف المخلوق أمام قبر مخلوقٍ منكسرًا متذللاً خاضعًا راجيًا طامعًا راغبًا خاشعًا داعيًا طالبًا، هذه عبادةٌ وذلٌّ لغير الله، وتعلُّقٌ بغير الله.

قال: «**ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله**»، فهذا الذي نُنْكِرْ: يذهبون إلى القبر، ويستنجدون به، ومنهم من يطلب ولدًا، ومنهم من يطلب عافيةً، ومنهم من يطلب شفاءً من مرض، ومنهم من يطلب هدايةً، إلى غير ذلك من الطلبات والرغبات التي ينزلونها بمخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلاً عن أنْ يملكوا شيئًا مِنْ ذلك. فسبحان من طبع الله على قلبه، وقال: إنَّ هذه الأعمال نظير ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، هذا لا يقوله إلا من طبع على قلبه، ويسوُّي بين مباح وبين شرك صراح.

قال رحمه الله: «**ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء، أو في غيبتهم**»، في غيبهم يعني: أن يكون الولي حي غائب، فيهتف به في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله -سبحانه وتعالى- من هدايةٍ، ومن إنجابٍ للولد، ومن عافيةٍ، وصحةٍ، ورزقٍ، وثباتٍ، وغير ذلك. هذا كله طلبه من غير الله -تبارك وتعالى- شرك بالله.

قال: «**إذا ثبت ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائز في الدنيا والآخرة**»، جائز في الدنيا؛ الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يأتون النبي عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الدعاء، الدعاء بالغيث، «فَادْعُ اللهَ أَنْ يَسْقِيَنَا»(١)، الدعاء بالهداية «فَادْعُ اللهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ»(٢)، الدعاء بالمغفرة والرحمة، وغير ذلك مما ثبت مما كان الصحابة يطلبون من النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يفعله، أن يدعو الله لهم، وكان يدعو عليه الصلاة والسلام. وهو عليه الصلاة والسلام أعظم الناس جاها عند الله، وأعلاهم مكانة عنده، فهذا جائز، جائز في الدنيا، وجائز في الآخرة، ولهذا عليه الصلاة والسلام لما جاءوه بعد أن اعتذر الأنبياء، قال: «أنا لها»، قال: «أنا لها»، فهذا جائز وهو عليه الصلاة والسلام الشَّافع المُشَفَّع يشفع للناس يوم القيامة، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند الله، وهذا صحت به الأحاديث، ودلت عليه الدلائل، وهو أمر جائز.

قال: «**وهذا جائز في الدنيا والآخرة، أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك، ويسمع كلامك، وتقول له: «ادع الله لي»، هذا جائز باتفاق أهل العلم، ولا خلاف فيه كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه في حياته**» أي: يسألونه أن يدعو الله لهم بالغيث، بالهداية، بالمغفرة، بالرحمة.

«**وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره**» ولا يُعْرَفُ عن أحد من الصحابة أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا من ذلك مما كانوا يسألونه إياه في حياتهم عند قبره، مثلاً: أن يأتي أحد ويقول: «ادع الله أن يغفر لي»، «ادع الله أن يهديني»، «ادع الله أن

---

(١) رواه البخاري (٩٣٢)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩١).

يغيثنا»، ولما قحط الناس في زمن عمر ﷺ، قال كلمته المشهورة: دعا العباس عم النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا»[(١)]، فلماذا عدل -ﷺ- عن التوسل بدعاء النبي ﷺ إلى التوسل بدعاء عم النبي العباس -ﷺ-، لم يعدل إلا لكون الأمر غير جائز، وهم الحريصون على كل فضيلة، والسبّاقون إلى كل خير، وهكذا مضى صنيع السلف الصالح -رحمهم الله ورضي عنهم-.

قال: «**بل؛ أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره، فكيف دعاءه بنفسه؟ دعاءه نفسه ﷺ**». أنكر السلف من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان على من قصد دعاء الله عند قبره، يعني؛ من تحرى الدعاء عند القبر، وقال: إن الدعاء عند القبر مستجاب، وأنه أفضل، أو نحو ذلك، بل أنكروا مثل ذلك، فكيف بمن دعاه نفسه ﷺ؟. ومن ذلكم إنكار علي بن الحسين -وهو أعلم أهل البيت في زمانه- على من أتى قبر النبي ﷺ يدعو الله، فنهاه وقال: «أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلاَ بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ وَتَسْلِيمَكُم يَبْلُغُنِي حَيْثُ مَّا كُنْتُمْ»[(٢)] فأنكر عليه هذا، فكيف بمن يأتي إلى قبره ﷺ؟ أو لقبر غيره عائذًا ولائذًا ومستجيرًا ومستغيثًا، قائلاً: «مالي من ألوذ به سواك، وليس لي إلا الالتجاء بحماك، وأنا عائذ ببابك، ولائذ بجنابك، أنا

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٢٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٢٦)، وانظر «تحذير الساجد» (ص٨٥) للألباني.

عبدك الفقير الكسير بين يديك، الذليل عندك»، أو نحو ذلك من العبارات التي يقولها المشركون المستغيثون بغير الله -ﷻ-. فهل يقال إنَّ صنيع هؤلاء وعملهم هو من جنس دعاء الصحابة، أو طلب الصحابة من النبي ﷺ أنْ يدعو لهم، أو يقال إنَّه من جنس طلب الناس من الأنبياء يوم القيامة أنْ يدعو الله لهم، حاشا وكلا، فرْق بين الهدى والباطل، والحق والضلال.



[المتن]

قال المؤلف ﷺ: «ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا؛ قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم.

فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنَه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولَها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرقِ أو المغرب لفعل، ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكانٍ بعيدٍ عنهم لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعلوهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجًا فيعرض عليه أن يقرضه، أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته؛ فيأبى ذلك الرجل المحتاجَ أن يأخذ، ويصبر حتى أن يأتيه الله برزق لا منَّة فيه لأحدٍ؛ فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون».

[الشرح]

ثم ذكر الشيخ ﷺ هذه الشبهة وبها ختم ما أورده من شبهات يثيرها من يتعلق بغير الله -تبارك وتعالى- ويصرف العبادة لغيره -جلَّ وعز-.

قال -رحمه الله تعالى-: «**ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي**

في النارِ، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال إبراهيم ﷺ: أما إليك فلاقالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم».

هذا استدلالٌ من هؤلاء أو تشبيه من هؤلاء بتقرير الشرك ودعاء غير الله والالتجاء بغيره -تبارك وتعالى- بقصةٍ تتعلق بإمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي جعله الله -تبارك وتعالى- للناس إمامًا، وذكر الله -جلَّ وعز- في القرآن من قصصه في نصرة التوحيد وإبطال الشرك شيئًا كثيرًا، وكل ذلكم لم يُقْبِلْ عليه القوم ولم يلتفتوا إليه ولم يحفلوا به، وأخذوا يتبعون المتشابه، وهذه طريقة أهل الزيغ والضلال يتبعون المتشابه ويتركون المحكم البيِّن، وإلا ففي قصص إبراهيم عليه السلام مما ذكره الله -عز وجل- في القرآن، وجاء في سنة النبي ﷺ من النصرة للتوحيد وإبطال الشرك والرد على من يتعلق بغير الله -تبارك وتعالى- ما فيه كفاية وغُنيَة، وما فيه أيضًا الوضوح والشفاء في هذا الباب العظيم، وكل ذلكم عند القوم يُترك ولا يُلتفت إليه ثم يتبعون مثل هذه الأمور التي يلبسون من خلالها على الناس!

قال: «**ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النارِ**[1]**، اعترض له جبريل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟**»

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٦٧)، وقال العلامة الألباني رحمه الله: «لا أصل له؛ أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه السلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع، وقد ذكره البغوي في تفسير سورة الأنبياء مشيرا لضعفه فقال: روي عن كعب الأحبار: «أن إبراهيم عليه السلام.. لما رموا به في المنجنيق إلى النار استقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟

قال: أما إليك فلا، قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي» «السلسلة الضعيفة» (١/ ٧٤).

استدلالٌ بهذه القصة من هذا الموضع اعتراض جبريل لإبراهيم الخليل في الهواء، وقوله له: «ألك حاجة؟» قالوا -مستدلين على ذلك بجواز الاستغاثة بغير الله- قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل عليه السلام شركًا لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام، فرجعوا هنا بهذا التقرير الباطل إلي عبادة الملائكة، واللجوء إليهم واتخاذهم ألهة مع الله، هذا مُفاد هذا التقرير أنَّ الملائكة يجوز الالتجاء إليهم والاستغاثة بهم والاستنجاد بهم وهذا اتخاذٌ لهم آلهة مع الله -تبارك وتعالى-، قالوا: لو كانت الاستغاثة بجبريل شركًا لم يعرضها على إبراهيم عليه السلام؛ ثم شرع رحمه الله في الجواب على هذه الشبهة؛ قال: «**فالجواب: أن هذا من جنس الشبهة الأولى**»، ونحن عرفنا في الجواب على الشبهة الأولى أنَّ الاستغاثة أو الطلب هناك طلبٌ من حيٍّ حاضر قادر، حي أمامهم يخاطبونه، وحاضر عندهم، وأيضًا قادرٌ على هذا الأمر الذي طلبوه منه.

قال: «**فهي من جنس الشبهة الأولى، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه**».

فاجتمعت الأمور الثلاثة كونه حيًّا وحاضرًا وأيضًا قادرًا بما أعطاه الله -تبارك وتعالى- من القوة والشدة، ولهذا قال المصنف رحمه الله: «**فإنَّه كما قال الله فيه: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]**».

جبريل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه؛ فإنه كما قال الله -عز وجل-: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، أعطاه الله -تبارك وتعالى- قوةً وشدةً؛ ولهذا يقول الشيخ مستدلاً بالآية: «**فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولَها من الأرض والجبال، ويلقيها في المشرقِ أو المغرب لفعل**»؛ لأنَّ الله -تبارك وتعالى- أعطاه القدرة على فعل مثل هذا الأمر،

ولو أمره أن يضع إبراهيم عليه السلام في مكان بعيد، وهو أيسر من الأول بعيدًا عنهم؛ لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلي السماء؛ لفعل، فجبريل عليه السلام شديد القوى، وعرض على إبراهيم الخليل أشياء هي في مقدوره؛ ولهذا نَظَّر المصنف -رحمه الله تعالى- هذا بمثال قال: «**وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجًا**» -يعني: يرى رجلاً فقيرًا محتاجًا إلي المال- «**فيعرض عليه أن يقرضه**»؛ فيقول له: تريد مالاً، تريد أن أعطيك مالاً، تريد أن أساعدك بالمال، «**يعرض عليه أن يقرضه أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته؛ فيأبي ذلك الرجل أن يأخذ ويصبر حتى يأتيه الله بالرزق، برزق لا منَّةً فيه لأحد**»؛ فهل مثل هذا يُقال أنه فيه دليل على الاستغاثة؟! رجل غني يعرض على رجل فقير مالاً؛ فيعتذر عن قبوله، يريد أن يأتيه رزقٌ من الله -تبارك وتعالى- لا منَّةَ لأحدٍ فيه.

يقول الشيخ رحمه الله: «**فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون؟!**».

فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك التي يفعلها أهل الشرك عندما يستنجدون بغير الله من المقبورين وغيرهم، يسألونهم كشف الكربات وإزالة الهموم وتيسير الأمور، ويسألونهم الولد والرزق وغير ذلك مما لا يُسأل إلا من الله -تبارك وتعالى-؟!

هذا جواب الشيخ رحمه الله على فرض ثبوت هذه القصة؛ وإلا فهي غير ثابتة[1]، وأُعيد ما بدأت به أنَّ القوم تركوا من قصة إبراهيم أو قصص إبراهيم عليه السلام في الكتاب

---

(١) **سئل العلامة عبد العزيز بن باز** رحمه الله: «قصة جبريل مع إبراهيم ثابتة؟

الجواب: ما أعرف فيها أحاديث، إنما ذكرها المؤرخون أنه قابله في الهواء، وقال: أما إليك فلا، ثم قال: حسبنا اله ونعم الوكيل» «شرح كشف الشبهات» (ص١٣٤).

والسنة ما فيه تقرير التوحيد وتثبيته وتدعيمه ونصرته، كل ذلكم تركوه ولم يحفلوا به وأخذوا يتتبعون الأخبار الواهيات وما لا يثبت ويتعلقون به؛ لنصرة ما هم عليه من ضلال وباطل.



[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولنختم الكلام -إن شاء الله تعالى- بمسألة عظيمة مهمة جدًا تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها؛ فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل، فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

فإن عَرَف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما.

وهذا يغلط فيه كثير من الناسِ يقولون: هذا حقٌ ونحن نفهم هذا، ونشهدُ أنه الحق ولكن لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهلِ بلدنا إلا من وافَقَهم، وغير ذلك من الأعذارِ، ولم يدرِ المسكين أن غالب أئمة الكفرِ يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]، **وغيرِ ذلك من الآيات؛ كقوله:** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه، ولا يعتقده بقلبه فهو منافق، وهو شر من الكافرِ الخالصِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة تُبيِّنُ لك إذا تأملتها في ألسنة الناسِ؛ ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقصِ دنيا أو جاهٍ، أو مدارةٍ،

وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه».

[الشرح]

ثم ختم -رحمه الله تعالى- بهذه الخاتمة الجامعة لتثبيت ما مضى وتقريره؛ قال: «ولنختم الكلام -إن شاء الله- بمسألة عظيمة مهمة جدًا تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها»

سيتحدث الشيخ ﵀ عن أصلٍ مفيدٍ وأساس نافع يتعلق بالتوحيد الذي هو أساس السعادة وسبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، فسيتحدث عن أصلٍ نافعٍ في التوحيد عظيم الشأن، وفي الوقت نفسه يكثر فيه الغلط عند الناس؛ قال: «سنقول لا خلاف أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل» فالتوحيد أصلٌ يدل على الإفراد، توحيد الله -ﷻ- هو إفراده بحقوقه سبحانه على عباده وخصائصه -ﷻ- التي لا تليق إلا به، ولا تكون إلا له -ﷻ- لا شريك له في شيء من ذلك؛ فالتوحيد هو إفراد الله بحقوقه سبحانه وخصائصه، ونبذ الشرك والضلال والبراءة منه.

قال: «لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل».

فالقلب يوحد واللسان يوحد والجوارح توحد، توحد بالأعمال، التوحيد لابد منه بهذه الثلاث.

قال: «فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا»

كما سيأتي توضيح ذلك عند المصنف -رحمه الله تعالى- فهذه فائدة عظيمة

في التوحيد أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب اعتقادًا وإقرارًا واعترافًا بوحدانية الله -ﷻ- وإيمانًا بذلك دون شكٍ أو ريب، واللسان: نطقًا بالتوحيد تلفظًا به، وإعلانًا للشهادة به، وبالعمل: بأن يجعل أعماله كلها لله خالصة، ولا يجعل لأحدٍ فيها شيئًا.

ثم بيَّن الشيخ رحمه الله أمثلة لحصول اختلال في هذه الموازين أو الأصول التي يقوم عليها التوحيد، ضرب شيئًا من الأمثلة على ذلك.

قال: «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر» معرفة التوحيد توحيد؛ لكن ترك العمل به كفرٌ ناقض لهذه المعرفة مبطلٌ لها، «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما».

وهذا يسميه أهل العلم كفر الإيباء والاستكبار، يكفر عن معرفة، عرف ولم يقبل؛ ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]

وفي إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]

فهذا كفرٌ عن معرفة، وهو يسمى كفر جحود وإيباء أو استكبار؛ قال: «فإن عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند؛ كفرعون وإبليس وأمثالهما».

وهذا يغلط فيه كثير من الناسِ -ثم يُبيِّن وجه الغلط في هذا الباب- قال: «يقولون: هذا حقٌ ونحن نفهم هذا، ونشهدُ أنه الحق ولكن- ثم يذكر لهم أعذارًا يوردونها يمتنعون بسببها من الإقبال على التوحيد والعمل به، ونحن نعرف أن التوحيد حق بعبارة ذكرها عنهم رحمه الله في بعض مصنفاته ورسائله قال: يقولون هذا: «التوحيد

زين»(١)؛ لكن عندما يأتون إلى جانب العمل يمتنعون من العمل لأعذار يُوردونها لأجلها لا يعملون بالتوحيد الذي قالوا عنه أنه زين وأنَّ ضده -وهو الشرك بالله -ﷻ- شين، قال -في حكاية قولهم-«ولكن لا نقدر أن نفعله» لماذا لا تقدرون على فعله، ما الذي يمنع؟ قال: «لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم» لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم هذا من الأعذار التي يوردها بعضهم مع معرفته بالتوحيد، وأحيانًا يحصل أنَّ بعض الناس يأتي إلي مدارس التوحيد التي تقرره ويمكث فيها بعض السنوات ويفهم التوحيد ويقف على دلائله وحججه وبراهينه، وإذا رجع إلي بلده رجع إليهم كما كان! موافقًا لهم على كل ما هم عليه من ضلال وخرافة! ويسايرهم في أعمالهم ويحاكيهم في شركياتهم، وقد حفظ من الدلائل والحجج ودرسها وفهمها وعرفها وتبين له صحتها؛ لكن مجاراة الأهل والعشيرة والمجتمع الذي عاش فيه؛ صار حاجزًا عنده يمنعه من العمل بالتوحيد.

يقول: «لا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم»؛ بمعنى أنه إذا لم يكن على ما هم عليهم من الشرك والضلال يعادونه وينابذونه ويسفِّهونه إلى غير ذلك فهو لا يريد ذلك؛ فيمضي إليهم موافقًا لهم.

قال: «وغير ذلك من الأعذار»، أعذار هؤلاء في هذا الباب كثيرة؛ مثل أيضًا: اتباع الآباء والأجداد؛ هذه طريقتنا منذ نشأنا عليها في البلاد، هذه عقيدة الآباء والأجداد؛ قال: «ولم يدرِ المسكين أن غالب أئمة الكفرِ يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ» يعني: عرف الحق لكن تركه إما مثلاً مجاراةً لعشيرة وقرابة، وإما

---

(١) «الدرر السنية» (٣/ ٥٣).

حفظًا لجاهٍ ورئاسة وزعامة، وإما أيضًا استبقاء لمال وثراء ونحو ذلك؛ فغالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار؛ يعني يبدون أعذارًا لأجلها لا يُقبِلونَ على هذا الذي عرفوه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التوبة: ٩]، يعني استعاضوا عنها بثمن قليل، يعني من أجل شيءٍ من المال، وتحصيل شيءٍ من المال؛ آثروا ذلك على آيات الله -ﷻ- وحججه -ﷻ- وبيِّناته؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التوبة: ٩]، وغير ذلك من الآيات؛ كقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إذًا قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ هذه الآية تفيد أنهم عرفوا الحق وآيات الله -ﷻ- وحججه؛ لكنهم آثروا عليها دنيا زائلة ومال فانٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فيه أنَّ: علماء اليهود كانوا على معرفة بأن النبي ﷺ حق وأنه مرسلٌ من ربه، وأن ما يدعوا إليه حق، لكنهم تركوا ما دعاهم إليه حفظًا للرئاسة وإبقاءً للزعامة والمكانة والجاه، هذا مثال للإخلال بأمور التوحيد التي هي القول، والاعتقاد والعمل بالقلب واللسان، والعمل.

مثال آخر: قال:»إن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبِه» -يعني وُجِدَ من العمل الظاهر لكن لا يفهم التوحيد، ولا يعرفه، أو لا يعتقد التوحيد بقلبه-؛ فهو منافق، وهو شرٌ من الكافر الخالص؛ لأن المنافق يظهر إيمانًا ويبطن خلاف ذلك؛ قال: وهو شرٌ من الكافر الخالص؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ

﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]»، فجعل -ﷻ- رتبتهم في النار أسفل رتبة، وأحط رتبه، هذه فيه دلالة لما ذكره المصنف أنهم شر من الكافر الخالص.

قال: «وهذه المسألة مسألة كبيرة»

قوله: هذه المسألة؛ أي: مسألة أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل؛ يقول: «هذه مسألة كبيرة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس»، يعني إذا اختبرت التوحيد وحقيقته في ألسنة الناس؛ تبين لك هذه المسألة وعظم شأنها، وأيضًا تبين لك الإخلال الكبير الذي يقع فيه كثير من الناس في التوحيد بأعذارٍ يبدونها يعتذرون بها عن قبول التوحيد والإقبال عليه.

قال: «إذا تأملتها في ألسنة الناس ترى من يعرف الحق ويترك العمل به»؛ لماذا يعرف الحق ويترك العمل به؟!

«لخوف نقص دنيا»؛ يعني مثل أن يكون له مكانة ومنزلة فيخاف أن تنقص هذه المكانة وهذه المنزلة عند الناس إذا قبل التوحيد وأعلن ذلك.

«أو جاهٍ»؛ الجاه: هو المكانة والمنزلة، ونقص الدنيا؛ أي: المال والثراء.

«أو مداراة» ومقصود الشيخ رحمه الله بالمدارة؛ أي: المداهنة، مداهنة أهل الباطل.

قال: «أو مداراة، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فإذا سألته عن ما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه» فباطنه لا يُطلع عليه لكن إذا سألته عما يعتقد تجد أنه لا يعرف التوحيد، لو قيل له: ما التوحيد؟ ما الذي ينبغي أن يعتقد الإنسان في التوحيد؟ بعضهم ربما يقول لك: التوحيد أن تعتقد أنه لا خالق غير الله، أو لا غني عما سواه

إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، هذه حقيقة التوحيد عنده! وهذا حده! فتجد بعضهم إذا تأملت في حاله وجدته لا يعرف التوحيد.

قال: «ترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا» من أين عُرِفَ أنه باطنًا لا يعمل بالتوحيد؟ عندما يُسأل ما الذي يجب أن يعتقده الإنسان في التوحيد، ويستقر في باطن المسلم؟ يقول مثل هذه الإجابات التي تدل وتنم عن عدم فهم منه بالتوحيد[1].



(١) قال الشيخ العلامة صالح الفوزان حفظه الله: «فالناس مع التوحيد ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يعرفه ويؤمن به باطنًا ويجحده ظاهرًا وينكره.

القسم الثاني: من يتكلم به ويعمل به ظاهرًا وينكره ويكفر به باطنًا. وهم المنافقون.

القسم الثالث: من يعتقده باطنًا ويعمل به ظاهرًا وباطنًا. والقسمان الأولان كافران خاسران والقسم الثالث مؤمن مفلح» «شرح كشف الشبهات» (ص١١٩).

[المتن]

قال المؤلف رحمه الله: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: ما تقدم من قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ **[التوبة: ٦٦].**

فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله صلى الله عليه كفروا بسبب كلمةٍ قالوها على وجه المزحِ واللعب، تبين أن الذي يتكلم بالكفرِ أو يعمل به خوفًا من نقصِ مالٍ، أو جاهٍ، أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ **[النحل: ١٠٦].**

فلم يعذرِ الله من هؤلاء إلا من أكره مع كونِ قلبه مطمئنًا بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إِيمانه، سواءً فعله خوفًا، أو مداراةً، أو مشحةً بوطنه، أو أهله أو عشيرته، أو ماله، أو فعله على وجه المزح، أو لغير ذلك من الأغراض إِلا المُكره، والآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ **فلم يستثن الله إلا المُكرَه، ومعلوم أن الإِنسان لا يُكرَه إلا على العملِ أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يُكره أحد عليها.**

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾**، فصرح أنَّ هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو**

البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدينِ، والله -ﷻ- أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، آمين».

[الشرح]

ثم قال -رحمه الله تعالى-: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله -ﷻ-» يعني: بعد أن ذكر ﵀ أنَّ هذه المسألة وهي مسألة أنَّ التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، وأنها مسألة كبيرة، وأنك إذا تأملت في حال الناس للنظر في تحقيقهم لهذه المسألة؛ أي: تحقيقهم للتوحيد بالقلب واللسان والعمل؛ تجد أنَّ منهم من وُجِدَ منه بعض دون بعض فلا تكون مجتمعة، والتوحيد لا يكون من الشخص إلا إذا اجتمعت هذه الأمور؛ يعني: كونهم نطقوا بالتوحيد واعتقدوه، نطقوا به بألسنتهم واعتقدوه في باطنهم وعملوا به في جوارحهم، إذا وجدت هذه الثلاثة صح توحيد الإنسان، وإذا اختل شيء منها لم يستقم توحيده.

يقول: «ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله»؛ أي: يتضح لك بفهمها الأمر وتستبين لك هذه المسألة العظيمة.

قال: «أولاهما -أي: أولى الآيتين- ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]».

تأمل في الكفر الذي حصل هنا ما نوعه؟ وبما يتعلق من الأمور الثلاثة التي أشار إليها الشيخ ﵀؛ قال: التوحيد في القلب واللسان والعمل، قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها»، الآن

هؤلاء كانوا مع النبي ﷺ ؛ وكما قال ؓ: من الصحابة في غزو، والله -جل جلاله- ذكر أنَّ كفرهم بعد إيمان؛ قال: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]. كفرهم بعد إيمان؛ فهم كانوا على الإيمان وعلى التوحيد ولكن بهذه الكلمة كفروا، كفروا بكلمة قالوها، هذه توضح لك أنَّ التوحيد كما أنه بالاعتقاد، فهو أيضًا بالقول والعمل.

قال: «فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسولِ صلى الله عليه كفروا بسبب كلمةٍ قالوها على وجه المزحِ واللعب، تبين-أي: لك من هذا- أنَّ الذي يتكلم بالكفرِ-أي: يقول بلسانه كلمة الكفر- أو يعمل به -كأن يستغيث بغير الله أو نحو ذلك من الشرك- خوفًا من نقصِ مال، أو جاه -أي: خوفًا من نقص جاه- أو مداراة لأحد أعظم ممن تكلم بكلمة يمزح بها، أعظم -أي: كفرًا- ممن تكلم بكلمة يمزح بها»

إذا كان الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أجبن عند اللقاء، وأكذب ألسُنًا وأرغب بطونًا، إلي آخر ما قالوه؛ ثم اعتذروا عن هذه المقالة أنهم إنما أرادوا قطع عناء الطريق، وأنهم إنما أرادوا المزح واللعب، ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ يعني: لسنا جادين عندما قلنا هذه الكلمة، وهم يعتذرون، لماذا؟ لأنهم أدركوا أن هذه الكلمة أخرجتهم من دائرة الإسلام، ونزل فيهم هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ فجاءوا معتذرين إلي النبي ﷺ فكان لا يلتفت إليهم ولا يزيد على قراءة هذه الآية: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

فهذه الآية تبين كما قال الشيخ أنَّ الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفًا من نقص

مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم؛ أي: كفرًا ممن تكلم بكلمة كهذه على وجه المزاح واللعب؛ فهذه الآية تبيِّن لك هذا المقام العظيم.

والآية الثانية قال: قول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]

تنبه لهذين الأمرين الواردين بعد الاستثناء، قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ ﴾ هذا أمر، الثاني: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾؛ هؤلاء استثناهم الله.

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾؛ يعني: من قال كفرًا أو فعل كفرًا فإنه لا يُعذر إلا إذا كانت هذه حاله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

إذًا من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب رئاسة؛ أو من قال كفرًا أو فعل كفرًا خوفًا من ذهاب جاه، أو ذهاب مال أو مذمة الناس فأخذ يداهن، ويجاري أو أن يكون في مجلس معهم ويقررون هذه الشركيات ويلتفتون إليه فيقول: صحيح، وفي قرارة نفسه يدرك أنه باطلٌ وشركٌ بالله؛ فيقول: صحيح مدارةً أو مداهنة لهم، مجاراة لهم؛ فلننتبه للأمرين المذكورين بعد الإستثناء؛ قال: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾.

قال الشيخ في تقرير الاستدلال في هذه الآية الكريمة: «فلم يعذرِ الله من هؤلاء إلا من أكره مع كونِ قلبه مطمئنًا بالإيمان».

فإذًا العذر في هذه الآية، يعني من حصل منه الكفر لا يعذر إلا بشرطين: **الشرط الأول**: أن يكون مُكرهًا، **والشرط الثاني**: أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان؛ أي: ساكنًا

لم يتغير باقٍ على الإيمان ثابتًا عليه؛ فالله -ﷻ- لم يستثن من هؤلاء؛ أي: الذين قالوا الكفر أو فعلوا الكفر لم يستثن منهم إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

والإكراه كون الشخص وصل إلي حد يخشى على نفسه القتل أو على ولده؛ فمثل هذه الحال يجوز للإنسان أن ينطق الكفر أو يفعل الكفر، إذا خاف على نفسه ووصل إلي درجة يخشى على نفسه أن يُقتل أو على بعض ولده أن يُقتل، فقال كلمة الكفر أو فعل الكفر؛ لكن قلبه في باطنه ثابت على الإيمان، ولهذا الإكراه على القول والعمل، أما الاعتقاد الذي يكون في الباطن هذا لا يكون فيه إكراه، الإكراه إنما يكون على القول والعمل، أما الباطن باطن الإنسان وما يكون في قلبه هذا لا يكون فيه إكراه؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾؛ يعني: من أُكره على الكفر وخشي على نفسه أو على ولده القتل إن لم يقل الكفر أو لم يفعله؛ فيجوز له أن يقول الكفر وأن يفعل الكفر ولا يخرج بذلك من الإيمان، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قال الشيخ ﵀: «وأما غير هذا -أي: غير المكره المطمئن قلبه بالإيمان- فقد كفر بعد إيمانه، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواءً فعله خوفًا-يعني: خوفًا من ملامة الناس، أو مذمة الناس، أو احتقار الناس-، أو مداراة-يعني: مجاملة للناس ومداهنةً لهم- أو مشحةً بوطن أو أهل أو عشيرة أو مال؛ -يعني آثر هذه الأشياء على توحيده لله -ﷻ- وإخلاصه الدين له- أو مشحةً بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله، أو فعله على وجه المزاح- يعني: يقول الكفر أو يفعل الكفر ويقول: إنما فعلته مزحًا ولعبًا- أو لغير ذلك من الأغراض».

قال الشيخ: «إلا المُكره»؛ كما دلت على ذلك الآية، وكما هو واضح في الاستثاء الذي في الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾؛ لك أن تقول: من كفر بالله بعد إيمانه قولاً أو فعلاً مازحًا أو خائفًا أو مُداهنًا أو حفظًا لجاهٍ أو مكانةٍ أو مشحة بوطنٍ أو أهلٍ أو غير ذلك من الأعذار؛ كل هؤلاء يكفرون إلا من أُكره، كما قال الشيخ: «إلا المكره»، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

قال: «والآية تدل على هذا من جهتين»

قوله: «على هذا»: إشارة إلى أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل.

«فالآية»: أي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ تدل على هذا-أي: على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل- من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فلم يستثن الله إلا المُكره، ومعلوم أن الإنسان لا يُكره إلا على العمل أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها.

سؤال ونجيب عليه من الآية: هل يكفي لئن يكون الشخص موحدًا أن يعتقد التوحيد في باطنه وفي سره وفي قلبه دون القول والعمل؟

ليس كافٍ؛ الدليل الآية؛ قال: «لم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العملِ أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره أحد عليها».

وتقرير الاستدلال أنه لو كان يكفي في التوحيد مجرد الشيء الذي يكون في القلب، المعرفة القلبية، أو الإقرار الذي يكون في القلب أو الاعتراف الذي يكون في القلب، لو كان هذا يكفي؛ فما معنى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾؟! لأن الذي في القلب لا أحد يكره عليه؛ فالإكراه إنما يكون على القول والعمل.

فإذًا هذا وجه في دلالة الآية على أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل؛ فلا يكفي في التوحيد مجرد ما يكون في القلب فقط.

الجهة الثانية -في دلالة الآية على ذلك-: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فصرح -جل وعز- أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر، -ليس هذا سببه، ليس سبب الكفر والعذاب المترتب على الكفر لم يكن سببه الاعتقاد، من أين عرفنا أنه لم يكن سببه الاعتقاد؟ لأن العقوبة عُلِّقت على شيء لا علاقة للقلب فيه، وهو القول والعمل؛ لأن هذا الذي يكون عليه الإكراه، أما الذي في القلب لا إكراه عليه؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر،-وهذه أشياء في القلب، والآية ليس الكلام فيها عما في القلب، وإنما الكلام فيها لوجود الكفر وحصول المكفر الذي عليه العذاب، كلها تتعلق بالقول واللسان، أما الاعتقاد، بغض الدين، محبة الكفر؛ هذه أشياء في القلب، والتكفير الذي في الآية ليس منصبًا على الشيء الذي في القلب؛ وإنما هو منصبٌ على القول والعمل.

قال: «وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدينِ»

هذا مأخوذ من قوله: «بأنهم» والباء سببية؛ يعني: بسبب إيثارهم للحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: على الجنة وثواب الله في الدار الآخرة؛ فصرح أن هذا الكفر والعذاب الذي حُكِمَ على أهله بالكفر لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر؛ وإنما سببه أنه له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا؛ أي: فآثر

هذا الحظ الدنيوي على الحظ الأخروي الذي أعده الله لعباده الموحدين وأولياءه المؤمنين.

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «فالإنسان الذي يُلجئه من يلجئه إلي أن يصدر من الكفر له حالات:

أحدها: أن يمتنع ويصبر عليها؛ فهذه أفضل الحالات، أن يمتنع ويصبر عليها، وهذه الحالة مثل حالة الذي ذُكِرَ في الحديث: «دخل رجل الجنة في ذباب ودخل رجل النار في ذباب»[1] ففيه أن أحدهما قيل له: قرِّب؛ قال: لم أكن لأقرِّبَ لأحد غير الله؛ فقُتِلَ فدخل الجنة؛ فصبر على ذلك، أن يمتنع ويصبر عليها، هذه أفضل الحالات.

الثانية: أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان فهذا جائز له تخفيفًا ورحمة، قد قال بعض أهل العلم -ومنهم الشيخ الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» وأطال

---

(١) «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال:مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب.

قال: ليس عندي شيء أقربه.

قالوا له: قرب ولو ذبابا.

فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار.

وقالوا للآخر: قرب.

فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد في «الزهد» (ص١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، وانظر: «السلسة الضعيفة» (٥٨٩٢) للألباني.

في تقرير ذلك-: أنَّ هذا التخفيف لأمة محمد ﷺ واستدل لذلك ببعض الأدلة تجدونها في كتابه؛ منها: الحديث: عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١).

وذكر بعض الدلائل، فهذا التخفيف لأمة محمد ﷺ في قولٍ لبعض أهل العلم، أن ينطق بلسانه مع اعتقاد جنانه الإيمان؛ جنانه أي قلبه، مع اعتقاد جنانه الإيمان، فهذا جائز له.

إذًا الحالة الأولى أفضل؛ يعني: أن يصبر فلا ينطق الكفر ولا يفعل الكفر إلى أن تفارق روحه جسده صبراً على التوحيد هذا أفضل.

فلو قال الكفر بسبب الإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان، هذا جائز ولا يكون بذلك قد دخل في الكفر.

الحالة الثالثة: أن يُكرَّه فيجيب ولا يطمئن قلبه بالإيمان؛ فهذا غير معذور وكافر، أن يُكرَّه فيجيب؛ يعني: يجيب بنطق الكفر؛ لكن في الوقت نفسه لا يكون قلبه مطمئن بالإيمان؛ يعني: يكون عنده شيء من أو يدخله شيء من الارتياب في دينه وفي توحيده وفي عقيدته وفي إيمانه بالله -عز وجل-؛ فهذا غير معذور وكافر.

الحالة الرابعة: أن يُطلب منه ولا يُلجأ فيجيب ما وصل إلي حد الإكراه؛ فيجيب دون أن يصل لحد الإكراه ولكن يوافق بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان فهذا كافر؛ لأنه لم يُكرَه على الكفر؛ يُقال له: اسجد للصنم، يُقال له: سب الدين مثلاً، يُقال له

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٦٢).



من الأمور الكفرية فيبادر دون أن يصل إلي حد الإكراه، وقلبه مطمئن بالإيمان هذا يكفر؛ لأن الله استثنى من عدم الكفر من كان مُكرهًا، وقلبه مطمئنٌ بالإيمان.

الحالة الخامسة: أن يذكر له ولا يصل إلي حد الإكره فيوافق بقلبه ولسانه؛ فهذا أيضًا كافر.

ثم ختم الإمام -رحمه الله تعالى- الكتاب بقوله: «والله ﷻ أعلم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

يمكن مزيدًا للاستفادة في هذا الباب أن يُطالع ويُراجع بعض الكتب المفيدة في هذا الموضوع، والمنطلقة من هذا التأسيس والتقعيد والتقرير الذي قرره الشيخ -رحمه الله تعالى-، في كتاب «تيسير العزيز الحميد» لحفيد الشيخ: عبد الله بن سليمان بن محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله- في شرحه لباب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو أن يدعو غيره، في آخر شرحه لهذا الباب أشار إلى كتاب كشف الشبهات، ونوه بالجهد الذي بذله الشيخ ﵀ في هذا الكتاب المبارك، ثم أضاف ﵀ ذِكر بعض الشبهات وأجاب عنها بنفس طريقة الشيخ ﵀ في كشف الشبهات.

فذكر هناك إضافة بعض الشبهات وهي ثلاث شبهات يوردها هؤلاء، وأجاب عنها إجابة مفصلة وافية نافعة، يمكن أن تُراجع في كتاب تيسير العزيز الحميد.

أيضًا يمكن أن يُراجع في الباب كتب أئمة الدعوة التي ردوا فيها على هؤلاء من خصوم الدعوة المنافحين عن الشرك والتعلق بغير الله ﷻ، ومن هذه الكتب على سبيل الإشارة فقط كتاب «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس» للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، وكتاب: «القول

الفصل النفيس في الرد على المفتري بن جرجيس» للشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب الفتح المجيد، وصاحب «قرة عيون الموحدين»، وأيضًا كتاب: «كشف الشبهتين» للشيخ: ابن سحمان، وكتاب: «النبذة الشريفة في الرد على القبوريين» للشيخ: حمد بن ناصر آل معمر، وكتاب: «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للسهسواني.

وغيرها من الكتب النافعة المفيدة في هذا الباب، وكثير من هذه الكتب التي أشرت إليها وغيرها من كتب أئمة الدعوة -رحمهم الله تعالى- مشتملة على مادة نافعة جدًا في كشف الشبهات، ومطالعة هذه الكتب والمرور عليها يفيد طالب العلم، خاصة عندما يكون في مجتمع يُبتلى فيه بمثل هذه الشبهات التي تُثار، فمن خلال هذه الكتب يتمكن بإذن الله ﷻ من معرفة الطرائق القويمة والسبل السديدة لرد مثل هذه الشبهات.

وأذكر في وقت قديم فعلت أنا وبعض طلبة العلم واستفدنا من ذلك، استقرأنا هذه الكتب التي ذكرت لكم كلها كتابًا كتابًا، وصنعنا لها فهرسة، يعني نذكر الشبهة ونذكر أجوبتها، نذكر الشبهة كرأس قلم ادعائهم كذا قولهم كذا استدلالهم بحديث كذا ثم نحيل على الردود في هذه الكتب بعد قرأتها وتأملها في هذه الكتب؛ فالشاهد أن مراجعة هذه الكتب والاستفادة منها ومطالعتها نافعة لطالب العلم.

نحمد الله الكريم حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أن يسر لنا هذا الخير، وأكرمنا بدراسة هذا الكتاب والوقوف على مضامينه الطيبة وتقريراته المفيدة.

نسأل الله ﷻ أن يغفر للإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله

تعالى- ولتلاميذه أنصار هذه الدعوة المباركة التوحيد، وإخلاص العبادة لله، ونصرة سنة النبي الكريم، ونبذ الشرك والبدع والخرافة والضلال.

نحمد الله ﷻ على نعمه الكثيرة ومننه العديدة، نحمده على نعمة الإسلام ونعمة الإيمان ونعمة السنة، نحمده -سبحانه وتعالى- على كل نعمة أنعمها علينا في قديم أو حديث، أو خاصة أو عامة، أو سر أو علانية.

ونسأله -جل وعلا- أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يثبتنا على دينه، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما.

ونسأله -جل وعلا- أن يعيذنا من الضلال، وأن يسلك بنا سبيل الهداية والرشاد، وأن يسددنا في أقوالنا وأعمالنا، وألا يكلنا إلي أنفسنا طرفة عين.

والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋


فهرس المحتويات